

الوجه الآخر

مختارات من القصص العبرية





انثولوجيا

الوجه الاخر

قصص عبرية مختارة

رقم التصنيف : ٨١٣
المؤلف ومن هو في حكمه : إعداد دار الجليل
عنوان المصنف : انثولوجيا الوجه الآخر : قصص عبرية مترجمة
الموضوع الرئيسي : ١- الآداب
٢- القصة العبرية المترجمة
بيانات الناشر : عمان : دار الجليل
* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبات الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل : ١٩٩٧/١٢/١٤٣٨

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

١٩٩٧/١٢/١٨٤٣

الطبعة الاولى
١٩٩٨

دار الجليل للنشر
والدراسات والأبحاث الفلسطينية – عمان
هاتف : ٥١٥٥٦٢٧-٥١٥٧٦٢٧
فاكس : ٥١٥٣٦٦٨
ص.ب ٨٩٧٢-رمز بريدي ١١١٢١

انثولوجيا

الوجه الآخر

قصص عبرية مختارة

إعداد: دار الجليل



والدراسات والأبحاث الفلسطينية

عمان ـ ص.ب ٨٩٧٢

تلفون ٥١٥٧٦٢٧ ـ فاكسميلي ٥١٥٣٦٦٨

אנתולוגיה
הפנים האחרות
סיפורים עבריים נבחרים

בסיוע : המכון לתרגום ספרות עברית

Anthology
The Other Face
Chosen Hebrew Stories

With Coordination of Hebrew Literature
Translation Institute

Published By:
DAR EL- JALEEL

For Publishing and Palestinian
Research and Studies - Amman
P.O.Box 8972 Tel-667627
Telex 23031 Fax-683668

المحتويات

الصفحة

تقديم :

بداية، نعترف بملء الفم، ان من الصعوبة بمكان، ان نقدم لاعمال ادبية عبرية، مترجمة الى العربية، حتى لو كانت انتقائية، ذلك اننا ما زلنا، بعد، في مرحلة الحبو باتجاه الادب العبري، قديمه وحديثه.

واذا كان الادب، هو لغة تخاطب الشعوب، محليا واقليميا وعالميا، فاننا امام تجربة، يبدو انها الاولى من نوعها، ونرجو ان تنجح، ليس انطلاقا من التطبيع الثقافي، الذي يعتبر مرحلة متقدمة، بل ربما تكون نهاية الكلام في عملية السلام، التي عبدت الطريق امام فكرة وضع المواطن العربي، امام ما يقوله الاديب اليهودي، رواية، قصة، مقالة... الى غير ذلك. من التقسيمات الادبية المعروفة.

ثمة قواسم مشتركة، تحكم الادباء، ايا كانت انتماءاتهم، واديانهم وقومياتهم، وهم اذ ذاك يحلقون في اجواء فسيحة من سحر الطبيعة وضروب الجمال، ومن ثم يترجمون تصوراتهم الى كلام يحتمل اكثر من تفسير وتأويل ، مشفوعا برسالة يفترض ان تكون انسانية تخرج عن دائرة القطرية، الى مساحة العالم الواسعة.

والادباء اليهود، ليسوا شذوذا، في هذا الميدان، وان كان بعضهم قد خرج عن المنظومة الافتراضية، ليختار نمطا، يتبنى مواقف تفضي الى عنصرية في الطرح، وتعلق بافكار، اكل الدهر عليها وشرب، واستخفاف بعقول الاخرين، وتمييز بين بني الانسان.

هذه القصص العبرية المختارة، ترجمت الى العربية بعناية فائقة، لم نستبعد منها كلمة او جملة، ذلك اننا معنيون بوضع " الاصل" بين يدي القراء، صحيح ان لكل قصة رسالة، وهي لن تكون غائبة عن وعي القارئ العربي، الذي سيجد فيها مسارات مغايرة للمألوف في وطننا، ومع ذلك، فهي مادة جديرة بالقراءة والتمعن .

رب متسائل عن الحكمة في نشر هذه المجموعة القصصية لمؤلفين اسرائيليين، لنقول، ان هذه الدار، التي رسمت لنفسها خطا يتواءم مع الاوضاع المعاصرة، والغابرة، على حد سواء، في الصراع العربي - الاسرائيلي، لم تتوان يوما، عن وضع المواطن العربي في صلب الاحداث، ونستطيع ان نضيف هنا، الى الاثر المشهور " من تعلم لغة قوم امن شرهم " ايضا " من قرأ ادب قوم عرف كيف

يتعامل معهم " .

نجول في الاسواق ، لنرى كماً كبيرا من الكتب المستوردة، سمينها وغثها، رفيعها ورخيصها، بعضها دس فيه السم الزعاف، ومع ذلك تتداولها الايدي، وتتصدر رفوف المكتبات الخاصة والعامة، ولعل الاولى ، ان نقرأ ما يكتبه " اعدقاؤنا" لنتعرف عن قرب على الرسالة التي يريدون توجيهها، الى ابنائهم اولا، ومن ثم الى العالم الخارجي . لا نتحدث هنا عن الادب السياسي، فذلك له اساطينه المعروفون، ومع ذلك، فان الادب الرومانسي او ادب الاطفال، لا يخلو من اشارات يراد بها تثبيت المعلومة في الذهن اليهودي، وربما اتخذت اشكالا مزخرفة كثيرة، لن تكون عصية على الفهم.

لقد تبدى الصراع العربي - الاسرائيلي، في حلته الجديدة، ليفرض على الفكر العربي عناصر جديدة، تعتمد الحوار، ونحسب ان الضرورة تقتضي منا التعرف على الفكر الاسرائيلي، قبل ان نحاوره، ولعل الادب، هو المعين الذي لا ينضب في هذا المجال .

دار الجليل ، كانت على الدوام سباقة، في ترجمة المواضيع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، ونشرها في كتب، او من خلال مقالات في الصحف العربية من اللغة العبرية، الى العربية، وهي اذ تمثل جزءا من مجمل "الاداب"، فانها تضيف الى ذلك، هذه المجموعة القصصية، كباكورة للولوج الى الجانب الادبي الاسرائيلي، وهي اذ تتوافق، او تتقاطع مع مفاهيمنا، لكنها تظل حلقة في سلسلة اطلالة جديدة على الواقع، في الادب العبري، الذي يعتبر من اللبنات الاساسية في بناء الشخصية اليهودية - الاسرائيلية.

اننا اذ نضع ونوفر للقارىء العربي المهتم، اول انثولوجيا لثلاثة عشر اديبا اسرائيليا معروفين، من المدارس السياسية والحزبية الاسرائيلية المختلفة وبعضهم من المستقلين مع نبذة عن كل منهم، لنؤكد على ضرورة فتح نافذة لمعرفة الطرف الاخر، في عصرنا هذا اذ ان الجهل وعدم المعرفة، هما احدى نقاط الضعف في فهمنا وتفهمنا للصراع العربي - الاسرائيلي على مدار القرن الحالي .

" دار الجليل "

غرشون شاكيد

الادب العبري المعاصر

- أ -

يشكل الادب العبري في اسرائيل خلال العقدين الماضيين امتداداً للادب الاسرائيلي في الاربعينات والستينات من هذا القرن، ويتألف من اجيال بيولوجية متباينة واتجاهات مذهبية متنوعة. اما الاجيال البيولوجية فهي في اساسها ثلاثة، يتكون اولها من مواليد اواخر العقد الاول ومواليد العقد الثاني من القرن الحالي، والثاني من مواليد الثلاثينات والاربعينات والثالث من مواليد الخمسينات والستينات. وينحدر افراد المجموعة الاولى من آباء هاجروا الى البلاد ضمن موجتي الهجرة اليهودية الاولى والثانية، حيث يعتبرون من ابناء "اول اجيال الخلاص". اما ابناء الجيل الثاني فقد ولدوا ضمن المجتمع اليهودي الذي اخد يتكون في البلاد، في حين ولد ابناء الجيل الثالث في دولة اسرائيل. وكانت التجارب الاجتماعية التي صاغت الجيل الاول هي ذكرى هجرة الاباء والحرب العالمية الثانية والكارثة اليهودية وحرب ١٩٤٨، كما ان هذا الجيل اقرب ما يكون الى الايديولوجية الصهيونية. اما الجيل الثاني فاثرت فيه حرب سيناء عام ١٩٥٦، ومحاكمة المجرم النازي ادولف آيخمان وحرب الايام الستة سنة ١٩٦٧، حيث تنطوي مؤلفات هذا الجيل على ثورة ضد ايديولوجيات المؤسسة الحاكمة. اما التجارب التكوينية للجيل الاخير فكانت حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ والسلام مع مصر وحرب لبنان والانتفاضة الفلسطينية. ويميز هذا الجيل الاخير تحرر تام من الايديولوجيات، حيث يركزون اكثر من غيرهم بكثير على بناء شخصية الانسان الفرد الذي بقي وحيداً وبلا ايديولوجيات يمكن التعامل معها.

وتسود ايضاً بين الاجيال الثلاثة فوارق ثقافية هامة، بحيث تأثر ابناء الجيل الاول بشكل رئيسي بالادب الاوروبي المترجم بالاضافة الى الادب العبري الاصيل، وتأثر ابناء الجيل الثاني بالادب الاوروبي المعاصر والادب الامريكي على السواء، بينما تأثر

الجيل الثالث بالجيل الثاني من جهة وبالتأثيرات الاوروبية الامريكية والامريكية الجنوبية المختلفة (ومنها ادب ماركيز بصورة خاصة). كما ان هذه الاجيال الثلاثة تختلف في نظرتها الى اللغة، حيث كان ابناء الجيل الاول يكتبون بأسلوب راق رغم كونهم هم اول من كون اللغة العبرية الدارجة (slang) فيما مر ابناء الجيل الثاني بمراحل الدمج بين اللغة المحكية واللغة المكتوبة. اما الجيل الثالث فيعمد بعضه الى تقريب لغة الادب من اللغة الدارجة.

ويتسم الجيل الاول بميسم الواقعية، فيما تميز الحداثة الجيل الثاني (بدءاً بالانطباعية وانتهاءا بالتعبيرية الجديدة والسريالية)، اما الجيل الاخير فيلاحظ فيه ميله الى الرواية الجديدة (Nouveau Roman) والى مرحلة ما بعد الحداثة (Postmodernism). وقد كان معظم مؤلفي الجيل الاول من النثريين (وهم سامخ يزهار، اهارون ميغد، موشيه شامير، ناتان شاحم، حانوخ بارتوف، يغآل موسنزون، يهوديت هندل، شلومو نيتسان، نوعومي فرنكل، يونات والكسندر سيند وبنيامين تموز). اما الشعراء (وهم حاييم غوري، امير غلبواع، عوزير رابين، بنيامين غالاي، شلومو تانني، توفيا ريبنر، ناتان يوناتان وتشارني كارمي) فكانوا اكثر هامشية حيث عاشوا في ظل جيل سابق من الشعراء (امثال ناتان الترمان، افراهام شلونسكي، اوري تسفي غرينبرغ، افوت يشورون ولينا غولدبرغ وغيرهم ممن تأثروا بالرمزية والمستقبلية الروسية من جهة والتعبيرية الالمانية من جهة ثانية)، وكانت ثورة الجيل الثاني بالدرجة الاولى ثورة لشعراء تحولوا من تأثير الرمزية الروسية والفرنسية الى تقليد تي. اس اليوت وف. اودن ساكسوني الانغلو وغيره من التقاليد الامريكية والاوروبية (ناتان زاخ، يهودا عميحاي، داليا رابيكوفتش، دان باغيس، دافيد افيدان، يسرائيل بنكاس، اريبه سيفان وموشيه بن شاؤول). كانت هذه الثورة قد انفجرت في اوائل الخمسينات، الا انه منذ الستينات بدأ النثر بالذات بالتطور والنمو (بنحاس ساديه، دافيد شاحر، افراهام ب. يهوشواع، عاموس عوز، يهوشواع كناز، عماليا كهانا كرمون، يتسحاق اورباز، يورام كانيوك، يعكوف شبتاي، دان تسالكا، يتسحاك بن نير، روت الموغ، يشعياهو كورين

وشمعون بلاص). وتشكلت في تلك السنين مجموعة اخرى من الشعراء حاولت تجديد وتغيير اسلوب شعراء الخمسينات (ومنهم مئير فيزلتير ويونا فولاخ ويائير هورفيتس في المقام الاول).

كانت المسرحية العبرية على مر السنين نوعا ادبياً هامشياً لم يبدأ في النمو الا اواخر الخمسينات. وكان من ابرز المسرحيين نيسيم الوني وحانوخ ليفين ويوسيف بار يوسيف ويهوشواع سوبول وهيلل ميتلبونكت. اما في الثمانينات والتسعينات فقد ظهرت مجموعة جديدة كان عدد من اعضائها من المتأخرين في الظهور (Latecomers)، اي انهم من حيث اعمارهم كانوا ينتمون الى مجموعة سابقة، وكان من بينهم شبان غيروا صورة الادب القصصي. وكانت الثمانينات والتسعينات هي ايضاً وبالدرجة الاولى سنين استحوذ عليها النثر.

وكان المبدعون الجدد هم يوسل بيرشتاين، دافيد غروسمان، يوئيل هوفمان، دافيد شيتس، مئير شاليف، دان بناياه سيري، ايتامار ليفي، يوفال شمعوني ومجموعة من الكاتبات الشابات المثيرات للاهتمام هن سافيون ليبريخت، حانا بات شاحار، اورلي كاستل بلوم، يهوديت كاتسير، نافا سيمل، نوغا تريفيس وغبرينيلا افيغور روتم.

في الادب القصصي والى درجة معينة في الشعر ايضاً هنالك ميل واضح للكتابة باسلوب ما بعد الحداثة، حيث يعتبر اهارون شبتاي وروني سومك ومايا بجيرانو ويوسيف شارون وزالي غوريفتش ويتسحاق لاؤور وغيرهم من الشعراء البارزين. وقد حدثت في تلك السنوات نهضة معينة للقصص الطبيعي الواقعي عند كاتب كان يؤلف القصص الطبيعي خلال السبعينات، ولكنه زاد طبيعته اتساعاً وعمقاً من خلال العناصر الفولكلورية والوصف الاصيل للواقع الاجتماعي في الفترة التي سبقت الهجرة الى اسرائيل، (اي واقع ونمط الحياة في بغداد)، وهو سامي ميخائيل (المولود سنة ١٩٢٦) في روايته "فكتوريا"، ثم ظهر كاتب اخر يكتب عن ذكريات مماثلة متعلقة بنمط الحياة في بغداد ثم الهجرة الى اسرائيل، ولاول مرة في الساحة الادبية، وهو الكاتب ايلي عمير في روايتيه "ترنغول كباروت" (ديك الفداء) و"مفرياح هيونيم" (مربي الحمام).

ويجب هنا التأكيد على التحولات الحاصلة في مجال هيمنة الانواع الادبية على الادب العبري، حيث كان الشعر هو المهيمن ابان الثلاثنيات (ما عدا مؤلفات الكاتب شاي عجنون)، في حين انتقلت الهيمنة الى القصص في الاربعينات والخمسينات. وكانت هناك ثورة للشعر في أوائل الخمسينات وتحقق نوع من السيطرة للقصص ابتداءا من الستينات. ونشأت هيمنة القصص بالدرجة الاولى عن الحاجة الاجتماعية الى صياغة اهداف تحدد صورة الانسان في اطر سياقات اجتماعية ديناميكية متغيرة.

- ب -

لا تتسع الرقعة في هذا الاطار لوصف تطور الادب العبري خلال الخمسين سنة الاخيرة، ولعله من الاولى بنا ان نشير الى ما حققته من انجازات في العقد الاخير الذي بلغت خلاله المجموعة الاولى من الكتاب سن الشيخوخة والثانية سن الكهولة، في حين كانت المجموعة الثالثة منهمكة في طباعة بواكير نتاجها. ولكون الجيل الاول جيلاً قصصياً، سنعرض اولاً مكاسب هذا النوع الادبي. كان معظم ابناء الجيل الاول من الكتاب الواقعيين. ومر بعضهم بتحول هام منذ الستينات، حيث تكيفوا مع مذاهب الحداثة المهيمنة على الجيل الثاني. وقد بعث من جديد في عقدي الثمانينات والتسعينات نتاج عميد الجيل الاول وهو سامخ يزهار (ولد عام ١٩١٦) الذي الف العديد من القصص الطويلة بالاضافة الى رواية واحدة، هي "يميه تسيكلاغ" (ايام تسيكلاغ) باسلوب تيار الوعي الخارجي (Extraspective). وتمثل اعماله مزيجاً من الادب المحلي الذي يركز على البيئة المحيطة بنا والادب الاجتماعي الاخلاقي الذي يصدر احكامه على الناس الذين ينشطون ضمن هذه البيئة. وقد نشر يزهار خلال التسعينات روايتين جديدتين هما "مكداموت" (مقدمات) و"تسلهافيم" (توهجات) ومجموعة قصصية تحمل عنوان "تسداديم" (هامشيون). وتحمل الكتب الثلاثة في الاساس صفة السيرة الذاتية، حيث ترسم صورة ابن البلد بصفته فناناً شاباً (Portrait of the native born as a young artitst).

والغاية الرئيسية لهذا الكتاب هي التأمل في المحيط من خلال مراحل تاريخية مختلفة لعملية الاستيطان اليهودية (منذ عام ١٩١٦ بدءاً من كيبوتس خولدا، مروراً بيافا وتل ابيب وانتهاء برحوفوت)، وهي غاية اكثر اهمية من الاهداف السياسية المختلفة الملمح اليها ضمن اعمال يزهار والتي تشك في عدالة الصهيونية ونجاحها.

ثمة كاتب واقعي اخر تجاوز حدود ابناء جيله هو ناتان شاحم (ولد عام ١٩٢٥) الذي وصف في كتابة "رفيعيات روزندورف" (رباعي روزندورف) وبأسلوب متعدد الزوايا (راشومون) رباعياً للوتريات مؤلفاً من اليهود الالمانيي الاصل (وهم ثلاثة رجال وامرأة) في الثلاثينات، عارضاً لمنظومة العلاقات الشخصية والموسيقية والعقائدية التي تربط بين هؤلاء المهاجرين الاربعة. وخلافاً للروايات الاجتماعية السابقة من تأليف شاحم والتي كانت الى حد كبير احادية الوجه الايديولوجي (اذ كانت صهيونية اشتراكية) فإن هذه الرواية متعددة الاوجه سواء من حيث صياغة الشخصيات او من حيث تقييم الايديولوجيات الصهيونية وتلك المناهضة للصهيونية للفنانين الاربعة. ويمثل الاسلوب المتعدد الزوايا تعبيراً لائقاً بالتصوير المتعدد الزوايا للشخصيات وما تنادي به من قيم. يشار الى ان محاولة التغلب على قيود الواقعية من خلال اساليب شخصية الراوي يمكن ملاحظتها ايضاً عند موشيه شامير، وهو من اهم الكتاب الواقعيين في فترة اوائل الخمسينات (ولد عام ١٩٢١)، وعند كل من اهرون ميغد (ولد عام ١٩٢٠) وحانوخ بارتوف (ولد عام ١٩٢٦)، وفي المقابل، تحول يونات والكسندر سيند من الكتابة الواقعية الى اسلوب اشبه بالرواية الجديدة (Nouveau Roman) حيث تأثرت اعمالهما الاخيرة في السبعينات وما بعدها، بدءاً ب"تاندو" (معاً) مروراً ب"هانسيون هانوساف" (المحاولة الاضافية) "وكفار ايرتس نوشيفت) (لقد اصبحت ارضاً مستوطنة) وانتهاء ب "نكراه لو ليون" (سنسميه ليون) بصورة رئيسية بناتالي ساروت، فيحاولان عرض عدد من تجارب جيلهما الاساسية (الاستيطان وثورة غيتو وارسو وذكرى الكارثة) من وجهة نظر شخصية جداً تنطلق بالدرجة الاولى من تأكيد الصلة الكائنة بين مواد شخصية جداً من سيرة حياتهما واخرى اجتماعية وتاريخية، اما يهوديت هندل (ولدت

عام ١٩٢٦) التي بدأت مشوارها قاصة واقعية، فقد تحولت الى مذهب آخر، بحيث تعتبر اعمالها الحديثة اقرب الى التعبيرية منها الى الانطباعية التي كان بمثابة مرحلة انتقالية مرت بها وهي تنتقل من الواقعية الى طريقها الجديدة (في روايتها القصيرة "هاكواح هأحير" -القوة الاخرى- التي تتضمن عناصر السيرة الذاتية".

- ج -

يعتبر ابناء الجيل الثاني هم اهم القصاصين في القصص العبري، فرغم كونهم من ابناء جيل سابق من الناحية البيولوجية، الا انهم محدثون من حيث اساليبهم الادبية، وهم بنحاس ساديه ويهودا عميحاي ودافيد شاحر وعماليا كهانا-كارمون. لقد غير بنحاس ساديه وجه القصص العبري في سيرته الذاتية الروحية "هحاييم كماشال" (الحياة كمثل) التي ابرز فيها مبدأ الفرد بتعرضه لمصير الفرد داخل المجتمع والجماعة مستعيناً بالعهد الجديد وبفكر نيتشه وكيركغور والصوفية اليهودية، واستهل دافيد شاحر (ولد عام ١٩٢٦) روايته الواسعة الرقعة والكثيرة المجلدات "هيخال هكيليم هشفوريم" (معبد الاواني المكسورة) بجزء سماه "كايتس بديرخ هنفيئيم" (صيف على شارع الانبياء) عام ١٩٦٩ حيث يواصل تنفيذ هذا المشروع حتى يومنا هذا. وينهمك شاحر المتأثر بـ(فروست) في البحث عن الزمن المفقود للمجتمع الاسرائيلي ابان عهدي الانتداب والعثمانيين. والمجتمع الذي يصفه مجتمع للمقدسيين من غرباء الاطوار الذين تتجاوز اهمية ما يربط بينهم من صلات انسانية اهمية الفوارق الطائفية والدينية القائمة فيما بينهم، وقد وضع شاحر الهامش الاجتماعي في مركز الصدارة من روايته، محولا ذكريات الراوي البطل الى نوع من التاريخ البديل للمجتمع اليهودي في فلسطين قبل قيام الدولة وقد اخترق شاحر الحدود الاجتماعية المألوفة في الواقعية التقليدية (الكيبوتس، المستوطنة ومدينة تل ابيب) كما حطم الاساليب المسلم بها في الواقعية التقليدية، في الوقت الذي يتحول فيه التعامل مع الزمن المفقود والصلة الدلالية برموز صوفية الى مبدأ اسلوبي رئيسي في اعماله.

اما يهودا عميحاي (ولد عام ١٩٢٤) فتشكل روايته "لو معخشاف لو

ميكان" (ليس من الان ولا من هنا) رواية منفصمة الشخصية تدور حول شخصية منفصمة تقطع صلاتها بالماضي من خلال مواجهة ماضيها الالماني (العودة الى مسقط الرأس بعد الكارثة) والثورة على حاضرها الاجتماعي من خلال حب امرأة غير يهودية. هذه الرواية مكتوبة ايضاً بأسلوب تعبيري مركب غير وجه القصص العبري لذلك الجيل. وتعتبر عماليا كهانا-كرمون (ولدت عام ١٩٢٦) اهم مؤلفة للقصة الشعرية الغنائية الانطباعية، وهي قريبة من حيث الاسلوب والشخصيات من فيرجينيا وولف. وبنشرها مجموعتها القصصية "بخفيفاه احات" (تحت سقف واحد) عام ١٩٦٦ تبوأت مركزاً في صدارة الادب القصصي، ثم اصبحت في مراحل مشوارها اللاحقة اكثر واكثر وعياً بجوهرها الانثوي فألفت سلسلة من القصص المختلفة الاساليب (المبنى الثلاثي والقصة التاريخية والمبنى الحواري) والتي تدور حول الحرب التحررية التي تخوضها النساء من اجل وجودهن وهويتهن. وقد شق اسلوبها المتميز درباً جديداً في القصص العبري، حيث تعتبر ام الادب النسائي في اسرائيل. وتستكمل روت الموغ (ولدت عام ١٩٣٦) وبطريقتها الخاصة بها هذا التقليد الشعري الانطباعي حيث تصف في كل من مؤلفاتها "مانت باغيشم" (موت في المطر) و"شورشيه افير" (جذور هوائية) و"ناشيم" (نساء) و"تيكون اومانوتي" (ترقيع فني) وبحس غاية في الارهاف شخصيات نسائية تكافح وتهزم في الحرب بين الجنسين.

- د -

وبعد ابناء الجيل الثالث، من مواليد الثلاثينات والاربعينات الثوريين الاساسيين، ولا شك ان أ. ب. يهوشوع (ولد عام ١٩٣٦) اهم الكتاب الذين بدأوا طريقهم كسرياليين متأثرين بعجنون وكافكا، وقد تعامل ضمن مؤلفه الاول الذي يحمل عنوان "موت هازاكين" (موت الشيخ) ومن خلال الاليفوريا السريالية مع قيم مجتمعه الاساسية. وفي مرحلة لاحقة جمع يهوشواع بين تقنيات السريالية والسخرية الفكاهية وبين المواد الواقعية

ليصف ضمن مؤلفه "مول هيماروت" (امام الغابات) الوجه الاخر لعملة الواقع الصهيوني وليفضح حالات انسانية مختلفة ساخرة فكاهية للابطال بائسين. ويستحيل اللابطال ابطالاً في رواية "هامئاهيف" (العاشق) التي ألفت على خلفية حرب يوم الغفران (حرب اكتوبر عام ١٩٧٣) والتي تكشف ان شخصية البطل الاسرائيلي المألوف قد افلست وان مركزها ق. احتله شاب عربي وآخر يهودي من ابناء الطوائف الشرقية، غادر البلاد وهرب من الجيش ابان الحرب، ويظهر يهوشواع بدءاً بهذه الرواية اكثر تأثراً بوليام فوكنر منه بكافكا وعجنون والبير كامو وماكس فريش والذين كانوا مصادر تأثره في بداية مشواره. اما رواياته اللاحقة فتنم عن صلة الرجل الحتمية بأسرته ووطنه رغم تطلعه الى الفرار منهما ("غيروشيم مؤوخاريم" -طلاق متأخر) وعن محاولة هزيلة يقوم بها لابطل شرقي الاصل للهروب من ذكرى زوجته الاشكنازية (الاوروبية الاصل) وانشاء علاقات جديدة بعد موتها (رواية "مولخو"). وقد بلغ اللجوء الى الطوائف اليهودية الشرقية ذروته في رواية "مار ماني" (السيد ماني) التي وضعت بتقنية جديدة هي تقنية التحليل النفسي التي يسمع فيها القارىء طرفاً واحداً فقط من طرفي حديث يتخذ احدهما دور المعترف، يجمعها يهوشواع بتقنية اخرى للعودة بالزمن من سنة ١٩٨٢ الى سنة ١٨٤٨. ويقوم المؤلف من خلال هاتين التقنيتين بإعادة بناء سيرة اسرة ماني التي تختلف صلاتها بالمكان (اسرائيل) عن صلات غيرها من المهاجرين، والتي تغلب رغبتها في البقاء ما يختلج في قلبها من توق الى الموت. وتعتبر هذه اشد "روايات الجذور" الاسرائيلية عمقاً.

ان تطور يهوشواع هو التعميق المتزايد للرواية العائلية التي تعد المرآة الاكثر تعقيدا للمجتمع الذي تمثله، اما تقنيته فهي مزيج غريب من السخرية الفكاهية اللاذعة والغنائية الرقيقة المرهفة.

وكان يتسحاك اورباز (ولد عام ١٩٢٣) سرياليا تجريديا في بداية مشواره، ولكنه اخذ يقترب من الواقع، حيث الف سلسلة من القصص تدور حول القرية التي نشأ فيها في المهجر ومجموعة من الروايات تتعرض للحالة الاسرائيلية في الثمانينات.

وبدأ اهارون ابلفلد (ولد عام ١٩٣٢) مشواره بالقصص الانطباعية التي تدور حول يهود نجوا من الكارثة وعجزهم عن الخلاص من اثار الصدمة الهائلة التي اصابتهم (رواية "عاشان"- دخان)، ثم استكمل المشوار بروايات قصيرة تكشف ان اليهود هم الذين يتحملون وزر كارثتهم كونهم لم يصغوا الى ناقوس الخطر، حيث حاولوا دفن رؤوسهم في الرمال امام السحب اللاسامية المتلبدة في الافق الاوروبي منذ الازل ("تور هبلاؤوت"-عصر العجائب، "بادنهايم"، "تميون"-فناء).

اما عاموس عوز (ولد عام ١٩٣٩) فهو في الاساس كاتب تعبيري يحاول في بداية مشواره الادبي الكشف عن الوجه المكبوت لشخصياته، اي رغبات الرجال والنساء الدفينة في روايتي "ارتسوت هاتان" (بلاد ابن آوى) و"ماكوم احير" (مكان اخر)، والتوق الى تحطيم قيود الواقع البرجوازي الصغير في دنيا ايما بوفاري اسرائيلية ("ميخائيل شيلي" عزيزي- (ميخائيل) والعلاقة السادية المازوخية المسيطرة على المجتمع البشري في رواية "عاد مافت" (حتى الممات). وفي رحلة لاحقة حاول عوز تأويل بعض جوانب المجتمع الاسرائيلي وذلك في روايتيه "منوحاه نخوناه" (سكون وسلام) و"كوفساه شحوراه" (صندوق اسود)، ثم كتب حديثاً سلسلة من القصص التي تدور حول شخصيات تحاول الفرار من التاريخ الى واقع خاص بها يريحها من اعباء التاريخ ("لاداعت ايشاه"- ان تعرف امرأة، "هاماتساف هاشليشي"- الحالة الثالثة، "آل تاغيدي لايلاه- لا تقولي انه ليل). ومع ان مؤلفاته اصبحت اكثر تمالكاً للعاطفة، الا انه ما زالت تهيمن عليها طريقة التعبير التعبيرية التي تحتاج الى الافكار المهيمنة المتكررة ((Leitmotiv) للتعبير عن المشاعر المبالغ فيها. ويعتبر يورام كانيوك (ولد عام ١٩٣٠) هو ايضاً قاصاً تعبيرياً بكل معنى الكلمة، اذ يهتم بمغزى المصير اليهودي قبل الكارثة وبعدها وذلك في كل من "أدام بن كيلف" (آدم ابن كلب) و"هيهودي هاحارون" (اليهودي الاخير)، ثم انه يهتم بالمغزى العام لسيرته الذاتية وذلك في عملين له احدهما في الثمانينات والاخر في التسعينات هما "بيتوه" (ابنته) و"بوست مورتم" ("التشريح" او "التحليل اللاحق").

واتجه يهوشواع كناز (ولد عام ١٩٣٧) في اعماله الانطباعية الى بعض الزوايا الخافية للمجتمع الاسرائيلي، حيث تعرض للتعساء والبؤساء والمنحرفين سواء كانوا يقيمون في قرية صغيرة ("أحاريه هاحاغيم"- بعد الاعياد) او في مساكن شعبية بائسة ("هائيشاه هغدولاه من هاحالوموت"- المرأة الكبيرة في الاحلام)، او في معسكر للمجندين الجدد من الدرجة الثانية ("هتغانفوت يحيديم"- تسلل الافراد) او في مستشفى لامراض الشيخوخة "باديرخ ايل هاحاتوليم" -في الطريق المؤدي الى القطط).

ويعد يعكوف شبتاي (١٩٣٤-١٩٨١) شخصية ادبية بحد ذاتها. ويشكل كتابه "زخرون دفاريم" (شيء يذكر) كلا لا يتجزأ لا ينقسم فصولاً او ابواباً، ويمثل نوعا من تيار الوعي الصادر عن راو عالم بكل شيء. ويصف انحطاط وسقوط مجتمع ينادي بالعقائدية مع انه لا ينادي بالمثالية، يعمد الاباء فيه الى كبت ابنائهم او يقودونهم الى الانتحار لكونهم عاجزين عن التعامل مع الطريق المسدود الذي آلوا اليه.

اما رواية "سوف دافار" (خاتمة) التي صدرت بعد وفاة المؤلف فتتناول عملية تدمير الذات التي تمر بها شخصية البطل عقب موت والدته وفقدان صلته الانسانية بوالده. ويعد يعكوف شبتاي اكثر الواقعيين الجدد لفتا للانظار (وان كان يهوشواع كناز قريباً من هذا المهذب ايضا). ويتبع كل من يتسحاك بن نير (ولد عام ١٩٣٧) ويشعياهو كورين (ولد عام ١٩٤٠) ودافيد شيتس (ولد عام ١٩٤١) اسلوباً في الكتابة قريباً من اسلوبه.

وفي الثمانينات طرأ تحول آخر على القصص العبري، عندما الف دافيد غروسمان (ولد عام ١٩٥٤) رواية تدور حول جيل ابناء اليهود الذين تعرضوا للكارثة في اوروبا، وتحمل عنوان "عايين عيرخ اهافا" (راجع مادة الحب). وكتبت هذه الرواية بأسلوب ما بعد الحداثة (Postmodernism) الذي يجمع تقنيات مختلفة من واقعية جديدة وخيالية وخرافية، محاولاً النظر الى موضوع الكارثة من وجهة نظر جديدة تتمثل في ان الفن قد يكون في مقدورالكاتب التعامل مع الصدمة بشكل افضل والنظرة الى الكارثة نظرة متعددة الزوايا. وفي رواية اخرى له تحمل عنوان "سيفر هادكدوك

هابنيمي" (كتاب القواعد اللغوية الداخلية) يقلص غروسمان الرقعة ليكتشف ان المجتمع الاسرائيلي يتكوّن اساسا في واقع المساكن الشعبية. ويجمع الكاتب في روايته عناصر الواقعية والسخرية الفكاهية والاساطير الشعبية، انها رواية مراهقة لفتى يرفض ان يصبح بالغا في مساكن شعبية ينتشر مثلها في كل انحاء القدس. ورغم ان المساكن عادية الا ان نمو الفتى وافراد اسرته وهم من لاجئي اوروبا الشرقية نمو متميز.

وجمع كاتب هام من ابناء الجيل نفسه وهو يوئيل هوفمان (ولد عام ١٩٣٧) بين تقنية الهايكو اليابانية وفن التصغير للقصة الانطباعية الالمانية لتتكون قصص عاطفية غريبة تتركز في الوحدة التي يشعر بها اليهود من اصل اوروبي في المجتمع الاسرائيلي. وتعد اعماله قطعة شأنها شأن اعمال شمعوني (ولد عام ١٩٥٥) او ايتامار ليفي (ولد عام ١٩٥٦)، من ابداع ما بعد الحداثة بكل معنى الكلمة. اما الكاتبات فمنهن من تابعن تقاليد سابقاتهن العاطفية (حانا بات شاحر، يهوديت كاتسير، سافيون ليبرخت) ومنهن -مثل اورلي كاستل- بلوم (ولدت عام ١٩٦٠) من يعبرن بتقنية السخرية الفكاهية اللاذعة عن وحدة المرأة في المجتمع الحضري، علما بأن هذه الكاتبة بالذات تعتبر خاتمة الاديبات الشهيرات في اواخر الثمانينات وبداية التسعينات.

- و -

وقد مر شعراء الاربعينات هم الاخرون بتحولات لافتة. فقد كان امير غلبواع (ولد عام ١٩١٧) وتشارني كارمي (ولد عام ١٩٢٥) بعيدين في بداية مشوارهما عن "الشعراء الاولين" ومنابع تأثيرهم من المحدثين الروس امثال الكساندر بلوك، انا احماتوفا وفلاديمير مايلكوفسكي. لقد توصل حاييم غوري (ولد عام ١٩٢٤) المتأثر بالتراث الرمزي الروسي من خلا لمختلف الشعراء الاسرائيليين، وفي ختام سنة امضاها في فرنسا، الى اكتشاف الشعر الفرنسي المعاصر (شوشنات روحوت- الجهات الاربع)، مما حدا به الى تغيير شعره بحيث احل الايقاع والقافية الداخلية محل الوزن والقافية. وقد ابدع اسلوباً خاصاً به، بحيث يكثر في اشعاره الشخصية الاجتماعية من استعمال المجاز العسكري واللغة الاصطلاحية (المحصور فهمها احياناً في قلة من الناس) اللذين

يتعامل من خلالهما مع الشكل والحب والشيخوخة والصداقة والموت.

لقد سار غوري في المجال في خطى يهودا عميحاي وناتان زاخ ايضاً وهما اهم شاعرين في الخمسينات، اذ ثار كلاهما، وبتأثير من الشعر الانغلوساكسوني على اسلوب اوائل الشعراء. حيث تخلى عميحاي عن الوزن والقافية الجرسية فأصبح الجزء الاكبر من قدرته منصباً على ثراء المجاز المستمد من جميع المواد الممكنة. ويعتبر شعره شعراً لمن ملوا الحروب ويحفل بالتقريع الساخر الذي يعتمد على التلاعب اللفظي وغزارة المجاز البارع فضلاً عن انه يتحدى تحديات الواقع الاجتماعي ويشكل نوعاً من الشعر التأملي الذي يركز على حق الفرد في بقعة خاصة به في الوجود اللاشخصي الذي يفرض عليه حروباً هو في غنى عنها.

ويعد ناتان زاخ (ولد عام ١٩٣٠) الذي رفع راية الثورة على جيل الاباء بصفته ناقدا وشاعراً اكثر اقتصاداً بكثير في شعره، حيث يعبر عن كآبته الساخرة بالوسائل النحوية والايقاعية في المقام الاول. انه شعر تتخلله اشواق بلا أمل ويأس ساخر من الاتصال بالكينونات التي يتوق اليها المتحدث الشعري. وبعد الحرب في لبنان الف زاخ من الشعر ما هو اجتماعي ساخر مقاوم للمؤسسة السياسية. اما داليا رابيكوفيتش (ولدت عام ١٩٣٦) فتختلف مفرداتها الشعرية عن مفردات زملائها، اذ تميل الى مستوى لغوي اعلى ولا يحرجها استعمال القافية ولا حتى الوزن. وقد افردت معظم شعرها لوصف تجارب غاية في الخصوصية، باستثناء مجموعاتها الاخيرة، واتجهت، شأنها شأن ناتان زاخ، الى الشعر المناهض للمجتمع والمؤسسات، اثر الحرب في لبنان والانتفاضة الفلسطينية.

كان دان باغيس (١٩٣٠-١٩٨٦) شاعراً نجا من الكارثة اليهودية في اوروبا، ويدور في شعره صراع دائم بين الصدمة التاريخية الشخصية ومحاولة التغلب عليها بواسطة فن شعري في غاية الدقة. انه صراع بين مراحل اولية ومراحل ثانوية مضخمة جداً تصارع رعب القوى الرئيسية الكبير. ويتمثل هذا التوتر من الناحية الادبية في الصراع الدائم الذي يدور بين شعر التقريع وشعر التجربة الشعورية. لقد حاول باغيس في

البداية التعرض للتجارب الساخرة من خلال بنى مستوحاة من ريلكه او هوفمنستال ثم حاول في فترة لاحقة ايجاد توافق مناسب مع الهاوية مستعيناً بالسخرية والتلاعب بالالفاظ.

ويحوي شعر مئير فيزلتير (ولد عام ١٩٤١) من اللذع الشعري السافر ما يتجاوز سخرية من سبقه من الشعراء. اما معاصره يائير هورفيتس (١٩٤١-١٩٩١) فيعبر عن الحالة الانسانية بغزارة مجازية بارعة، فيما تكشف يونا فولخ عن مراحل اولية (Primary Processes) ضمن نوع من الشعر التلقائي الملهم مباشرة بالوعي الباطن بحيث يكشف عن غرائز المتحدثة الشعرية.

ولاشك ان اهارون شبتاي (ولد عام ١٩٣٩) اكثر شعراء ما بعد الحداثة الاسرائيليين لذعا، اذ يلجأ الى مواد لاشعرية من شرجية وفمية وجنسية هابطة، ليضفي عليها تعبيراً شعرياً وينطوي شعره على شيء من الارتقاء بما هو دون الانساني واضفاء الشعرية على المراحل الاولية.

- ز -

بما ان المسرح يعتبر من عبادة الاصنام في الثقافة الدينية اليهودية فضلاً عن صعوبة تنمية المسرح على ارض الغير، فقد نما في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين المسرح الايدي (اي الناطق بلغة الايديش) الذي كان ذا طابع محلي او تعبيري متعلق بظهور الماشياح (وهو المهدي المنتظر في الديانة اليهودية)، وكانت لغته لغة دارجة. اما المسرح العبري فقد نما في مرحلة متأخرة نسبياً، حيث يمكن الحديث عن اربعة مسرحيين بارزين منذ قيام الدولة:

ان المسرحي البارز الاول هو نسيم الوني (ولد عام ١٩٢٦) الذي صيغت مسرحيته الاولى على نمط المسرحية التاريخية الكلاسيكية. تدور هذه المسرحية والمسماة "اخزار مكول هميلخ" (الملك اشد الناس قسوة) حول تقسيم المملكة اليهودية في عهد الملكين يروبعام ورحبعام، وله انعكاسات على الاوضاع السياسية والاجتماعية في اسرائيل ابان الخمسينات. وقد اقام الوني في فترة لاحقة فترة من الوقت في باريس، حيث تعرف

الى مسرح اللامعقول ليونسكو والتراث المسرحي الرمزي لمسرحيين امثال الفريد جاري وجان جيرودو وجان انوي. وتبرز الصلة بذلك التراث الادبي بشكل ملحوظ في مسرحية "بغديه هاميلخ" (ثياب الملك) وما تبعها من مسرحيات الوني. وتعد مسرحية "هانسيخا هامير يكائيت" (الاميرة الاميركية) التي عرضها الوني عام ١٩٦٣، وهي اوول مسرحية صدرت له على شكل كتاب، قريبة من حيث البراعة اللغوية من اعمال جيرودو وانوي. اما من حيث المؤثرات التقليدية الساخرة الحادة وصياغة شخصية البطل الذي انقلب لابطلا، فهي قريبة من مسرحية جاري "الملك اوبو" (Ubo Roi) لعام ١٨٩٦، ومن عمل اقرب الى عصرنا بكثير، هو "الملك يحتضر" (Le Roi Se Meurt) الذي الفه يوجين يونسكو في عام ١٩٦٢، وهو مسرحية لشخصيتين واكسسوارات تتمحور حول سقوط احلام العظمة الرومانسية وجعلها تجارة رائجة. وفي فترة لاحقة الف الوني وبتأثير من هذه المدارس المسرحية مسرحياته "هاكالاه فتسياد هبارپايم" (العروس وصياد الفراشات)، "أيدي كينغ"، "هاتسوعانيم شيل يافو" (غجر يافا)، "هادودا ليزا" (العمة ليزا) و"نابوليون حاي او ميت" (نابليون حيا او ميتا)، وهي جميعاً مسرحيات رمزية شعرية حافلة بأشواق ابطالها الرومانسية الخائبة.

الا ان اهم المسرحيين الاسرائيليين واكثرهم خصوبة هو حانوخ ليفين (ولد عام ١٩٤٣)، وقد قدم الى المسرح من الكباريه السياسي المناهض للمؤسسات، حيث يستعمل في مسرحياته ايضاً جميع الحيل المستخدمة على خشبة المسرح الصغير. اما من حيث المضمون والتقنية، فهو قريب من مسرح اللامعقول (ومن هارلد بنتر بالدرجة الاولى)، كما وتمثل اعماله نوعاً من المحاكاة الهزلية للاوبرا الصغيرة (الميني اوبرا) التي يحل فيها الاناشيد والثنائي الغنائي محل التلاوة الملحونة (الريتشتاتيف) الحوارية. وتبرز مسرحياته العناصر الفمية والشرجية للانسان كاشفة من خلال الحوار ما يمكن فهمه بالايحاء من المسرحيات التقليدية. وتناهض مسرحيات ليفين فكرة مساواة المرأة بالرجل ويتميز ابطاله من الرجال بالعجز والاعتماد على النساء والخضوع لتعذيبهن. وقد الف ليفين بعض مسرحيات الحجرة من ناحية "يعكوفي ولايدنتال"، و"شيتس" واخرى اسطورية

شاملة من ناحية ثانية ("هازوناه هغدولاه مبافيل"- عاهرة بابل الكبرى، "ييسوريه ايوف"- عذاب ايوب). ويعبر كل من الوني وليفين عن اجواء تحيط بمجتمع ينادي بالمثالية بعد يأسه من تحقيق مثله العليا مما يدفعه الى الاجحاف بنفسه من خلال المغالاة في انتقاد واقعه.

ويعد المسرحي يوسيف بار يوسيف (ولد عام ١٩٣٣) اكثر اعتدالاً وتقليدية من ليفين والوني، اذ يركز اهتمامه في العلاقات الاسرية والحياة داخل الاسرة والخيانة ضمن الاسرة، وتصوغ مسرحية "تورا" دراما اسرية ضمن عائلة شرقية لا تناسب قواعد سلوكها المحيط الاسرائيلي شبه الاوروبي الذي تعيش فيه، اذ تخالف مفاهيم العلاقات بين الجنسين والذنب والجزاء القوانين الغربية التي لا تعترف بها الاسرة، وهو تناقض لا يمكن جسره. اما مسرحية "أناشيم كاشيم" (اناس قساة) فتعرض لاناس يحاولون انشاء اسرة ولكنهم يفشلون. انهم مجانين وقد يجوز وصفهم بالجمال، لانهم يعيشون خارج اي اطار اسري. وقد اقدمت مسرحية "زاهاف" (ذهب) على صياغة الاسرة كإطار خانق يحاول الجميع الهروب منها ولكنهم لا يستطيعون العيش بدونها.

ويعتبر يهوشواع سوبول (ولد عام ١٩٣٩) اكثر المسرحيين الاسرائيليين الاجتماعيين انتقاداً، وقد بدأ مشواره بصياغة بعض المسرحيات التوثيقية، ثم مضى الى تأليف سلسلة كبيرة من المسرحيات التي حاول من خلالها استكناه جذور الصهيونية والشخصية اليهودية والكارثة ومن اشهر اعماله "ليل هاعسريم" (ليل العشرين)، "نيفش يهودي" (نفس يهودية) "غيتو" (غيتو) و"هابلستينانيت" (الفلسطينية). ويستخدم عادة الاساليب الطبيعية التعليمية، كما انه يهتم بالاخلاقيات العقلية الاجتماعية (اي المسرح كمؤسسة تربوية) اكثر مما يهتم بتطور البنية النفسانية او الفنية. وقد ظهر في مرحلة لاحقة بعض المسرحيين امثال هيلل ميتلبونكت وموتي لرنر وشموئيل هاسفاري، والذين يميز كلا منهم طريقه الخاص به، مع ان معظمهم يميل الى المسرح السياسي والنقدي الاجتماعي.

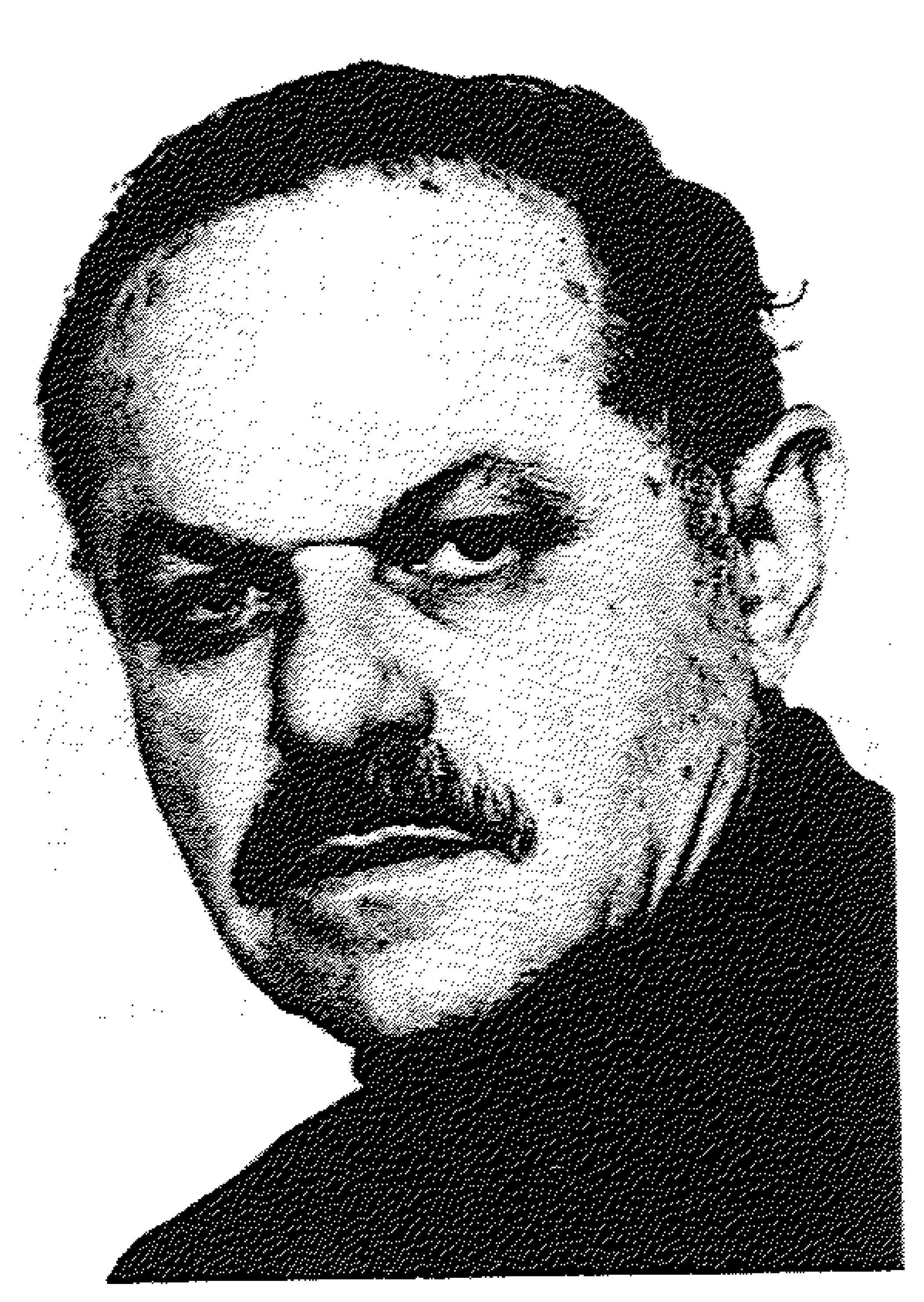
- ح -

ان ما يميز الابداع العبري في العقدين الاخيرين هو تعدديته الفنية التي تتعايش مذاهب شتى، بحيث يستطيع المبدع الطبيعي سامي ميخائيل والمبدعة الساخرة لعهد ما بعد الحداثة اورلي كاستل- بلوم الظهور جنباً الى جنب ليحظى كلاهما بالقبول من جمهور القراء والنقاد على حد سواء، لقد مرت اسرائيل بعملية ثقافية هامة، فقد كانت في الاربعينات واوائل الخمسينات تميل الى الوحدة الثقافية والنقدية (المسيطر عليها الى حد ما من الواقعية الاشتراكية)، الا ان الثقافة الاسرائيلية انفتحت اكثر واكثر مع مر السنين على اتجاهات وتقاليد ادبية متباينة، حتى اصبحت التعددية اليوم هي علامتها المميزة، بحيث يرفض المجتمع الاسرائيلي اي املاء ثقافي زواي عامل يحول دون تفتح الف زهرة وزهرة.

ترجمة : يتسحاق شنيبويم

بنيامين تموز

الافــــــق



* بنيامين تموز:
ولد عام ١٩١٩ في روسيا. هاجر مع أسرته الى فلسطين وهو في الخامسة من عمره. درس القانون والاقتصاد في جامعة تل ابيب وتاريخ الفنون في جامعة السوربون. عمل محرراً ادبياً لصحيفة هآرتس لسنوات عديدة، وأشغل منصب الملحق الثقافي في السفارة الاسرائيلية في لندن لمدة أربع سنوات. توفي عام ١٩٨٩.
من بين أعماله:
"الرمال الذهبية" (مجموعة قصصية، ١٩٥٠)، "يعكوف" (رواية، ١٩٧١) "الحرباء والعندليب" (رواية،١٩٨٩).

ذات مرة في يوم من ايام الشتاء، شاهد غيوم السماء في رحيلها كتلة واحدة، نحو الارض تفرغ اثداءها المثقلة في الجبال البعيدة. وعرت الارض هزة عذبة وتوهجت الخضرة فوق التلال حتى بدت سوداء، في حين فغرت آلاف مؤلفة من الثغور الظمأى فاها لارتشاف المطر المنهمل بعيداً، وانفرجت ثغرات في الغيوم في اجواء السماء الاخرى واذا برقعة زرقاء تزهو بهاء تطل نحو المعركة الناشبة في الابعاد. ابتسم الطفل في اعماقه وقال: أبي وامي.

اغرورقت عيناه بدموع الحبور والبهجة وانطلق يعدو نحو داره، يرتعش فرحاً. اما الان فكانت تلك ايام الصيف.

كان الحقل حاراً، والسلاحف المتهادية المنكمشة الجلد ذات العيون الصغيرة

البراقة، كعيون الشيوخ، تقطع الحقل جيئة وذهاباً، ومن دروعها المحتكة بالارض تنبعث اصوات كأصوات محراث مقلوب يجره حصان. والسحالي السريعة النحيلة المزركشة تنطبق بسرعة بين سيقان السنابل واذا بالارض تبتلعها الواحدة تلو الاخرى، وخلف الحقل انتصب صف اشجار السرو وبعده تماماً تتابعت اشجار السنط التي امتدت بعيداً نحو الرمال الضاربة الى الحمرة، والهضاب المخضرة والجبال البنفسجية. وهنا وهناك بين الجبال انفرج وادٍ صغير وبدت السماء هناك تلامس الارض وتنفصل عنها وتسافر، فوق غيومها المثقلة واعمدة رياحها المتراقصة.

في ساعات الصباح، عندما كان يفتح عينيه على الشباك المغطى بالخضرة. كانت قطرات الندى لا تزال تبدو متساقطة من الاعشاب وتتبخر على الزجاج، وبقدمين حافيتين خاض في الاعشاب النامية في فناء الدار حتى اخضلت قدماه ببقايا البرودة التي بدأت تتلاشى مع إشراق الشمس.

وفي طريقه الى المدرسة الواقعة في الشارع الرئيسي كان يتلكأ بجانب سياج شجر السنط، وينفخ في ازهار الكحل ليملأ رئتيه من رائحتها الصفراء. وكانت هناك حرباء غارقة في افكارها، معلقة ببعض الاغصان قد غفلت عن تغيير الوانها لاستغراقها في التأمل، وعندما مد الصبي يده للامساك بها اخذت تسرع في حركتها وفغرت فاها الوردي الذي يصدر فحيحاً. اما قرص الشمس الذي اطل من طريق الرمل، فقد تعالى والتهب في اجواء الصباح.

رفت جفون الصبي وهو يلقي نظرة نحو الشمس التي تركها تلهب خده الايمن تارة واذنه اليسرى تارة اخرى وابتسم لها واقفاً، ولبرهة ما غابت عن باله وجهته وكاد يعود ليسير نحو ذلك المكان الذي تبزغ منه الشمس، وفيه وجدت السماء والارض مسكناً، ليغمر احدهما الاخر بالقبلات ويتلامسان مع بعضهما صباح مساء، بملاطفة سريعة وهادئة. ولكنه سرعان ما تذكر المدرسة والاربعين ولداً وبنتاً الذين كانوا يجتمعون كل صباح في غرفة الصف الكبيرة ينظرون اليه، الى غريب الاطوار، اصغرهم جميعاً، بعيون ملؤها سخرية سافرة، وبحزن وألم ادار ظهره الى الشمس ولنورها الذي يغمره واتجه

نحو الشارع الرئيسي.

ولكن قبل ان تطأ قدمه عتبة الدار التي تجافيه، كانت تنتظره عجائب في الطريق، شجيرة الورد النامية قرب المقعد، في الساحة المجاورة، فتح الليل لها ثلاث عيون حمراء ونظر بها الى الطريق بغبطة وحياء. تلكأ الصبي بجواره، مرتبكاً هو الاخر من الجلال الاحمر، يغض الطرف ويوشوش بصوته الى الشجيرة يتكيء عليها من بعيد ويقبلها بقلبه.

وتمر عربة، محملة بسلال العنب، والعناقيد تتدلى على حافاتها والدوالي تهتز على جوانبها، تهتز كلها ويصدر اطار الحديد في عجلاتها صريراً في الطريق المملوءة بالحجارة.

ادار الصبي رأسه والتهبت وجنتاه، غير انه عندما مرت العربة في طريقها شيعها بنظاراته طويلاً طويلاً، حتى غابت في منحنى الطريق، هي وضوضائها الصافية وفرحة جني العنب التي جلبتها معها وعناقيد العنب التي سقطت وراءها، مستلقية بسوادها وخضرتها على جوانب الطريق.

ولم يبق له من الان سوى المرور امام بيتين او ثلاثة بيوت ذات اسطح حمراء، تطل عليه من داخل ساحات البيوت بقممها العالية اشجار الصفصاف التي تصدر حفيفاً ببياضها واشجار اليوكاليبتوس الكسولة المتعبة التي تدغدغه احياناً باطراف اوراقها المدببة ذات الرائحة النافذة. القى نظرة وجلة الى قامة الاشجار الباسقة وانسل بينها الى بوابة المدرسة ثم نحو دهليز البناء الطويل، اذ ذاك فقط ادرك، ككل يوم، بأنه تأخر في الحضور اذ ان جلبة الدروس تنبعث من الصفوف.

ابطأ خطواته ورأى بعين خياله اربعين زوج عيون تحدق به وصوت المدرس المستهزيء به كل يوم لتأخره عن الحضور، ولانه اصغر اولاد الصف.

"كان علينا ان لا نقبلك في الصف الثالث" هذا ما اعتاد المدرس قوله كل يوم بلهجة كلام تقال للبالغين لكي يظهر مدى صغر سنه.

"كان علينا الا نقبلك، ولكننا اشفقنا على امك واستجبنا لاستعطافها،

فمكانك هو الصف الاول، في الصف الاول فقط، في الاول بالتأكيد".

وعندما اقترب الصبي في ذلك اليوم من باب صفه، كانت ركبتاه ترتعدان ويداه ترتعشان لدى امساكهما بمقبض الباب. كان الهدوء الشامل يسود المكان، وعندما ارهف السمع تصور انه لا يوجد اي شخص هناك، تشجع وفتح الباب بحذر لقد كانت الغرفة خالية حقاً.

وفزع عصفوران كانا يقفزان بين المقاعد الخالية وطارا نحو النافذة وإذا بصدمة منقاريهما على الزجاج تبعث في قلبه الحزن والاسى ولكن حمامة وديعة واصلت التقاط الفتات قرب كرسي الاستاذ وكانت تلقي بين الاونة والاخرى نظرة سريعة اليه وتعود لالتقاط الفتات وسرعان ما عادت الراحة والفرحة الى فؤاد الطفل. ما اجمل دعة الحمامة بين جدران الصف الذي يناصبه العداء دائماً.

فإذا بصوت من ورائه يقول "ذهب الاولاد الى رحلة مدرسية، رحلة ليوم كامل" كان هذا بواب المدرسة؛ الرجل الوحيد بين جدران تلك المدرسة لم يؤنبه ابداً ولم يسخر منه او يفتري عليه او يوبخه.

نظر الطفل بفزع وبعد ان انحنى له محيياً بصورة غريبة، لم يفهم نوعها، اسرع راكضاً الى الساحة وخرج ثانية الى الشارع.

وتملك فؤاده فرحة طاغية، وحين استعرض شماله ويمينه اختار مرتقى الشارع ليحتفل بيوم عطلته الذي جاء هدية من السماء.

وبخطوات سريعة كمن يعرف غايته، او لعله الخوف من ان يطلب منه العودة الى المدرسة، اسرع نحو رابية الكركار المائلة الى البياض في اقصى البلدة.

على سفح الرابية يقع بستان مظلم وماكنة البئر تسمع دقاتها ليل نهار. وعلى القمة تنتصب شجرتان او ثلاث من اشجار البرقوق الخضراء وثمارها حلوة المذاق في الشتاء. والان لم تعرض اشجار البرقوق للطفل سوى ظلالها- اما هو، الذي لم يطلب اكثر مما أعطي له، فقد سر بالظلال وجلس تحتها.

ومن موقعه ذلك امتدت الحقول وصفوف اشجار السنط أمامه على مدى

البصر وحتى سفوح الجبال. وكانت الجداول الجافة قد قسمت الحقول بخطوط متعرجة وسريعة، واوغلت مهينة طريقاً الى الهضاب الخضراء. وهنا بدأت فقاعات هوائية ودوائر من نور وومض السماء تتراقص بهدوء في الجو. رفع رأسه وعيناه تتابعان بلهفة حزمة من النور، رقيقة متوهجة تتهادى علواً وهبوطاً في اجواء السماء. نظر اليها حتى كاد رأسه ينخلع الى الوراء واختفت الحزمة وراء شجيرة البرقوق. اعاد رأسه ليظفر بحزمة اخرى واذا بالاولى التي اختفت تعود لتتهادى امامه وكلما طأطأ الطفل برأسه تهادت الحزمة الضوئية هابطة، الى ان بلغ بصره المكان الذي تلتقي فيه السماء بالارض حيث اختفت الحزمة بينهما.

وفكر الطفل بأن يجمع كل ابناء النور الصغار وجميع شظايا الفضاء وخيوط الشمس ويأتي بها جميعاً باتجاه ذلك المكان البعيد فتعتري الفرحة السماء والارض لهذه الهدية الصغيرة منه، تعتريهما الفرحة ويستحمان بفيض الانوار ويدخل الدفء قلبيهما حيث يقام هناك احتفال عظيم.

اخذ الطفل يحتضن النور بعينيه ويرسله نحو الابعاد. وكانت الانوار تسري وتنطلق فوق الحقول الذهبية وتحمل معها شيئاً من التبر الصافي. وفوق الهضاب الخضراء كانت الاضواء في حواشيها تأخذ شيئاً من نداوة الرياح لتقدمه هدية، وفي اخاديد الجداول الجافة كانت الانوار تتراقص على الحصى الاملس وتضيء بلمعان ابيض بارد.

بلغت الشمس السمت وبدأت الارض باجمعها تبعث طبقات طبقات من النور نحو السماء، والسماء ترسل باقات من الزرقة نحو الارض، جلس الطفل بينهما وهو يقود لعبتهما وقد امتلأ قلبه بالغبطة لاجلهما.

وعندما مالت الظلال ونقل البرقوق ظله الى ناحية الهضبة المقابلة، ابتسم الطفل لنفسه حتى كاد يغمض عينيه، وتأخذه سنة من النوم، لكنه نهض فجأة وهبط من الهضبة وسار الى بيت والديه.

ولما كان الغد وعندما وصل الى المدرسة، فتح المدرس مفكرته والقى نظرة عليها

ثم قال: "أين كنت امس"؟.

لاذ الطفل بالصمت ولم يجب لانه لم يدر بماذا يجيب.

ورفع المدرس صوته قائلاً: "كان علينا ان لا نقبلك في الصف الثالث، لم تكتف بذلك وها انت لا تحضر في الوقت وتتغيب اياماً كاملة". ثم التفت الى التلاميذ قائلاً: "أما نحن فقد تعلمنا اموراً هامة، صحيح يا اولاد اننا تعلمنا البارحة اشياء مهمة؟" هز جميع الاولاد رؤوسهم وانتظروا بخبث ليشاهدوا ما سيفعله المدرس بالطفل.

وواصل المدرس قوله: "اذن، سأطرح عليك سؤالا عما تعلمناه البارحة واذا عرفت الجواب فهذا حسن، اما اذا لم تعرف فسأعيدك الى بيتك، لتأتي بأمك معك".

وابتسم جميع التلاميذ ابتسامة ساخرة مسرورين من ابتكار مدرسهم وارهفوا السمع.

رفع المدرس صوته ولوح بيديه امامه بكميه القصيرين ووقف وقفة المنازل في صراع وقال "اذاً، اسألك عن كلمة واحدة فقط، شرحتها البارحة جيداً لجميع الاولاد. اصغ اذاً، ما هو الافق؟!"

نظر الطفل نحو مدرسه، وقد انتابه الذهول والدهشة وبقي صامتاً.

وقال المدرس حاثاً اياه: "أتعرف ما هو الافق أم لا"؟.

"لا" قال الطفل.

"أنصرف، إذن، انصرف من هنا، لا مكان لك بيننا".

وفي حين كان الطفل يلم ادوات القرطاسية في حقيبته اضاف المعلم سائلاق بنبرة احتفالية: "من منكم، أيها الأولاد، يعرف ما هو الأفق؟" ورفعت جميع الايادي دفعة واحدة.

ترجمة: شموئيل موريه

حانوخ بارطوف

عــم وحيد



* حانوخ بارطوف:
ولد عام ١٩٢٦ في بيتح تكفا. اشتهر كرواتي وصحفي وكاتب مسرحي. عمل مستشاراً للشؤون الثقافية في السفارة الاسرائيلية في لندن. حاز على جائزتي بياليك وشلونسكي الادبيتين. من بين اعماله: "السوق الصغير" (مجموعة قصصية، ١٩٥٧) "أخت بعيدة" (مجموعة قصصية، ١٩٧٣) "في وسطها جميعاً" (رواية، ١٩٨٨).

فتحت الباب فرأيت ابي. لمحته فأدركت على الفور ان ثمة امراً مزعجاً قد حدث. ليس فقط لان ابي لم يعتد زيارتنا في اماسي السبت، فسحنته ووقفته المترددة عند الباب كانتا تشيران الى أنه لم يأت لمجرد الاطمئنان علينا. فأهم ما يميز طبيعة ابي، ان كل شيء يؤثر عليه، وان كل ما يؤثر عليه ينطبع على وجهه، انه سيبلغ الخمسين من عمره بعد نحو ثلاث سنوات. بيد انه بفضل بشرة وجهه البنية اللون، المشدودة على عظام وجنتين ضيقتين متناسقتين، وبفضل فمه الانثوي الذي يرتعش عند ملامسة كل نسمة رقيقة تتهادى من رياح هذا العالم، وبفضل عينيه اللتين لا بد وان تشاهدا شيئاً ما، واللتين لا تراهما الا ضاحكتين او باكيتين او غاضبتين او مبتهجتين- بفضل هذا كله، كان يبدو وكأن خيط شبابه سيمتد حتى شيخوخته، وما اجمل التأمل في هذا الوجه الذي تحط عليه كل سحابة، وكل هبة نسيم، وكل ساعة شمسية، وكأنها تحط على صفحة البحر.

لكنه في تلك الساعة، عند باب منزلي، بدت طلعته، وكذلك شفتاه وعيناه، وكأنما طبقة من الطين قد جفت عليها جميعاً. سارعت الى تقبيل وجهه والاخذ بيده الى داخل الدار. صببت له الشاي وقطعت له من الكعكة التي جاءت بها امي قبل ايام، ثم سحبت كرسياً صغيراً وجلست بجانبه.

كان عائداً لتوه من المستشفى. قال، انه زار شراجا، وان شراجا يذوي ويضمحل باستمرار. قال، ان شراجا يحترق بلا هوادة، وان الاطباء عاجزون في معالجته انهم لا يعرفون ماهية مرضه ولا يعرفون ماذا ينبغي لهم ان يفعلوه لانقاذه من هذا المرض.

"وانا" اضاف ابي قائلاً:" وانا اعتقد، بأنه انما خانته قواه من فرط ما عاناه. يكفيه. يكفيه كدحه، كالحمار، طوال ثلاثين عاماً. وها نحن نرى بأم اعيننا، كيف يحترق هذا الجسم باستمرار. لقد اصبح اسود وجف مثل غصن شجرة برتقال بعد تقليمه".

تنهد ابي وحرك الشاي بشكل رتيب. ولم يقصد من وراء ذلك الا اثارة الانتباه. ركنت الى الصمت محدقا في وجه ابي المكفهر، ثم فجأة، خيل لي ان الموت يراوغه هنا. ان ابي هو عم شراجا، رغم انهما ولدا في سنة واحدة، وانهما ذهبا معاً الى "الكتاب" سألت نفسي" ولكن ماذا حدث، ولماذا يبلغ به الامر الى هذا الحد؟"

منذ شهور وشراجا طريح الفراش. وقد قال لي أبي اكثر من مرة، ان الامل في شفائه قد تلاشى، وقال لي قلبي،" كلا اذ لا بد ان سبباً آخر قد جاء به الان الى منزلي". انه في حاجة الى ان يزيح عن قلبه عبئاً معيناً، الا انني لم احاول استدراجه الى ذلك. انتفضت مبتسما ابتسامة عابثة واخبرته بأني قد اعددت له معضلة جدلية بديعة.

ابي يهوى مطالعة الكتب الى حد كبير، ولا سيما كتب البحث والاستقصاء والتفسير والوعظ. وقد شرع عدد من ابناء جيلي بمقارعة بعضهم البعض بالايات التوراتية مؤخراً. هذا رغم انه لم يعد سراً، انهم ما عادوا ينتمون لدنيانا وانهم يفتقرون الى طاقاتنا. انا الاخر لست منهم. لكنني وبسبب معرفتي بنزعة ابي هذه، ولانني اصبو الى ادخال السرور على قلبه، فأني احتفظ له بما يقع في يدي من مقالة جميلة أو معضلة جدلية صعبة. "في سفر الخروج، اصحاح: احكام، الاية الثانية والعشرين" فتحته بمهارة رجل يلم بمسالك التوراة المامه بمسالك سوق صغيرة. "ورد هناك:

"ان وجد السارق وهو ينقَب، فضُرب ومات، فليس له دم. ولكن ان اشرقت عليه الشمس

فله دم. انه يعوّض، ان لم يكن له، يُبع "بسرقته"، الى هنا الاقتباس"- قلت واضعاً راحتي المبسوطة على الكتاب المفتوح:" هذه الايات معقدة كلها ومحيرة. فما المقصود بـ "يعوض" بالاية الثانية؟ ومن ذا الذي يدفع العوض وقد ضرب فمات؟ وما معنى "يبع بسرقته"؟ فهل تباع الجثة لكلية الطب؟ ولو فرضنا جدلاً ان كلمة "له دم" قد قيلت في مسبب الموت، فما معنى "يعوض؟ افليس دائما يعني سفك الدم في التوراة، الدم وليس المال؟ ثم، ما معنى "يبع بسرقته"؟.

طرحت على ابي دفعة واحدة، بجميع هذه المعضلات الجدلية ولذت بالصمت. منتظراً ان يستعرض امامي قدراته وما ان بادءته حتى توتر جسمه، وسارع الى وضع نظرات المسنين، واخذت زوايا شفتيه ترتعش بتلك اليقظة الفتية، التي احبها حباً شديداً وحينما فرغت من مقالي، التقط الكتاب واعاد قراءة الايات، مثنى وثلاثاً، مرة يقرأها صامتاً ومرة بتلاوة مرتلة. عاد وجهه واكتسى بريقاً نحاسياً، وقطرات العرق الصغيرة التي تناثرت على انفه والتي كانت تدل على لأي حتى الان، تملكته روح الحماس والتفاني في دراسة التوراة. كانت هذه المعضلة الجدلية، في رأيي عميقة وخطيرة، الا ان ابي لم يلبث ان وضع النقاط على الحروف، وعلى نهج تأويل مخالف للعرف والتقليد حيث قام ابي بنقل الجزء الثاني من الاية، الى اخر الفصل السابق لها. ولم اتمالك نفسي فقلت لابي، ان ثمة مساً بالنهج التقليدي لكنني اضفت مستدركاً، ان المفسرين المحافظين على التقاليد قاموا، كذلك، باتباع هذا النهج وبقولي هذا ادخلت البهجة والاطمئنان على قلبه: لقد انقذت له كلا التاجين: تاج التبحر وتاج الايمان، جلس الان راضياً هادىء البال ثم شرب الشاي وتناول ايضاً شريحة الكعكة التي جاءت بها امي.

واذاك شرع يتحدث عن جدي. وحين يستهل ابي الحديث عن جدي، فأني ادرك على الفور، بأن الارض ستعود وتميد تحت اقدامه، وان روحه الرقيقة كروح طفل، قد طعنتها اهانة موجعة. ولولا انني ابتعدت عن كل ابناء اسرتنا، وانتزعت ذاتي من احضانها، لايقنت بأنهم كانوا سيقولون لي، اني انا سبب حزن ابي. فمن اجلي نشب الخلاف بينه وبين جداليا، اكبر ابناء اخيه. ومن يدري لعلي كنت املك ان اجنبه الحزن

والاسى عاماً كاملاً، الا انني لم التق بالاخوة. وقد تضايق ابي نفسه كثيراً، كما يبدو، من الاهانة التي سببها جداليا لمواهبي من جهة ولكبرياء والدي الذي لم يبح لي، بل ولم يلمح الى هذه الخصومة، وحتى في هذه اللحظات فأنه اخذ، كعادته في مثل هذه الظروف، يتحدث عن جدي.

قال: "كان ابي رحمه الله بلا شك تلميذاً ذكياً وتقياً، الآ انه ليس لهذا السبب، كان بمثابة عامود النار السائر امامي في دروب حياتي. لقد مر علي في هذه البلاد سبعة وعشرون عاماً، ومات ابي منذ قرابة العشرين سنة بيد ان سناءه لم يخب بعد. انها قوة الحب الذي كان يفعمه واذا كانت محبة اسرائيل ومحبة الناس عموماً هي السبيل الى تقوى الله، فأن ابي كان في هذا في منتهى الكمال مع ما به من ميزة التواضع، وقد حافظ على فريضة (وتواضع مع الرب الهك) بكل ما في هذه الوصية من معنى، ورغم كل جهوده في كتمان صنائعه فأنه لم يفلح في اخفاء وهج روحه العظيم وتألقها".

كان ابي يتحدث، ثم يضيف على ما قاله، ثم يتريث، وهو يجرف بسكين فتات الكعكة المتناثر على المائدة ويجمعها في كومة واحدة صغيرة، ثم يضعها في الصحن، ويواصل حديثه. وكنت اصغي الى كلامه مثلما يحدث في كل مرة تطرق فيها الى جدي، وانا أتامل تواضعه، وقد طفت الان ايضاً قوية وواضحة، تلك الصورة البعيدة، اذ ادركت لاول مرة ان جدي مات فعلاً، وأن شيئاً ما في بيتنا قد رحل معه.

كان السراج منتصباً على المائدة، وهو اشبه بقدح كبير يعتمر قمعاً من الزجاج الاخضر، والشمعدانان الفضيان الطويلان يذرفان قطرات حليبية، وقد فرغت صحون الحساء من محتوياتها فيما عدا بقايا معكرونة ما زالت عالقة بها. اسند ابي كوعه على المائدة وكان يترنم" من فضل الله اكلنا" وكان يمسك بأحدى يديه سكين الخبز الكبيرة، ويدق بها ايقاعاً ملائماً لترنيمته. وبين الفينة والاخرى كان يحثني بايماءة من يده على مشاركته الترتيل، او يوقظ امي عن طريق رفع صوته. كانت امي جالسة امامه، وعلى شفتيها ترتسم ابتسامة باهتة، كما لو كانت في حلم، فان حدقتي عينيها

نزعتنا الى الاختفاء. تحت جفنيها المسبلين ورأسها يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، كرأس مسافر في قطار. وكلما رفع ابي صوته او ضرب على المائدة بقوة، كانت امي ترفع جفنيها، وتعلن عن انها غير نائمة، ثم لا تلبث ان تعود وتغمض هذين الجفنين. ارتفعت السكين وهبطت وكنت ارى كف ابي ذات الاصابع الدقيقة الطويلة المغطاة بزغب من الشعر الغامق. حين عاد ابي من عمله دهن يديه بالزيت جيداً واذاك زال عنهما الكلس. عاد الان يحدق بصدوع بشرته وبمنابت الاظافر. كانت بشرة اليد فيما بين الابهام والسبابة مشققة حتى لقد بدا اللحم الاحمر من بين الشقوق. وكنت اتأمل يديه ويعتريني العجب. انه لا يبدي اي الم بل يقبض على السكين، وينهال بها على المائدة بعنف، ويغني. ولا ادري هل بلغ ابي خاتمة الترنيمة، ام انه قطعها قبل ان يتمها، لكنه هدأ على حين غرة. فلم اعد اسمع غير عويل الريح وصرير قاعدة شيش الشباك الصدئة، قادمة الي من ورائي كالاشباح. وتملكني خوف، وخيل الي ان ابي يرهف سمعه، ويتنصت بتوجس الى هذه الاصوات بعينها. الا انه كان غارقاً في أفكاره، ثم فجأة نظر الى امي، فومضت الشمعتان في عينيه الجميليتين. قال لها انه تذكر مائدة جدي، وان جدي كان يتصدر المائدة واضاف يقول تلك كانت اشبه بجلسة الملوك وان الابهة الملكية كانت تتجسد هنالك بالفعل اذا ما اتفق وتحلق حول المائدة جميع الابناء والاحفاد. لقد كان النور يتألق والفرحة تعم. بدا لي لاول وهلة، ان امي لا تصغي اليه، اذ انها لم ترفع عينيها وواصلت هز رأسها، لكنها عندما فرغ من كلامه قالت ان تلك المائدة لن نراها بعد الى الابد. فقال ابي: " ان هذه المائدة لم تعد موجودة، حتى هناك." كنت انصت اليهما ولكنني لم ادرك ما كانا يرميان اليه- ترى لماذا يستهينان بمائدتنا نحن، التي كانت كبيرة وثقيلة، وكادت أن تملأ مع السريرين والاريكة الغرفة بأكملها؟؟ عندئذ تحدث ابي عن وفاة جدي. محال ان يكون جدي قد مات.

كانت صورته معلقة على حائط الكوخ، فوق اريكتي. ادرت رأسي وامعنت النظر بها. ان لحيته سوداء قصيرة وعينيه معتمتان، كأعيننا جميعاً. وكانت الصورة معلقة بحبل على مسمار، مائلة قليلاً الى الامام. وهكذا فقد لاح جدي وكأنه يميل نحونا. امعنت

النظر وداخلتني رغبة للالمام بالظواهر الدالة على موته، وفي تلك اللحظة هزني صرير كرسي وصوت اجهاشه، وشاهدت امي وهي تهب من مكانها- وكانت عيناها الصغيرتان المتقدة رموشهما مغرورقتين بالدمع- وتعدو باتجاه المطبخ، ونهض والدي ولحق بها فمكثت وحدي جالساً قرب المائدة.

كانت الشموع قد ذابت تماماً واعقاب الفتائل تعوم كالنمل الاسود في الشمع الذائب الاشبه بالحليب، ومن فوقها ومض اللهب محدثاً فرقعات. وتقافزت ظلال واستطالت على السقف. كانت جدران الكوخ متصدعة في مواضع شتى وقد هاجمت الريح الصدوع باسرها ونفخت من خلالها انفاساً حادة وباردة كأنها المديات، واستحوذ علي الهلع، فقفزت من مكاني وهربت من الغرفة. كانت امي واقفة امام موقد السبت* الذي كان شاحب النور واكثر مما كان يشع ضوءاً كان يلقي ظلالاً. وكان ابي يسر في اذن امي في امر كثر عنه الحديث في بيتنا- عن بولندا. كانت امي تهز رأسها وتمسح انفها محدثة ضجيجاً مزعجاً. ثم اخذت تردد العبارة التي كانت تصيب قلبي بالهلع منذ ذلك الحين على مدى ايام طويلة، والتي ربما كانت السبب في عمق انطباع هذه الصورة في ذهني وظهورها دائماً امامي كلما تحدث ابي عن جدي "لن نذهب بعد لزيارتهم. وسيموتون كلهم هكذا، الواحد تلو الاخر، ولن نراهم بعد".

الان، مثلت هذه الصورة امام عيني، ولبرهة قصيرة عدت ذلك الصبي الجزع المضطرب من قبل قرابة العشرين عاماً، لكنني وفي الوقت ذاته، كنت كذلك الابن الاكبر والمتبصر الذي يصيخ السمع الى كلمات ابيه المضطربة ويحاول بفضول مجرد من اي توتر عاطفي، ان يكتشف سر الاحساس بالمسكنة واليتم والحنين الى كمال جدي، والد ابي، وسلطته.

واضاف ابي يقول" إلام يرجع الفضل في ان الجميع كانوا يحترمونه؟

---

* موقد السبت: يستعمله المتدينون المتمسكون بفريضة عدم ايقاد النار يوم السبت، وهو عبارة عن قالب مسطح من المعدن يسخن بالكهرباء او بالنار إعتباراً من يوم الجمعة ويظل ساخناً وعليه المطبوخات منذ يوم الجمعة.

ان هذا الفضل يرجع الى خصاله الحميدة فقط، ولذا، كان قبل كل شيء صاحب النفوذ المطلق في البيت. كان رب العائلة بكل ما في هذه الكلمة من معنى. لم يكن احد الابناء يقدم على امر- وحتى في الشؤون التجارية التي يبدو لاول وهلة انه لا المام له بها- الا استشاره اولاً. وهكذا، افاض ابي من روحه على البلدة بأسرها. وان شئت فقل، ان هذه الحقيقة، حقيقة ان الاب كان اباً والام كانت اماً والعم عماً. وان العائلة كانت عائلة، هذه الحقيقة هي التي مدتنا بالطاقة الكبرى على مواصلة الحياة".

وهنا وجم ابي. وعلمت بأن ساعة العظة من المثل قد حانت الان، وعلمت الان كذلك ما هي هذه العظة. لقد عاد الخلاف ونشب داخل الاسرة ويقينا انه قد وقع بينه وبين واحد من ابناء اخيه الاحد عشر، المقيمين في البلاد. افلم يقل ان العم كان عماً والعائلة كانت عائلة؟! لقد رزق جدي بأربعة عشر مولوداً وكانت قدرة الانسال لدى معظم ابنائه، قدرة جيدة شبيهة بقدرة والدهم. بيد انه لم يبق من هذه الاسرة المترامية الاطراف غير ابناء الاخ الاكبر، موشيه دافيد. لقد كان له احد عشر ابناً وابنة، قدموا جميعهم الى هنا، وكان شراجا اول القادمين، قبل ثلاثين عاماً. ولكن كيف استطاع فتى مثله في السابعة عشرة من عمره ويقطن في بلدة نائية، ان يفعل ذلك، فلست ادري. ومهما يكن من امر فقد هاجر الى البلاد، ثم لحق به اليها اخوته جميعاً. الواحد تلو الاخر. وهاجر الى البلاد معهم ابي، الذي كان في سن اكبرهم. وكان هو اصغر اخوته أما هم فكانوا أبناء الاخ البكر وفارق السن، بين الاخوين هو عشرون عاماً ونيف، وفي هذا الوضع غير العادي نشأت إشكالات في منتهى الدقة، من العلاقات بين الخصال المختلفة داخل الهرم العائلي وهي اشكالات طالما اثارت العواصف في عائلتنا هذه التي حرصت بالغ الحرص على توثيق الوشائج بين افرادها.

واصل ابي وجومه، فأطرقت وانتظرت.

"أريد ان اخبرك بشيء ما" قال ابي فجأة وبجرأة غير متوقعة،" نحن نتحدث هنا عن عائلة" عائلة كانت في المهجر اساس وجود شعبنا، وهنا- ماذا تبقى من ذلك كله؟ لا شيء. كل شيء قد تقوض وتهدم. فأنا استلقي الليالي بطولها ويعذبني هذا

الامر. الطم رأسي واتساءل. كيف؟ كيف حدث ان اسرة كأسرتنا، كان كل فرد من افرادها مستعداً للتضحية بنفسه من اجل غيره، كيف حدث ان هذه الاسرة قد انبتت شيئاً اشبه بالعشب الضار، كالنجيل. لا ادب ولا احترام! وعيناه لا تقعان الا على ما يطمع فيه، تاجر له وزنه، وعليم بالامور: ولكن ماذا يعرف؟ فهو لا يعرف حتى اليوم ان يكتب جملة عبرية صحيحة واحدة. ثم فجأة اصبح له عرف الديك وغدا عارفاً كبيراً بل واضحى اخصائياً بالرسم. يمشي مصعّر الخد مختالاً مكابراً علينا جميعاً"!.

"جداليا؟" سألته. ها نحن نصل الان الى بيت القصيد. ان جداليا وحده دون سائر الاخوة، اختار التجارة مهنة له. تزوج ابنة تاجر اصباغ، واستحوذ على متجر حميه واصبح من كبار تجار المدينة.

"لقد جاءوا اليك" قال ابي بتحفز

"من؟"

"بعض الاخوة"

فأخبرته بأن احداً لم يأت الي، لكنني ادركت، ان جداليا هو المقصود.

"جئت لاستشيرك" قال" ولاخبرك ايضاً بما حصل. صدقني. مكثت غاضاً ابصاري من فرط الخجل".

لم اقتنع بتفاصيل الحكاية التي رواها لي ابي منذ بدايتها. ورغم ما به من سخط فقد حاول الان ايضاً ان يبرىء جداليا في نظري ويخفف قليلاً من حدة ما قذفه من اقوال. اضافة الى ذلك، فإن هاتفاً اسر الي بأن هذه المقدمة الطويلة ما كانت لتأتي لولا رغبة والدي في مصالحة جداليا، رغم كل الكلمات العدائية التي استهل بها حديثه. ولهذا، ولما كنت على معرفة تامة بابناء عائلتنا، وبكل شاردة وواردة تدور فيها، فقد تناهت الي اخبار متقطعة، فقمت بنفسي بأعادة ترتيب الاحداث كما وقعت.

في تلك الايام، وأعني قبل عام من زيارة ابي، قمت بعرض لوحاتي في صالة عرض صغيرة بتل ابيب، وكان ذلك معرضاً جماعياً، وهو اول معرض اشارك فيه، ولا استطيع القول، ان الجمهور قد فقد صوابه من فرط حماسه، على اية حال، فأن هذا

الحماس لم يفق الحماس المعتاد، في اي معرض للشبان. الا ان- شخصاً واحداً اخذ منه التأثر بالحدث كل مأخذ- وهو ابي. فمنذ ظهور الاعلانات الاولى في شوارع المدينة، وتألق اسمي مع باقي الاسماء، لم يهدأ له بال ولم يقر له قرار ، الا انه في حفل الافتتاح، وهو يرى ازدحام الجمهور المهيب في باحة دار العرض الضيقة، كاد ان ينفجر قلبه من شدة التأثر، ثم استوقفه اشخاص في شارع المستوطنة وسألوه ان كنت انا حقاً ذلك الرسام الفتي الذي قرأوا اسمه في الاعلانات، وهل صحيح انني ولده؟ بيد ان هذا الاسبوع العظيم في حياة ابي لم يكن قد بلغ ذروته بعد. فلقد تم افتتاح المعرض في يوم السبت ثم في يوم الجمعة التالي، في ساعات الظهيرة، صادف ابي على مقربة من ميدان "هموشفوت" بتل ابيب، صديقه المعلم فيجيس فاستقبل فيجيس ابي هاشاً باشاً، وسارع الى فتح الجريدة التي كان يحملها ليريه ما كتبه الناقد الفتي للجريدة عن الرسام الشاب شمونيل لرمان "الذي تلفت الانتباه في لوحاته طريقته في استخدام الالوان الشاعرية المرهفة التي تكمل بشكل يثير الدهشة ذلك الخط الجريء والرجولي شبه العنيف لدى الفنان الشاب."

ولا ادري هل استوعب ادراك ابي هذا التقييم استيعاباً كاملاً، فيقيناً أنه لم يقرأ السطر السابق لهذه الفقرة ولا السطر الذي اعقبها، وحتى لو قرأهما لما كان سيأخذ بنظر الاعتبار كلمات لم يرغب بسماعها. اذ ان كل ما سمعه ابي، هو ان اسم ابنه نشر في تلك الجريدة وحظي بثناء صريح من ناقد يقول عنه السيد فيجيس انه ناقد معروف. في تلك اللحظة بلغ فيه الانفعال كل مبلغ، لا بتأثير المعرض ولا بتأثير النقد- فمنذ هذه اللحظة لم تعد اسرة ابي مغمورة. مجرد عائلة لرمان، كسائر عائلات "لرمان" في شعب اسرائيل. ومن الآن فصاعداً سوف يهتم الناس بالرسام لرمان، لكم كان منفعلاً ابي حتى احس بحاجة ملحة وفورية ان يشاطره فوراً انسان عزيز شعوره هذا. ولم يستطع الانتظار الى حين وصوله للمستوطنة واخبار والدتي، ولما كان لقاؤه بالسيد فيجيس قد تم قرب ميدان هموشفوت، ومتجر جداليا يقع في نفس المنطقة، فإن أبي شرع في الحال يعدو الى المتجر.

كان جداليا، في تلك الساعة مشغولاً بوزن بضاعته. فلم تثر كلمات ابي فيه الحماس، ولا الفرحة ولا حتى حب الاستطلاع، وناول زبوناً بقية المبلغ وقال بدون اكتراث، ان اخبار المعرض قد وصلته بالفعل وسأله أبي، "وهل قرأت الجريدة؟" وكان واثقاً من ان البلاد بطولها وعرضها تتهافت الان على الصحيفة التي كتبت عن ولده الرسام الفتي.

"جريدة؟" وحملق جداليا بعينيه الحمراوين في أبي ولا ادري ان كان ذلك يرجع الى جلوسه في ظل حانوته طيلة الايام، ام ان سبب ذلك يعود الى تعامله مع الاصباغ والكيماويات. ومهما يكن من امر فأن الوانه كانت تختلف عن الوان ابناء عائلتنا، فهو وحده له بشرة وجه بيضاء اشبه باللحم المغطى، وعيناه حمراوان، وهو وحده الذي لم يصب بالصلع، وانما شعره اصفر مثل الورق القديم. وأنا اشك في ان تعاني اصابع قدميه من الثآليل على غرار باقي ابناء العائلة. ان الدهشة تطل الان من على وجهه، تصاحبها السخرية وهو يتساءل،" وهل ينبغي لي أن اقرأ الجرائد؟" وإذ رأى سحنة ابي المستغربة اضاف يقول: "أن بوسع جميع هؤلاء الصحفيين ان يقصدوني ليستمعوا الي احدثهم عن ملامح وجوه الرسامين انفسهم وعن الوجوه التي يرسمها الرسامون كذلك".

وصعق ابي "يستمعون اليك انت؟" امن جداليا يحصلون على القول الفصل في اللوحات الفنية؟ هكذا اصبحوا جميعاً وعلى حين غرة، يفهمون بفن الرسم. وقبل ثلاثة اسابيع فقط، لم يحظ بسماع احد من معارفه يتفوه بكلمة واحدة تتطرق لهذه الامور. اما الآن فحتى جداليا يدعو اليه ممثلي كافة الصحف كي يكسبها من حكمته.

"اجل، اجل ماذا دهاك. تحملق في وجهي هكذا؟ اجل يستمعون الي انا. الي انا. افما علمت بأن حانوتي، حانوت الرسامين جميعاً؟ لقد حباني الله بفضل عظيم، اذ ليس ثمة من جماعة حقيرة وسافلة كمثل هذه الفئة من الناس خذ باركو مثلاً وهو خشطاف وبلتشيك، اليسوا اناساً محترمين؟ لقد ذاع صيتهم في كل ارجاء البلاد، بيد ان حقيقتهم وجوهرهم لا يتضحان الا هنا، في متجري هذا. الا ليتك استمعت الى الاحاديث التي تدور بينهم. وكيف يطعن كل منهم صاحبه في ظهره، وكيف انهم جميعاً يبصبصون باذنابهم امامي!"

"اتبيع الاصباغ للرسامين؟!". ان بمقدوري ان اسمع رنة صوت ابي، ساعة طرح عليه هذا السؤال. لقد كان يرتجف، اذ كيف غرب عن باله حتى اليوم، ان متجر جداليا هو منتدى رسامين. اذن فمن الواضح انه يوجد هنا منفذ مفتوح على مصراعيه لمؤازرة موهبة عزيزه الغالي شموئيليك اللامعة؟ ان كل شيء يتراكم داخل اطار العائلة، ولعل جداليا قد بادر وكلمهم في هذا الخصوص .

"ابيعها؟" اجاب جداليا." اني انما اقيد ما ياخذونه في دفاتر الحسابات من اجل النظام ليس الا ، وليس لشيء الا لاعرف كم من نقودي ذهبت ادراج الرياح. انهم قبيلة من المحتالين العابثين، من صغيرهم وحتى كبيرهم رسامون! إسألني وسأجيبك عن مخبر هؤلاء الرسامين. انك اعجز من ان تستحصل منهم على قرش واحد. وليت الامر انتهى عند هذا الحد ، لكنهم يحاولون تصديع دماغي بهداياهم، حين يوجسون بأن حساباتهم قد فاضت وطفحت، يأتون الي عارضين علي قبول لوحة من لوحاتهم، ولكن هيهات فجداليا ليس بالرجل الذي يفعل هذا، وليعلم هؤلاء المستولون الذين يتهربون من الدفع، بأنهم مدينون لي وبأني لن اطالبهم بهذه الديون ولكن، اياهم ان يعتقدوا، انهم بتلك اللوحة التي يدسونها بين يدي، قد دفعوا دينهم هذا وانتهى الأمر."

اراد ابي ان يستفسر منه ان كان كلمهم في امري، لكن شخصاً دخل في تلك اللحظة، مرتدياً ثياب عمل بيضاء مدهونة بألوان مختلفة، فشرع جداليا يكوم امامه اصباغاً وزيوتاً وجبساً. وارهف ابي سمعه ليصغي الى درر الحكمة التي سيطلقها هذا الرجل من فمه، الا ان الرجل كان قليل الكلام فلم يتفوه الا بأسماء المواد التي اشتراها، ثم فحص الحساب بدقة واخرج من جيبه صرة جلدية، دفع منها حسابه، وخرج.

"من هذا"؟ تساءل ابي معتقداً انه قد حظي بمشاهدة محيا احد كبار الرسامين.

"هذا"؟ وهز رأسه باتجاه الباب وقهقه "يا كلاس (مبيض جدران). هؤلاء هم الزبائن الحقيقون. اما الرسامون- "المعرض". ولم يكن بوسع ابي ان يتمالك نفسه، "وهل حدثوك عن المعرض؟" رفع جداليا مكنسة من الشعر لينة عن الارض وشرع يكنس

مسحوق الاصباغ عن لوحة الرخام المتآكلة. وفي تلك اللحظة جمدت سحنته، جمود سحنة رجل المخابرات السرية، فلم ير ولم يسمع. كان اهتمامه كله منصباً على المكنسة.

"أسمعت جداليا؟ اسمعت؟" كرر أبي سؤاله وهو يتوجس شراً. وبدت كل لحظة وكأنها تعادل ذهباً عند جداليا، فلم يلتفت الى ابي. وبعد ان نظف منضدته عاد ادراجه ليضع اغطية براميل الصبغة في اماكنها ويحرك اكياساً ويعلق فراشي ويرتب ما على الرفوف ومكث ابي جامداً في مكانه وهو يدعك الجريدة التي اشتراها بعد لقائه بالسيد فيجيس، وقد خشي من تكرار سؤاله، واذاك ادار جداليا وجهه وتطلع الى ابي، وانتظر برهة ثم قال: "هذا امر تافه"،

"وماهو الامر التافه؟" تساءل ابي بصوت مرتعش".

"كل لمسات الاقلام هذه ان هي الا من خزعبلات الصبيان".

"ماذا؟" قال ابي وتسمر في مكانه وكأن احداً قد بصق في وجهه.

لكن جداليا لم يتراجع عن موقفه وعلى العكس من ذلك، فأن الجملة التي قالها جعلت باقي حديثه يتدفق من تلقاء نفسه.

"ينبغي التحدث معه يا عماه! ان شموئيليك فتى طيب وصغير السن. خسارة علي كل يوم يضيع هدراً: فليتعلم حرفة..."

"ماذا تعني؟ وعلى اي اساس تقول- "افلتت الكلمات من فم ابي.

"هكذا الامر يا عماه. اذ ليس من الهين ان يتقن المرء هذه الصنعة، وانا اقول لك هذا لحرصي وخشيتي على شموئيليك." وهنا، لطف من لهجته فأضاف مجاملاً:" لا اظن ان هذا من الامور الخطيرة. ان شموئيليك شاب ذكي ويمكن التحدث معه، واني لعلى استعداد للقيام بهذه المهمة. ابعث به الي وسأكلمه. سأخبره بما اعرفه عن الرسامين، وكيف ان اشهرهم واعظمهم شأناً يحيا حياة الكلاب. ان هذه المهنة ليس فيها مستقبل وعلى الاخص لمن ليس..... ابعث به الي يا عماه".

من السهل ان نتصور مدى تأثير كلام جداليا هذا على والدي، ولم يمض على حديثه مع فيجيس غير فترة قصيرة من الوقت. اغرورقت عينا ابي المتوقدتان بالدموع

وارتعش طرفا فمه ولكم كان تعاطفه مع ابنه عظيماً في هذه الساعة. كلا ليس مع ولده بل مع مجد العائلة، الذي اخذ يتلألأ ويتألق حتى بدا له ان اهانة جداليا قد جاءت عن عمد لتضعضع اركان هذه العائلة.

"وماذا قالوا؟" سيطر ابي على صوته بكل ما تبقى لديه من قوة. اشاح جداليا بوجهه عنه ملتفتاً الى احدى الصفائح ثم ادخل يده فيها وراح ينبش بداخلها وهز رأسه بمحاذاة الصفيحة -يميناً وشمالاً- وكأنه يريد القول، لا ينبغي هنا تبديد الكلمات في لاشيء!

"هكذا!" قال ابي، ولم ير ابي الرسامين الان. لقد كان يرى جداليا وحده. فهو الذي يلقي على مسمعه بهذه الكلمات وهذه الاشاحة بوجهه عنه، وهذا الانكباب على الصفائح والعلب، كأن هذا كله جاء ليعلن: "لقد اردت التعالي علينا ايها العم، فاليك الجواب، اني ومتجري هذا اهم من كل قذارة شاش لوحات ولدك. "معنى هذا ان هؤلاء الرسامين،" قال ابي، وما زال يسيطر على صوته "انهم خرس بكم لا ينطقون!"

"ولماذا هم خرس لا ينطقون؟" حملق جداليا بعينيه المحمرتين، اذ لم يدرك ماذا يقصد والدي. "ذاك هو الرد الذي اجبتني به عنهم - لقد اشحت عني ولم تنبس ببنت شفه".

"يا عم ناحوم"، وانتصبت قامة جداليا القميئة من خلف المنضدة وركن كفيه البيضاوين، بأصابعهما المتغضنة الجلد، على لوحة الرخام، وهنا بدا كواحد من ابناء الاسرة، من حيث اننا جميعاً قميئو الجسم وقال "صدقني اني لا اريد ان اغمرك حزناً".

"لا شك عندي بذلك" القاها ابي بمعنى عكسي، "وحتى لو شئت هذا فستعجز".

"يا عم ناحوم!"، عاد جداليا واعلن كمحام يخرج من جعبته آخر حجة يقذفها، وهل جئتك راكضاً لكي اخبرك بما سمعته؟ انت الذي جئت تطالبني بأن اخبرك! ذاك ما قاله باركو، وقد اعدت اقواله على مسامعك". "باركو! فجأة وجدت واحداً يسمى

باركو لتلوح به فتجعل من شموئيليك ممسحة ارض!"

"شخص يدعى باركو! ان هذا الرجل، رجل تملأ لوحاته ارجاء المتحف ويتشرف كبار رجالات الدولة بالجلوس معه! شخص يدعى باركو! ان اصل المصيبة يكمن في انك لا تعرفه ومع ذلك تتكلم...".

"ولماذا لا اتكلم؟ فهل باركو هذا صيني؟ انت استمعت لباركو، وانا كلمت رابجون!"

"رابجون؟" ويشهد ابي على انه في تلك اللحظة لمح في عيني جداليا ومضة ملؤها الشر واللؤم. "نعم رابجون! لقد اقترب مني في حفل افتتاح المعرض وصافحني بكلتا يديه وقال لي: تبورك من انجب شموئيل لرمان!"

رفع جداليا حاجباً واحداً أبرص ولم يحر جواباً. وكان يريد ان يقول "لقد عثر على من يعول عليه".

"آه"! صرخ ابي بعد ان اصبح عاجزاً عن كظم غيظه،" لقد اصبح رابجون صغيراً على حجمك! وهل هو وحده كذلك؟ والذي نشرته الجريدة هذا اليوم؟" وحشر بالصحيفة بين عيني ابن اخيه. القى هذا بنظرة خاطفة على المقال، وقال: "اذن، كليبنسكي....".

"واي غبار على كليبنسكي؟ واي عيب وجدته فيه؟ اليس حلالاً: اما من شق في ظلفه؟* ان كتابته في هذه الجريدة فيها ما يكفي من الاهمية، بيد ان جداليا لا يكتفي بها، اما لو كتب كلمة واحدة يهاجم بها شموئيليك." "ياعم... "

"لا تسمني عمك!"

"عماه!" غيّر جداليا من لهجته، على النهج المتبع مع المرضى "ما الذي يدفعنا الى خوض معركة الرسامين؟ انت رجل تقي، ونزيه انت. لكنني اعلم بأنك لم تهتم يوماً بفن الرسم".

"اما انت فولدت، والفرشاة بيدك!".

"انا لا اريد الخصومة..."

"أنا الرجل المحب للخصومات اذن!" وتشنج جسم ابي من قمة رأسه الى اخمص قدميه، من فرط الغضب. "أما انت فنصير السلام والحق! اعدو اليك راغباً في اشراكك بفرحتي، بفرحتنا كلنا، بنجاح ولدي، وذيوع صيته، وبعد ان اصبح لنا ما ترفع الرؤوس به، تهب انت محاولاً التنقيص من شأنه في نظري".

"أنت اخرق يا عمي".

"بل أنا اكثر منك حكمة ودراية، رغم انتفاخ جيوبك بالمال. ان الحسد هو الذي ينطق من لسانك، واقول لك- ما دمنا وصلنا الى قول الحقيقة- انه الحسد اجل. احقاً تهمه الحقيقة فجأة ولا بد له من ان يرشق وجهي بها؟".

"أنت الذي طلبت ذلك..."

"وهل هذا الذي طلبته؟ ان كل لوحات شمونيليك محض هراء. وحديث رابجون هباء. منشور، وكلينكسي- كلب يبول على الحائط، وانا ساذج وعاطل لا يشغلني شاغل، انا وولدي. حسناً، دعني اقول لك ان من الافضل لي ان يكون شمونيليك عاطلاً عن العمل طوال سني حياته من ان يزهو علي مختالاً بما كدس من مال. الافضل عندي ان يرسم لوحات كهذه من ان يتاجر بالاصباغ ويمتلىء بيته بالحسد والضغينة"

وعندما بلغ أبي هذا الحد من روايته، استبد به الانفعال حتى اعجزه عن مواصلة الكلام. هونت عليه الامر وقلت له ان تراب حذائه اكثر قيمة عندي من جداليا هذا، الذي تعرف الاسرة كنهه وجوهر ذاته. انه رجل حسود وشرير ولا مثيل له في عائلتنا. واضفت قائلاً، ان ما نقله من كلام باركو لا يؤثر فيّ قيد شعرة، فالجميع يعلم بأن باركو اسوأ رسام في البلاد بأسرها وان عظمته تقتصر على تبجحاته، واضفت ايضاً قائلاً لأبي وانا اطرق صلب الموضوع، انه سيحسن عملاً لو تحاشى لقاء جداليا.

هتف ابي، "لقد قلت له. قلت لـه ان قـدمي لن تدوس عتبـة داره، ما دمت

---

* اباحت التوراة أكل لحم البهائم المشقوقة الأظلاف أما التي اظلافها غير مشقوقة فاعتبرتها نجسة.

حياً، هذا رغم حبي لكل اثر تبقى في اسرتنا. لقد اخبرته بأنه طالح ابن صالح!" "احسنت صنعاً" اثنيت على ابي واضفت "فليفهم هذا الرجل، مرة والى الابد، اننا لا نرغب فيه ولا بنقوده، وان شاء فليكابر على اخوانه التجار وليبت في كنف اولئك القذرين- باركو وبلتشيك وهوخشطاف ومن على شاكلتهم".

حسناً، قلت لنفسي، لقد انتهى الامر، فأخيراً القى ابي بما كان يثقل على قلبه وروى ما قيل عني وما قاله بنفسه، فاثنيت على كل كلمة تفوه بها وانتهى الامر، الا انني لم البث ان ادركت ان الامر ليس كذلك. لقد ظلت موافقتي الحماسية، على ما قال ابي، معلقة بيني وبينه، كقربان رفضه الرب، ولقد اصبح الوقت متأخراً وسيحل يوم السبت بعد قليل وابي لا يتزحزح من مكانه، وفي تلك الساعة راودني سؤال بسيط، لقد مر على المعرض عام كامل، فلماذا لم يأتني أبي الآ في هذه الساعة- وفي امسية سبت بالذات- وهو منفعل كل هذا الانفعال؟؟

وتساءلت "ومنذئذ يا ابي؟ الم تقابله منذ ذلك الوقت؟" فاعترف بصوت خافت "لقد كان جداليا عندنا"، فقلت لنفسي، ما دام الامر كذلك فقد وصلنا الى حل اللغز، آه كم اعرف أبي!.

"أجاء للمصالحة" سألته. هز ابي رأسه ولم يقل شيئاً.

قلت مستدرجاً اياه للكلام،" لقد تذكر ان يفعل هذا بعد ان مرت سنة بأكملها".

"هو ذاك. فعندما شعر بالحاجة الي، هذا الثعبان جاءني يسعى".

"وهل كان بحاجة اليك"، ترى بماذا يستطيع ابي ان يخدم جداليا؟

"انه اكبر اخوته وقد بلغ الان الخمسين من عمره ويرغب بالاحتفال بعيد ميلاده احتفالاً كبيراً، وبناء عليه فقد جاءني واستحلفني الا اظلمه وان احضر الحفل" "آه" قرقرت الضحكة في بطني ثم طرقت شفتي المنفرجتين، اذ من يسعه التخمين بثأر كهذا، ينتقم به ابي من جداليا انه سيقاطع الحفل!. "وماذا كان ردك؟".

"كل ما يمكن قوله بهذا الصدد. لقد قلت له: لو انك جئتني وقلت، كلانا

يستحق اللوم، فأنا قد اخطأت كذلك، لكنت غفرت لك اهانتك ولجئت لحفلتك. لقد كان ابي رحمه الله يعيد ويكرر ان هيكل الرب ما كان ليحل به الخراب ولما عشنا في الشتات. لولا الضغينة بين الاخوة ، اما الان -قلت له- وبعد ان صبرت عاماً كاملاً، فأني لن اغادر بيتي. اصبر برهة اخرى. لقد غفرت لك- لكنني لن احضر هذا الحفل. كلا. لن آتي مهما حدث".

"أنت عظيم يا ابتي!" لم اتمالك نفسي اكثر من هذا فعانقته بكلتا يدي وقبلت جبينه. لقد كابر جداليا طوال الوقت بأقواله وبماله واحتقر ابي على بطالته. اما الان فسيحتفل بيوبيله بدون عمه. والدي يعرف اسرتنا، بوسعه ان يدرك مدى خطورة الحظر الذي فرضه على جداليا. لقد سبق وقلت، ان احداً لم ينج من اسرتنا الكبيرة ما عدا ابناء عمي الاكبر موشيه دافيد الاحد عشر وان ابي، عمهم، هو الباقي الوحيد من جيل الاباء. اجل ان ابي لم يحظ بهذا دفعة واحدة ففي اول امره كان مساوياً لهم وحسب، بل لعله كان يقل عنهم مرتبه، ذلك ان ابي رغم كل جهوده، لم يفلح في التعود على الاعمال اليدوية بخلاف ابناء اخيه. والحق يقال، ان انتماءه لجيل الاباء كان امراً غريباً. فلقد كان اصغر سنا من ابناء اكبر اخوته. لكنه بمرور الزمن تحدد مركزه كعم للاسرة وكان اول ما اعان على ذلك، مقدم صغار الاخوة الى البلاد، اذ كان بالنسبة لهم عماً مكتمل الصفات، سواء في سنه او في اقدميته في البلاد، ثم حلّت الكارثة بيهود اوروبا من بعد ذلك، فعلى حين غرة اخذ الجميع يشعرون بالفراغ الرهيب الذي داهم حياتهم، فراغ لم يستطع ان يملأه اي مضمون آخر، هدأت فورة الصبا ولم تجد بديلاً كاملاً عن الاسرة- بديلاً يتضمن هذه القرابة الصميمة، وهذا الحب العميق وهذه البغضاء المتأججة، وهذا الينبوع المشترك لذكريات الطفولة. لقد شرعوا بتجديد ايام ذكرى موتاهم واحياء الاعراس وحفلات الختان وكل افراحهم على الملأ، واغتنموا كل فرصة وجدوها ذريعة للاجتماع معاً والجلوس جلسة الاخوة. إن محاولة إنعاش الاسرة من جديد بحاجة الى القيادة، وكان ابي المرشح لتتويجه لهذا المركز بفضل مكانته وتعلقه بوالده وبالتقاليد، وبفضل خصاله الحميده كذلك، ولقد وضع هذا التاج على رأسه بنفس

راضية، ولم يعتبره شرفاً قدر ما اعتبره عبئاً ومسؤولية جسيمة تجاه الماضي والمستقبل.

بيد انه لا يعرف طباع ابي من يعتقد، بأن ما قدمه الان من تأكيد على قراره المعلن الذي اتخذه قبل عام، هو نهاية المطاف، لقد قيل كل شيء وانتهى وابي ما عتم جالساً في غرفتي يهتز على كرسيه بانزعاج وهو يفتح جريدة يوم الجمعة ثم يعود ويطويها، وكأنه لم يبلغ بعد قوله الفصل الذي جاء من اجله.

وعدت مبادءته "وهل الاسرة، هل الاسرة ستوافق على عدم حضورك؟"

"آه. انهم غاضبون علي. وكانت ثمة آهة عميقة معقودة في كلماته التي هوت وسقطت فيما بيننا. "كلهم. جاءني يهوشواع، ومئير، وبلوما، انهم يقولون: كيف يمكن ان تحرم الاخ الاكبر من فرحته، على نحو كهذا، وحتى لو اخطأ بحقك، وحتى لو كان فظاً معك، فان هذا يوبيله، رغم كل شيء". الحق اني لم اعرف، أكان هذا كلام الاخوة انفسهم ام ان ابي كان يجادل نفسه. مجرد عصا حاول بها ان يضرب جداليا ويهشم عظامه، اذ بماذا يمكن ان تظهر عظمة الملك؟ انها تظهر عن طريق عبيده الذين يمتدحونه ويرفعون من شأنه، واي ملك هو ذاك الذي يتنازل عن مملكته وينزح عنها. ابي- الذي لم ينعم بالراحة طوال سني اقامته بالبلاد، والذي كد وكدح وحصل على رزقه بشق النفس، وذل في سبيل لقمة العيش وعانى المرض، فبأي شيء تظهر اهمية ابي؟- انها تظهر في انه العم الوحيد وحامل مشعل جدي. كل هذا من جهة، ومن جهة اخرى فأنا ولده الذي جُرحت كرامته. و أن القدرة على الابداع التي يراها بي، هذه الشرارة من روح الله، انما هي منه واليه، فكيف اذن يرجح الكفة بيني وبينهم؟.

"متى الحفلة؟"

"مساء السبت. غداً"

"اظنك ملزماً بالذهاب، رغم كل ماحدث. اذ رغم كل شيء انت عمهم الوحيد."

"كلا" قال ابي، "لقد قررت الا ادوس عتبة دار هذا الجاهل، لكنني ارغب في استشارتك".

وتذكرت الآن ان ابي قال لي ساعة دخوله، انه جاء ليستشيرني وهذا يعني ان الامر لم يحسم بعد. وقال ابي: "شموئيليك" وكانت عيناه الان معتمتين وبعيدتين وكأنهما قد غاصتا داخل محجريهما "لقد اتخذت القرار. مافي ذلك شك. ولم يستطع الاخوة والاحفاد كلهم زحزحتي عن رأيي. الا ان تدخلاً قد حدث... "وليس بوسع احد الا من يعرف ابي مثلما اعرفه، ان يخمن فوراً، من هو الشخص الذي كان يقصده.

"جدي" قلت هامساً.

"كلا" وابتسم كالمعتذر. ورغم ان الرصانة لاحت على محياي، فقد كان يعرف اننا نسخر من احلامه التي يجيئه فيها جدي ويأمره بما يتوجب عليه ان يفعله.

"ليتني كنت استطيع استشارته... لقد كنت اليوم عند شراجا. في المستشفى".

"اجل، اخبرتني بهذا".

"لقد دعاني الى الحضور. وكان قد اعد خطاباً مكتوباً طويلاً سلمه لي واستخلفني ان اذهب واقرأه في الحفلة عوضاً عنه".

"أكتب خطاباً وهو رجل يعجز حتى عن الجلوس على سريره؟؟"

"هكذا افراد اسرتنا. لقد اراد ان يشرك نفسه ولو عن طريق الكتابة. قلت له، اني لا اريد ولا استطيع الذهاب وانه يرغمني على القيام بأمر ينافي ضميري، لكنه اصر على مطلبه".

انهم اناس يثيرون الضحك، هؤلاء الناس! لقد جرت على ما يبدو مشاورات عائلية تقرر خلالها ان يعهد بهذا الدور الى شراجا، فالى اين سيصل بهم هذا التمادي- بعد ان اشركوا بالامر رجلاً يعاني من داء عضال، رجلاً ينوء قلبه تحت طائل اعباء اثقل من هذه، قد اشركوه بمثل هذا المقلب!

"وانت لن ترفض طلباً لرجل على فراش الموت يا أبي".

"اعرف اني ملزم بالذهاب لاجل شراجا".

"ليس ثمة نصيحتان هنا يا أبي" وعندما وجدته ما زال متردداً. أضفت قائلاً:" إذا كان ترددك بسبب كرامتي، فإنني أقول لك بقناعة كاملة، لست حاقداً على

جداليا، لم اكترث بأقواله وقد صفحت عنه".

"أما انا فلم اصفح عنه!" واندلع سخط ابي لبرهة قصيرة واضاف: "اريده ان يعلم بأني لم اصفح عنه وان هذا.....".

وصمت لحظة ثم قال ببعض الحياء،لا،" وان هذا هو الامر الذي اردت ان استشيرك فيه. اريده ان يعلم بأني لم اغفر له، واني لن احضر الا لان شراجا فرض الامر علي فرضاً. ولذا فأظنني سأذهب لكنني لن احمل له هذه المرة اية هدية. لا شيء على الاطلاق، انما فقط لكي..."

لم ابتسم بل قلت بجدية- وليس من اجل ترضيته فقط، "يخيل لي ان قرارك هذا كان سيريح جدي".

ترجمة: سمير نقاش

اهارون ابيلفيلد

في جزر "سانت جورج"



* اهارون ابيلفيلد
ولد عام ١٩٣٢ في رومانيا، زج بـه في احـد معسكرات الابادة وهو في الثامنة من عمره، لكنه استطاع الهرب وقضى ثلاث سـنوات في اوكرانيـا قبل ان ينضم الى الجيش الروسي، هاجر الى البلاد عـام ١٩٤٦، ويقيم حاليـاً في القـدس، يعمل محـاضراً للادب العبـري في جامعـة بن غوريون، حصل على جـائـزة اسرائيـل لـلاداب، مـن بيـن اعمـالـه: "دخـان" (مـجمـوعـة قـصـيـة ١٩٦٢)، في الطابـق الارضـي" (مجمـوعـة قـصيـة ١٩٦٨)، "جبـل العجائب" (روايـة ١٩٧٨)، "سكة الحديد" (رواية ١٩٩١).

ضمن رحلاته وصل "شوحوفسكي" الى جزر "سانت جورج" تلك الجزر الصغيرة الواقعة جنوبي ايطاليا التي كانت في سالف العصر عامرة بالسكان والاسم الذي اطلق عليها، والذي ينسى الجميع مصدره منذ عهد بعيد، يدل على مدى القدسية التي احاطت بها.

لسنوات عديدة ظلت هذه الجزر خاوية من بني البشر كما ان النباتات القليلة تحيا حياتها الذليلة تحت اشعة الشمس.

قبل سنوات حاول المنقبون عن النفط اقامة برج تنقيب. فنقبوا ثم انصرفوا دون نتيجة. منذ ذلك الوقت وهذا المكان يعيش في سكون مطبق. بل ان السياح الفضوليين الذين تستهويهم المغامرة لا يذهبون الى هناك. وقد عرف في كافة ارجاء هذه المنطقة ان هذا المكان مقفر. كان "شوحوفسكي" منهكاً من رحلاته، لذا كانت العزلة المستمرة وحدها كفيلة بأن تزيل ادران السنين من ذاته. فأبحر في قارب تجذيف راغباً بالتخلص من

مصيره ومن التعب الذي يشيع البلادة في النفس، غير متوقع ابداً ان يجد هناك شيئاً سوى قفر لا نهائي وشمس لا نهائية، وان ينام نوماً متواصلاً كي يفعل الزمن الآخذ بالنضوج ما يشاء، في غفلة منه على ما يبدو .

في الصباح الباكر شرع الصياد العجوز بتحريك مجذافيه فامتد امامها بحر هادىء في اواخر الصيف. قال له "شوحوفسكي:" الى "سانت جورج"، فأدرك الصياد العجوز انه اصطاد سائحاً ثرياً، فلم يكثر من الحديث لكن القليل الذي تفوه به بلغة ايطالية ذات نبرة غريبة بعض الشيء اضفى على حديثه اهمية تفوق مضمونه.

شعر "شوحوفسكي" بالتقدم ذي الوتيرة المتغيرة، الذي يشده من اعماقه الى اعماق البحر. بادىء ذي بدء شعر بغثيان طفيف تحول تدريجياً الى ما يشبه الشعور بالغبطة وكأن حياته آخذة في الاقتراب من نقطة نهاية مبهجة الا انه لم يعرف كنه هذه البهجة حيث كان ينساق في بعض الاحيان الى الآثام بمثل هذا الشعور بالبهجة.

في الواقع ادرك "شوحوفسكي" ان الامر يختلف هذه المرة جد الاختلاف، فتخيل في دخيلته تلك العزلة المتصلة النقية من كل شائبة والتي ستصقل جسده المثقل، واقتنع في قرارة نفسه بأن غفراناً ما يرتقبه، فرسم لنفسه صورة شخص يقص له في المساء في مغارة، او في كوخ احداث حياته الغريبة عسى ان يكون هذا الشخص راهباً طيب القلب يستطيع ان يكشف له عن خطيئته وعن ذنبه. وكان يدرك انه بذلك لن يغتفر الذنب، فهو اعمق من ان تستأصله يد بشرية، الا انه تمنى ان تكون هنالك في الاماكن البعيدة والمجهولة من يصغي اليه ويكشف له وحده عن جريرته.

للحظة ما شعر بأنه طليق حر من اكبال نفسه، غير هارب هذه المرة، بل راحل ليسلم نفسه طواعية وقد خلص نفسه من كل ما يسمى بالاعمال والشرطة.

حتى الامس كان موزع النفس بين ان يسلم نفسه او ان يهرب فهام على وجهه حتى انتصف الليل من ارجاء تلك البلدة الغارقة في سباتها متعجباً من الطمأنينة والسكينة ومن ذلك العبق القروي. لقد كان المنظر ريفياً قروياً بكل معنى الكلمة حتى انه اثار في خلده ذكرى معروفة له، ذكرى قريته التي ولد فيها والتي

هدمت منذ امد بعيد، بل تلاشت من قلبه. كان يخطو خطواته وهو سعيد بكل ما يراه. بالاطفال ذوي البشرة السمراء الذين كانوا يغدون ويروحون شبه عراه والنسوة الحوامل والرجال الجالسين في المقهى.

اما رجال الشرطة فقد بدوا له مصابين بالنعاس في زيهم الباهت، واشبه بموظفي البلدية الذين لا يصلحون الا لمثل هذا النوع من الاعمال. اما تخشيبة الشرطة فكانت تشبه كشكاً تخفى بداخله المشروبات خشية الحرارة. ومصباح كهربائي صغير اشتعل في طرف الغرفة.

لقد بدا له ان من الحماقة ان يفصح عن امر وجوده هنا. فالقليل من السياح كانوا يجوبون البلدة وقد ظهروا بوضوح بين الجماهير بقبعاتهم الخفيفة والغريبة. لم تؤرقه افكار الهرب ولم تكن لديه ثمة خطط لذا بدت له كل السبل ممكنة. ولم يعد يشغله التوتر والكآبة. لقد تواترت الافكار كدولاب يدور بأشرطة للافلام بصورة متعاقبة وسريعة. ولبضع لحظات كانت الافكار تتبخر، وتملأ رأسه حركة سريعة بنفس سرعة صرير الدواليب. ترك الصياد المجذافين. كانا بعيدين جداً عن الشاطيء، يحفهما ماء من كل جانب، وقال الصياد محاولاً استكشاف امر ذلك المسافر ونواياه: "سنصل قبل حلول الليل".

لقد اعتاد اهل البلدة الضيوف الغريبو الاطوار. ففي السنوات القليلة الماضية مر من هنا مغامرون، لصوص، واناس يحملهم الجنون الى حيث يريد. وما ان انشيء المنتجع في جبال "فيارتا" حتى استفاقت البلدة من سباتها وارتبطت سراً بسكة الحديد الرئيسية. تساءل الصياد في نفسه: "ما الذي سيفعله هذا الرجل في ذلك المكان القفر". وقرأ "شوحوفسكي" افكار الصياد.

دائما، ومنذ كان فتياً، كانت الاتجاهات ترتسم في عقله، على الرغم من انه لم يكن يعرفها بوضوح، ولكن ببعض المعرفة دائماً وبفضل تلك المعرفة غير المكتملة وصل الى كل مكان. الان وقد اصبح في عرض البحر، والقارب يسير ويتقدم وبلا ادنى مجهود بأمكان البصر ان يستجلي المسافات. وحتى تلك اللحظة بدت له تلك الجزر مجهولة

يغطيها الضباب.

لقد احتوت الشمس الساطعة كل شيء بما في ذلك قطرة الماء الصغيرة فلا تستطيع ان تقدر وجوداً للظلمة، الا ان الضباب الكثيف وربما الحزم الضوئية التي غمرت الجزر كانت تشهد اكثر من اي شيء على ان النور يتكاثف في الليل ويتحول الى ظلام.

لقد ارتعش "شوحوفسكي" من فكرة بقائه وحيداً في الليل. ويبدو انه لم يدرك مغزى ما اقدم عليه الا في هذه اللحظة فقط. فأستيقظ التاجر الذي في داخله. في تلك الايام التي واجه خلالها الاخطار وجهاً لوجه وهو يدير اعماله بين الطرق الضيقة، تساعده على ذلك الجرأة وربما الهوس.

"هلا حدثتنا عن طبيعة هذه الجزر"؟

فتساءل الصياد وكان عمره الطاعن يسمح له باجابة غير مهذبة: "ألم تزرهما ابداً"

"ابداً"!

"المكان مقفر كوحشة القبور كما يقول الناس"؟

"ولكن الجزر تبدو جميلة من بعيد".

"أن المكان الخالي يمنح نفسه جمالاً احياناً، لقد مال البعض الى الاعتقاد، بوجود ثروات كامنة هناك. فنقبوا ونقبوا دون جدوى، هل يسمح لي سيدي ان اسأله ان كان ذاهباً للتنزه في الجزر"؟

"شيء من هذا القبيل".

لم يواصل الصياد توجيه الاسئلة، ولكن يبدو انه كان يشعر بأنه يبحر اليوم في مهمة مشكوك فيها. ولذا تملكه ما يشبه الرهبة.

اما "شوحوفسكي" فقد تذكر جميع عمليات الهرب التي قام بها، وبدت له كل ايام حياته بعد الحرب كهروب مستمر. خيل له انه يرى نهايته في هذه الكتل من الضباب التي لاحت له.

في البداية كان في فيينا. حيث ازدهرت التجارة مع الجيش الاميركي، تجارة السلع الكاسدة كما كانوا يطلقون عليها، بشكل لم يكن ليخطر على بال اي مغامر جسور. الا انها كانت تجارة تسير على خيط اوهن من خيط العنكبوت وسرعان ما انقطع هذا الخيط. كما ان التجارة مثلها مثل الموسيقى تجري الى حيث تسيطر الريح على ما يبدو. كان اضعف من ان يتمسك بشيء ما، لذا، وكأنما من خلال رغبة جامحة بالتسلية، اراد ان يوجه تجارته الى نقاط الذروة المجهولة، فكان اشبه ببرج لا يستطيع ان يحتمل شدة ارتفاعه. ولذلك فقد ادى كل شيء بأستمرار الى الخراب، ولم يكن بمقدوره ان يمنع ذلك على الرغم من انه حاول اكثر من مرة.

كان "شوحوفسكي" مكرهاً على الهرب الى ايطاليا. وقد افادته تجربته السابقة وعلاقاته في اعماله، فانتعش وغير اسمه وعاش باسمين مستعارين، وسرعان ما تأقلم مع حياة ونمط التفكير الايطالي، وكما كان متعوداً على احياء "فيينا" كان كذلك في "نابولي" و"روما" وفي جميع المنافذ التجارية التي تنقل فيها السلع.

مرة اخرى بلغت تجارته ذروتها الخطرة، خلال فترة معينة تظاهر بالثبات والاستقرار، لكنه سرعان ما انهار، ولولا القليل من النقود التي كانت بحوزته لعاد الى الديار المقدسة خاوي الوفاض. حتى في الديار المقدسة لم يستطع ان يهدأ، اذ انه فور وصوله اليها بدأت افكاره توغل في سماوات الخيال، فوجد ايضاً مرتعاً خصيباً الا انه ادرك هذه المرة بكل تأكيد بأن كل شيء سينتهي مثلما انتهى من قبل، وكان ينظر عن كثب إلى الإرتفاع الذي يعلو لكي ينهار. فر الى ايطاليا مرة اخرى وادرك هذه المرة انه لن يستطيع الافلات حيث الشراك تسبقه انىّ ذهب.

"كيف تعلمت الايطالية"؟ -تساءل الصياد.

"ان ايطاليا هي بمثابة بلدي، لقد عشت فيها سنوات عديدة".

"هل انت من اصل يوناني"؟

"لا، بل يهودي".

لم يحدث ابداً ان كشف لاي غريب عن اصله على الرغم من ان الاسماء التي

حملها طيلة حياته كانت اسماء يهودية، ولقد حبذ الا يفصح عن اصله اذ كان ينظر الى اي يهودي حتى في الاماكن البعيدة النائية على انه مخلوق ينبغي اخذ جانب الحذر منه.

اخذت الدهشة الصياد فلم يجب، الا انه ادرك انه من الواجب واللائق الرد فقال: لايبدو عليه انه يهودي، وبعد فترة من الصمت اردف متسائلاً: أيريد ان يعود به في المساء الى البر؟

"كلا" - اجاب "شوحوفسكي" بحزم.

انتصبت الشمس في كبد السماء، شمس خريفية لا تؤثر حتى في عرض البحر اضافة الى ان الشادر المشمع الذي نشره الصياد كان كالمظلة فوق الرأس. داعبت قميصه حرارة لطيفة.

قال الصياد العجوز: "أننا في طريقنا الى الجزر"، وقد بدا انه فقد هدوءه فشرع يجذف بهمة كما لو اراد ان يفرغ من هذه المهمة.

لقد حيكت في هذه المناطق الفقيرة اساطير كثيرة عن اليهود. منذ سنين عديدة لا يقطن هنا اي يهودي، الا ان بعض المسافرين، وخاصة الارمن، الذين توغلوا جنوباً بحثاً عن مصادر الرزق، اشاعوا دون قصد قصصاً واقوالاً عن اصل وطباع اليهود اكسبها الخيال الجنوبي ابعاداً اضافية. لقد بدا واضحاً على الصياد ان مجرد التفكير في انه يقل يهودياً على متن قاربه امر عسير في حد ذاته، الا انه اصبح الان في منتصف الطريق ولم يعد التراجع ممكناً، ولكن الرجل الغريب "شوحوفسكي" تصرف حياله بأدب وسخاء جمين اذ دفع له الاجر سلفاً وبصورة مرضية اكثر مما كان متوقعاً، الا ان هذا السخاء فسر من جانب الصياد بسذاجته على انه من قبيل الاغراء.

اخيراً تمالك الصياد نفسه وسأل: "ليسمح لي سيدي، ما الذي ينوي ان يفعله هناك؟"

"لا شيء"

فأدرك للتو ان المهمة ليست على ما يرام.

قال الصياد وهو ينحي المجذافين جانباً: "أنني متوجس خيفة، انني عجوز، سأعيد اليك نقودك بشرط الا تطلب مني التوغل والمسير اكثر من هذا، لقد رأيت فيما يرى النائم احلاماً مزعجة وانني لخائف من السير بعيداً".

كانت اسارير الصياد تنم عن قلة حيلة، وكان الخوف بادياً عليه تماماً الى درجة ان اسارير وجهه بدت كالثوب البارد.

امسك "شوحوفهكي" وجهه بكلتا راحتيه، وسيطر عليه شيء من الشفقة على مصيره وكأنه ادرك الان فقط ما الذي تنطوي عليه هذه الرحلة، فشرع يبكي.

تأمله الصياد العجوز دون ان ينبس ببنت شفة.

قال "شوحوفسكي" للصياد: "أخائف انت"؟ سأشتري منك القارب الاحتياطي وسأدفع لك ثمنه كاملاً، ان كنت تنوي التخلي عني".

لم يتوقع العجوز ذلك، الا ان المنطق السليم او لنقل غريزة الصياد التي بداخله سرعان ما تغلبت على الهواجس التي ملأت رأسه.

"سأزيد لك الاجر" -قال "شوحوفسكي" للصياد محفزاً المنطق السليم، "وانني اعدك بألا يمسك سوء".

بسط الصياد يده ونظر للحظة الى الاوراق ثم دسها في جيبه وكأنها تعويض يستحقه.

ادرك "شوحوفكسي" انه من الافضل الان ان يكشف للصياد النقاب عن الحقيقة الا ان تلك الحقيقة لم يضعها على لسانه، فقال في آخر الامر. لقد كسبت ثقتي وهآنذا مستعد لان اكشف لك الامر

ترك الصياد المجذاف وكأنه يستسلم برهة لقوى اشد صلابة منه. هؤلاء الصيادون الشديدو المراس الذين يتعاملون بغلظة مع زوجاتهم في البيوت، مذعنون كالاطفال.

"انني هارب من السلطات "-قال شوحوفسكي".

برقت عينا الصياد العجوز ونظر الى "شوحوفسكي" وكأن سوء تفاهم تافه فقط

قد حال بينهما، وبدا ان هذا الهمس كان غير بعيد عن ادراك الصياد.

"هل هذا هو كل ما في الامر"- قال العجوز وقد اخذت الحيوية تدب في يده الشديدة العضلات. "أن كان الامر كذلك فكن واثقاً من اني لن اتخلى عنك". وبدت في عيني العجوز سعادة الاطفال، حيث ان مثل هذا الهروب من السلطات يلقى تفهماً لا مثيل له في هذه المنطقة، ولم يحدث قط ان تم تسليم احد الهاربين.

اشعل الصياد سيجارة وحرك المجذاف، وشعر "شوحوفسكي" من خلال اسارير وجه الصياد ان خوفاً دفيناً قد زال عنه. مالت الشمس، وهبت ريح باردة على المشمع الدافيء. شعر "شوحوفسكي" ان نهايته ابتعدت عنه وان اياماً اخرى تنتظره، الا انه لم يعرف كنه ما ينتظره. كان يعي فقط أنه ترك الأعمال الحرة، وكأن شيئاً ما قد إنفصل عنه لكي يحيا حياته بدونه كالاحساس بالراحة عند التعري. غالباً ما راوده احساس بأنه لا يجمع الثروة لنفسه، وقوانين التملك والشراء تقتضي من الانسان الاعتدال، والتروي، الا انه كان دائماً يرتقي سلم المخاطر مضطراً لذلك بسبب طبعه. لقد كانت له لحظات من المتعة النفسية، بل من الممكن المبالغة والقول لحظات من السمو الروحي، فأن التجارة في مراتبها العليا على غرار اي مكيدة حقيقية، تنطوي هي ايضاً على ما يسمو بالنفس، الا ان هذا كان مكيدة من شأنها ان تنتهي بالتعقيد والانتهاء.

لقد ادرك مراراً ان مدارك كبار الموظفين ضيقة جداً، وان اصحاب رؤوس الاموال هم تافهون فكان يحتقرهم، وبدافع هذا الاحتقار كان يشق طريقه الى حيث يريد.

كان يعلم دائماً ان هذه الطريق قد تكون نهايتها فشلاً ذريعاً وان عمله ليس الا استعجال الفشل والنهاية.

تساءل الصياد بلهجة رجل الاعمال عندما زال عنه خوفه الاول وهو يفكر في مدى المنفعة التي من شأنه ان يحققها من خلال هذه الرحلة: كم من الوقت يعتزم البقاء هناك؟.

"كثيراً- اجاب "شوحوفسكي".

"وهل سنضطر الى الفراق"؟- تساءل الصياد وهو يشيع على صوته نبرة من

العطف لكي يخفي نواياه الحقيقية.

"ستأتي اليّ" -قال "شوحوفسكي" وقد عاد اليه صوته الذي ينم عن الشجاعة والاقدام. ارتفع الضباب، كالبريق الازرق الناتج عن السوائل الزرقاء المنقضة على الجزر. شعر فجأة وكأنه ينقاد الى بيته، فمنذ سنوات قطع بيته صلته به. ولم يظهر سوى زورق الاحلام من حين لاخر. ولم يتلاش شوقه الى بيته حتى في احلامه العميقة. لقد شعر اكثر من مرة انه في مهمة اضطرارية داخل هذا العالم وان هذه المهمة ستنتهي في يوم من الايام ويعود بقارب الاحلام الى بيته، وحينئذ سيحكي الكثير والكثير عن رحلاته واسفاره المدهشة في الارض، اذ انه ليس كل انسان يحظى بمثل هذه التجارب.

لحظة من سمو الروح تملكته. شيء من النعمة الالهية التي ينعم بها الله على مخلوقاته حتى لا يجعلهم اليأس مصابين بالجنون.

"قل لي شيئاً عن هذه الجزر". قال للعجوز، وكأنه قال له غن لي اغنية، واشعل بي ايقاعاً خاملاً.

شعر الصياد العجوز الذي امضى سنوات عديدة مع الصيادين بتلك النبرة اللطيفة فقال: "ما الذي اقوله؟! ان الجزر قاحلة وقد حاولوا منذ سنوات التنقيب دون جدوى. لا شيء فيها سوى احجار واحجار".

"الا يقطن هناك اي انسان ابداً"؟.

"على ما اعتقد لا. كنا منذ سنين، على ما اذكر، نتوقف هناك بشكل مؤقت- كنا في ريعان الشباب وكنا ننقل ما نصطاده من اسماك الى الشمال حيث نحصل على ثمن عال".

استطرد العجوز في ذكرياته السحيقة، وشعر "شوحوفسكي" ان سني عمره قد ضاعت دون رجعة، ولت هناك وسط المضاربات العالية وتوارت وظل هو على قيد الحياة.

علامات الانفعال تلاشت من على وجه الصياد فأخرج من حقيبته طعاماً احضره معه وشرع في قضم رغيف الخبز الاسود. بالتأكيد كان يفكر في امر هذا الضيف

العجيب اما بالنسبة "لشوحوفسكي" فقد كان له بمثابة مبعوث يقوده الى بلد مجهول، وانهماكه في الاكل دليل على ان الحياة ما زال لها طعم، لقد زاد له في الاجر بضعة قروش لكي يرى اليد المرتعدة وهي تجمع المليم تلو المليم.

"هل ستأتي الي"؟ سأل "شوحوفسكي" وكأنه شعر فجأة بأن لحظة الفراق باتت وشيكة. فتفوه العجوز قائلاً: "بالتأكيد"، ولم يعرف ان كان ما قاله شيء من قبيل المواساة ام مجرد وعد لا يقصد تنفيذه.

حتى تلك اللحظة كانا ما زالا بعيدين عن الجزر وقد اخذت الشمس تهوي نحو المغيب واضواء جميلة اضفت نعومة على المكان، انتابه ضعف نتيجة للتعب.

لقد ادرك انه سيصير عما قليل اسيراً بين يدي الليل، وقد كانت كلمات الصياد اشبه بالكلمات التي تغدق على آذان من يساقون الى المقصلة لكنه لم تكن لديه اي شكوى! وجد الصياد ان من الواجب ان يسري عن "شوحوفسكي" وان يهدىء من روعه، فحدثه انه كان قد تورط في الثلاثينات مع السلطات واضطر الى البقاء في المنفى بالشمال حتى نشوب الحرب، وقد نسيت التهمة، واحرق الملف الخاص به، وعاد في النهاية ليجد ان ابناءه قد شبوا عن الطوق وصاروا رجالاً وان زوجه قد هرمت.

اصغى "شوحوفسكي" اليه دون ان يعي العبرة من وراء قصته.

اراد ان يحكي للصياد عن مغامراته التجارية وعن كل ما يدعى تجارة في اجواء اخرى، الا انه ادرك ان هذه الامور ستكون بعيدة عن ادراك العجوز بل وسيعتبره محتالاً، وعليه فقد قال له بنفس اللهجة السابقة مشفوعة بعدم الثقة: "هل ستأتي لزيارتي"؟

"بالطبع، وسأحضر لك ايضاً بعض الزاد".

تذكر "شوحوفسكي" انه كان قد اجرى ذات مرة حديثاً من هذا القبيل وفي ظروف مماثلة لكنه لم يتذكر اين كان ذلك، لقد توارت ذكريات الطفولة بسبب التجارة وخبت كما تخبو النار دائماً في مكان ما في قرارة النفس، واحياناً كانت هذه الذكريات هي الهمس الوحيد الذي كان يسمعه ولكنه لم يعرف من هذا الذي يتحدث اليه بهذه

الرقة.

ان المناظر لا يشملها اي تعميم، فهي دائماً، اشجار وشوارع صورة الأم وصورة الاب. انهم يحيون هكذا دائماً في سكونهم وحركتهم، احياناً يرافقونك واحياناً اخرى يتوارون لكي يروك تسير وحدك. لقد شعر ان شيئاً ما يحمله بداخله يسوقه الى اللغز، شيء ما اكبر منه ومن اشغاله، ولربما كانت تلك فقط لعبة الاضواء التي اضلته لكي يفكر بهذا النحو.

هتف الشفق وأخذ يتلاعب بالنار من الاعلى والاسفل، ولم تكن العينان قادرتين على احتواء هذا الزخم.

"اين ولدت"؟- سأل الصياد وكأن شيئاً هاماً ينقصه، وعيناه الفطريتان تتلمسانه بنظراتهما مثلما يتأمل الصيادون المياه.

في ليشتشيك"- اجاب "شوحوفسكي" دون ان يشعر بأن الامر سيكون غير مفهوم بالنسبة للصياد.

"لم اسمع البتة عن مثل هذه الدولة".

"ليست دولة، بل مدينة".

"لقد سمعت بأن اليهود ليس لهم مكان ثابت".

"صحيح، ولكنهم يولدون في مكان معين، ويسمون بأسم هذا المكان دائماً، حتى لو كانوا بعيدين عنه، وحتى ولو لم يعودوا اليه الى الابد".

شعر "شوحوفسكي" أنه الى حد ما اجاب نفسه ايضاً. فمنذ سنوات لم ينطق لسانه بأسم مسقط رأسه. ولم يجب ابداً بمثلما اجاب به الان. لقد كان مدهشاً بنظره انه اجاب بهذا الشكل.

تلاشى الضباب، وبسطت الصخور المنتصبة اطرافها صوب البحر كما لو كانت مخلوقات تجمدت وهي تقف مزمجرة، وقد تجمدت في مناخيرها تلك الزرقة السماوية.

"اننا آخذون في الاقتراب"- قال الصياد.

ابحرت السفينة في البحر، والقوارب ابتلعها الافق. واضحت في مهب الليل الوشيك الاقتراب.

"لو حدثت لي معجزة"- كان هذا الهاجس يراوده اكثر من مرة، الا انه حينها كان هناك هدف لطلبه، لقد استجدى القلب المعجزة الان دون ان يطلب سواها. شيء ما بداخله اراد ان يقتحم الدهاليز الطويلة للمنطق السليم الا ان العقل كان محصناً تحصيناً جيداً امام امكانية اقتحامه. متمسك بالوعد. غض "شوحوفسكي" نظره فوجد ان القارب مليء بحقائب الطعام. لقد اعد بالامس زاداً للطريق، فقد كان تفكيره سباقاً هذه المرة ايضاً، رحّالة مخضرم يدرس المنطقة. التقطت مجسات تفكيره دائماً ما هو متوقع، وغالباً ما كانت تهتم بخط الرجعة وبالانسحاب. وقد كان التفكير هذه المرة بما هو متوقع فقط ولم تكن هناك اي امكانية ولو بسيطة للتراجع.

دخلا الى المياه الضحلة إذ شعرا بالارض من تحتهما واستقبلتهما نتوءات صخرية بدت مثل حراس مدينة اخذتهم سنة من النوم بعد ان اصاب مدينتهم الخراب، فأصبحت مشرعة الابواب، لكل من هب ودب.

ارخى الليل سدوله. وكان حلوله ابسط بكثير مما توقع، بدون مراسيم. قام الصياد بنقل الامتعة الى اليابسة. وهناك سيطر الظلام واصبح سيد الموقف.

لم تتبق الا كلمات وداع... تملك "شوحوفسكي" شعور بالخوف من البقاء وحيداً. أطلت من بعيد أنوار لم تكن واضحة تماما بسبب بعد المسافة. هدر البحر وكأنه اخرج آنّة دفينة .

"هلا بقيت معي هذه الليلة"؟... قال "شوحوفسكي". وهو يشعر بأن الضعف هو الذي يتحدث بلسانه، الان عاد الى طبيعته، وقد غابت عن ذاكرته الاسماء العديدة بما في ذلك الاسم الذي اطلقه عليه ابواه.

"اجرك مضمون"..... اضاف.

"كم"؟

"لن نختلف على ذلك"

عندئذ استجاب العجوز، فقاما بجذب القارب الى الداخل واحضرا الشادر المشمع. حفز العمل السريع عضلاته واعاد اليه همته الكامنة. "قد يكون هذا الرجل هو آخر شخص التقي به". هذه المقولة فقدت مصداقيتها الان. اضاءا قنديلاً وشربا القهوة. كان ذلك الجو اشبه بأيام الغابات عندما طورد حينذاك لم يعرف ان اياماً مماثلة ستكون في انتظاره، لعدة ايام ارادت هذه المناظر ان تتطور وهي لا تزال تطارد بعضها البعض.

حصل العجوز على ما اراد. فجلس يروي عن ايام صباه عندما كان الصيد حرفته وعندما كان الخروج ليلاً مقترناً بالغناء، والسعادة في الصباح كانت كاملة كالشمس. اصغى "شوحوفسكي" اليه وكأنه اراد ان ينغمس بنفسه في ذلك العزف الرتيب للكلمات، لكنه لم يكن قادراً على الاصغاء لانه كان غارقاً في بحار من التفكير الذاتي.

كم سنة مضت منذ ان فر الى الغابات....؟ عشرون عاماً! وربما اكثر ... فتى صغير في غابات عديدة، الم ينته بعد هذا الهروب.

غط العجوز في سبات عميق تاركاً اياه وحده كي يتعود على ايام اخرى حين يكون وحده خمد الموقد واطلت النيران من داخل الرماد الذي خبا. كم كان احمق في طلبه هذا! انه كالطفل الذي يخاف من البقاء بمفرده في الظلام. ربما لم تكن مخاطراته وحيله الا للتحايل على الخوف. لقد تعقدت اعماله وبقي الخوف.

داعبت النسمات قميصه. كم كانت عجيبة تلك الصفقات الاخيرة في الديار المقدسة، لولا ذلك الرجل وتلك المرأة. الف ساعة ذهبية صغيرة. صندوق في داخل صندوق، قاع بداخل قاع. من الذي وشى به. لولا الوشاية، لما انكشف الامر. لكن هناك دائماً في الحلقة من هو غير راضٍ وخائف. وهكذا تتحقق الغاية. لقد تحطم كل شيء فجأة، وانكشف من تلقاء نفسه، من هم اولئك الوشاة، المتسللون، اصحاب المصلحة البسيطة الذين يفشلون الغاية الجريئة؟.

انه لم يسأل، بل ان "شوحوفسكي" آخر هو الذي سأل، شيء ما بداخله طرح

هذا السؤال.

كانت اعماله في الديار المقدسة قصيرة الامد، قصيرة وجريئة. في الديار المقدسة قابل رفاقه الذين تعامل معهم في "فيينا" الا انهم تزوجوا وانجبوا واشتغلوا في اعمالهم.

احياناً كان يقول لنفسه: عما قريب سأتزوج، ولكن في كل مرة كانت تلوح من مخابئها صفقة ما، تلهب الخيال وتقيده. لكن كانت هناك ايضاً لحظات من المعنوية العالية. لقد وصلت السفينة، والشخص الذي كان مكلفاً بنقل المتاع نقله ، وفي الليل مع انطفاء الانوار كان الذهب وحده منيراً. تذكر ان اسمه ليس "شوحوفسكي". انها دهشة متأخرة انتابته على حين غرة. بطبيعة الحال لن يناديه احد هنا بأسمه. لقد كان ذلك في "فيينا"، عندما وفدت طلائع اللاجئين وازدهرت التجارة. وكانت هناك حاجة الى هويات وجوازات سفر. وحدث ان توفي شاب بأسم "شوحوفسكي". كان والداه من مواطني "النمسا"، وبعد الحرب اعادوا له جميع حقوقه. حين كان شاباً، يناهز الخامسة والعشرين قفز وهو عار في نهر "الدانوب". وحدث ان شخصاً ما استولى على الوثائق الخاصة به وباعها. منذ ذلك الوقت سمي "شوحوفسكي". لقد انتحل العديد من الاسماء، وقد استخدم هذا الاسم، كلما سمحت له الظروف بذلك. كان يعتقد احياناً ان هذا الاسم هو اسمه الحقيقي. لكن من حين الى آخر، في الليل كان يسمع جرس اسمه فكان يثور ويصيح: لست "ليبيل"، انني "شوحوفسكي".

كان اسمه الحقيقي "ليبيل جوتسمان" لكن هذا الاسم مات منذ فترة في الغابات عندما انتحل اسم "يانوش" اتقاء لشر الاغيار من غير اليهود. اطل الصياد العجوز برأسه من داخل المعطف وقال: "انه الفجر". وكأنما هناك من اخبره في نومه بأن الفجر قد بزغ. لم يكن الفجر قد لاح بعد في الافق لكن النسمات التي تبشر بمقدمه لامست صفحة الماء.

ان العجوز وعد بأن يأتي اليه، شوحوفسكي لم يصدقه، لكنه ضاعف له الاجر. قال له سنلتقي. وعادت له لغة التجار وكأنه يريد ان يقول: هل تعتقد انني لا ادري.

كانت تلك لغة التجار، وهي من آثار العهد الغابر، بضاعة كاسدة.

"هل انت يهودي"؟ وقف العجوز للحظة وقد ارتسمت علامات الاستغراب على وجهه.

"نعم يهودي".

"لقد قيل انهم قضي عليهم جميعاً في الحرب".

"ليس كلهم".

"الاخيار منهم على ما اعتقد بقوا على قيد الحياة" -قال العجوز ذلك وشيء من الورع ارتعش على شفتيه الغليظتين. ابحر العجوز. واشرقت الشمس من البحر. شعر "شوحوفسكي" ان شيئاً ما قد اخذ منه، ومن جسده. جال بناظريه كان امامه بحر كبير، قارب صغير، هدير صامت ينبعث من داخل المياه، فهمس "سانت جورج".

الان فقط آخذ يسمع العزلة، عزلة لا نهائية. لقد اقتادته السنون الى هنا ضاعت لغة التجار، فتركت فيه صمت الجزع. فضاء منذهل، يبحث فيك عن موطيء قدم، يتحدث بصمته الصاخب.

شيء ما اجتذبه الى داخل الجزر. لم يكن ذلك من قبيل الفضول، فقد استولى عليه ظمأ حارق منادياً اياه ان ينساق وراءه، فذهب مثلما كان يستجيب في الماضي لنداء اشغاله.

صعد على تلة منخفضة. فحلق فوقه زمن لا نهائي متمثل بالسماء. ابطأ خطواته وكأنه شعر بعدم جدوى الاسراع. ثم صوب عينيه شطر السماء فأصابه الدوار.

على قمة التل كان في انتظاره منظر ما. ساحة شاسعة من الجبال المحفورة ترامت امام ناظريه. لقد اضحى عاليها اسفلها، تشهد على كارثة كانت قد وقعت منذ عهد قريب. كانت الصخور تتكيء على بعضها البعض، معلقة بخيوط واهية. يبدو وكأن قوة خارقة زلزلتها من مواضعها. انتصب السكون متحجراً هنا على نحو غير مألوف، وكأن هذا هو موطنه. كان واضحاً ان الصخور قد صعدت من الداخل منذ فترة غير بعيدة وانها لم تكتس بعد بلباس الأمور الساكنة كان لباس آخر منسوجاً عليها. تذكر

انه كان قد قيل له بالفعل بأن عمليات تنقيب جرت هنا الا انه لم يكن يقدر مدى هذا التنقيب. لقد تلاشت الحسابات وتعطل التفكير كما لو كان في منام لا تشوبه الاحلام. شعر باستنزاف قواه وبوطأة الشمس الخريفية. لو استطاع ان يبسط الشادر المشمع فوق رأسه لكان في ذلك بعض الراحة،إذ أنه لم يشعر بمثل هذا الانهاك من قبل. لقد تواترت سنوات الصبا دون متاعب، طافت في شتى البلدان واظهرت مراراً وتكراراً ان هناك امكانيات كثيرة للهرب وان من الممكن خداع العالم اجمع بما في ذلك الشرطة والميليشيات المسلحة وحراس الحدود والجمارك.

كان ذلك منذ سنوات عديدة حيث رحل مع ابيه في قافلة الى "ساديجورا" بمحاذاة النهر، وطوال الطريق لم يكفوا عن الغناء. قذفهم الاشقياء بالحجارة لكنهم واصلوا المسير والغناء، وانقض على القافلة الاغيار الشمالي ولكنهم واصلوا المسير والغناء، وكأنما ارادوا ان يقيموا الدليل على أنه يمكن السفر و يمكن الغناء معاً. في ذلك الحين لم يكن يدرك ان هذه هي المنافسة مثلما لم يدرك ان الاعمال الحرة ايضاً هي عبارة عن منافسة. الاقوى انتصر. وعلم دائماً ان لكل امر نهاية في وقت من الاوقات لكنه لم يعرف ان الامر سينتهي على هذا النحو. لقد تخيل في نفسه اعتقالات مؤلمة، وضرباً مبرحاً لكنه لم يتخيل مثل هذا الاعتقال.

المؤونة موجودة اسفل التل. لقد اشتراها منذ يوم او يومين. وتراءت له الفترة القصيرة التي مكث خلالها في تلك البلدة الايطالية بعيدة، وحتى الصياد اصبح خارج نطاق الوجود الفعلي.

"انهم يبحثون عن "شوحوفسكي"- قال في نفسه وقضم. كان به شيء ما من الرضا، فلقد نجح مرة اخرى في خداعهم، ولكن هذا الرضا لم يكن كذلك الذي كان في الغابات. حينها فرحوا. بدت له تلك اللعبة المتصلة خرقاء لم يصرخ "انا مستسلم" لكن قلبه كان مستسلماً.

اخذته سنة من النوم فتحت ابواب الاحلام. شعر اثناء الحلم ان ذلك واقع هش، فأبطأ من خطاه حتى لا يعرقل مسيرة الحلم الدافق. وصل الى النهر ووقف

بجواره، المياه تتدفق، قال متعجباً من هذا التدفق الوديع. وقد انحنت اشجار الصفصاف بذؤاباتها على جرس تدفق المياه، ترامى الى سمعه من بعيد صوت طاحونة. منذ سنوات عديدة لم يسمع صوت طاحونة. ولكنه سمعها الان بوضوح... كانت قدماه تجريان بخفة فتعجب من هذه الخفة التي تحمله. قنوات مياه الطاحونة كانت مليئة، وكان دولابها مسرعاً، العربات المحملة بالاجولة تحيط بها من كل جانب، ولان الجياد كانت نائمة فقد مر من تحت اقدامها وكأنها ليست بجياد. احتشد الاغيار من الطاحونة. كان يعرفهم لكنه لم يتذكر اسماءهم.

فجأة ابيض كل شيء في الظلمة الدامسة. تكلم الاغيار فيما بينهم وتناثر الدقيق من افواههم، ووقفت نساء الاغيار وقد نما الدقيق في شعورهن. وبدا واضحاً انهم يتحدثون الى بعضهم البعض محاولين التغلب على بعضهم البعض، كان والده يقف قرب الميزان محاولاً ان ينفض عنه الدقيق المتناثر من جميع المنافذ.

نهض "شوحوفسكي" وهتف قائلاً: انه حلم. للحظة معينة توقفت الكلمة ثم تلاشت وسط صخب الامواج. شعر بأنه كان بعيداً عن نفسه، بعيداً عن منامه. توارت الشمس وهبت نسمات باردة على قميصه، ثم لاحت في الافق قوارب صغيرة لم يستشعر سيرها على صفحة الماء.

تذكر انه لم يأت الى هنا الا منذ يوم واحد فقط، وان صياداً عجوزاً نقله بقاربه فاوصدت ابواب الحلم فأصبح هنا بكل جوارحه. امامه بحر لا نهائي ومن خلفه انتصب التل وحقيبتان مليئتان بالزاد لم يمسهما احد. هب واقفاً على قدميه شاعراً بأن مزيداً من الرؤى ما زالت كامنة بداخله، لقد سربها في الطرق والمحطات وجميع المخابيء التي توارى فيها. غمرت قلبه سعادة غريبة. "انه سر احتفظ به لنفسي" همس في نفسه. لم يكن ذلك هاجساً بل ما يشبه السعادة لما نسمعه من همس وهو همس يطفو من اعماقنا. شيء شبيه بهاتف يهتف دون ان يسمع له صوت يقول له: هناك مخرج، لقد وجد المخرج وهو كامن فيك.

عندما نهض مبكراً كانت الشمس في كبد السماء. كان الحلم ينبض في

صدغيه. غسل وجهه بماء البحر وعاد اليه وعيه. "لا بد لي ان اذهب"- قال في نفسه، الا انه ادرك على الفور ان الاعمال الحرة قد توقفت منذ فترة، وان لا شيء يضطره للتحرك. تذكر ان الارض الواقعة فيما وراء التل قد نبشت من اعماقها، وان الصخور معلقة بخيوط واهية. ورغم ذلك ارادت قدماه السير فسار اثرهما.

ارتفعت الشمس الخريفية وخفت وطأة اشعتها. وزحفت السحب الخفيفة ببطء، كأنها تستكشف ما حولها، وتبشر بقدوم الشتاء. كان يرتدي ثياباً صيفية. خطا ببطء آخذاً جانب الحذر، من كل موطىء قدم.

انتصبت امامه خرابة فيها فتحتان. ابتسم لهذا الاثر البشري. ثم هبت نحوه رائحة عفن ثقيلة، ورائحة غائط بشري، انتابه للحظة ما خوف من بني البشر. ان بعض الصيادين المهربين توقفوا في هذا المكان منذ عهد قريب، ان آثار موقد النار وصفائح المعلبات وعلب السجائر. تدل على انهم حلوا بالمكان قبل فترة وجيزة. تعبير واضح عن الاشمئزاز، لسبب ما ذكره هذا المنظر بمحطة قطار مهجورة، فانتابه ما يشبه دوار شديد، وكأن عربات القطار قد انفصلت عن بعضها البعض لتوها.

على بعد خطوات من هنا، تعيش النباتات البرية القليلة دون اي عائق، والنتوءات المتآكلة حتى تلك الأشكال التي صممتها الطبيعة. ظهرت المناظر الصغيرة فأبهجت ناظريه. نبتة مزهرة، صخرة، واشواك زرقاء، للحظة معينة تملكه العجب لهذه الحركة الصامتة، لقد عاد اليه شيء ما، لو التقى بأحد البشر، لتدفق السيل الدافيء الذي في داخله بشكل كلمات. اراد ان يسجد ويصلي ويعترف، ولانه لم يجد احداً لم يجد الكلمات في قلبه فقد جلس في موضعه ليستريح. فجأة شعر بأن نفس الغفوة تحاول التسلل الى جفونه.

سار حتى وصل الى النهر ووقف امام برك الماء، وبما انه علم ما حدث في الطاحونة فقد يمم شطر البيت. كان الحاخام "سمحا" تاجر البهائم مقبلاً نحوه وقد ابيضت لحيته كلحية والده وقطيع من البهائم يسير وراءه أفلا تدري انه يقودها الى الجزار. سارت البهائم من ورائه وهي تثير الغبار كما لو كان راعيها. لقد عرفته

البهائم ولكن الحاخام "سمحا" لم يعرفها. صاحت البهائم " مو، مو" بصوت يشبه صوت الرياح، وسار الحاخام "سمحا" خلفها مستغرقاً في التفكير. فنادى: "حاخام سمحا" سار الحاخام "سمحا" ولم يسمع النداء، لكن البهائم فقط اجابت: "مو". "مو". "مو". لقد اراد ان يحذرها من مغبة الحاخام "سمحا"، ولكونها بهائم لم تفهم كلام الانسان وسارت وراء الحاخام "سمحا".

ظهر ابن الحاخام "سمحا" الاصغر الذي درس معنا في الكتاب، وصاح: "مو"، "مو". لقد درس طوال السنوات في الكتاب بل ونجح في ان يتعلم لغة الطير والحيوانات ايضاً، الا انه ظل صغيراً كما تركناه. نادى : "يوديل". فهم "يوديل" بسرعة خاطره انه "ليبيل" الذي غير اسمه الى "شوحوفسكي". وقال له: لا تنادني "ليبيل" بل "شوحوفسكي" وبدأ يلقي بسرعة آيات من مصحف الصلاة ومن اسفار الانبياء- حتى وصل الى الاية "وليفقد الوشاة كل أمل" ثم توقف. ادارت البهائم رؤوسها وكأنها ادركت ما قيل.

جلس الحاخام جاد المعلم في مقصورة النساء وعلم الاطفال. وتلا معهم الاية: "وليفقد الوشاة كل أمل" بترتيل وتفخيم. وما ان فرغ حتى قال: لا تناد "ليبيل" بل قل "شوحوفسكي" ثم بصق وبصق وراءه جميع الاطفال الذين درسنا معهم في الكتاب.

اراد ان يصعد اليهم الا ان جميع الابواب كانت ضيقة مثل جحور النمل وحتى السلالم. ولما لم يستطع الصعود اليهم قال: لاذهب الى النهر واعود في الوقت المناسب الى البيت. وبما انه وصل الى النهر سمع صوتاً منبعثاً من المياه فأدرك ان "شوحوفسكي" يناديه من اعماق الماء واستغرب كيف وصل الى تلك التفاصيل، وقال الجميع انه اغرق نفسه في "الدانوب".

تذكر الاية التوراتية: "وعلى الماء انشأها". ومعنى ذلك ان كل شيء ماء، ولا حدود بين ماء وماء. ثم قال: هآنذا مستعد لان اعيد لك اسمك حيث امتلك اسماء عديدة. ولانه اراد ان يعيد للغريق اسمه، شعر بأن الاسم ملتصق به وبأنه عاجز عن التخلص منه. هنا سبح الفتى كالسمكة ثم توارى عن الانظار.

ايقظه ضوء الصباح. كان بعيداً عن الحقائب "في الواقع انا هنا"- قال في

نفسه. كانت الارض تحت قدميه النائمتين. شعر بأنه قد انتشل من خضم الزمن الا انه بقي كما هو مثلما قذف به القارب الى هنا. تجعدت ثياب الصيف، ولم تعد على هيئتها الاولى. واذا لم يوجد انسان فسيرهن الى حرارة الاحلام، وفي يوم ما سيتجمد مثلما تتجمد الاشياء في الثلج، وربما سيظل الجسد المتجمد في احلامه لايام عديدة.

اشتاق الى وجه انسان. اصابه فزع النوم. تذكر مدينة القدس وحي "جيئولا" و"شعري حيسد"، كانت تلك فترة من الهدوء النسبي الا ان التفكير كان مشدوداً الى البضائع التي في البحر والتي في الميناء والى الرجال الذين ينقلون البضائع. غالباً ما كان يقول في نفسه: لقد حظيت بأن اكون في القدس. وكان هذا مجرد كلام. كان يلتقي احياناً برفاقه الذين كانوا معه في الغابات وكان يستغرب من هدوئهم وآدابهم التي تنم عن السيادة، وكان ينأى بنفسه عنهم. وفي بعض الاحيان كان يشعر بأن شيئاً يحترق ولّما تلتهمه النيران، واحياناً كان يستغرقه التأمل فيقول: ها هي ذي جبال مؤاب. وفي حي "مئاه شعاريم" كان يصغي الى احاديث النسوة، فيقول مندهشاً: انهن يتكلمن الييديش. تواترت امامه مناظر القدس يجلوها نور الخريف الرقيق، فبدت وكأنها نقية وغارت في اعماقه.

أفاق قائلاً: "انني هنا منذ بضعة ايام". ظهرت في الافق بضع قوارب. واستقرت شمس الظهيرة على سطح الماء.

اسلمه الوهن الى النوم، وعندئذ بدأت احلامه في التدفق: وجد نفسه في البيت، جميع السنوات قادته الى البيت.

جلس والده الى المائدة ووجه ابيض من الدقيق الذي نثره عليه الاغيار.

"انا ليبيل" - قال

فأجاب الاب: "الا نعرف ان اسمك هو "ليبيل"؟"

"ان الناس يخطئون ويطلقون علي اسم "شوحوفسكي" على نفس اسم ذلك الشاب الذي القى بنفسه في الدانوب".

"يجب على المرء ان يدقق في افعاله".

"طوال حياتي سأسمى شوحوفسكي".

"لقد سمعت بأن الناس في الديار المقدسة اطلقوا عليك اسم "توشينسكي".

لقد اشتريت هذا الاسم بملاليم في "فيينا" من ذلك اليهودي، كانت لديه جوازات سفر عديدة. كان يشبهني، انظر! انظر!"

"من هو ذاك "توشينسكي" الذي ينتحل ابني اسمه"؟

"لقد مات منذ فترة".

"هل انتحلت اسماء الموتى لكي تحيا".

"لقد استطعت بفضل هذا الباسبورت فقط ان اجتاز الحدود".

"وسافرت الى "روما" مع المتسولين".

"ان اللاجئين الذين استقروا على الساحل، ارادوا ان يسيطروا على العالم من خلال التجارة، وقد جرت هناك معاملات تجارية مدهشة، واذكر منذئذ احد الشبان وهو ابن الحاخام "مكاماتشوك" الذي صاح معلناً: لقد انفتحت ميازيب السماء، لكن احداً لم يوله اهتماماً لانه كان مجنوناً، مجنوناً للغاية".

"لقد قالوا عنك بأنك كنت في الديار المقدسة".

"لم تكن لدي اي فكرة، وقد وصلت الاشغال الى طريق مسدود، وقالوا لي ان الملاذ في الديار المقدسة وحدها".

"برتقال ونبيذ "ريشون ليتسيون".

"لقد كنت في الديار المقدسة، صدقني انني كنت هناك، لم اكن في "صفد"، ولم اكن في "ميرون" بل كنت في الديار المقدسة. وكنت مشغول البال".

"بأي شيء كنت مشغول البال"؟

"بفيينا"، في معسكر الانتقال، قالوا لنا ان الاعمال الحرة ستمنح من الان الى اسرائيل، وحيث انها آلت اليها فقد قلنا: سمعاً وطاعة".

"صه".

"لقد تملكنا العجب من المناظر ومن الشائعات، الا ان بعض الثقاة قالوا بأن

الاعمال آلت لاسرائيل، بل قالوا ايضاً انه من خلال الاعمال يستطيع المرء ان يرتقي سلم المجد".

"صه".

ولكن من واجبي ان القول -ولا تعتبرني افاكاً- بأنه كانت هناك لحظات رائعة، وصلت البضائع من الشمال والجنوب، من الشرق والغرب. كالغيث المنهمر. ورأينا ان الحظ قد ابتسم لنا. حقاً كانت لدينا مخاوف، ولكننا رأينا بأم اعيننا ان الحظ يبتسم، وكان هنالك رضى عارم، لم يكن له مثيل".

"اذن فتلك افعال المنجم والعراف والمشعوذة".

"ولكننا لم نع بأن ذلك عمل سحري. اني اعلم انه ليس من حقي ان اقول ذلك، لكن الصفقات كانت مدهشة، لقد قمنا في "فيينا" برشوة المسؤول، والجيش قام بتزويد الفوائض. وفتحت امامنا جميع الحدود وكأنه لم تكن هناك حدود البتة".

"او لم تروا ان ذلك من قبيل السحر وخطف الابصار؟ لقد توافرت لنا جميع المؤشرات".

"ان الصفقات كانت عظيمة، كانت اكبر منا".

"لقد اخبروني بأنهم رأوك في القدس".

"ان الخريف في القدس، خريف كهذا لا تجد في العالم اجمع".

"لا اصدقك".

"وهل تعتقد يا ابت انني كذاب"؟

"انني لا اؤمن بالشعوذة".

"لقد طفت في الديار المقدسة طولاً وعرضاً وكأنني لم اكن في الديار المقدسة، لانني لو تفرغت للتأمل لما كنت تفرغت للاعمال،.... او ليس ذلك عجيباً"؟

"ان طريق الشعوذة كلها عجب".

"لقد كان من الروعة بمكان تدبير الصفقات في الديار المقدسة"

"او لا يحترق الانسان هناك"؟

"ولكن في الخريف يا ابت، تنخفض السماء وتدنو من جبال "مؤاب". وبمقدور الانسان ان يرى من برج "تلبيوت" زرقة السماء وقد استقرت على جبال "مؤاب".

"ليس من حقي أن اصدقك".

"اردت ان اسأل عن امر واحد وهو: اليس ذلك الا قوة السحر؟"

سطع النور، وتلبدت غيوم الشتاء المنخفضة فوق جزر "سانت جورج". واقترب زورق ما، غشي "شوحوفسكي" الخوف من العزلة، كذلك الخوف الذي يستشعره الانسان في ليالي الشتاء، عندما تطوق الثلوج القدمين. لقد ادرك ان شيئاً ما قد انجلى له من خلال الحلم لكنه لم يستطع فك رموزه. تاقت نفسه لاي مظهر انساني، ولأي وجه بشري، وللكلمات. فمنذ سنوات لم يتحدث مع اناس، حيث تطلبت اعماله سرية، وانطواء، وتغيير محل الاقامة. حتى وهو في القدس غير الحجرة احياناً حتى لا يتواجد في مكان واحد بعينه. وعندما كان يلتقي بأحد الاشخاص فعلى عجل ومن خلال الرموز بلغة لكناء هي لغة المهربين.

في الليل تم الاكتشاف، ففي اقصى الطرف الايمن من الجزيرة ومض نور، استطاع ان يلحظه من فوق التل. زحف ضباب واطيء فوق الصخور المقتلعة التي تشامخت مستندة الى بعضها البعض. لقد وجه النور نفسه تجاهه وكأنه يد بشرية. لو كان له صوت لصاح. الا ان الدموع غلبته فانثالت من عينيه.

لم يعد الذنب ذنبه، فقد امتزج في اعماقه واصبح شيئاً لا يمكن ان يسمى ذنباً.كما لم يعد يتولاه الجزع.

اراد العودة الى بني البشر، لا بالخنوع ولا بالمصالحة. بل كتآخي الطيور مع بني جنسها، كانسان تشده صورة وجه الإنسان. في تلك الاثناء لم يقل في نفسه لمن هذا النور؟ فقد ادرك ان هذا النور اضاءته يد بشرية.

للوحدة قوانينها الخاصة بها مثلها مثل المخدر الذي يغير مسار حياة الكائن الحي. تارة كان يقول الف دولار، وطوراً كان يتحسس العملات الذهبية، واحياناً كان يجلس ويخطط للهرب، وقد بدا له ذلك الان بعيداً وكأن الامر لم يحدث له هو نفسه.

وقف يتأمل النور، فكر في المسافة وفي امكانيات الوصول الى المكان، وبدون قصد منه استيقظت بداخله تلك القدرة التي حسب بفضلها ذات مرة تقدير المسافات، فقدر المخاطر وتكهن بالصعوبات.

ذهب النوم عن عينيه تماماً، استطاع ان يقدر كل شيء طبقاً للمنطق السليم. وانتابه ثانية ما يشبه الشعور الذي انتابه قبل ايام معدودة من اطلاق سراحه. ففي الغابات آمنوا بأن الحياة ستعود الى طبيعتها بعد ان تضع الحرب اوزارها.

لكنه ما ان افاق اليوم حتى خرج الى حال سبيله، وجد نفسه مرة اخرى في بلد العجائب هذه. كان ذلك اشبه بالايام الاولى التي اعقبت الافراج عنه؟ قبل ان يعرف امر المصيبة، فقد اكتظت الغابات بقافلة عسكرية وتدفق الناس شمالى على وقع سرعتها، واجهته صخور، وفي اجزاء متفرقة من الارض نمت نباتات من الشوك الازرق، وقد بدا له ان تلك هي لحظة ازهارها الاخيرة، وقف يصغي لصفير الرياح. والان لاحظ وجود بقايا معلبات وملابس بالية في الطرق. فمنذ سنوات مشى هنا الناس. خطا ببطء ثانية الى المنطقة الانسانية،وكأنه مجال لا ينبغي التخوف منه.

وجد نفسه محاطاً بسور من الصخور، بدا واضحاً عليها انها قد اخرجت من باطن الارض منذ سنوات فقط وقد التصقت كتل من التراب باطرافها، ولكنها مثل سائر الجمادات اضحت رمادية اللون واصطبغت بصبغة المكان. توارى كوخ في اطراف الساحة الرحبة حتى خيل الى العين انها ترى هناك شكلاً من اشكال القفر.

وقف رجل عند المدخل، تسمرت عيناه للحظة وكأنها ارادت ان ترى بذلك هيئة ذات شعر. امتزجت الالوان ببعضها للحظة، قبعة استوائية باهتة اللون، بنطلون كاكي ولحية بيضاء.

"من انت"؟ -صاح الرجل، وجمدت الكلمات في الجو.

"انا" -اجاب وقد توقفت قدماه عن المسير.

دنا منه، كان ذلك مخلوقاً بشرياً كاملاً، وقد بدا واضحاً من وقفته ان هذا مكانه منذ سنوات. ولكي يتغلب على اضطراب قلبه تساءل: "هل سيدي هو

حارس"؟ -ادار الرجل رأسه وكأنه يوشك ان يعود ثانية الى الكوخ. لقد دل حجم جسمه المفرط واعتدال قوامه ويداه الغليظتان على انه بالفعل حارس. ولا يوجد ما هو انسب منه لهذه المنطقة النائية. ظهرت على وجهه تجعدات طويلة٠٠ وبدا واضحاً من خلال الكلمات القليلة والثقيلة التي تفوه بها انه لم ينطق بكلمة منذ وقت بعيد.

"أسمي "شوحوفسكي" -قال وهو يمد اليه بيده.

"وانا "فينتر" -اجاب الحارس.

تلاقت نظراتهما، كما لو ارادت الابتعاد بعضها عن بعض ترددا قليلاً ثم وقفا.

"يهود"؟ -قال شوحوفسكي" كما كان يقال ذات مرة.

نكص الحارس وكأنه شعر بأن جسماً غريباً قد غزا عالمه.

"اجل" -قال الحارس، فقد كانت كلمة "يهود" غريبة على لسانه وكأنه ينطق بها فم يهودي.

شعر شوحوفسكي" بأنه شوش على استمرارية السكون. لقد تراءى الرجل بشكل لا يقبل الجدل انه ابن هذه المنطقة. لا يمكن ان يكون مولوداً الا هنا.

"يهود" - قال "شوحوفسكي" ثانية "لقد هربت من ايدي السلطات وابحث عن مأوى في الجزيرة، صفقات معقدة لم يحالفها النجاح".

"آها" -قال الحارس، وكانت تلك من مخزون مفرداته اللغوية.

"من الممكن ان البحر وربما الشمس اججا فيّ لواعج الشوق لبني البشر، اقوى من الجوع، ومن العطش ومن الخوف".

دخلا الكوخ: سرير، فرشة، ابريق فاحم وامتعة مؤقتة يحملها الانسان معه في ترحاله. لقد عمل منذ سنوات اجيراً لدى شركة التنقيب بصفة حارس. جرى التنقيب لمدة عامين متواصلين حتى اتضح بما لا يرقى اليه الشك بأن الارض مقفرة في باطنها ايضاً. لقد تركت معدات التنقيب وهو عاكف على حراستها، وقد نال منها الصدأ. صاحب رأس المال لا يريد التخلي عنها، ولربما تخلى عنها الا انه يقوم بدفع اجر

الحراسة بانتظام. حيث يأتي اليه ها هنا كل شهر مبعوث يحمل اليه الاجر والطعام.

في هذه المساحات الشاسعة تفقد الكلمات جرسها. حيث يعتاد الانسان على سماع صفير الرياح، ازيز المطر، زمجرة الصخور وصياح الطيور. يجلس الحارس وعيناه مشدوهتان. الكلمات تخرج من فمه متلعثمة، وعندما كان "شوحوفسكي" يتحدث كان يصيخ السمع، وكأنه يستمع الى اصوات منبعثة من بعيد. حتى لاول وهلة يخيل لك، انه قد نسي لغته الأم. الا ان الكلمات القليلة التي يتفوه بها تدحض ذلك الظن.

"لقد كانت مضاربات كبيرة" - وجد "شوحوفسكي" في نهاية الامر الصيغة المناسبة.

حملق الحارس بعينيه، تحرك بداخله شيء ما، فقد غمرته عشر سنوات من التواجد في جزر "سانت جورج" في حالة من الجمود، لكنها لم تسلبه تعابيره الانسانية. فقد اعتقد في البداية انه سيعود الى المدينة بعد بضع سنوات ليفتح متجراً لبيع المنسوجات الا ان تلك المشاريع ارجئت مع مرور الزمن.

"متجر للمنسوجات" - قال الحارس، وكانت للكلمة مغزى آخر من وحي خيال "سانت جورج". وبغتة يشعر الانسان بأن هناك عالماً وجزراً بأسم "سانت جورج"، هيئتان ينوي البحر الدمج بينهما. "منسوجات"، ثم نطق الحارس لهذه الكلمة عن انها قد خلقت هنا، فإن متجر المنسوجات الذي كان يمتلكه والده قد امحى من قلبه واصبح نسياً منسياً.

استراحت آلات التنقيب تحت الشوادر الثقيلة، وقد اصابها الصدأ منذ فترة، وحتى الغطاء تهرأ على الرغم من تظاهره بالتماسك فالشمس هنا تأتي على كل شيء حتى الاحجار لا تقوى على الصمود امامها.

لقد نبش باطن الارض، وتمت زحزحة الصخور عن اماكنها. الا ان لعنة "سانت جورج" تحققت تماماً، لم يجدوا اي شيء في هذا القفار. وعما قليل ستزول آثار التنقيب وسيزول اثر ذلك الجهد. مثلما لم يعد يتذكر احد بأن المكان كان في يوم من الايام سجناً. فكل شيء ينطلق هنا، كما يبدو، الى التحلل الى عناصره الاولية الثابتة.

لو كانت للحارس القدرة على الكلام لروى بكل تأكيد ما الذي اكتشفه هنا ويبدو شبه طحلبي الا ان الكلمات جمدت لديه. وبدت تعبيرات اخرى، وكأنها لا تمت الى الكلام بصلة. تفرس "شوحوفسكي" في وجه الحارس كما لو كان لغزه التائه.

صدرت عنه بعض الالفاظ. انتصب الحارس بجسده المتماسك الذي ازداد صلابة في هذا المكان. مخلوق ناشيء في هذا المكان. اخيراً، تماسكت المقاطع في كلمات لديه وقال "شوحوفسكي": "انك من نفس منطقتي"، والتمع في عينيه ما يشبه البريق.. وفي نفس الليلة بات في كوخ الحارس.

لقد انطمس كل ما حدث في الحرب من ذاكرته ولعله تناسى كل شيء بعد بذل جهود وتجارب، حتى يستطيع العيش هنا. لم يرو شيئاً عن ذلك "لشوحوفسكي"، الا ان "شوحوفسكي" شعر فجأة بأنه اقتحم منطقة مغلقة، ومن الافضل له الابتعاد بأسرع وقت. ونظراً لان الحارس احس بنيته هذه قال له: انه عندما يحل الشتاء بوسعه ان يجد مأوى لديه، فالصدأ لم يصب كل شيء ففي الجراج بعض الاجولة والشوادر وبوسعه ان ينام طوال الشتاء.

اكتست عينا الحارس مرة اخرى بنفس الوميض البارد. واعرب "شوحوفسكي" عن اسفه على الازعاج الذي سببه له.

قبيل الفجر خرج "شوحوفسكي" ميمماً شطر الحقائب. لم يقل له الحارس الى اللقاء، ولم يسأله عن وجهته. ولكنه عاد وقال له: ان بوسعه ان يجد مأوى له في الجراج اثناء فصل الشتاء، ثم توقف للحظة وهو مستدير الظهر وتوجه الى مغارته.

مرة اخرى وجد "شوحوفسكي" نفسه امام سلسلة الجبال والشمس الباهتة ورائحة البحر. ادرك انه التقى مع شخص ما ولكنه لم يتذكر مع من.

اشتدت غربته عن البحر والصخور والقى الاعياء بثقله على كاهله ثانية.

بهت لون الحقائب، وتعفن الطعام... ادرك انه كان في معية شخص قريب، وانه ابعده عنه.

في جزر "سانت جورج" لا بد للانسان من ان ينفذ الحكم بعيداً عن المجتمع

البشري ولكي يستشعر خطاه ويتطهر منه بعيداً عن ملامسة يد انسان.

في اثناء تجواله في الجزيرة صادف مجموعة من المهربين. اتخذوا من الجزيرة محطة مؤقتة وهم في طريقهم الى اليابسة. كانوا اربعة اشخاص صغار السن ونحاف الاجسام بينهم يهودي واحد. اشترى منهم علب سجائر ومعلبات. وكانت تلك آخر اعمالهم قبل الشتاء. اذ انهم لا يخرجون الى البحر في الشتاء. روى له اليهودي انه انضم اليهم منذ عام. وانه القي القبض عليه مرتين وانه تمكن من الهرب، وان امر اعتقال ينتظره على اليابسة ولكن على الرغم من ذلك عليه ان يعود. لاحظ "شوحوفسكي" بعين التاجر ان اليهودي ينشغل بالامور التافهة، وانه سيلقى القبض عليه ذات يوم، وفي نفسه شفقة على ذلك اليهودي الذي سيلقي القبض عليه في يوم من الايام ولن يجد من ينقذه.

بدأت بواكير الامطار في الهطول. ودفعت معها القارب الى الشاطيء، وقد سعد "شوحوفسكي" بالرجال الذين يستطيع الجلوس معهم الى ان يكف المطر عن الهطول. بسط امامهم بسخاء ما إشتراه منهم من طعام وجلسوا يتناولونه. انهم يقومون برحلة واحدة كل اسبوع الا ان الشخص الذي في الياسبة يبتزهم، مهدداً بتلسيمهم. فتذكر اعماله التجارية، انه ادار اعماله عن بعد، اما هؤلاء فبأجسادهم وبمجاذيفهم المتواضعة يسافرون اسبوعياً.

عاود اليهودي وروى بألم بأنه لا يكل عن طلب العون كما قص له عن رحلاته الاسبوعية التي لا نهاية لها. لقد تزوج وزوجته تطالبه بالمال. وقد اراد منذ سنوات الهجرة الى الديار المقدسة، مع جميع اللاجئين الا انه تزوج ولم يهاجر.

فقال "شوحوفسكي" انه قد فر من الديار المقدسة منذ عهد قريب، نظراً لتعقد اعماله هناك ووصولها الى طريق مسدود.

هكذا جلسا يتجاذبان اطراف الحديث وتذكرا ايام الغابات، عندما كانت هناك حاجة لتغيير مكان وجودهم يومياً دون ان يخلفوا وراءهم اي أثر.

توقفت امطار الشتاء، وجاءت ايام من الانحسار. لعب الاغيار الورق، تشاجروا

ثم تصالحوا على زجاجة نبيذ كحولي. كانوا سكارى ومع ذلك ارادوا السفر. وبين سباب من هنا ولعنات من هناك جذب المهربون قاربهم الى البحر.

نظر اليهم "شوحوفسكي" ملياً وكأن شيئاً ما قد اجتث من داخله فأبحر. غالباً ما اقتادته التجارة الى المجهول، الى اللغز الكائن في علم الغيب، وعندما يهجر الانسان اعماله فكأنه يعترف بفشله. اراد ان يقول لذلك اليهودي شيئاً ما ولكن ذلك اليهودي كان اسيراً في زمرة اولئك الاغيار فلم يقل له.

حل المساء وهبطت عليه رحمة السماء حيث تجمعت كل الطرق في داخله. بكى دون ان يذرف الدموع على خديه. ترامى الى مسامعه رنين اجراس من بعيد. كانت تلك اصوات لا يستطيع الآ السكون ان يجعلها بمثل هذا الوضوح. اعتقد في البداية بأن هذه اصوات اليابسة، وعندما اشتد الرنين ادرك ان ذلك دير "سانت جورج" وانقطع الرنين. وتوقفت الساعة السادسة في العالم للحظة معينة.

جلس اياماً تحت الاسوار وسمع الرنين. كان الصوت يتبعه طيلة الايام بل ووصل الى هنا. لقد ادرك الان ان السبل وصلت مرة اخرى الى طريق مسدود. فألقى بالحقيبتين في البحر. غير بعيد من هنا يجلس "فينتر" في كوخه، الا انه لا يمكنه حتى الان الذهاب اليه، ربما سيذهب اليه في الشتاء. وربما لن يذهب اليه الى الابد. ان "فينتر" وحده بصمته الرهيب بامكانه ان يشعر ما لا يقوى اللسان على النطق به. "فينتر" فقط.

بشكل لا ارادي قادته قدماه صوب رنين الاجراس حيث تجاوز تل "فينتر" ومرجه حتى لا يكون في مجال رؤيته. من الان لن يخشى شيئاً باستثناء عيني "فينتر". مرة اخرى استقبلته بقايا نفايات الحضارة. صفائح، معلبات، وعلب سجائر. ان الجزر غير مأهولة بالسكان لكنها ليست مهجورة تماماً.

فوق احدى الروابي انتصب الدير. ابوابه مفتوحة على مصراعيها. بلاطه الحجري الاملس ردد صدى وقع اقدامه. الجدران شامخة عالية.. نادى ولكن ما من مجيب. لقد شهدت نظافة المكان على ان يدآ بشرية تتولى العناية بالنظام فيه الا ان تلك اليد

البشرية اخفت نفسها. نادى ولكن ما من مجيب. انتشل ماءً من البئر وشرب. كان متعباً، لم يكن ذلك تعبا فيه بعض الامل، وانما يأس، يبغي الانطواء في جنبات النوم الدافئة، الا انه كان معرضاً لنور النهار والشمس اللافحة، تلك الشمس التي تشيع النور من اقصى العالم اقصاه، ولا ملجأ منها حتى بداخل الساحة المغلقة. الابواب تؤدي الى ساحة اخرى ومن هناك الى ساحة اخرى··· لقد تقلص العالم هنا في شكل مربعات صارمة.

كثيراً ما طلب اللجوء في الاديرة، لكن الرهبان رفضوه. وكان يبدو انه لم يأت هذه المرة ليطلب المأوى·· لقد ساقته قدماه الى هنا. تذكر اعماله كمغامر خارت قواه لم يبق له الا فرحة الذكريات·· كم كانت عظيمة لحظات السعادة. انها بالتأكيد ليست اكثر من لعبة مسكرة وعلى الرغم من ذلك فان السكير لن يمنع نفسه عن الكأس.

تذكر خالتيه العجوزتين المقيمتين في "يافا". لقد ذهب اليهما في زيارة خاطفة لم يكررها. جلستا تقصان عليه فجلس مصغياً، شارداً ومنقلاً الى المناطق المعزولة في ذاته، كل صغيرة وكبيرة محفورة في ذاكرتيهما الهرمتين. لم يرو لهما عن نجاحاته التجارية واكتفى بالحديث عن اسفاره، الا انهما شعرتا من جراء قلقهما بأن الامور لم تسر على ما يرام فقالتا له: "اترك، اترك"..... فلم يعاود زيارتهما. لقد اراد طوال الوقت ان يزورهما ليبشرهما بالاخبار الطيبة لكنه لم يفعل، ولربما هما الان على قيد الحياة وتتذكرانه بحسرة.

ترامى الى مسامعه وقع خطوات... اقترب منه راهب.... فنهض من مكانه. لقد كانا معاً قصيري القامة بجوار الجدران الشامخة.

"مرحباً بك"- حياه الراهب وقد بدا ان هذه التحية مألوفة لدى الراهب وبهذه التحية يستقبل كل غريب. لم يكن "لشوحوفسكي" طلب معين فقال: انني عابر سبيل وجئت لمشاهدة الدير.

لسبب ما ذكره طول قامة الراهب بالحارس "فينتر". كان ذلك مجرد تشابه من ناحية المظهر بحكم تأثير المناخ والبيئة واللذين يتركان كما هو واضح اثرهما على

جميع المخلوقات هنا.

بدا عليه انه يعرف الاصغاء، وقد لاحظ بالتأكيد ان الذي امامه ليس عابر سبيل مر هنا صدفة، بل قضية من قضايا الحياة تستوجب الاصغاء اليها. آداب الاستقبال استدعت ان يروي له عن المكان، الا انه اراد ان يستفسر اولاً عن شخصية الرجل.

استجاب "شوحوفسكي" له ومد يده قائلاً: "شوحوفسكي"، ان كان يحق لي تقديم نفسي". وشعر فجأة بأنه كان يقدم نفسه بهذه الطريقة لدى اتصالاته بكبار الموظفين لرشوتهم. وكانت تلك نبرة تثير اهمية ما، اما الان وفي هذه الظروف المختلفة، فقد بدا ذلك تصرفاً متكلفاً.

"فرصة سعيدة"- قال الراهب وقد بدا بالفعل ان كلام "شوحوفسكي" الذي قيل بلكنة ايطالية غريبة، ولكن بنبرة قوية، كان له اثر كبير.

"من اين انت ان كان لي ان اسأل"؟

"هارب من السلطات"- قال "شوحوفسكي" بنفس النبرة، ولكنه ادرك على الفور ان من الافضل التصرف بنحو آخر فقال: "منذ شهر وأنا هائم على وجهي هنا".

"بالتأكيد بطريق الخطأ"- قال الراهب، وكأنما لا يريد بذلك ان يعبر عن نفسه وانه كما يبدو من اولئك الذين يطالبونه بتسديد الديون.

"ليس بطريق الخطأ"- قال "شوحوفسكي" حتى لا يخفف وطأة الامر. لقد تذكر انه في الشتاء اثناء وجودهم في الغابات كانوا يطرقون بالحاح أبواب الكنيسة صارخين. "الرحمة ايها النصارى،" الا ان ذاك القلب النصراني لم يتأثر ابداً، ولذلك لم يرد الان ان يخفف الحكم لا بالنسبة له ولا بالنسبة لغيره.

"لا يمكن تصور ذلك"- قال الراهب، كان له وجه ممتلئ لا يعبر عن شيء سوى التسليم بالواقع.

"ليس بطريق الخطأ" قال ثم عاد وابدى تعابير جادة.

"الى هذه الدرجة من الخطورة"؟

"لقد ضيعت نفسي في الاعمال الحرة".

ابتسم الراهب لكي يخفف وطأة مقولته.

شعر "شوحوفسكي" ان الكلمات قد عادت اليه. فقد اخفت طوال السنوات نفسها في الشعارات والرموز، اما الان فقد طفت في اعماقه. ليست كلمات المساومة ولا كلمات التشكي، بل كلمات تعبر عن ذاته، كما يبدو." لقد ضيعت نفسي في الاعمال الحرة"، قال.

دعاه الراهب لمرافقته. الابواب الضيقة كانت تؤدي الى ساحات مغلقة مضاءة بنور الكلس. فراغ ثقيل ملأ الفضاء. ونور الشمس ساد المكان بلا حدود. هبطا معاً السلالم وقد تقلص الضوء الى شبه ظلال ممتدة. وصلا الى قاعة فسيحة يدخلها ضوء غير مباشر. خرج الراهب لتحضير كوب من الشاي، وجلس "شوحوفسكي" على مقعد خشبي. لم يتضح ارتفاع القاعة بسبب الظلام.

في الايام التي ابتسم له الحظ فيها، وربما في تلك الايام فقط، عرف انه سيضطر للمثول امام العدالة في يوم من الايام، كان ذلك تملصاً ادى به عبر طريق طويل الى المحاكمة.

اطل الراهب من وسط الظلمة وعباءته تنسحب وراءه على البلاط، خشخشة حادة بعثت القشعريرة في الجو.

"ان جزر "سانت جورج" تفتح ذراعيها للتكفير عن الذنوب"- قال الراهب وارتشف الشاي، "ان الانسان قد يتورط ويقطع الصلات فيعود نور الرحمة ويتلألأ".

كان ذلك صوتا خارجياً، والفكر وحده بامكانه ان يبدعه، غير أن اقلب يشعر بأنه لا يجب الا تسمى ذلك تورطا. تفرس الراهب في وجه "شوحوفسكي" محاولاً فهم الافكار المتدفقة. فقال له: قلما يصل رجال الشرطة الى هنا. تخيل "شوحوفسكي" في نفسه كيف سيبقى هنا، وسيكنس القاعات مثلما فعل ذلك وهو فتى، في احدى قرى "اوكرانيا" القليلة المنازل. كان في هذه التأملات ما يعزيه في ساعة الغروب الدامية.

"من اين قدمت"؟ -سأل الراهب بنبرة ابوية.

"من "ليشتشيك"- اجاب "شوحوفسكي" وقد شعر بأنه قد صرح للرجل بشيء شخصي. "من بولندا"- اضاف.

"أنك تجيد الايطالية".

"لقد مكثت عدة سنوات في اليابسة" وتذكر انه كان قد سمع هذه الكلمة من المهربين منذ مدة وجيزة. "قدمت بعد الحرب".

من اين قدمت الان"؟ -سأل الراهب ثانية.

"من أرض اسرائيل" وشعر مرة اخرى بأنه يتحدث عن امر شديد الخصوصية.

ربط الراهب بين التفاصيل المختلفة، واستنتج بعض الامور من خلال امور اخرى، حتى ادرك من يكون "شوحوفسكي" ومن اين أتى، ومن اجل ماذا رحل، ولاي سبب وصل الى هنا. وانتصبت امام ناظريه خارطة الطرق المتقاطعة.

"من أرض اسرائيل"- لم يستطع الراهب السيطرة على دهشته فقال هامساً: "اتيت من الاماكن المقدسة".

"القليل منها فقط"- قال "شوحوفسكي" وقد شعر بأن شيئاً ما قد شد وتوتر في اعماقه. فأخبره الراهب انه سيسافر الى "أرض اسرائيل" بعد نصف عام وربما قبل ذلك، هكذا ابلغوه وسيحل محله راهب آخر.

قبيل المساء القى الشفق بنوره على قضبان النافذة. تذكر الخريف في القدس، احياناً كان يذهب الى حي "تلبيوت" كي يمتع ناظريه بالزرقة الزاخرة. اما عن الاماكن الاخرى فلم يكن يعرف شيئاً حيث كان ملازما لطرق في المثلث القدس- تل ابيب- حيفا.

انه في الخامسة والاربعين من عمره، في نفس عمر الراهب، لكن السنين استوفت حقها منه حتى النهاية، اوردته الى المكان الذي قاده اليه خياله ولكن ليس الى ذاته. تذكر المساء الاخير في اليابسة، وتجواله في البلدة الايطالية الناعسة، والعجوز الذي اقله بقاربه. ويبدو ان اياماً عديدة قد مضت منذ ذلك الوقت. اكثر مما تصور. عندما اوغل المساء وابتلع الظل كل نور باستثناء نور الشموع، نهض الراهب من مقعده وقد

كست عباءته الطويلة قدميه. خطا الاثنان في الظلام، عبر مداخل ضيقة. هدوء كثيف استقبلهما في الاركان. القمر والغيوم سارا في الاعالي وبعض نورهما زحف على جدران الساحة. ادرك، ان الراهب سيرتب له مكاناً للنوم. فقد تاقت اعضاء جسمه المتعب الى الفراش، ذهب الراهب للصلاة وبدأ رنين الاجراس يدوي مرة اخرى، فعلى الرغم من ان الراهب يعيش وحده في الدير الا انه يدق الاجراس بشدة وكأنه يدعو الرعية الى الصلاة. لقد تعود المكان على ذلك، ولا بد ان الصوت يصل الى كوخ "فينتر" ايضاً، في الشتاء فقط بامكانه العودة اليه.

غداة اليوم التالي عمل مع الراهب في البستان حيث اقتطفا آخر ثمار التفاح المتأخرة في النضوج... للحظة معينة تعجب من دماثة اخلاق الراهب، ولكنه سرعان ما انهمك في العمل ولم يعرقل سيره المتصل.

هكذا مرت عليه الايام. القطف والتعشيب جعلا ظهره محنياً للعمل. وبعض روح المصالحة اثرت عليه. عند الظهر جلسا يتناولان الطعام. روى له الراهب خطط سفره، وسأله ان كان على استعداد لتعليمه قليلاً من اللغة العبرية، حيث يتوق منذ سنوات لدراسة الكتاب المقدس بلغته الاصلية. تذكر "شوحوفسكي" فجأة انه يجيد لغة اخرى الاّ ان تلك اللغة لم يتداولها لسانه منذ فترة طويلة. حتى وهو في ارض "اسرائيل" لم يتحدث بها.. او ليست هذه لغة؟ لاحقته اعماله ولم يبق لديه متسع من الوقت للتعجب.

احياناً كان يجلس وترانيم من فصول الصلاة تتردد على لسانه وكأنها تنبع من مصدر خفي لا يمكنه وقف نبعها.

كان يتلو والراهب يصغي اليه. الا ان الكلمات كانت مترابطة مع النغمة بسرية وتنوق. استغرب الراهب من هذا التنغيم الذي لا يستطيع بدونه ان يتلو سطراً واحداً. "هكذا يتلون عندنا"- قال وشعر ان الحياء يغمر وجهه. اقترب الشتاء، تجمعت السحب على جزر "سانت جورج" وبدأت رياح الليل تزمجر. ردد الراهب بضع كلمات شفاهة، وصوت نطقه الغريب يتردد في ارجاء القاعات. اغلقت الاحلام ابوابها، لكن

الخيال اعاده في بعض الاحيان الى منزله، منزل صغير فوق احدى الروابي، وفي اسفله طاحونة.

حفظ الراهب فصولاً عن ظهر قلب، عوناً له في الطريق حيث سيتوجه عما قريب الى ارض اسرائيل.

وذات مساء عندما جلس الاثنان في الشرفة قال "شوحوفسكي" انه لو سرد كل ما صادف في الطرق التي سلكها لوعت الآذان الغريبة بالتأكيد مغزى الامر، ولكن الانسان الذي مر في تلك الطرق فأنها بالنسبة له تتدفق وكأنها نهر.

كان الشتاء على اشده، وانهمرت الامطار بلا انقطاع. اعد الراهب لنفسه طعاماً. ما بين موجة وأخرى في هطول الامطار، كانا ينزلان الى البستان لاحضار الخضروات... اخذ العمل في الانحسار تماماً وتقلصت الحركة واوصدت ابواب الحلم. العينان تريان فقط ما يعرض عليهما.

"أين توقفنا- قال الراهب.

"قضية العجل"-

"كله مصنوع من الذهب كله مصنوع من الذهب".

"ألم يصنع عمداً"؟

"من الذهب الخالص... من الذهب الخالص".

عندما انتهى الشتاء وبدأت براعم اشجار اللوز في النمو في البستان، تأهب الراهب للصلاة واعد العدة للرحيل الى الاماكن المقدسة. استيقظت جميع انواع الجزع والذعر مرة اخرى مع اطلالة الربيع، وكأنها قد اغمضت عينيها للحظة واحدة فقط. كل شيء تأهب لحياة جديدة كما يبدو، حياة تريد ان تستنفذ كل طاقاتها ثانية وبصورة مستمرة حتى النهاية. هاجت في نفسه اشواق لايام الغابات، الا انه تذكر على الفور ان تلك لم تكن غابات بل اشجار، كل شجرة وظلها، اشتاق الى فينيا الا انه تذكر مباشرة الازقة المظلمة. سيطر عليه فقط منظر خريف القدس كما لو انه لا بديل له. الا ان هذا فقط خريف وزرقة وعبير، خلفهم جميعاً البيت فوق الرابية والطاحونة الصاخبة اسفله ..

تحاول اليد الامساك بهما ولو للحظة واحدة الا انهما يطلقان كالحلم.

"يستطيع الانسان ان يبدأ من جديد، تلك نعمة البعث التي من بها الخالق علينا" "اين تلك البداية؟ ولربما من الافضل ان نتساءل: اين النهاية، او ان ننتظر خمس سنوات لتنسى، بل حتى يأتي النسيان على كل شيء في داخلك ثم تبعث ثانية من صميم النسيان شخصاً اخر.

من اجل ذلك، ومن اجل ذلك فقط اتينا الى هنا. لانه ان لم يكن كذلك فستجد الاورام الخبيثة اماكن اخرى لا حصر لها ترتع فيها.. علمني فن النسيان وسأبدأ من جديد. هل تعرف يا سيدي "فينتر"؟ قال وقد شعر بصقيع العزلة. "غير بعيد من هنا".

لم يأت الراهب الذي كان من المقرر ان يخلفه. الا ان الدير كان يألف ايضاً ان يبقى بدون اناس. اغلق الراهب الابواب بالمزاليج وعاونه "شوحوفسكي" في سحب الامتعة.

وقف على الشاطىء مرة اخرى تماماً كما كان يوم قدومه، ولكن بدون ملابس الصيف، لقد اعطاه الراهب بعضاً من ملابس الشتاء لكي يستطيع التدثر بها في هذه الاثناء.

ترجمة: يحيى اسماعيل

اب . يهوشواع

صمت الشاعر المتواصل



* ا. ب . يهوشواع :
ولد عام ١٩٣٦ في القدس. درس الادب العبري والفلسفة في الجامعة العبرية يعمل محاضراً للادب العبري في جامعة حيفا. يعد من اشهر كتاب القصة والرواية في اسرائيل، وقد حاز على جائزة اسرائيل للاداب عام ١٩٩٥. من بين اعماله:
"موت الرجل العجوز" (مجموعة قصصية، ١٩٦٣)
ثلاثة ايام وطفل" (مجموعة قصصية، ١٩٧٥)
السيد ماني "(رواية،١٩٩٠) وقد ترجمت رواية "العاشق" (١٩٧٧) الى اللغة العربية (١٩٨٤).

- ١ -

امس عاد متأخراً مرة اخرى وعندما دخل لم يجشم نفسه ابداً عناء اخفاء امر دخوله، كأن رقادي لا داعي له، تردد وقع خطواته فترة طويلة في الشقة الخالية، وفي الممر اضيئت جميع الانوار، واخذ يقلب الاوراق دون توقف. واخيراً ركن الى الهدوء. فمضيت اتلمس طريقي ثانية نحو نوم الشيخوخة، الخفيف، المتداعي. اضف الى ذلك، المطر. فمنذ ثلاثة اسابيع والسماء، تمطر علينا باصرار، وشلالات المياه تصقل الزجاج، حتى اصبح دقيقاً.

اين يتجول في الليالي؟ لا يمكنني ان اعرف. لقد افلحت ذات مرة في تعقبه على امتداد بعض الشوارع. غير ان صديقاً قديماً، وهو كاتب عنيد، صادفني في احد

اركان الشوارع، وامسك فوراً بطرف ثوبي واثناء ذلك اختفى الفتى.

بسبب الامطار يتحول هذا المنخفض، الى مستنقع من الاسفلت والرمل والماء. تل ابيب في موسم المطر، بلا تصريف للمياه، وبلا مخرج، تكثر فيها البحيرات. والبحر من بعيد، معتم بعض الشيء، ملوث، هادىء، وكأنه تقهقر من هذه المدينة العملاقة وتحول الى خلفية لها.

انها ليست الخامسة بعد، وها هي الشبابيك تصبح رمادية. ماذا جرى؟ لقد تبدى لي في الحلم، انتصب امامي بوضوح، غير بعيد عن شاطىء البحر على ما اظن، واختفت في حضنه بعض الطيور الداكنة، التي سيطر على حركتها. فاجأتني بسمته. انتصب امامي، وصوب نظره نحوي، وابتسم ابتسامة فاترة.

الآن يعلو من غرفته صوت شخير خفيف. وانا على يقين، انني لن استطيع مواصلة نومي. غداً او بعد غد ستبحر سفينة اخرى، واغلب الظن اني في نهاية المطاف سأصعد اليها، وهذه الضائقة التي تكتنفني ستزول في النهاية. أنا متأكد من ذلك. علي فقط ان احافظ على كرامتي حتى لحظة الوداع. كل ما في الامر بضع عشرات من الساعات.

رغم اني لا اراه الان، انا موقن، انه يغط في النوم. يداه على قلبه، عيناه مغمضتان، فمه مفتوح، وانفاسه واضحة.

- ٢ -

علي اولاً ان اصفه. ان ارسم هيئته. من حقي ان افعل ذلك لانه كما يبدو فأن شكله قد اكتمل، مع انه لم يبلغ بعد السابعة عشرة من العمر. منذ زمن يبدو لي كأنه لا يتغير، وكأنه لن يتغير.

ذلك الانحناء البسيط في ظهره، قامته الصارمة المائلة باستسلام، جمجمته المفلطحة، وجهه الخشن السميك والبليد بعض الشيء. حب الشباب الذي ينمو على جبينه، ويستقر على خديه. البقعة المائلة الى السواد من زغب اللحية. شعره الاشعث. نظاراته.

اعرف بوضوح، واعلن عن ذلك مسبقا: يعتقد الناس بأنه ابله، انه الرأي السائد، حتى بناتي اخذن به. وانا على استعداد للاعتراف بذلك، لانه في نهاية الامر لا يوجد به ما يدل علي، وهو لا يشهد على صفاء ذهني. لقد قرأت كثيراً من الكتب العلمية حول هذا الموضوع، واقسم لكم: انها مجرد صدفة. واجمالاً، هو لا يشبهني ابداً، ولا يربطني به الا خيط رفيع ومشترك من العنف. وها أننا رغم اني لا اخاف ابداً، اعود واؤكد: انه بين بين. على الحد تماماً. والشاهد على ذلك: عيناه، فأنا وحدي لدي فرصة النظر في عينيه بأستمرار. واقول: احياناً، (بعيدة حقاً، اعترف بذلك) يتوقد شيء ما في نظراته، حيوية قاتمة وثاقبة!.

وليست عيناه فقط- وبالرغم من ذلك- انه آخر العنقود. ولد عن غير قصد، عن طريق الخطأ، مثل معجزة لعينة، حيث كان كلانا، امه وأنا، على اعتاب الشيخوخة.

تلك الايام التي سبقت ولادته ما زالت راسخة جيداً في ذاكرتي، ربيع رقيق وطويل جداً، ورائع بشكل خاص. وأنا شاعر نشر خمسة دواوين شعرية وقرر ان يكف عن الكتابة وذلك من خلال قناعة تامة، لا يمكن تغييرها، ومن خلال يأس تام. اذ انه في ذلك الربيع فقط اعترفت امام نفسي انه من الاجدر بي ان الوذ بالصمت.

لقد غاب عني اللحن -

اصدقائي المقربون اخذوا منذ مدة يشيعون القنوط في نفسي، ويزرعون الرعب في قلبي. يشطبون كل شيء. وقصائد الشعراء الشباب اخرجوني عن طوري وافقدوني صوابي. حاولت خفية ان اكتب مثلهم، فلم انجح الا في كتابة اسوأ ما كتبت في حياتي. فقلت:" اذن، من الان فصاعداً سأخلد الى الصمت... وماذا يضيرني ذلك؟" غير انه في اعقاب هذا الصمت، إختل النظام الصحيح. فكنا احياناً نركن الى النوم في ساعات المساء الاولى، واحياناً كنا نخرج ونمضي الليالي الكاملة في المقاهي المكتظة، والمحاضرات السخيفة، في لقاءات الفنانين المسنين الذين سيطرت عليهم شهوة التكريم، وهم في النزع الاخير.

ذلك الربيع الرائع، المتواصل، بنسماته العليلة وزهوره الفواحة. وانا الذي اكثر من التجوال في المدينة ذهاباً واياباً، سيطر علي الانفعال واليأس، كأنما قد كتب عليّ الهلاك، احاول ان اسكر، لكن بلا نجاح، اعلن على الملأ صمتي، الغي امكانية نظم الشعر، واطلق النكات عن الاجهزة التي تكتب شعراً، واكثر من الضحك، الثرثرة والاعتراف، وفي الليالي اسطر الرسائل الى هيئات تحرير الصحف حول مواضيع سخيفة (المواصلات العامة وما شابه ذلك) وازوق الاسلوب بعناية ومعاناة وعلى حين غرة، الحمل غير المتوقع.

هذه المهانة-

علمنا بالامر في الايام الاولى من فصل الصيف. في البداية اكثرنا من التنزه، بعد ذلك اخذنا نعتزل في البيت، وفي النهاية كنا نعتذر، وفي البداية امام البنتين، اللتين نظرتا بفزع، تجاه الام العجوز التي اخذت في الانتفاخ، ثم امام اقرباء العائلة البعيدين، الذين قدموا لرؤية الوليد الجديد بصمت.

(بدأ المخاض في أوج الشتاء، في يوم من المطر الشديد المتجمد، شظايا الصقيع اشعلت الشيب في بقعة المرجة في حديقتنا).

الان اصبحنا سجناء في البيت مع الطفل، (فالبنتان لم تحركا ساكناً من اجله، بل اكثرتا بشكل واضح من مغادرة البيت).

كنا نرغب في ان نقول لبعضنا البعض: كم هي رائعة هذه الولادة. غير اننا افتقدنا الحماس. اجل افتقدناه. وعدنا مرة اخرى الى النهوض المترنح في الليالي، بجوار ارتسامات ظلال الشجر على الجدران، بين الاقمطة الرطبة والثقيلة التي تتأرجح على حبل ممدود بين اشجار الحمضيات، كل شيء، اشاع الكآبة. لم تقو اقدامنا على حملنا.

نما الرضيع بصمت. ببطء غير ملحوظ، بتثاقل. كان متخلفاً في تصرفاته، وكأنما يغالبه الفتور ها أنذا الان، حينما انظر الى الوراء اتذكره وكأنه فرخ طير رمادي، يحرك اطرافه الضعيفة في السرير الصغير المحاذي لسريري.

في السنة الثالثة فقط داخل الشك قلوبنا للمرة الاولى. لست انا من داخله الشك وانما البنتان، لان حركاته كانت متخلفة، وهو يتلعثم كثيراً، ومعدوم الجمال، نبتة ثقيلة، قالت البنتان: انه ابله، وكان اصدقاؤنا يتفحصون سحنة وجهه بدقة، في محاولة لايجاد علامات واضحة لما لم نجرؤ على البوح به.

لا اذكر هذه الفترة من حياته جيداً، فقد كنت منشغلاً في امراض امه، التي اخذت تخبو بسرعة. فلم تكن هي التي بقيت بعد هذه الولادة المتأخرة وانما اشلاؤها. كنا ملزمين ان نشاهدها تبتعد عنا وتغيب في الصحراء، واضطرت ان تمشي وحدها بين تلال جرداء قفراء وان تختفي في الغسق، داخل الظلام.

بدا التغير واضحاً يوما بعد يوم.

كان عمر الولد ست سنوات حينما فارقت امه الحياة، متثاقل في مشيته، غير متعلق بأحد من افراد العائلة، منطوٍ على نفسه ورغم ذلك لا يحلم، لكنه بأي شكل من الاشكال ليس شارد الذهن، انه متأهب دائماً يفتقد الهدوء، واذا ما لاطفت يدي شعره فانه يرتعش.

كنت اود ان اقول باشفاق: يتيم. غير ان لساني يحجم عن ذلك. اذ لم يترك غياب الام عليه اي تأثير، مع انه قد انجر معنا الى الجنازة نفسها بسبب تشتت افكاري أنا. لم يسأل عنها ابداً، وكأنه قد فهم ان غيابها ابدي. والادهى من ذلك، انه بعد مرور عدة شهور على موتها اختفت جميع صورها التي كانت منتشرة في البيت، وحينما شعرنا بعد عدة ايام بتلك الاشياء الناقصة لم ندرك ان علينا التوجه اليه.

وحينما توجهنا كان ذلك متأخراً. قبل ان ينسدل الظلام قادنا الى مكان الدفن، في طرف الحديقة، تحت شجرة الصفصاف، داخل بقايا حفرة كلس قديمة، صرت في خرقة قديمة، قصاصات الصور. لفترة طويلة من الزمن انتصب امامنا، تحت الاغصان، تلعثم كثيراً وعيناه الصغيرتان لا تكفان عن الحركة. وبالرغم من ذلك لم يشرح اي شيء- وللمرة الاولى فتحنا أعيننا، فوجدنا امامنا انساناً صغيراً.

لم اتمالك نفسي وضربته لاول مرة. امسكت ذراعه بشدة، وصفعته على وجهه

مباشرة. بعد ذلك قامت البنتان بضربه (لماذا ضربتاه؟) -لم يفهم- لقد تلقى الضربات بدهشة. بعد ذلك اجهش بالبكاء. وسقط على الارض، رفعناه وجذبناه عائدين.

اتضح لي للمرة الاولى ان الولد يعرف البيت جيداً، ويلم بجميع زواياه. وقد جمع صور والدته من البومات قديمة، وفتش في مغلفات عتيقة. حتى في الحديقة وجد مخبأ لم اكن اعرفه، منذ عشرين عاماً ونحن نقطن في هذا البيت، وذرعت هذه الحديقة الصغيرة الليالي الكثيرة طولاً وعرضاً حينما كنت في ضائقة نفسية، ولكنني لم انتبه ابداً، انه يطل هناك كلس قديم وخامد،-شاحب. ملتح، بطحلب شبه رمادي.

هل كانت هذه هي العلامات الاولى؟ لا اعرف حتى الان. نحن، انا والبنتين، لم نكن مستعدين لان نفهم في تلك اللحظة. لقد خشينا فقط من المهانة والفضيحة. كان من غير الممكن دفنه، ولكن اردنا على الاقل اخفاءه. بإمكانكم ان تفهموا -البنتان لم تتزوجا بعد-.

في بداية السنة ادخلته للصف الاول في احدى المدارس الواقعة في ضواحي المدينة، وفي الاسبوع الاول من الدراسة عدت مبكراً من العمل لكي انتظره امام بوابة المدرسة، فقد كنت اخشى ان يتعرض له الاولاد. ها هو يسير معي متثاقلاً، كفه بكفي، تحت سماء ايلول اللافحة عند الظهيرة، حقيبته الجديدة ملتصقة بكتفه، ورأسه مندس عميقاً في قبعته، وفمه مفتوح قليلاً، همهمة انفاسه الخفيفة، وعيناه اللتان تتفرسان هذا الكون عن كثب، دون فاصل، ودون عمق داخلي.

معارفي يلوحون لي بقبعاتهم، ويقتربون منه، يصافحونني، ينحنون نحوه، يمسكون بيده الصغيرة، ويشدون عليها، يحاولون الابتسام. النظرات المكفهرة التي يرسلها تجاههم والتي كانت تسمرهم في مكانهم.

انه احمق، احمق تماماً.

بعد مضي اسبوع سمحت له بالعودة لوحده. كانت مخاوفي دون مبرر. اذ لم يكن الاولاد بحاجة الى بذل الجهود لعزله فقد كان معزولاً من البداية.

في ذلك العام تزوجت البنتان. في يوم واحد، على عجل، كما لو حثهم احد على



ذلك، وكأنهما ارادتا ترك البيت، اذ كانتا صغيرتي السن بعد.

عام من الضجة. لم يكن يمضي اسبوع دون ان تقام في بيتنا حفلة صاخبة، صغيرة او كبيرة. كانت البنتان تطلبان مني اخفاءه، وعيونهم مغرورقة بالدموع. وبسبب ضعفي كنت اذعن لهما. فقد كنت آخذه معي، واتجول معه في الشوارع، في الحقول، واتمشى على امتداد شاطىء البحر.

لم نكن ننبس ببنت شفة، نتأمل الشمس الغاربة، والنجوم الاولى، اقصد، اني لوحدي اتأمل بينما يقف هو الى جانبي دون حراك، مطأطىء الرأس. ولكن حينما بدأ المطر ينهمل وصارت الحقول موحلة، اضطررنا للبقاء في البيت. ولاح الصهران، في الافق كالسحب المكفهرة وبعدهما اصدقاؤهما. واصدقاء اصدقائهما، وعلت من البيت اعمدة الدخان والضحك. اخفيناه في البداية في غرفة الخادمات، ولكن حينما كان يصاب بالارق، كنا نتسلل به الى المطبخ. كان يجلس بمنامته وينظر، الى الداخلين والخارجين، ثم ينتصب ليجفف الاواني. في البداية الملاعق الصغيرة فقط ثم اعطيناه لاحقاً السكاكين.

شرع رويداً رويداً يدخل الى غرفة الضيوف الى مركز الضوضاء. في البداية كحامل اطباق من الحلوى او من النقول المالحة، ثم كمن يصب المشروبات في الكؤوس او يقدم عيدان الثقاب الملتهبة. في البداية كان الضيوف يجفلون لرؤيته. ويخيم على الغرفة صمت بسيط. ما يشبه الرعب اللذيذ، احد الصهرين كان ينتفض من مكانه بغضب، يقف بجانب الشباك المظلم، باحثاً عن ملجأ في الظلام. في ذلك الصمت الذي يخيم على الغرفة لم يكن يسمع صوت انفاس الولد المنفعلة، وهو ينتقل من شخص لاخر، ببهجة قاتمة، وصحنه ممدود امامه. لم يرفض اي منهم تناول قطعة حلوى ان نقل مالح.

مع مرور الأيام بدأوا يألفون وجوده، بدأت البنتان تبديان بعض التساهل والتسامح بالنسبة لحضوره واصبحت خدماته الصغيرة ضرورية. وهكذا في الساعات المتأخرة من الليل، حينما كان يسيطر الفتور على الجميع، كان وجهه يملأهم نوراً

جديداً. احياناً كان احد الحاضرين الذين سرت الخمرة في عروقه يهتم فجأة بالولد، فيشده اليه، ويمسكه بقوة، ويطيل الحديث معه. كان الولد يتجمد بين الايدي التي تطوقه، وفي عينيه نظرة صامتة. ثم يتجه لافراغ المنافض.

في نهاية الصيف من نفس السنة بقي كلانا في البيت لوحدنا.

تزوجت البنتان في يوم واحد من منتصف شهر آب، بعد الظهر نصبت مظلة زفاف كبيرة في حديقة بيتنا تحت السماء الزرقاء العميقة. الاشواك الذابلة رفرفت تحت اقدام عشرات الاصدقاء الذين توافدوا. اما انا ولسبب ما احسست بالاختناق من شدة الانفعال. احسست بأن شيئاً ما ينهار في داخلي، اعانق الجميع واتبادل معهم القبلات، والدموع تترقرق بلا انقطاع. لم يحضر الصبي حفلة الزفاف. ان شخصاً ما، لربما احد الصهرين، تعمد ابعاده. في ساعات المساء المتأخرة فقط اعادوه. حينما كنت اعانق آخر الاصدقاء الذين غادروا المكان، وقعت عليه عيناي. جلس الى جانب احدى الموائد الطويلة الموضوعة في الحديقة، وكان يرتدي ثياباً عادية، بأستثناء ربطة عنق حمراء ربطوها حول عنقه. في يده قطعة كبيرة من الكعك دست في يده، الفوطة المتسخة، تدلت على ركبتيه. يلوك بدون شهية، وقد تعلقت عيناه بالقمر الاصفر الذي انزج بين اغصان شجرتنا. خطوت بهدوء تجاهه ولاطفت رأسه.

ارتبك قليلاً فسقطت الكعكة من يده.

- هذا القمر..... ماذا تقول؟ قمر جميل....

عاد ينظر الى القمر وكأنه لم يشاهده قبل ذلك.

هكذا بدأت حياتنا المشتركة، جنباً الى جنب، في بيت هادىء، تبعثرت في زواياه، زجاجات العطور والمناديل الممزقة، انا شاعر خلد الى الصمت، وهو- ولد ابله وحيد.

ها هو وبدافع الوحدة وقف امامي.

الآن افهم هذا كل الفهم.

فلا حاجة لاطالة الحديث عن وحدته في الصف. فمنذ الاسبوع الاول عزل

وانسحب الى المقعد الخلفي، الى ركن الغرفة، حيث سيكون لاحقاً مكانه النهائي، منعزلاً عن سائر التلاميذ. وقد اصبح المعلمون يرون على انه لا امل في اصلاحه. على شهاداته كتب دائما: لا يمكن تقييمه. توقيع مهمل ينطوي على التردد زين طرف الشهادة. حتى هذا اليوم استغرب كيف سمحوا له، بالارتقاء من صف الى صف إذ انه على الرغم من انه كان يرسب احياناً ويتعلم سنتين او ثلاثاً في نفس الصف، فقد كان يتقدم بنفس البطء الذي سمحوا له فيه بالتقدم. تتملكني الحيرة فيما اذا ارادوا ان يصنعوا معي معروفاً. فلربما كان هنالك معلمون احبوا قصائدي القديمة.

في اغلب الاحيان كنت اتهرب منهم -

هم كذلك حاولوا جهدهم في التهرب مني-.

وانا لا الومهم.

عندما كنا مضطرين للالتقاء، يوم اجتماع اولياء الامور، آثرت دائماً الوصول الى المدرسة متأخراً، آخر من يحضر، حينما كان الظلام يخيم على بناية المدرسة والمعلمون المنهكون قد انحنوا على مقاعدهم خائري القوى امام صفوف فارغة سيطرت عليها الفوضى وكأن حرباً طاحنة نشبت فيها، تحت مصابيح عارية تتدلى بفتور من السقف.

عندها كنت اظهر عند المدخل كالمتسلل، والقبعة الصوفية متعكشة في يدي. وكان شعري الشائب (إذ انني ابقيت الشعر) يجعل آخر اولياء الامور، اب أو ام شابين، يغادرون اماكنهم. كان المعلمون يرمقونني بابصارهم، ويبتسمون ابتسامة فاترة، ويمدون لي يداً واهنة.

كنت اجلس امامهم.

واي شيء جديد كانوا سيفاجئونني به؟

كانوا احياناً ينسون هويتي.

"سيدي، والد من انت؟"

كنت اتفوه بالاسم بينما احس بضغط في صدري فجأة.

كانوا يقلبون اوراقهم، يخرجون بطاقته الفارغة، النظيفة، يسندون رؤوسهم الى

راحاتهم، يغمضون عيونهم ويسألون بصرامة:

"حتى متى؟".

أي، حتى متى سيبقى عندهم، فقد فقدوا الامل منه.

ولكني الوذ بالصمت.

كان الغضب يتملكهم. وربما زاد الظلام المخيم في الخارج قلة صبرهم. ويطلبون مني بألحاح ان اخلصهم منه الى اين؟ لا يعرفون. الى مكان آخر. ربما يجب حبسه في مؤسسة.

ولكن غيظهم كان يتلاشى رويداً رويداً. انهم يعترفون بأنفسهم بأنه لا يشكل خطراً. كما انه لا يضايقهم بتاتاً. على العكس من ذلك، فهو دائم التيقظ، ويصغي اليهم بجدية رائعة، عيناه متعلقتان بعيني المعلم. ويبدو كذلك انه يحاول تحضير دروسه.

اقلب قبعتي في يدي حتى تتحول كالعجينة الطرية. استرق النظر الى غرفة الصف التي تبعثرت فيها بقايا القشور، والاوراق الممزقة، براية اقلام الرصاص. على اللوح- رسومات جنونية. عبرات صغيرة تقتحم عيني. بكلمات بسيطة اعد بأن اقدم المساعدة لابني، ان ادرس معه كل مساء. وانه يجب الا نيأس، فهو ليس الا فتى بين بين.

لكن في البيت كان اليأس يتملكني في ساعات المساء. اجلس معه امام الكتاب المفتوح ساعات كاملة فلا افلح في شيء. فهو يجلس بجانبي متسمراً، لا يبرح مكانه، بيد ان كلماتي تطفو كالزيت فوق مياه كثيرة. بعد ان اتركه في النهاية يعود الى غرفته ويقوم بتحضير دروسه بنفسه حوالي نصف ساعة. ثم يغلق دفاتره ويدسها في حقيبته ويقفلها.

احياناً في ساعات الصباح، بينما يكون نائماً، افتح حقيبته واقلب دفاتره. فاذهل لرؤية الاجابات التي يجيبها، فهي اشبه بتخيلات بعيدة، واصاب بالذعر لرؤية تمارين الحساب، حيث اشارات غريبة مرسومة باجتهاد، تتجاوز كل منطق، لكنني الوذ

بالصمت. انا لا اشكو منه. يكفيني انه يستيقظ كل صباح من اجل الذهاب الى المدرسة بصمت، والجلوس على المقعد الاخير.

لم يكن يقص عليّ شيئاً مما يجري له خلال يومه في المدرسة. وانا كذلك لا اسأله. يذهب صامتاً ويعود صامتا. كانت هنالك فترة قصيرة، اغلب الظن انها كانت في السنة الخامسة او السادسة من دراسته، اثناءها تعرض له الاولاد كأنهم اكتشفوه فجأة فأخذوا يضربونه. كان اولاد الصف، وبضمنهم البنات، يقتربون منه في الفرصة ويقرصونه، وكأنهم يتفحصون ما اذا كان موجوداً حقاً، وانه انسان، وليس ظل اشباح. ومع ذلك فقد داوم على الذهاب الى المدرسة، كما صممت انا ايضاً على ذلك.

بعد عدة اسابيع توقفوا. فتركوه وشأنه ثانية. ذات يوم عاد من المدرسة منفعلاً. وقد اغبرت يداه من الطباشير. ظننت انه قد طلب منه ان يكتب شيئاً على اللوح، لكنه اجاب بالنفي. اتى اليّ في المساء بمبادرته هو وقص علي انه قد عين عريفاً للصف.

مضت ايام معدودة. فسألته ان كان لا يزال عريف الصف. فأجاب بالايجاب. مر اسبوعان او ثلاثة وهو ما زال يشغل مهمته. سألته ان كان يستلطف هذه المهمة، وما اذا كانت غير صعبة بالنسبة له. لقد كان راضياً تماماً. بصيص من النور شعّ في عينيه وبدا التركيز على وجهه. في الصباح كنت اجد في حقيبته، بالاضافة الى الدروس الغريبة، قطع الطباشير وخرقتين.

يبدو لي انه منذ تلك اللحظة وحتى يومه الاخير في المدرسة اشغل مهمة العريف، وتوطدت علاقات وثيقة بينه وبين البواب بل انهما في السنوات الاخيرة توطدت بينهما اواصر صداقة ما، بين الحين والاخر كان البواب يدعوه الى غرفته الصغيرة ويقدم له كأساً من الشاي كان قد تركها احد المعلمين. وهناك شك كبير حول ما اذا كانا قد تبادلا حواراً حقيقياً. ورغم ذلك كله ربطت بينهما روابط معينة.

في مساء احد الايام الصيفية كنت على مقربة من المدرسة فدفعني شعور ما بالدخول للتعرف على هذا البواب. وبما ان البوابة كانت مقفلة، تسللت الى المدرسة عبر

فتحة في السياج. تجولت في الممرات الخالية، والمعتمة، حتى وصلت الى غرفة البواب، وهي غرفة مستترة تحت مطلع الدرج. نزلت درجتين او ثلاثاً فلمحته.

كان يجلس على مقعد، رجلاه تداخلتا تحته، والظلمة حوله، رجل قصير القامة، اسحم الوجه، يلمع بسرعة صينية من النحاس وضعت على ركبتيه.

نزعت قبعتي، وانحشرت في الغرفة الصغيرة، تمتمت بأسم الولد. لم يحرك ساكناً ولم يظهر انه قد فوجيء، وكأنه تنبأ انني سأزوره في احدى الاماسي. رفع نظره تجاهي، وفجأة وبدون ان يتفوه بكلمة اخذت ترتسم على محياه ابتسامة، ثم علت وجهه كله ابتسامة صامته.

سألته: "اتعرف ابني؟".

هز رأسه وما زالت الابتسامة تتراقص على وجهه، ويداه لم تتوقفا عن تلميع صينية النحاس، التي على ركبتيه.

سألته: "كيف هو؟ ولد طيب...".

تجمدت ابتسامته. تدلت يداه بفتور. تمتم شيئاً ما، ثم اشار الى رأسه.

"ولد مسكين.... مجنون....".

ثم عاد الى وضعه السابق منعماً في النظر بدقة.

وقفت امامه معقود اللسان. بارد القلب، لم اصب بخيبة امل كهذه من قبل. ولم افقد الامل هكذا من قبل. عاد يلمع صينية النحاس التي على ركبتيه. عدت ادراجي الى الوراء دون ان القي عليه سلام الوداع.

يجب الا يفهم من ذلك انه منذ تلك الفترة كان اهتمامي منصباً على هذا الصبي، واننا كنا مترابطين معاً. بل يمكن ان يكون العكس هو الصحيح، كنت اعامله بجفاء، دون تركيز، مفكراً بأمور اخرى.

كنت افكر بنفسي -لم اكن مشغولاً هكذا بنفسي من قبل-

اولاً صمتي انه صمتي النهائي. ها انا نجحت في ذلك. كان من السهل عليّ النجاح في ذلك. لم اكتب حتى سطراً واحداً. صحيح، انه تغمرني احياناً اشواق خفية.

تستيقظ في الرغبة. اهمس لنفسي مثلاً: الخريف. ومرة اخرى الخريف.

ولكن هذا هو كل شيء.

حاول بعض الاصدقاء الاستفسار. قالوا، لا يمكن..... وهناك شيء ما تحيكه في الخفاء..... انك تنوي المفاجأة. اما انا فكان يتملكني انفعال غير مفهوم، اعود واكرر ضاحكاً: "كلا، بالتأكيد لا، لقد كتبت كل ما في جعبتي" في البداية اعربوا عن شكهم، بعد ذلك صدقوني. وقوبل صمتي بالصمت. ذكروه مرة واحدة فقط. شخص ما (رجل شاب) نشر في احدى الصحف ما يشبه التلخيص. ذكر اسمي فيه بصورة عرضية، وباستهزاء. فأطلق على صمتي- عقماً، وقد وصفني مرتين في نفس الفقرة بالعاقر.

بعد ذلك تركني وشأني.

غير انني لا اعير ذلك اهتماماً. كنت هادىء البال.

هذه القفار التي تحيطني-

الصحراء القاحلة-

اكوام من الحجارة والقمامة-

ثانيا، بدأت الشيخوخة تنهال علي. لم اكن اظن ابداً ان الامور ستفضي بي الى هذه الحال. ما دمت اتجول في الشوارع- فأنا مطمئن. لكن عند المساء- بعيد تناول طعام العشاء، اجلس على المتكأ، محتضناً كتاباً او صحيفة، وبعد فترة وجيزة اجد نفسي مستلقياً كالمشلول، شبه ميت. اهب قائماً، لخلع ثيابي بعناء، اندهش مرة اخرى لرؤية قدمي الهرمتين، اجرّ نفسي الى السرير، اتلفع باللحاف محتضناً قصصاً بوليسية بدأت بمطالعتها بشغف.

صمت مطبق يخيم على الدار. وتنبعث من الراديو معزوفة ضعيفة، وخافتة. شيئاً فشيئاً اتحول، خلال المطالعة، ودون انتباه مني، الى صخرة كبيرة مغطاة بطحلب رقيق.

عند منتصف الليل يصمت الراديو، بعد ذلك تتساقط الكتب من حضني. علي ان اقفل الراديو الصامت وان ازيل عني النور المضاء في الغرفة. حينئذ تأتي ساعتي

العصيبة. اهوي من السرير كجسد بلا روح: متشنجاً، تنخر فيّ الالام، اثب، والمس الازرار بكل ما تبقى لديّ من قوة.

ذات ليلة، وعند منتصف الليل، طرق سمعي وقع خطواته في الممر. عليّ ان اذكر هنا انه يصاب بالارق. كثيراً ما كان يحلم احلاماً مزعجة، لم يستطع ابداً ان يحكيها. لهذا السبب كان فوق سريره نواسة كهربائية مشتعلة كشمعة دائمة، وعندما كان يستيقظ كان يتجه مباشرة نحو حنفية الماء، في المطبخ ويتجرع منها بشغف كميات كبيرة من الماء، كانت تهدىء من روعه.

في تلك الليلة، بعد ان ارتوى وهم بالعودة الى سريره، ناديته وطلبت منه ان يطفيء الضوء والراديو، ما زلت اذكر ظله في باب الغرفة التي خيم عليها الظلام، بدا لي فجأة انه قد شب كثيراً، واكتنز لحماً. وفي الخط الفاصل بين النور والظلمة بدا فمه المفتوح بعض الشيء.

شكرته -

في الليلة التالية، وعند انتصاف الليل، اخذ يتجول في البيت مرة اخرى. تربصت لخطاه وطلبت منه ثانية اطفاء الضوء.

وهكذا ليلة تلو اخرى-

هكذا اخذت خدماته تكتنفني. واصبحت متعلقاً بها. بدايتها بالضوء والصوت اللذان كان يبعدهما عني في منتصف الليل. واستمراريتها في امور اخرى. كم كان عمره؟ في الثالثة عشرة من عمره، يخيل لي... نعم، اذكر جيداً. في تلك الفترة بلغ من العمر ثلاث عشرة سنة، فقررت الاحتفال بعيد ميلاده، اذ انني حتى ذلك الحين كنت اتجاهل اعياد ميلاده بصمت مطبق. قررت ان احتفل احتفالاً لائقاً، بكرم، بفرح، اذا ما سنحت الفرصة لذلك. اتصلت بنفسي هاتفياً بمربية صفه، كما اتصلت بسائر المعلمين. دعوتهم جميعاً. وارسلت، الدعوات بأسمه الى جميع اصدقائه في الصف.

حقاً جميع اولاد صفه اصغر منه سناً، انهم بالكاد في الحادية عشرة من عمرهم.

في يوم السبت المحدد، في ساعات الصباح المتأخرة، وبعد انتظار طويل مغيظ، حضرت الى بيتنا، دفعة واحدة، مجموعة صغيرة من عشرة اولاد ساخرين، يلوحون بايديهم بهدايا صغيرة مغلفة بورق ابيض. لم يكلف اي معلم نفسه عناء القدوم. ولم تجرؤ اي بنت على المجيء الينا.

صافحني الجميع في ارتباك شديد، واستغربوا جداً عند رؤية مشيبي (بل وهمس احدهم: هل هذا جده؟)، دخلوا بتردد الى بيت لم تطأه اقدامهم من قبل، تمعنوا فيّ عميقاً، وسرعان ما اطمأنوا عندما وجدوا اني اتصرف كإنسان عاقل.

حلت ربطات الهدايا-

لقد تبين انهم جميعاً قد احضروا نفس الهدية: مقلمة زهيدة الثمن، ما عدا ولداً واحداً، اجعد الشعر، شاحباً بعض الشيء شخصية شاعر، قدم له دون خجل مطوى قديماً صدئاً- لكنه ايضاً متعدد المزايا والانصال، والذي لسبب ما اثار الحماس لدى الجميع.

وقد ارفقت بجميع الهدايا بطاقة هذا نصها: "بالنجاح والى الامام"، اما الشاعر الصغير الذي احضر المطوى فقد اضاف بعض الابيات التي نظمت بظرافة.

جمع الهدايا بصمت، وبتوتر شديد.

استغربت جداً من ان احداً منهم لم يجلب كتاباً.

وكأنهم كانوا يخشون من انه لا يجيد القراءة فيه -

عاملت كلا منهم معاملة طيبة. وقدمت لهم بنفسي الشطائر، الكعك، العصير والحلوى. وقدمت لهم البوظة للعقبى. تفرقوا في غرفة الضيوف، جلسوا على الكنبات والكراسي، يقضمون كل ما قدم لهم بصمت. واخذت عيونهم تنفض المكان حولهم دون توقف، يتفحصون المكان وكأنه مكان مشبوه. ويتضاحكون احياناً بلا سبب. اما ابني فقد جلس ضجراً على كرسي في زاوية الغرفة، ليس كمحتفى به، وانما كواحد من المدعوين وهو ايضاً يقضم ببطء، لكنه مطأطىء الرأس.

اعتقدت ان وجودي قد يثقل على الاولاد، لذلك اسرعت الى مفارقتهم. وحقاً، لم

تمض فترة وجيزة حتى خف توترهم، فبدأت الضحكات تتسرب الى الغرفة. وعندما دخلت الغرفة، بعد مرور وقت ما وجدتهم جميعاً قد خلعوا احذيتهم، يتراكضون بجراباتهم على السجادة، ويقفزون على الكراسي. لم يكن هو بينهم. ذهبت لابحث عنه فوجدته في الشرفة الخلفية يلمع احذيتهم.

قال لي: انا العريف-

هكذا انتهت حفلة عيد ميلاده. انتعلوا احذيتهم، مشوشي الهندام، كابتين ضحكاتهم، بعد ذلك صوبوا اليّ انظارهم، صافحوني وانصرفوا. بقيت في الغرفة تسع مقالم. اما فيما يتعلق بالمطوى القديم الذي اشاع الحماس، فان الشاعر الصغير الذي احضره قد استعاره في الحال لمدة اسبوع، ويبدو انه لم يرجعه ابداً. وها انا اورد التفاصيل الصغيرة دفاعاً عن نفسي. اذ انه لم يمض اسبوعان من الزمن حتى اخذ يلمع حذائي، ببساطة، وضعت حذائي على الشرفة فوجدته ملمعاً. لقد قام بذاك عن رغبة تامة، دون تردد. ومنذئذ صارت عادة مألوفة- له ولي، وتلتها عادات اخرى.

مثلاً، عوّد نفسه على خلع حذائي، اعود من عملي في ساعات بعد الظهر المتأخرة، واجلس على مقعد في الممر لافتح الرسائل، واذا به يظهر من احدى الغرف، ينحني امامي ويأخذ بحل الرباطات، ثم يخلع الحذاء ويضع قدمي في المشاية.

كان ذلك يسهل عليّ الى حد ما-

الاحظ احياناً ان ثمة قوة في ذراعيه، بالمقارنة مع قواي التي بدأت تخور. القوارير التي لا استطيع فتحها، والمسامير التي لا استطيع نزعها من الجدار، فأطلب منه ان يمد يد العون لي حالاً. كنت اقول له دائماً: "أنت شاب قوي، أما انا فالضعف يدب في جسمي، وعما قليل سأفارق الحياة".

لكني لاحظت منذ زمن اني لا استطيع ان امازحه. فهو لا يدرك معنى المزاح. يقف مستغرباً ولا تجد البسمة طريقها الى شفتيه.

تعود على افراغ صندوق القمامة منذ ان كان عمره ثمانية اعوام. ويعرف جيداً كيف يطلق ساقيه للريح عندما اطلب منه شيئاً ما: ان يأتي بعلبة سجائر او يقتني

جريدة. الزمن ملك يديه. لا يجلس لتحضير دروسه اكثر من نصف ساعة. لا صديق له. ولا يقرأ الكتب. يلقي بنفسه ساعات طوالاً على كرسيه يحملق في الحائط، او يحملق بي. اننا نقطن في ضاحية عريقة وهادئة. وعبر الشباك تظهر الاشجار والسياج فقط. شارع هادىء، ماذا يفعل؟ انه ينفر من الحيوانات. احضرت له مرة جرواً ففقده بعد اسبوع، هكذا بكل بساطة، لم تبد عليه اي آثار من الاسف لفقدانه. ماذا يفعل؟ اقوم بارشاده كيف يرتبون البيت، واين يوضع كل شيء. يستوعب ببطء، ولكنه يفلح في النهاية بترتيب ثيابي في الخزانة، وجميع الصحف والكتب المبعثرة على الارض. وانا اترك سريري غير مرتب في الصباح، وعندما اعود مساء اجد كل شيء مرتباً، وبصورة جدية.

يبدو لي احياناً ان كل شيء جاهز للسفر. فما علي الا ان افتح الشنتة فقط، وان اضع فيها الثياب المطوية بشكل غريب، وامضي في حال سبيلي. كان علي ان اسافر مرة الى شمال البلاد، لم تمض نصف ساعة منذ اخبرته الا ووجدت بجانب باب البيت شنتة جاهزة وعليها عكازي.

ففي الاونة الاخيرة اقتنيت عكازا. مع اني لست بحاجة اليه فهو يرافقني انّى ذهبت وعندما اتوقف للحديث مع بعض الاشخاص في الشارع، اغرزه في اي شق لابد ان اجده دائماً، والقي بكل ثقلي على المقبض. ومن حين لآخر يبري لي طرف العكاز، كي يسهل علي غرزها في الشقوق.

انه يهتم بي الى هذا الحد من الدقة-

في تلك الفترة تعلم الطبخ ايضاً. اذ أن امرأة عجوزاً كانت تحضر احياناً لشطف الارضية علمته الطهو. في البداية كان يطبخ لنفسه ويأكل لوحده قبل عودتي من العمل. ولكن مع مرور الوقت شرع بإعداد الوجبات لي ايضاً. اصناف قليلة من المأكولات، مملة، ولا طعم لها، الا انها تعرض على احسن وجه. لقد وجد في العلية تشكيلات من اواني الخزف، كنت قد تلقيتها بمناسبة زواجي، اصناف مختلفة من الصحون مذهبة الاطراف، مزينة بالزهور والملائكة والفراشات، فأخذ يستعملها. يضع

امامي خمسة اطباق مختلفة الاحجام، بعضها فوق بعض، كما ويضع على الاغلب السكاكين والشوك، ويقوم هو على خدمتي بحزم شديد.

اين تعلم كل ذلك؟

تبين انهم قرأوا في الصف قصة عن مجلس شراب الملك.

وشدني ذلك.

"أي ملك؟"

انه لا يتذكر الاسم.

"وشخصيات اخرى؟"

لا يتذكر.

طلبت منه ان يروي لي القصة على الاقل.

بدأ يحكي لي الحكاية ثم صمت فوراً. لقد ارتبكت الامور لديه.

ان نظرته اخذت تتغلف ببلاده غامضة، كما اخذ يعلو محياه حب الشباب.

اقول لنفسي من المؤكد انه اذا غيرنا زاوية نظرنا فمن الممكن ان يتملكنا الذعر منه.

في الليالي يساعدني على الاستحمام في المغطس. اطلب منه ان يفرك ظهري بالصابون فيدخل على اطراف اصابعه، ويستغرب من كوني عارياً في الماء، يأخذ الاسفنجة ويفرك قفاي بحذر.

وكنت اذا اردت ان ارد له الجميل، لا افلح في ذلك. اعود الى البيت واصرخ. انا سأحضر الطعام هذه المرة ! فيتبين لي ان الوجبة جاهزة. احاول ان اساعده على الاستحمام، فأجده قد استحم.

لذلك فأني آخذه معي في الاماسي للقاءات مع الاصدقاء، الى اجتماعات مع الفنانين. فأنا ما زلت عضواً في جميع النقابات. لقد عودت الناس عليه، وهم لا يلاحظونه، مثلما لا الاحظ انا ظلالهم.

انه يجلس دائماً في الصف الاخير، يفتح الابواب للمتأخرين، يساعدهم على خلع

معاطفهم ويعلقها. فيخطيء الناس ويظنون انه من القائمين على الخدمات. ويميل هو فعلاً الى الانضمام الى هؤلاء. فأجده واقفاً بجانب مجموعة المسؤولين عن النظام، ينصت اليهم بنظرة جدية. واحياناً اجده يتجاذب اطراف الحديث مع عاملة النظافة المتكئة على مكنسة.

ماذا يقول لها؟ لا استطيع التكهن بذلك ابداً.

هل يحبني؟ كيف يمكنني معرفة ذلك، يبدو ان شيئاً ما في تصرفاتي يخيفه. ربما شيخوختي، وربما صمتي. على كل حال فهو يمشي امامي وكأنه يتوقع مني ضربة.

هذا غريب، لان الطمأنينة تخيم علينا. ستمر الايام بهدوء تام، وكنت اظن اننا من خلال هذا الهدوء سنستمر معاً، واقصد حتى ذلك اليوم الذي سأضطر فيه الى وداعه. كنت افكر في اوقات متقاربة ما اروع انه في صمتي هذا اقف مقابل فتى ابله جداً، وهو في حالته البينية، بعيداً عني.

صحيح انني اصاب احياناً بشعور عدم الاستقرار، وتعتريني رغبات بأن اهوي على كتف شخص ما، عندئذ تشدني قدماي الى القدس في زيارة مفاجئة لابنتي تدوم ساعة او ساعتين.

انهما تستقبلاني بحفاوة بالغة، تضعان رأسيهما على كتفي، تعانقاني بشدة، وهكذا نقف متعانقين وقتاً طويلاً، والزوجان يشزران ايانا من الجانب، ويعلو عيونهما ما يشبه الاحتقار. بعد ذلك نجلس ونتجاذب اطراف الحديث مستخدمين التعابير البليغة التي قد لا يحتملها الزوجان. لكنهما لا يتذمران، لكونهما يعلمان علم اليقين انني لن اتأخر. اجيء كالعاصفة اذهب كالعاصفة. بعد ساعة او اثنتين اهرول مودعاً، وما زالت اثار الانفعال في فؤادي. انهم جميعاً يطلبون مني بالحاح البقاء، للمبيت لديهم. لكنني لا استجيب لهم ابداً. فأنا مضطر لان اعود الى الفتى، هكذا اقول لهم، وكأن كل كيانه متعلق بي. مرة اخرى نتبادل العناق والقبلات، ثم ينقلني الزوجان الى المحطة المركزية. في اغلب الاحيان نصمت في هذه الطريق القصيرة. اذ لا يوجد ما يمكن

ان نتحدث عنه. بالاضافة الى اني ما زلت غريب الاطوار في نظرهم، هذا الشعر الابيض المسترسل على مؤخرة رأسي، وهذا العكاز المتراقص بين يدي. فأنا مازلت اشبه بشاعر بنظرهم. انا على يقين. دواويني الشعرية ماثلة على احد رفوف الحائط الشرقي من غرفة الضيوف عندهم. ليس بوسعي ان امنعهم من ذلك.

في هذه اللحظة افضل انا نظرة الولد المتكتمة.

في ايام الشتاء اقفل البيت احياناً في الساعة السادسة مساء. ماذا افعل في الوقت المتبقي حتى اخلد للنوم، اقرأ الجرائد، اسمع الراديو، اتصفح الكتب، فيمضي الوقت، واتوصل مع الملل الى حلول وسط خفية. في ايام الصيف اتنزه كثيراً على طول الشاطيء، ذهاباً واياباً، او انني اتسكع في الشوارع بلا هدف. اغرق احياناً في التفكير ساعات طويلة امام عمارة يجري بناؤها.

والافكار حول لا شيء-

قبل سنين كنت احمل معي دفاتر صغيرة الى كل مكان! استثير غريزة الكتابة بحماس موهوم! انظم الاشعار، اتلاعب بالكلمات، واكتوي بالنار! واما اليوم فحتى مكابدة الآلام لا تجد الي سبيلاً.

اين هو؟

استشف الشباك فأراه في الحديقة، تحت سماء خريفية رمادية اللون. يقلم الاشجار والنباتات بعنف. يشذب فروعاً كاملة، ويفترس الاوراق. ويتعرض بشكل خاص لشجرة الصفصاف الشائخة، ويكتسح الشماريخ التي تفتحت في اسفل جذعها. يتسلق الى الذروة وينشر بلا انقطاع. بينما تنكس الشجرة رأسها وهي تتأوه بأكلمها.

احياناً تتوسمه عيناي، لساعات طويلة لا استطيع ان انقلهما عنه. جديته، الغضب العارم. الظل والنور يتراقصان على وجهه، الذي ارتسمت عليه في الاونة الاخيرة ملامح ساخرة من التبحر في العلم بسبب النظارات السميكة التي بدأ يلبسها فجأة بدأ يعاني من قصر النظر.

انني على يقين انه يقلم اكثر مما يلزم. وان بنشاطه هذا يقتلع النباتات

بجذروها كاملة. ورغم ذلك كله لا انبس ببنت شفة وواصل الوقوف بجانب الشباك بصمت تام. كنت اقول لنفسي، ان ما تبقى سينمو في الربيع وسيعوض عن الضرر.

- ٣ -

متى حدث ذلك للمرة الاولى؟ اعني علمه بأنني شاعر، اعني هذا الجنون الذي ينتابنا في السنة الاخيرة. في العام المنصرم، في نهاية الشتاء داهمني المرض فأبقيته في البيت، ليمد لي يد العون في مرضي. كنا معاً لعدة ايام متواصلة، لم يتركني ابداً، وهو امر لم يحدث في السابق، فلم يمض يوم لم اتجول به، او اجلس في المقاهي، او ازور بيوت الاصدقاء.

كانت تلك حمى بسيطة، وبذلك اضطررت للاستلقاء شبه نائم بعينين مستسلمتين، وكان هو يتجول في البيت، او يقبع بجانب باب غرفتي، مميلاً راسه باتجاهي، كنت اطلب منه احياناً ان يحضر لي كأساً من الشاي، كان ينهض من مكانه، ويتجه نحو المطبخ، ويعود حاملاً كأساً تتعالى منه السنة البخار.

رويداً رويداً بدأ يخبو ضوء النهار. سماء رمادية ارخت سدولها على النوافذ. ولم نشعل النور في الغرفة لان عيني ضعفتا من المرض.

يكتنفنا صمت القبور، وهل بالامكان التحدث معه؟

سألته عما اذا كان قد اعد دروسه.

هز رأسه من زاوية الغرفة.

عم يمكنني ان احادثه؟

سألته عن مهمته كعريف. فرد بالايجاب والنفي هازاً رأسه.

اخيراً شعرت باعياء. القيت برأسي على الوسادة واغمضت عيني، اطبق الظلام على الغرفة، في الخارج اخذ الرذاذ ينهمل. في تلك الفترة من ايام مرضي انتابتني الاوهام، اوهام حول السرير. كنت اتخيل انه ارض بيضاء كثيرة التقلبات. فيها الجبال والتلال المنحدرة والاودية الجارية، بينما اتجول انا في انحائها.

اي صمت مطبق هذا، بينما يتسرب دفء الفراش الى كل خلية في جسدي.

فجأة وفي هذا الصمت المنهمل، ذهلت لسماع صوته الجاد، "ماذا تفعل؟"

فتحت عيني. كان يجلس بجانب الباب، وهو يرشقني ببصره، انتصبت بعض الشيء، مصاباً بالذهول.

"أي؟ ماذا؟ الان؟ فماذا اذن؟ انني نعسان ٠٠"

"لا ابداً٠٠" وادار رأسه وكأنه ندم على سؤاله. بعد مضي فترة وجيزة فهمت قصده، انه يسأل عن مهنتي.

"هل تعلموا عن "المهن" في الصف؟

لا ادري-

اشرح له ما هي مهنتي (اعمل في مكتب يعنى بجمع قصاصات المقالات من الجرائد.) فيجد صعوبة في فهم ذلك. اشرح له ذلك شرحاً مفصلاً. فيفهم ذلك فجأة. بدون تعليق. يبدو انه اصيب بشيء من خيبة الامل. ولكن من الصعب معرفة سبب خيبة امله. فهو بالتأكيد لم يتخيل بتفكيره السقيم انني طيار او ملاح؟

هل ظن بأنني طيار او ملاح؟

كلا.

ماذا ظن؟

لم يظن.

وعاد الصمت. انه يجلس في زاوية الغرفة، ظلاً ثقيلاً وحزيناً. تشع نظاراته في الغسق. المطر يشتد في الخارج، وشجرة الصفصاف الشائخة تنتصب في الحديقة متلفعة بالبكاء. فجأة استشطت غيظاً من حزنه. مشاعر الشفقة هزت اعطافي. انهض، واجلس في سريري، افتح عيني في الظلام، واهمس له انني في الحقيقة، كنت مشغولاً بأمور اخرى. لقد كتبت الاشعار، اذن ابوك كان شاعراً، وقد تعلموا عن الشعراء في الصف. انزل من سريري مصاباً بالحمى واجتاز الغرفة المظلمة حافي القدمين، اشعل نوراً خفيفاً، اتجه نحو خزانة الكتب، واستل كتبي من الخزانة واحداً تلو الاخر.

ينظر الي بصمت بينما، انزلقت نظاراته بعض الشيء على انفه، ويداه ملقاتان

بفتور على ذراعي الكرسي، امسكه من ذراعه، اقيمه واوقفه امامي.

وتفتح كتبي ذات الغلاف السميك بيدين جافيتين اوراق صغيرة، لم يلمسها احد، تتحرك محدثة حفيفاً ناعماً. وتتطاير امامي سطور سوداء مطبوعة على ورق شاحب. كلمات مثل: خريف، مطر، اعصار.

لا يتحمس، لا يتحرك من مكانه، يغض طرفه، دون حراك. غبي تماماً.

صرفته من الغرفة. جمعت كتبي واخذتها معي الى السرير. لم ينطفيء الضوء في غرفتي حتى انبلاج الفجر. بحثت طوال الليل عن ذلك الالم اللذيذ الذي صببته بحماس في قصائدي القديمة. كلمات مثل: خبز، سبيل، عار.

في اليوم التالي خفت الحمى قليلاً فبعثته الى المدرسة. ثم دسست كتبي ثانية بين سائر الكتب. كنت موقناً انه لم يفهم شيئاً. ولكن وبعد عدة ايام عندما وجدت جميع المجلدات قد وضعت سوية، عرفت انه فهم امراً ما. ولكن هذا الامر كان لا يزال محدوداً.

كانت هذه هي السنة الدراسية الاخيرة، الا انه لم يظهر اي تغير على عالمه. ما زال يكرس نصف ساعة يومياً لتحضير دروسه، يكتب ما يكتبه، ويحسب ما يحسبه، ثم يغلق دفاتره، ويقفل حقيبته ويتفرغ لاشغال البيت. في الصف حافظ على مكانه القصي، في احد الاركان، غير ان حضوره الدروس تقلص كثيراً. كان البواب ياخذه معه كثيراً، إما من اجل رفع المدفآت الى العلية او لترميم الكراسي المحطمة في القبو.

عندما كان يحضر الدروس كان يجلس كعادته، مشدوداً؛ وعيناه مركزتان في المعلم.

آخر أيام الدراسة، جو من التشتت-

قبل نهاية الدراسة بأسبوعين او ثلاثة تعلموا في صفه قصيدة لي. في نهاية الكتاب الدراسي، جمعت قصائد كثيرة، بما يشبه الانثولوجيا لوقت الحاجة في الدروس الحرة. بين تلك القصائد كانت قصيدة قديمة لي كتبتها قبل عشرات السنين. وعلى الرغم من انني لم اقصد كتابتها لجيل المراهقة، فقد كان الناس يخطئون في تصنيفها.

القت المعلمة القصيدة امام الصف، ثم قامت بشرح الكلمات الصعبة. واخيراً قرأها احد التلاميذ وهكذا انتهى الامر. من الممكن ان ابني القابع في مقعده لم يكن لينتبه لما حدث لولا ان المعلمة اشارت اليه بقولها:

"انه ابوه..."

لم تساعد هذه الملاحظة في رفع مكانة الولد، كما انها لم تزد من اهمية القصيدة. على كل حال بعد نهاية الدرس نسي الجميع بالتأكيد كل شيء سواء هذه القصيدة ام كاتبها.

الا ان الفتى، كما اتضح بعد ذلك، لم ينس، وظل مفعماً بالحماس. من المحتمل انه تمشى لوحده في الصف الخالي، جمع القشور، مسح اللوح، كان منفعلاً.

عندما عدت من عملي عند المساء، وجدت البيت معتماً، فتحت الباب الرئيسي فوجدته ينتظر في الدهليز المظلم. لم يكن في مقدوره كبح جماح التأثر في فؤاده. رمى نفسه على عنقي وانفجر بما يشبه العويل الهستيري، كاد يخنقني. وقبل ان اتمكن من خلع سترتي وحل ربطة عنقي، امسك بيدي وجرني نحو احدى الغرف، اشعل النور، فتح الكتاب المدرسي وطفق يقرأ عليّ قصيدتي بصوت مبحوح. يلحن في التشكيل، يدغم الكلمات، ويمد الحروف بطريقة خاطئة. كنت مذهولاً ازاء هذه العاصفة من المشاعر. ورق قلبي. جذبته اليّ ولاطفت رأسه. كان من الواضح انه لم يفهم بعد فحوى القصيدة، مع انها قليلة المغزى.

تشبث بطرف ثوبي وسألني متى كتبت القصيدة.

حكيت له-

طلب مني رؤية قصائد اخرى.

اشرت الى المجلدات-

سألني ان كان هذا كل شيء.

اشرت مبتسماً الى جارور في الطاولة حبست فيه بصورة متراصة قصائد ومقطوعات شعرية، دفاتر صغيرة كنت اضعها في اي وعاء وانقلها من مكان الى آخر.

الح علي سائلاً ان كنت كتبت قصائد جديدة هذا اليوم.

في هذه اللحظة انفجرت ضاحكاً. وجهه البليد، الذي يرنو الي باعجاب في هذه الساعة من المساء فيما انا لا ازال لابساً سترتي وربطة عنقي.

رويت له انني قد تركت الكتابة قبل ولادته، ان كل ما اندس في الجارور يجب رميه منذ مدة في سلة المهملات. خلعت سترتي وحللت ربطة عنقي، وجلست لانتزع حذائي.

احضر لي المشاية.

تجهم وجهه-

وكأنه سمع امراً رهيباً.

مرة اخرى انفجرت ضاحكاً. امسكت بشعره المقصوص وحركت رأسه بمودة شديدة. انا الذي كنت ارتدع من لمسه-

بعد ايام معدودة وجدت الجارور مفتوحاً وفارغاً. لم تبق فيه اي قصاصة من الورق. صادفته في الحديقة يعزق الاعشاب البرية تحت الشجرة. لماذا فعل ذلك؟ إعتقد بأن ليس لي حاجة بها. ببساطة قام بتنظيف البيت. كما انني انا بنفسي قلت انني لن اكتب بعد.

اين كل الاوراق؟

القى بالمخطوطات في القمامة بينما باع الدفاتر الصغيرة الى تجار في ضواحي المدينة. للمرة الثانية في حياتي ضربته، وهذه المرة ايضاً في الحديقة بجانب شجرة الصفصاف، صفعته بكل ما اوتيت من قوة بيدي الشائختين على وجنتيه الخشنتين، المغطيتين بالزغب الاسود الدقيق.

ارتعدت فرائصه-

جمع قبضته بشدة. قبض على المعول بيأس، كان بإمكانه ان يكيل الصاع صاعين . وكان في مقدوره ان يطرحني ارضاً.

لكن فجأة هدأ غضبي دفعة واحدة. فقد اصبح الموضوع كله غير ذي اهمية.

بقايا قصائد قديمة، ضائعة منذ زمن.

فعلام ارتعشت اذن. ان صمتي لا رجعة فيه.

ظننت مرة اخرى ان الموضوع قد انتهى بذلك. لم يخطر ببالي ان هذه لم تكن الا البداية.

ايام صيف طويل. زرقة لا نهاية لها. تطل علينا احياناً سحابة صغيرة في رحلة ناعسة من الافق الى الافق. واسراب من العصافير تحط طوال اليوم على صفصافتنا، وتمتزج الاصوات العالية داخل اوراقها.

في ساعات الاصيل- يعتصر اللون القرمزي الغامق النفوس.

يوم الفتى الاخير في المدرسة الابتدائية-

في اليوم التالي. حفلة التخرج وتوزيع الشهادات.

من الواضح انه لم يحصل على شهادة، ورغم ذلك فقد اعتلى المنصة مع سائر التلاميذ، مرتدياً قميصاً ابيض وبنطلوناً من الكاكي (كان عمره حوالي السابعة عشرة). وتحت ضوء ما بعد الظهيرة الساطع والواضح، جلس واستمع بآذان صاغية الى كلمات الشكر. وعندما شكروا البواب، رفع ناظريه باحثاً عنه بين الجمهور.

أما انا فقد اختبأت في نهاية القاعة، وراء كومة من الكراسي. وقبعتي ملقاة على ركبتي .

بعد التحيات اقيم برنامج فني قصير.

اعتلت بنتان بدينتان المنصة واعلنتا بصوت صارخ شديد الانفعال انهما ستعزفان حالاً سونيتة لملحن مجهول، عاش قبل قرون. بعد ذلك جلستا بجانب بيانو ذي صرير وعزفتا عليه بأربع ايدٍ، الحاناً كئيبة.

تصفيق حاد من الاباء المنفعلين.

فتى صغير، شاحب اللون، شعر اجعد جميل، جر الى المنصة تشيللو كبير الحجم واخذ يعزف مقطوعة لملحن مجهول (على ما يبدو مجهول آخر).

اغمضت عيني-

لقد اعجبني اغفال الاسماء هذا.

عاصفة من التصفيق اثارها الآباء المنفعلون.

فجأة احسست ان شخصاً ما ينعم في النظر، رفعت نظري واذا بالبواب على بعد خطوات مني، بجوار نافذة تسطع نوراً، كحبة الزبيب الداكنة، ملقى على كرسي، ببزة عمله. هز رأسه هزاً خفيفاً.

ثم صعدت بنتان وولدان الى المنصة وراحوا الى المنصة يقرأون فصلاً دينياً عن العيد، وقصة ومشهداً هزلياً واثنتان أوثلاث قصائد.

عندما تناهت الى المسامع الابيات الشعرية الاولى انتصب ابني فجأة واخذ يبحث عني يائساً. لم يفهم الجمهور ماذا يريد هذا الصبي ذو النظارات والوجه الاحمق الذي وقف وسط المنصة. حاول اصدقاؤه سدى اجلاسه كان يبحث عني، وتاهت نظرته في القاعة. لقد كان جرس القوافي يلهب مشاعره. حاول ان يصرخ، الا انه لم يجدني. اذ انني اختبأت جيداً وراء الكراسي، منكس الرأس.

مع نهاية الاحتفال لذت بالفرار. نعم هربت بجلدي. ووصل هو في ساعات المساء الى البيت. واتضح انه ساعد البواب على ترتيب الكراسي في القاعة.

آن الاوان لاتخاذ قرار بشأن مصيره. لقد اكدت مراراً انه بين بين، انه على الحد الفاصل. الم تفتني الفرصة بعد؟ وهل ما زلت اسيطر عليه؟

حالياً بقي معي في البيت، اعتنى بوالده، وبدأ ينشغل بالشعر. اجل بدأت القصائد تتدحرج بين يديه.

اتضح لي ان بقايا اشعاري، والدفاتر الصغيرة، وقصاصات الورق الرقيقة، ما زالت تحت تصرفه. لم يبعها للتجار ولم يلقها في القمامة. لقد كذب عليّ، بجانب شجرة الصفصاف.

لم ادرك ذلك فوراً، في البداية احسن تخبئتها عني، ولكن شيئاً فشيئاً بدأت اشعر بها، بدأت الاوراق تحوم وتدور في البيت، وتطل من داخل جيوب بنطاله من بين شراشف سريره. وبدأت تظهر لديه عادة جديدة. كلما ارغب في القاء مهمة عليه، يأخذ

قطعة صغيرة من الورق، ويكتب عليها ببطء، بخطه الصبياني، وبكثير من الاخطاء، تفاصيل المهمة.

"النسيان يسيطر عليّ"، ادعى امامي ذات يوم صاف وبلغة غريبة عنه.

طلبت منه أن يأخذ عكازي الذي تصدع لاصلاحه. فسحب فوراً دفتراً صغيراً من تلك الدفاتر القديمة والعزيزة عليّ، التي كنت ادسها في ثيابي لكتابة مسودة اولى لقصيدة، لبيت، لجزء من فكرة.

خنقني الإنفعال. تصببت عرقاً، وإمتدت يدي تلقائياً نحو الدفتر الصغير. فتركه فوراً، تصفحته بيد واهنة. اوراق بيضاء، آثار إنتزاع، أوراق كثيرة وفجأة، سطر واحد مبتور، بخط يدي المهمل:

" النسيان يسيطر عليّ".. ثم أوراق اخرى فارغة، متجعدة الأطراف.

سيطرت عليَ الطمأنينة ثانية. طلب ان ابقي الدفتر الصغير عندي. لكنني صممت على اعادته له. ومضى لشؤونه.

توجهت الى غرفته وفتشت في جوارير طاولته، لكني لم اعثر على شيء. ثم اشغلت نفسي عن هذا الموضوع. عند المساء وجدت على طاولتي ورقة مصفرة كُتب عليها بخط يدي الذي تصعب قراءته:

"هذه الزرقة كطبع انسان".

وكلمة زرقة محيت، بخط باهت.

اسرع باتجاه غرفته فأجده جالساً ومنكمشاً في احد الاركان ينتظرني بترقب بليد. اطوي الورقة امام عينيه، اضعها على طاولته واغادر الغرفة. في اليوم التالي قبيل الغروب، بعد وجبة الطعام، اجد مرة اخرى على طاولتي بيتين من الشعر طواهما النسيان.

"اشعر ثانية بتفاهتي ازاءك".

"في هذا الشتاء الطويل".

لقد مزقت هذه الورقة ارباً ارباً.

وفي اليوم التالي، سطر مائل بخط متشابك.

"جنوني في ذريتي الشاحبة".

وتشطيبات كثيرة وهمجية حول الكلمات.

وبجانب الورقة المنزوعة مزهرية صغيرة وفي داخلها قرنفلة حمراء قطفت من الحديقة.

وها أنا اجدني مضطراً لان اتحدث عن الزهور.

اذ ان الازهار قد ملأت البيت. لقد انزلت الاصص القديمة والمنسية عن الخزائن واخرجت من المخزن وامتلأت بالزهور. كان يجمع زهرة الشيخ في طريقه ويقطف شقائق النعمان من بين البيوت. يتسلل الى الحدائق العامة ويختار بعض زهور القرنفل، ويسرق الورد من حدائق غريبة. لقد تضوعت الشقة برائحة شديدة وحادة، وتدحرجت على الطاولات اسدية صفراء وتناثرت على السجاجيد.

على طاولتي تجد دائما اوراقاً تصلبها اقلام رصاص مبرية.

ها هو يحاول بعناد عقله الخفيف ان يردني الى كتابة الشعر.

في البداية كنت مرحاً جداً. كنت آخذ تلك الوريقات، اقرأها ثم امزقها. اشم الزهور. ارسم بأقلام الرصاص المبرية خطوطاً متقطعة ثم اوقع اسمي الف مرة في الدفاتر الصغيرة.

لكن جنونه سيطر بسرعة على كل شيء-

كانت الوريقات المنتزعة تلاحقني في جميع انحاء البيت. لم اعتقد ابداً بأن رغبتي في الكتابة بلغت هذا الحد. انه يدسها بين صفحات الكتب التي اقرأها، وفي حقيبتي، تحت قاعدة المصباح، الى جانب جريدة الصباح، بين فنجان القهوة وصحيفته، بجانب معجون الاسنان. استل الجزدان من جيبي فتسقط من بين الاوراق النقدية وريقة ما. اقرأ، وامزق وارمي في القمامة.

حتى الآن لم اعبر عن احتجاجي على ذلك امامه، لاني كنت مغتبطاً بنفسي، وازداد فضولي لان اقرأ ماذا خطر ببالي في تلك الايام الغابرة. خاصة وان نهاية هذه

الوريقات لا بد آتية. انا متأكد من ذلك، فأنا خير من يعلم: كانت لها نهاية.

في ساعة متأخرة من الليل، حين اكون غارقاً داخل سريري، اسمع وقع خطواته الحافية تجوب البيت. يمشي وينثر الوريقات الصغيرة المكتوبة بخط يدي الخاص المهمل. حروف متخاصمة، كلمات مبعثرة، مكتوبة بخط بارز. نحن صامتان كعادتنا فيجمع هو كل يوم الاوراق الممزقة من منافض السجائر ومن سلال المهملات.

غير ان الوريقات اخذت تقل. وذات صباح، وجدت على طاولتي ورقة صغيرة، وقد كتب عليها سطر بخط يده الذي يحاول تقليد خطي. وفي صبيحة اليوم التالي وجدت مرة اخرى خط يده يتهادى متثاقلاً فوق الورقة الفارغة.

والزهور التي تملأ الغرف-

والسماء التي بدأت تكسوها الغيوم-

لقد عيل صبري. فثرت. داهمت غرفته على حين غرة فوجدته جالساً ينسخ نفس ذلك السطر. جمعت جميع بقايا الدفاتر الصغيرة ومزقتها امام ناظريه. قطفت الزهور من جميع الاصص، كومتها جميعاً على مدخل البيت وامرته بأن يرميها.

قلت له: "انتهت جميع هذه الخزعبلات".

حمل الزهور لدفنها في احد الحقول القريبة ولم يعد. اختفى من البيت لمدة ثلاثة ايام. في اليوم الثاني بدأت افتش كل انحاء المدينة بشكل خفي،(في هذه الاثناء ملأ الغبار البيت. والاواني تكدست في المغسل). بعد مرور ايام ثلاثة، عاد في ساعات الظهر متسفعاً، ورائحة الحقول تنبعث من ثيابه. تمالكت نفسي، واجلسته امامي.

اين كان؟ ماذا فعل؟ لماذا هرب؟

لقد نام في الحقل القريب، غير بعيد عن البيت. عندما كنت اخرج من البيت كان يعود الى البيت ويختبيء في غرفته. فاجأته مرة، غير اني لم اشعر به. لماذا هرب؟ لا يمكنه تفسير ذلك. لقد ظن اني اردت طرده. وانني اريد كتابة الشعر وحيداً. هكذا قصوا عليهم في المدرسة عن الشعراء، وعن وحدتهم...

المعلمات اللعينات.-

او ربما انه نوع من الدهاء الشديد، والجديد.

يجب علي ان اقرر بشأن مصيره. فقد بدأ يضطرب على الحد الفاصل.

تحليت بالصبر، وتحدثت اليه طويلاً، وقلت له ما الذي تريده؟ انا قد توقفت حقاً عن الكتابة. انني بالتأكيد كتبت ما فيه الكفاية. فما الذي تريده؟

وضع راحتيه على عينيه. ثم تمتم شيئاً ما بانفعال. كان من الصعب متابعة ما يتفوه به. فهمت في النهاية من خلال الكلمات الكثيرة وغير الواضحة انه يعتقد بأنني غير سعيد.

كان عليكم ان تشاهدوه -

هذا الفتى، الابله، الموجود على الحد الفاصل، الذي تنزلق نظاراته على انفه ببطء. البدين. في الثامنة عشرة من عمره تقريباً.

ساعات ما بعد الظهر، الشمس الخريفية تتجول ببطء بين الغرف. من البيت القريب تتعالى نغمة ما. شخص يجري تمريناً للسلم الموسيقي على الكمان. نفس التمرين يعيده مرات عديدة بالحان ناشزة غير ان اللحن يتحول في احد السلالم الى ما يشبه نحيب مزعج.

فجأة اوقن بموتي، استطيع ان ادرك كيف ان هذا العشب سيواصل حفيفه في هذه الحديقة.

نظرت اليه فرأيته على ما هو عليه. تمثالاً لم ينته نحته.

همست في اذنيه ضاحكاً: "ها أنذا انهكني التعب فهلا كتبت انت من اجلي".

اصيب بدهشة شديدة. نزع نظاراته عن عينيه، مسحها بقميصه وعاد فوضعها على عينيه.

"لا استطيع"، همس لي هو الاخر.

يا له من يأس، بالتأكيد لا يستطيع. يجب الانفصال. روابط معقدة. سنوات طويلة من عدم الاستقرار. هل ابكي حقاً. تركوني معه لوحدي. ومرة اخرى هذه الالحان الناشزة.

"ساعدني انت" همس لي ثانية وكأن ثمة عرى من الصداقة الوطيدة تربط بيننا.

"لن اساعدك".

واحسست بوحدة ثقيلة. تحركت من مكاني، وضعت قبعتي على رأسي وخرجت. طفت مرتين حول بيت عازف السلالم الموسيقية وتوجهت الى المدينة.

عدت في المساء فلم اجده. كان علي ان اقوم باعداد وجبة العشاء بنفسي مرة اخرى. عندما اقتطعت الخبز انزلق السكين على اصابعي. منذ سنوات كثيرة لم ينزف الدم مني بهذا الشكل.

حسبت انه هرب من البيت مرة اخرى. غير انه عاد في ساعة متأخرة، في الوقت الذي خيم فيه الظلام على غرفتي. اخذ يتجول في البيت، يقيسه بخطواته، ذهاباً واياباً، مثلما كنت انا افعل، في اوقات سابقة، حينما كانت الكلمات تبدأ بالتحرك داخلي.

غفوت على وقع خطواته.

في صباح اليوم التالي اخلى غرفته. جميع الكتب الدراسية، دوائر المعارف التي اهديت له، دفاتره، ابعد كل شيء. ونقل الاوراق والاقلام المبرية الى طاولته.

بدأت بشائر الخريف تغطي زرقة السماء.

التفكير بالتقاعد بدأ يشغل بالي كثيراً. وشعور شبه رومانسي سيطر علي تماماً. ان اترك العمل، ان ابيع داري، اجمع المال، واولي الادبار بعيداً. واستقر في ميناء ناءٍ، متعفن. ومن هناك الى علية في احدى المدن الكبرى. باختصار، برامج، هلوسات، توجهت الى وكلاء سفر، فحملني هؤلاء بالمنشورات الملونة، وعلى جدار البيت علقت لافتة: للبيع.

اشاع مطر خفيف الرطوبة في الجو.

في احد ايام الجمعة سافرت الى ابنتي في القدس لقضاء السبت عندهما.

استقبلوني هناك بحفاوة بالغة. بل واوقدوا الشموع تكريما لي، وملأوا البيت ازهاراً.

ولعب الاحفاد بعكازي. ادركت اني اهملتهم جميعاً. وعند العشاء اجلسوني في صدارة المائدة.

تحدثت عنه طوال المساء، كما لو ركبني عفريت. لم اغير الموضوع، ولم اتركه. طالبت بحل مناسب، وطلبت ايجاد مكان عمل له. اعلنت عن برامجي للسفر الى العالم، والتنقل قليلاً. يجب ان يراقبه شخص ما. وقد يستفيد منه. فبوسعه ان يخدم شخصاً آخر. المهم ان يأخذوه مني واخيراً اطلب انا ان اتحرر. فعما قريب سيصبح فتى بالغاً.

اما عن الاشعار فلم انبس ببنت شفة.

وللمرة الاولى انصت الي الصهران بأهتمام. اما ابنتاي فكانتا مرتبكتين. ماذا جرى بينكما؟ تركنا المائدة وانتقلنا الى المتكآت لارتشاف القهوة. جاء احفادي بلباس النوم لتوديعي، وانشدوا بيتين من الشعر لشاعرة توفيت منذ وقت غير بعيد وهم يحركون ايديهم الصغيرة. ثم الصقوا شفاههم بوجهي، لحسوني، وذهبوا ليناموا. واصلت انا الحديث عنه، لم يكن بالامكان صرف نظري الى موضوع آخر. آثار الاعياء بدت عليهم جميعاً. انصتوا لي برؤوس مائلة. كانوا يتبادلون النظرات احياناً وكأنني انا الذي اصيب بلوثة في عقله.

ثم تركوني فجأة. لم يتعهدوا بشيء، لكنهم اشاروا بلطف نحو سريري، قبلوني وانصرفوا.

في هذه الاثناء انتبهت الى انه طوال المساء هبت عاصفة من الرياح في الخارج. شجرة صغيرة كثيفة الفروع بدأت تطرق النافذة. وتضرب الزجاج، وتحفر حول الاطار. وحاولت طيلة الليل ان تقتحم غرفتي وان تتسلل الى فراشي. عندما استيقظت في الصباح خيم الهدوء. واختلطت الشمس والغيوم في السماء. كانت الشجرة الصغيرة ساكنة. تتجه نحو الشمس. وعلى برطاش الشباك تراقصت بعض الوريقات الخضراء اللامعة التي تساقطت.

عدت بعد ظهر اليوم التالي الى منطقة الساحل. وعدني الصهران بالبحث عن

عمل له. وتحدثت ابنتاي عن مؤسسات شبه داخلية.

انبعث الشتاء من داخل الارض. بين الارصفة والشوارع تجمعت بقع المياه، صورتي انعكست فيها آلاف المرات.

لم اجده في البيت، كانت غرفته مقفلة. درت في الساحة. كان شباكه مفتوحاً على مصراعيه فرأيت غرفته مرتبة. وشغت الاوراق على طاولته. كُتب عليها شيء ما، بالتأكيد. عدت الى البيت وحاولت اقتحام الغرفة، لكن بدون جدوى. رجعت الى الساحة، دحرجت حجراً باتجاه حائط الشباك، وحاولت الصعود عليه، لكنني لم افلح. اخذت رجلاي ترتعدان. لست شاباً، ثم فكرت فجأة: ما لي وله!؟ عدت الى البيت، استبدلت ربطة عنقي وخرجت ابحث عن اصدقاء في المقاهي.

مساء السبت، الجلبة تملأ الشوارع. في زاوية احد المقاهي، احتشدنا، نحن الفنانون المسنون، المكتئبون، البراكين الهامدة الملفعة بالمعاطف. نعبر عن عدم رضانا، ونفتت بأيدٍ قاسية ذلك العالم الذي نما منذ مساء السبت السابق. تتصاعد الابخرة من الارض وتكسو واجهة المقهى الزجاجية الكبيرة. انا ملقى خائر القوى على كرسي، امتص عقب سيجارتي، عكازي بين قدمي، يتراقص على الارضية الحجرية. انا اعلم علم اليقين. ان لهذه المدينة قاعدة رملية. صامتة، ومتكتمة. تحت هذه الطبقة الدقيقة من الارصفة والبيوت- صحراء غامضة من الرمال.

فجأة تمر امام ناظرينا مجموعة من الفنانين الشباب، المنفوشي الشعر، الملتحين قليلاً. مجموعة من الحمقى. تقطبت اساريرنا جميعاً، نظرنا اليهم شزراً. وها هو فتاي منجر وراء المجموعة، على بعد خطوات معدودة، والانفعال يغمر وجهه.

ينقضون على كراسي مقهى قريب واغلبهم سكارى. يتقوقع فتاي على كرسي في احد الاركان. اي حديث ماجن يجري هناك! لا ازيح نظري عنه. ينتصب واحد من بين المجموعة، يستل ورقة من جيبه ويبدأ بقراءة قصيدة. لم يصغ اليه احد سوى فتاي. يتوقف عن القراءة قبل انهائها، ينتقل بينهم من واحد الى آخر، ثم يتوقف في النهاية متمعناً برأس ابني الحليق. ضحك بعضهم، يميل احدهم الى الفتى ويلاطف وجنتيه.

أني متأكد: لا يعرف احد اسمه او اسم والده.

بعد لحظات معدودة انتصب واقفاً، احمل عكازي، واتجه نحو البحر لمشاهدة الامواج المعتمة. ومن هناك الى البيت، استلقي على الاريكة، امسك بجريدة نهاية الاسبوع واتصفحها، اتوقف عند الملحق الادبي، اقرأ بيتاً او بيتين من قصيدة، فقرة من قصة- ثم اتوقف. ان الادب يثير بي وحشة رهيبة. اغفو فجأة، كما انا، بملابسي. احلم اني أُقاد الى غرفة العمليات، يتم تخديري وتشريحي دون ان اشعر بألم. يوقظونني، ثم يخدرونني مرة اخرى، ويقطعون ثانية اللحم المسترخي، واخيراً أفهم سبب ذلك: انه الضوء الساطع الذي ينعكس على وجهي.

استيقظ، انهض، وفرائصي ترتعد برداً، ملابسي متعكشة. في الخارج يتساقط المطر بهدوء. اتجه الى المطبخ، اضع الابريق على النار وانتظر غليان الماء. اكوام من الاواني القذرة تفيض حولي.

سيارة ركاب قديمة وكبيرة، مطفأة المصابيح، تزحف ببطء شديد في شارعنا الصغير، تتحسس طريقها كالحالمة على طول الشارع. واخيراً تفرمل بصرير حاد بجانب بيتنا، قرب المنوار. تتصاعد منها اصوات ضحك وصراخ. انتظار طويل. يفتح الباب ويقذف شخص ما الى الخارج، وهو شاحب ومرتبك. انه ابني. وجهه متحجر. ولا يظهر عليه اي اثر للابتسام. يفتح باب آخر. فيقذف شخص آخر نفسه ويتدحرج الى الخارج يمشي على الشارع مترنحاً، ثملاً تماماً، يقترب من الفتى، يمسك بذراعيه ويهزهما بمحبة جمة، ثم يندس ثانية في السيارة.

مرة اخرى، اصوات صراخ وصياح من الحشد المنحشر. انتظار طويل. ثم تنقلع خردة- السيارة بزمجرة خافتة. وتتدحرج الى الوراء بمصابيحها المطفأة كالحالمة، كسلحفاة سوداء، تخرج من الشارع من المكان الذي دخلت منه. يقف ابني بجانب المنوار. في المكان الذي انزلوه فيه. يقف هناك وقتاً طويلاً بلا حراك. قامته منحنية انحناءة بسيطة، وفجأة يطأطىء رأسه كثيراً ثم يتقيأ، يمسح وجهه براحته ويخطو باتجاه البيت. يجتاز المطبخ دون ان يحس بي. يدخل غرفته ويغلق الباب وراءه، رائحة خفيفة من الكحول

تفوح في الممر.

الشتاء . هذه المنطقة الساحلية، ما ان يلثمها المطر، حتى ترغب في ان تصبح ثانية مستنقعاً. شاعر كهل، شبه اعمى، ينشر اشعاراً ساذجة وسخيفة بلا انقطاع ويخطب ود الفنانين الشباب، يلتقي معي في الشارع، فيشبك ذراعه بذراعي، ويسير معي بطريقة ملتوية تحت السماء الرمادية، في الشوارع الرطبة، ثم يحدثني غامزاً انه لقي ابني برفقة فنانين شباب.

"شاب ممتاز هل يمارس الكتابة؟"

تترامى الى مسامعي اشاعات من جميع الاتجاهات. ثمة من يقول انه يتعرض للاهانات، وهناك من يقول ان تلك المخلوقات المنحطة تجد معه الراحة بالذات. انهم لا يصادفون ابله صامتاً مثله كل يوم. لقد اصبح في هذه الاثناء ظلاً لاحد الشعراء الشباب وخادماً لاحد محرري المجلات.

اعنفه بأقوال قاسية، غير انه لا يرعوي. انه مشتت الذهن، تطوف نظراته هذا العالم المتلبد بالغيوم فلا تراني ابداً. لقد شحبت وجنتاه قليلاً في الاسابيع الاخيرة. خفت بلادته، وتلفعت بمسحة من الروحانية. انا اعرف جيداً اذا تفوهت بكلمة غير حذرة فأنه سيفلت مني، ويتسكع في الشوارع فيسبب لي العار. لقد اهمل البيت تماماً. ويتناول طعامه في الخارج. وفي الحديقة تخنق الاعشاب الضارة الشجيرات. في حين خيل الي ان في نفسه بعض الشفقة على النباتات.

عندما يكون في البيت يعتكف في غرفته، ويستسلم للكتابة. لم نر بعد اي قصيدة له. لكنني اعلم علم اليقين: انه يكتب.

اصادفه في الدهليز امسك بثوبه بقوة واسأله هازئاً:

"ايكتب سيدي؟"

فيتلوى بين يدي. انه مذهول من استخدامي لضمير الغائب، الذي لا يفهم كنهه. يحدجني مذعوراً، وكأنه ميؤوس مني. بوسعه ان يعتكف في غرفته ساعات طويلة، وبتركيز مدهش. وفي بعض الاحيان يدخل الى غرفة الضيوف، يقترب من خزانة

الكتب، يستل ديوان شعر او كتاباً آخر، ويتمعن فيه وقتاً طويلاً. على الاغلب لا يقلب الصفحة حتى ولو مرة واحدة ثم يضع الكتاب بهدوء ويخرج. في الاونة الاخيرة يكثر من استخدام القاموس، ينبش فيه وينبش، ويقلب صفحاته بلا انقطاع، كالاعمى تماماً. اني اشك ان كان يعرف كيفية استخدامه.

اقترب منه في النهاية واسأله عن مبتغاه.

يريد ان يعرف كيف يكتبون السماء.

"السماء؟؟؟؟".

"كلمة السماء........"

"ما القصد؟ ماذا تعني؟ مثلما نسمعها...."

لا يساعده ذلك بشيء. يقف امامي جاداً الى درجة الرعب.

"مع الف بعد السين، ام لا.... "يسأل هامساً.

"مع الف بعد السين؟" أقول وأنا مصاب بالذهول. "ماذا دهاك؟"

يعض على شفتيه.

"الف بعد السين؟" اكرر ويرتفع صوتي صارخاً "وعلى العموم ما حاجتك بالسماء؟"

لا يجيب على ذلك. يطبق القاموس ببطء بين يديه. ويعود الى غرفته، بعد فترة وجيزة يتسلل مرة اخرى الى خزانة الكتب، يتناول القاموس ويفتش فيه. اهب انا من مجلسي.

"ماذا بعد"

"حرية...." يتمتم

"حرية؟ ماذا تعني؟"

"مع شدة على الراء، ام لا؟".

ومرة اخرى يثور غضبي هذا غير المفهوم. والانكى من ذلك انني انا نفسي لا اعرف فجأة كيفية كتابة كلمة حرية. انقض عليه. اسحب القاموس من بين يديه، وافتش

فيه بحماس.

في هذه الاثناء بدأت خطة تقاعدي تتبلور. بين الحين والاخر يأتي بعض الاشخاص لرؤية بيتي المعروض للبيع. اقودهم من غرفة الى غرفة، وادخلهم الى جميع الاركان. انزل الى القبو، اطوف الساحة، اتجول في الحديقة وانتهي بالشرفة. واعدد بصوت هامس مزايا هذا البيت الذي اعيش فيه منذ ثلاثين عاماً. واخيراً، اذكر الثمن، بأعصاب هادئة. عندما يودعوني اسألهم عن اسمائهم والفظ لهم اسمي بالمقابل حرفاً حرفاً. فينحنون على وريقة ويكتبون اسمي بهدوء تام. انهم لا يشعرون ولو برعشة خفيفة من ذكر الاسم. الم يقرأوا شعراً طوال حياتهم؟ معنى ذلك انني سأودع هذه المنطقة الساحلية وانا مغمور تماماً.

الا ان الحديقة تترك انطباعاً سيئاً لدى المشترين. اشكال مختلفة من النباتات البرية والمستنقعات؛ وكأننا عدنا الى ما كنا عليه حينما كانت الارض بواراً. الفتى غير مستعد لحمل المعول. لذلك امسك انا شخصياً عدة العمل واعزق يومياً بعض النباتات الوقحة واغطي بها المستنقعات الصغيرة.

في المكتب تجري حفلة تكريمية، بمناسبة تقاعدي. تجمهر جميع الموظفين قبل ساعة من نهاية العمل. وزعوا الكعك وشربوا نخبي كؤوساً من النبيذ. لقد كالوا لي المديح. وترقرقت الدموع في عيون بعض الموظفين. لم يذكر احد منهم اشعاري، وكأنهم لم يريدوا جرح مشاعري. ثم قدموا لي في النهاية هدية: لوحة زيتية لمنظر بحر هائج.

بدأت احزم الحقائب. وما اشد حيرتي امام خزانة الكتب. ماذا سآخذ معي وماذا سأترك؟ ابعث الى الصهرين رسائل مستعجلة بشأن مصير الولد. اتصل بهم هاتفياً، احثهما على اتخاذ خطوات عملية. وفي النهاية يعينان لي موعداً للمقابلة في احد المقاهي في مركز المدينة. وبجانب مائدة صغيرة يسردان لي برامجهما. سألا واستفسرا وفي النهاية وجدا حرفياً كهلاً في ضاحية مقدسية، يجلد الكتب، وقد وافق هو وزوجته على اخذ الفتى كصبي متتلمذ. سيزودانه بالطعام، والمبيت. لقد كان لديه هو نفسه ولد مثله وتوفي اثر مرض. غير انه وضع شرطاً واحداً بشكل واضح: اذا ما مرض الفتى،

سيعيدانه فوراً. اذن، نوبات او ما شابه ذلك.... اعلنا بشكل مطلق: لن يعتنيا بامراضه.

لذلك بحث الصهران واستفسرا حتى وجدا في النهاية عجوزاً تعيش وحدها، على بعد بيوت قليلة من بيت المجلد، اعربت عن استعدادها لاستقباله ان مرض، مقابل اجر، بالطبع··· اذن. هذا هو كل شيء. كان علي ان اوقع على كلا الامرين. ويخرجان الاوراق-

اوقع فوراً. لكنني استشيط غيظاً في الحال.

"فيما يتعلق بالامراض والنوبات، لم تكن هنالك حاجة لبذل جهود، فهو ليس من اولئك... انه فتى بين بين.... قلت ذلك آلافاً مؤلفة من المرات·· الا انكما لا تريدان البدء بفهم ذلك·· لا بأس، لنترك هذا الامر··".

يجمع الصهران النسخ، ما عدا نسخة واحدة يتركانها لدي. يرتشفان بقايا القهوة، ويبتسمان بمودة "ارأيت؟ وانت كنت تظن بأننا لا نهتم بك...."

في اليوم التالي اوقع مرة اخرى، ولكن هذه المرة على نقل البيت الى ملكية مشترٍ تم العثور عليه في نهاية الامر، اجمالاً حظيت بثمن محترم جداً، مقابل الارض فقط، حيث انهم سيهدمون البيت.

بيع الاثاث بالجملة. في ساعات المساء الاولى، عند الغسق، حضر ثلاثة عمال وبدأوا بأخلاء البيت من الاثاث. اخرجوا كل شيء ما عدا فرشتين، حتى طاولته سحبوها من تحت يديه بينما كان يكتب. فثارت ثائرته. تجول في البيت واوراقه البيضاء المتسامية- المهانة تحت ذراعيه. سقطت بعض الاوراق على الارض، وعندما احس بذلك كان احد العمال يحاول تغليف ظلل المصابيح بها. انقض على ذلك العامل بكل ما اوتي من قوة في جسمه الثقيل، وحاول عضه.

لقد لاحظت منذ زمن انه يصاب ببلادة حواس تامة، في ساعات الاصيل والغسق.

تتكدس الاوراق النقدية في جاروري. انني لا احصل الا على ربع قيمة الاثاث فقط، مع ذلك تكدست لدي النقود. اريد بيع كل شيء، وما لا افلح في بيعه اوزعه

كهدايا. لقد اجبرت اصدقائي على حمل اكوام من الكتب. ولو تفرغ الفتى قليلاً لباع لتجاره ما ارميه في القمامة.

في الاونة الاخيرة فتحنا القبو ايضاً وانتشلنا من اعماقه الثياب القديمة، والمكانس، ومجموعات اخرى من الكتب، مخطوطات لي ولاخرين، سخافات، تشبيهات لبعض الاشياء، شذرات، امثال. وخلال ثلاثة ايام بكاملها بقيت سحابة من الغبار على مدخل القبو.

قلت لاصدقائي في المقهى: اذن، هكذا يحرر الانسان نفسه-

في هذه الاثناء اواصل الذهاب باستمرار الى الميناء الصغير جداً في هذه المدينة الكبيرة، لاذكاء غريزة السفر في اعماقي. اتلفع بمعطف كبير، وبيدي شمسية، اتجول بين الرافعات، اشم الصدأ والاملاح محاولاً اجراء حديث مع الملاحين. ما زلت افكر بتردد في وجهة سفري. فكرت في البداية اني سأصل الى اوروبا الغربية، بعد ذلك فكرت في جزر اليونان. وكنت قد تداولت مع ربان تركي بشأن مضائق البوسفور، حتى اقتنيت، بسعر زهيد، تذكرة سفر ذهاباً واياباً على ظهر سفينة نقل ستبحر الى قبرص. صعدت بنفسي الى السفينة وطرقت بعكازي على باب الحجرة المخصصة لي.

ستكون هذه الرحلة بداية الطريق. وسنبحر بعد ذلك الى اماكن ابعد.

خلال هذه المدة يواصل الابن الكتابة، وهو واقف، وكأنه يصلي. اوراقه مبعثرة على برطاش الشباك، الذي يستخدمه كمكتب، وبجانب الاوراق قاموس صغير افلح في انقاذه من الانقلاب. حينما اتمعن بظله افكر ملياً: انه هكذا، على هذه الحال. قد يذهب ليضاجع امرأة ما. ومن يدري؟ ربما كان قد ضاجع-

ما زال لا يفهم تقاعدي، وفراقي القريب، انه منغمس كلياً بنفسه. اقتلعته بصعوبة من مكانه، في عصر احد الايام، كي يرافقني الى القدس لرؤية مجلد الكتب العجوز.

كان ذلك يوماً شتوياً ناعماً، وغائماً، لكنه بلا امطار حقيقية. في محطة الباصات في القدس انتظرنا مجلد الكتب العجوز، بسيارة تجارية متداعية، تبعثرت

فيها الكتب غير المجلدة، ونقلنا الى ضاحية المدينة، عبر منحدر واد كثيف الشجر، على مقربة من الحدود. ادخلنا الى بيته بصمت، واستقبلتنا زوجته بصمت، اعدا لنا الشاي والكعك واجلسانا فوراً بجوار الطاولة.

لقد اعجباني جداً-

تفحصا الولد باهتمام. لا يمكن القول انه اعجبهما، ولكن بدا عليهما بعض الارتياح، فقد توقعا شيئاً اسوأ من ذلك. ورويداً رويداً، وبعد تردد تدفق الحديث بيني وبينهما. تبين لي فجأة ان المجلد قد سمع بي، بل وكأن على يقين من انه قرأ شيئاً من كتاباتي، (ولسبب ما كان يظن انني كتبت النثر) لكن ذلك كان قبل زمن بعيد جداً، ما يقارب عشرين عاماً.

اقول لكم بصراحة لقد شعرت بالارتياح.

في الخارج ولولت الرياح. وصفرت الغلاية الكهربائية على الطاولة (عادات اكل عليها الدهر وشرب). في ساحة بيت المجلد توجد ايضاً شجرة كبيرة، اكبر سناً من شجرتنا، ملتوية الجذع. غسق الشتاء خبا عبر النافذة. رمادية ما قبل الظلام امتزجت بالحريق. ترسيمات حدود. جلس هذا الشاب الضخم متسمراً بجواري، وكأس الشاي مليئة امامه، والكعكة كاملة الى جانبه. يجلس حانياً ظهره ويتطلع عبر الشباك الذي اخذت الظلمة تكسوه، لا يصغي الى حديثنا بتاتاً، فجأة يستل من جيبه ورقة كبيرة، ارتسم عليها سواد سطور كاملة، يبسطها امامه ويكتب عليها ببطء كلمة واحدة، ثم يطوي الورقة.

توقفت الكلمات على اطراف السنتنا. المجلد وامرأته نظرا اليه باستغراب.

قلت مبتسماً: "انه يمارس الكتابة.."

لم يفهما.

"انه شاعر".

"شاعر.." همسا.

بدأ المطر يتساقط في تلك اللحظة، واضرم الغروب الغرفة. اما هو الذي جلس

قرب الشباك، فقد اشتعل شعره ناراً.

رشقاه بابصارهما باستغراب متزايدا. اما هو فيرمقنا بنظرة تنم عن تفكير عميق، والقلم ملقى في يده.

قلت للمجلد: "سيصدر ديوان شعر، ستجلده انت له"

فقد المجلد صوابه من شدة الاستغراب. هل اهزأ منه؟ ثم علت وجهه شبه ابتسامة.

"بالطبع سيصدر كتاباً وسنجلده معاً هنا".

"مجانا؟"ما زلت ساخراً.

"مجاناً".

نهضت من مكاني.

"حسناً، اتفقنا، هل تسمع؟"

غير ان الشاب لم يسمع.

(عندما هممت بالخروج جذبني المجلد وامراته الى ركن الدهليز وذكراني هامسين بموضوع الامراض او النوبات...... واعادا ذكر عدم مسؤوليتهما. طمأنتهما).

خرجنا. لم يستطع مجلد الكتب اعادتنا الى محطة الباصات، حيث ان مصابيح سيارته العتيقة معطلة. فودعناه وزوجته واخذنا نمشي في الشارع تحت قبة السماء التي يسح منها المطر بصوت مكتوم. لقد كان في حالة بلادة تامة، فقد احاسيسه تقريباً. يجر ساقيه على الاسفلت. وصلنا الى محطة باص محلية، وقفنا بين قضبان حديدية وفوقنا ظلة حديدية مائلة. وحدات سكنية في المنطقة المحيطة، صخور عارية، ارض ارجوانية اللون. هل هي مدينة ام منطقة مهجورة. انها القدس بكآبتها، وبخرابها الازلي. مهما سيبنون بها، سيبقى فيها دائماً اثر للخراب.

التفتت اليه وانطلقت مني الكلمات طاهرة وواضحة.

"المجلد وامرأته شخصان طيبان جداً. لكن عليك ان تكون عند حسن ظنهما".

بقي صامتاً. مر بنا شخص ما راكباً دراجة هوائية، لمح سحنة الفتى فالتفت

فوراً الى الوراء.

كان الظلام قد خيم تماماً. واضيئت الانوار في الوحدات السكنية. وقف كلانا بوحدة تامة تحت الظلة. فقلت له فجأة:

"استرقت النظر الى الورقة. ثمة قصيدة جاهزة. اترى؟ بإمكانك الكتابة بنفسك. لم تكن بحاجة لي".

رفع بصره نحوي وظل صامتاً.

اقتربت منه قرباً كبيراً.

"أرني القصيدة".

"لا".

"لماذا؟"

"ستمزقها انت.....".

"كلا، لا سمح الله، لن امزقها...."

مددت يدي لانتزع الورقة. لكنه جفل. هممت ان افعل ذلك بالقوة، غير انه رفع ذراعيه مدافعاً عن نفسه. كان بوسعه هذه المرة ان يضربني.

مرة اخرى مرت بنا الدراجات الهوائية، من بعيد تناهى هدير الباص.

كانت هذه هي الكلمة الاخيرة من قصيدته.

لم اعرف انا ذلك.

كان ذلك قبل ايام ثلاثة-

- ٤ -

كم هو رهيب هذا الموسم. الابخرة والصقيع تغطي الزجاج على التوالي. أنا لا اذكر شتاء صعباً مثل هذا الشتاء. العتمة مستمرة ليل نهار بلا انقطاع. اما في الفجر تتضاعف. من ذا الذي في المرآة؟ ما زلت انا. صخرة تملأها الشقوق. العينان بارزتان فقط، تشعان بحيوية مذهلة.

انا مقبل على السفر. لقد فاتتني سفينة واحدة، بينما تنتظرني سفينة اخرى.

بقي علي ان ادس آخر حاجياتي الى الحقائب، ان اطوي المناشف، اجمع نقودي وانصرف، لقد مر اسبوعان علينا ونحن ننام على الفرش بينما يأتي صاحب البيت كل يوم لرؤيتنا. لقد نفذ ما تبقى لدى هذا الرجل من صبر، يدور حولي واليأس يغمره، منتظراً انصرافي. لقد هدد امس برفع شكوى الى المحكمة. فقد اشترى البيت بما تبقى له من نقود. لديه الكثير من الاحلام.

حقاً يجب عدم التلكؤ بعد. يجب ارسال الفتى الى القدس، الى مجلد الكتب الذي ينتظره قرب الحدود. يجب عدم التريث بعد. فالفتى لا يفتأ يتجول في الليالي. وفي الاونة الاخيرة توقف عن الكتابة. انتظرته امس حتى بعد انتصاف الليل لكنه لم يعد. وقد عاد فقط مع بداية الهزيع الاخير من الليل. ايقظتني خطواته.

باب الشرفة يحدث صريراً عندما افتحه. الارضية رطبة، انتشرت عليها الاوراق والفروع المتكسرة بعيد العاصفة. السماء باردة ولا يرتجى منها أمل. مطر خفيف ينهمل مع انبلاج نور الفجر. هذا الكون العظيم والمعروف جداً يرش الرذاذ امامي بسكينة تامة. حفيف اوراق الشجر.

الم ارد الكتابة؟ الم يهزني الشوق للكتابة؟ لكن عم يمكنني ان اكتب بعد؟ وهل يمكن بعد ان اقول شيئاً؟ اقول لكم: كل شيء مخادع. فحتى شجرة الصفصاف هذه تتفتت. جذعها يتساقط قشرة تلو قشرة. بهتت الوان الحديقة، وتغطت الحجارة بالطحالب.

ان انطلق كالسهم البطيء باتجاه السماء. ان استلقي على بطانة الغيوم. ظهري باتجاه الارض، ووجهي باتجاه زرقة لا تتغير.

يا لي من شاعر متقاعد.

المطر يشتد. وتتطاير القطرات نحوي. اهب من مكاني، وارجع على اعقابي. هدوء شاحب يخيم على البيت وصفير خفيف من الشخير يتردد فيه. اذهب الى غرفته الصغيرة. اذيال منامتي الليلية تنجر ورائي ظلي ثقيل على حائط ضيق.

انه هو الاخر ينام على فرشة. النواسة الكهربائية ملقاة على الارض بجانب

رأسه. ما زال غير قادر على النوم بلا هذه الشمعة الدائمة. عبر ثقوب القباجور يتقطع باستمرار ضوء السحر لأشلاء دقيقة.

اتمعن بصمت في هذا النائم المطروح عند اقدامي، ثم اهم بترك الغرفة، غير اني المح فجأة بعض اعداد الجرائد المبعثرة على الارض بجانب الفرشة. ينتابني الرعب. انحني فوراً والمها. ما زالت الاعداد رطبة. فيرسم الحبر الطري الخطوط الضعيفة على اصابعي. اتجه نحو الشباك، نحو الضوء الخافت المنبعث منه.

ملحق احدى الجرائد الخفيفة المتبجحة. التاريخ -هذا اليوم الذي يداهم الكون. اتصفح صفحاتها بيدين مشلولتين. وفي طرف احدى الصفحات اجد القصيدة: جنونية عديمة الوزن، متناقضة، ابيات مبتورة دون ضرورة، تكرار غريب، وتشكيل خاطيء.

فجأة يزداد الصمت، اختفى صوت التنفس. يفتح عينيه، حمراوين، وثقيلتين من جراء النوم. تفتش يداه عن نظاراته الملقاة بجوار الفرشة يضعها على عينيه، وينعم النظر فيّ- أنا الواقف قرب الشباك، فترتسم ابتسامة

خفيفة، معتذرة، حزينة بعض الشيء، على محياه.

الان فقط انتبهت. ان اسمي المكتوب بخط اليد يتصدر القصيدة. وبحروف آيلة للسقوط.

ترجمة: سلمان مصالحة

شولميت هار-ايفن

كراسي القش



* شولميت هار-ايفن
ولدت في بولندا عام ١٩٣١. هاجرت الى فلسطين عام ١٩٤٠. تقيم حالياً في القدس، صدرت لها العديد من المؤلفات، ما بين قصة ورواية وشعر ومقالة وغيرها.
من بين اعمالها:
في الشهر الاخير "(مجموعة قصصية، ١٩٦٩)، اماكن متباعدة" (شعر، ١٩٦٩)، "بعد الطفولة" (قصة طويلة، ١٩٩٤). وقد ترجم دافيد سجيف الى العربية قصتين طويلتين من تأليفها هما: كاره المعجزات" (١٩٨٣) و"نبي" (١٩٨٩) وصدرتا معاً في كتاب عام ١٩٩٣.

في تلك الايام بدأ الكثير من الطائشين العابثين الاهتمام بالادب الامر الذي حز في نفسي كثيراً. قد يكون هذا هو الامر الذي زجني في الورطة التي وقعت فيها. مالي وللادب؟ الست امرأة وحيدة؟ ها انا بعد قليل سأحال على المعاش، والان اعمل في قسم الحسابات في كويات حوليم (صندوق المرضى)،

ارى الاعداد والارقام ولا ارى الادباء، الا انني ارتاد قاعات المحاضرات وفي القدس الكثير من المحاضرات. وذلك لانني احب الادب لا بالطريقة العاطفية على غرار الهواة الذين يحبونه، فانني من المدققين الحريصين ولست من العاطفيين الانفعاليين. انني لست تلميذة مدرسة ثانوية اعجبت بشاب ما
فنظمت فيه شعراً في نفس الاسبوع.

ولكن يبدو انه لا يتاح للكثير من الطائشين في الاونة الاخيرة النشر فحسب

بل القاء المحاضرات في القاعات ايضاً وكثيراً ما يحدث انني اجلس واعاني، اسمع واعاني، واعود الى البيت، وقد تملكني شعور بالمهانة، اكبر الظن ان تفكيري كان سارحاً في ذلك الامر عندما ارسلت كراسي القش التي املكها للتصليح والا لما حدث ما حدث. وهذا تفصيل ما حدث.

عندما تيبست كراسي المطبخ التي املكها في ايام الخماسين الكثيرة وبدأ قشها المضفور بالتكسر أخذتها لتجديد قشها عند شخص كان مشغله داخل كوخ مسقف ومظلم، في منطقة تتصاعد منها اصوات صاخبة من الشواكيش والمقادح الكهربائية. لست ادري كيف يستطيع الناس ان يعملوا فيها ولا يضطرون الى سدّ آذانهم. صاحب العجلة اليدوية الذي نقل كراسيّ انزلها في منتصف الزقاق. تناول اجره وانصرف. وانا لم احب ان ارى كراسيّ مطروحة هكذا وكأنها ضيوف طفيليون، في مطبخي كانت جميلة وهنا كالمتسولين على الابواب. اخذها صاحب المشغل بازدراء وطرحها في احد الاركان، بين الاثاث المستجدي، بين كرسي هزاز ممزق البطن وصندوق مليء بالخرق. "بعد اسبوعين- ثلاثة" قال: "الافضل بعد شهر"، كان من الصعب مشاهدة سحنته بسبب الظلمة السائدة في الكوخ ولم ادر لماذا كان علي ان انتظر كل هذه المدة الطويلة لعملية ليست شاقة الى هذا الحد. ولكنه قال بلا رغبة ظاهرة، انه لا يقوم بنفسه بمثل هذه الاعمال- هذه الأعمال، يقصد بها الأعمال الرخيصة فهو يبعث بها الى مجموعة من المسنين الذين يقومون بعملهم على مهل كنوع من الانشغال، وليس كعمل حقيقي. فسألته لماذا لا استطيع ان انقل بنفسي كراسيّ الى هؤلاء المسنين لتوفير الوقت قال اننا لا نعطي عناوينهم، وفجأة تملكه الغضب، ورفع احد هذه الكراسي التي امتلكها هامّاً بكسرها وقال:

"انا لست بحاجة اليها يا سيدتي، خذيها اذا اردت ذلك. ليس لي من ذلك الا المضايقات. مضايقات من المسنين. مضايقات من ضريبة الدخل. نريد ان نصنع المعروف ولا يعود علينا ذلك بشيء".

نكست رأسي. اذ لم يكن غيره في المنطقة من يوافق على اخذ كراسيّ ولم ارد

عليه وادار لي كتفاً ضخمة غاضبة وقال:

"طيب، سجلي اسمك عند هذه المرأة وادفعي سلفة على الحساب ايضاً". الان فقط لاحظت امرأة صغيرة الجسم قابعة في ركن من الكوخ قرب طرابيزة قديمة عفا عليها الزمن وقد تكون من القرن الماضي عندما كان الموظفون يكتبون بقلم الحبر وبحروف جميلة، وعلى الطرابيزة بعض الورق، كل ذلك كالخردوات المتراكمة. ولكن يبدو ان مسك الدفاتر في المشغل ما زال فيه بعض الفائدة. كانت هذه المرأة تحملق فيّ طوال الوقت واتضح لي ان عينيها حادتان ثقيلتا الظل، ولم افهم لماذا يوجد هذا المقدار من العداء في هذا المكان، حددت المبلغ، فسألت ما اذا كنت استطيع الدفع بشيك.

"ما عنوانك" صاحت المرأة في وجهي.

لم اعلم السبب، لعلها الصرخة في وجهي او لعل رأسي كان ما زال مشغولاً في محاضرة المساء السابق التي اثارت حفيظتي جداً، محاضر عديم المسؤولية كان هناك- فأجبتُ:

"نادي الأدباء".

"آه"، قالت المرأة، "انت اديبة".

لا اعلم حتى اليوم لماذا اشرت برأسي بإيماءة نعم. امتلأ وجهي خجلاً. ولكن الواقع هو الواقع. لقد فعلت ذلك ولست ادري لماذا. ان الكذب الذي يمكن ان يجاهر به انسان ما وهو في كوخ مظلم، قد لا يكون قادراً على قوله تحت ضوء الشمس، في مكان باد للعيان. الادهى من ذلك انني لا احب هذه الصفة، اديبة، اذ اكبر الظن ان الادباء لا يلجأون عموماً الى اضفاء هذه الصفة على انفسهم بل ينتحلها النقاد والمعلمون والاساتذة وحتى اولئك المحاضرين الطائشين وغيرهم من الناس الذين يمضون حياتهم في منطقة الضوضاء الكبرى التي تحيط بالصمت الهش. وبالاضافة الى ذلك يبدو لي ان الانسان هو اديب ساعة قيامه بالكتابة فقط، وبعد انتهائه من عمله الادبي يكف عن كونه كاتباً فيصبح عابر سبيل، او متناولاً للطعام، او قائماً بخياطة زر في جاكتته. ماذا دار في خلدي في تلك اللحظة في الكوخ المظلم. اقسم انني لا ادري.

رفعت المرأة نفسها قليلاً من مكانها ومدت يدها مشيرة الي، وهي تتناسب وطول ذراع ممدودة لإمرأة صغيرة الجسم.

"أذن لماذا تكتبين عني؟ من أذن لك بتناول حياة الناس والكتابة عنهم؟"

لما كانت قد صاحت في وجهي فقد افزعتني. لسنين خلت كنت اعمل في "صندوق المرضى" (كوبات حوليم)، وليس في قسم الحسابات بل في استقبال المرضى. وكان هناك بعض المرضى من القبضايات الذين كانوا يصرخون في وجهي كثيراً. ولم اكن احتمل الصمود امام غضبهم فمرضت مرضاً شديداً ونقلوني الى قسم الحسابات. في عهدنا اليوم لم يعد المرء متاكداً من انه يعلم كل شيء عن نفسه. كل انسان في الشارع يعلم عنك اكثر مما تعرفه انت. الطبيب النفساني، رجل الاحصاء، الصحافي، واذا ما وقف امامك شخص ووجه اليك اتهاماً لم تعد متأكداً ابداً من انك بريء واذا كنت بريئاً فأن الشعور المكبوت في دخيلتك غير بريء بالتأكيد.

" إنني لا اعرفك" حاولت ان اقول لها ولكن ارتفعت حدة صوتها:

"هذا لا يهم. انتم الادباء تعلمون كل شيء. هناك اناس اشرار يحكون لكم. اناس يشحذون السنتهم وانتم تكتبون وتجمعون المال على اكتافنا. انكم تعيشون على مصائبنا. عاقبتكم السماء. احرقكم الله".

سألتها، معتذرة، اي قصة حياة تقصد، فشرعت تضحك:

"أنظروا اليها كيف تتظاهر بالسذاجة. تأكل وتداري. ثم تسأل عن اي قصة".

"ولكنني لست ادري".

مالت نحوي بوجه خبيث بعد الضحك وقالت بصورة قاطعة:

"أنت تعلمين".

ثم عادت وجلست في مكانها. جسم صغير جداً. عيناها تتألقان في العتمة بتحدٍّ، مثل ازرار لامعة سوداء. كان الرجل في الكوخ ينظر طوال الوقت الى ركن آخر وظهره باتجاهنا. ولكن يبدو ان ما يجري ليس غريباً عنه. قد يجلس احياناً شخصان في ركنين من اركان غرفة ما ومع ذلك فأن جسميهما يتكلمان مع بعضهما البعض وحتى

في حب مستتر. وهنا كان كل كلام الجسم بين الاثنين كلاماً عدائيا، ينطوي على عداء قديم ومؤلم.

خرجت من هناك، خارج مدخل الكوخ كان هناك مكان غير مسقف. عبر هذه الفتحة انصب شعاع قوي من نور الشمس. في المكان المشمس كان هناك شاب يرتدي فانيلا رمادية ينشر لوحة كبيرة بمنشار يدوي. تطايرت الشظايا الى جميع الجهات وتألقت في تطايرها نحو الزقاق المظلم وكأنها النحل او كشظايا ذهبية. الا ان الشظايا لم تسبب آلاماً، اذ ان عدداً منها حطت على كتفي الشاب ولم يتحرك كما يتحرك الناس الذين تصيبهم حروق.

"اسمح لي"، قلت له "اريد ان اسألك شيئاً".

توقف الشاب عن النشر مدققاً النظر نحوي لاني اوقفته عن عمله. فلم اعد واثقة من انني اريد ان اوجه اليه سؤالي ولكني طالما ازعجته فقد استمر ازعاجي. فقلت له:

"قل لي من فضلك، الا تجد ان المرأة التي تعمل هنا في الطرابيزة غريبة الاطوار بعض الشيء؟".

وما ان سألت حتى ندمت فوراً، كيف لي ان اعلم، فقد يكون هذا الشاب الذي ينشر اللوحة هو ابن هذه المرأة. فما موقفي حينها؟ ولكن الشاب اجاب بهدوء:

"المرأة ليست غريبة الاطوار".

بعد ذلك كرر قوله قائلاً:

"تلك المرأة ليست غريبة الاطوار".

قال ذلك وعاد الى عمله.

تملكني الاسف الشديد لاني وجهت اليه السؤال فهو انسان يعمل بكلتا يديه. من يستطيع ان ينهض بالعالم سوى امثال هذا الشاب الذي ازعجته انا هكذا. لم يواتني الحظ في هذا الزقاق. غادرت المكان وانا اتجاوز اكوام الشظايا بين النور والظل واتخطى مفاتيح الربط السويدية ومزالج كبيرة. خرجت من الزقاق ودخلت الى زقاق آخر مسقف

فيه اكوام من الخضروات في اكياس ممزقة ربت فيها الديدان من سوق الخضار القريبة، واخيراً عدت الى الشوارع المضيئة والى الاشياء التي الفتها.

كان مطبخي بغير الكراسي فارغاً وغريباً، لكنه ظل مطبخي. لقد عرفت فيه كل صغيرة وكبيرة. وقد وجدت انه في المكان الذي كان فيه احد هذه الكراسي بالقرب من الحائط، تقشرت البويه بعض الشيء، وتكون شق. انني امرأة كثيرة المسح والتلميع واحب ان يكون كل شيء مرتباً ترتيباً جميلاً. تناولت علبة من البوية التي احتفظ بها دائماً، وفرشاة دهان صغيرة، واخذت ادهن واصلح. ظل المطبخ نظيفاً كما كان. في ذلك اليوم لم اجد لدي القدرة للذهاب الى المحاضرة، فالانسان قد يخرج من بيته ولا يدري ما الذي سيواجهه، احياناً يجد لديه القدرة على مواجهة مفاجآت الدنيا بأسرها واحياناً لا يجدها. خرجت اتنزه قبل الغروب، كما اعتدت في الايام التي لا توجد فيها محاضرات في اي مكان، فصادفت تيئو شتاين الذي اعتاد هو الاخر ان يتنزه. وقفنا نتجاذب اطراف الحديث قرب وكر للغربان بالقرب من منطقة المكاتب الحكومية (هكريا).

هناك الكثير من الغربان في القدس. تيئو شتاين كان يقول ان هذه الغربان هي تحول لجنود الفيلق الرومي العاشر الذين تبقوا بعد الحصار. ومن كثرة ما سلبوا ونهبوا قلت طاعتهم. الدليل على ذلك انك لا تجد اطلاقاً غراباً ميتاً. هناك عصافير دوري ميتة هناك حمائم مدهوسة، هناك بلابل ساقطة من عشها، ولا غراب ميت. وكان يتكلم مع الغربان باللغة اللاتينية ويدعى بأنها تفهمه جيداً ولكنها ذكية وهي تحاول ان تخفي ذلك. ومع ذلك فقد كانت تتجمع دائماً غير بعيدة عنه اثناء سيره، تنظر اليه، وهي عارفة عالمة، سواء اكان ذلك في حرش اوجوستا فيكتوريا، في الطريق المؤدي الى الصحراء، ام بالقرب من منطقة المكاتب الحكومية، بسخرية صاخبة وجافة لصعاليك يعرفون قدر أنفسهم، او ربما جماعة قديمة من المهاجرين الذين لن يعودوا ابداً. كانت الغربان كبيرة بلون اسود- رمادي، نطاطة تجتاز بكل قفزة رابية صغيرة في الجو. انها تعرف وتألف كل احجار المدينة البارزة. روما الممزقة.

في السنوات الاخيرة اعتاد تيئو شتاين ان يقوم بنزهته المسائية بلا زوجته. اني

استلطفه كثيراً. اراه من بعيد يخطو خطوات الشيوخ المسنين الرياضيين التي تنم عن صلابة، بنطلونه قصير، معلقاً على كتفه حقيبة صغيرة من جمعية حماية الطبيعة، تشبه حقيبة خرائط. نظاراته وركبتاه تتورد من اثر الغروب الذي ينساب علينا. وكان الى ما قبل بضع سنوات يتنزه مع زوجته التي تقص شعرها كالفتيان ولها وجه في منتهى الجمال. وكان هناك تناقض مفاجيء بين هذا الرأس الذي ينم عن الشباب وهذا الجسم المنفوخ جداً، الذي يندلق من كل مكان ممكن، وكأن جسمها عبارة عن سوائل يحتفظ بها الثوب فقط. هذا ما حدث لها بسبب العقاقير المسكنة الكثيرة التي تتناولها نهاراً وليلاً بمشورة الاطباء والتي تكاد تكون غذاءها الوحيد. اذ بسبب يأسهم من اشفائها، فأنهم فكروا فقط في تسكين الامها وهذه المسكنات هي في الحقيقة دليل على فشلهم.

عندما كان تينو شتاين يسير مع لوتا لم تكن خطواته رياضية ولم يحمل حقيبة، بل كان يسير الهوينا، يسند زوجته جيداً، كمن يخشى من ان تندلق هذه السوائل. كان الكثيرون من الازواج المسنين يتنزهون هكذا في القدس قبيل المغرب، بعد ان يكون حر النهار قد خفت وطأته، وعادت البركة. وعلى العموم يعيش الانسان في القدس ويخيل اليه انه لا يعرف ما حظي به، يجزل له العطاء تلو العطاء بأستمرار. فالنسيم عليل وساعات الاصيل جميلة. والان ايضاً عمال الجنائن في البلدية، وهم عمال مجتهدون يزرعون الكثير من الاشياء الجميلة. واذن فقد شاهدتهما ذات مرة يتنزهان هكذا، فجاءت سيارة شحن وقطعت عليهما الطريق بالقرب من شارع سعديا جاءون. وهذا ليس بأمر غريب في ايامنا التي تتميز بالقيادة المتهورة، حيث يتملك الانسان الذعر والفزع مرات عديدة كل يوم بسبب سيارات شحن وقحة. ولكن لوتا تملكها فزع اشد مما يصيب الناس العاديين وجعلت تصيح "تينو، تينو" بصوت باك مرتفع فامسك بشدة بما يشبه الكماشة وصاح بها "هدئي من روعك. اهدأي" وسارا في طريقهما وهو ينهرها بشدة وهي تبكي.

منذ مرضها لم تعد لوتا تلقي عليّ السلام، ولكنها في السنوات الاخيرة كفّت ايضاً عن الخروج. وظل تينو يتنزه وحده ويتوقف دائما ليتبادل معي بعض الكلمات

اثناء نزهته. كنا نقف دائماً ولا نسير معاً بالرغم من ان كلينا يتنزه بما يشير الى ان المتنزهين هم من الازواج في حين ان تينو وانا لسنا زوجين بل كنا نلتقي صدفة. فبيني وبين تينو ما يشبه الاسى، نقف ولا نسير.

لوتا شتاين كانت تدخل المستشفى ثم تخرج، تدخل ثم تخرج في اوقات متقاربة وبالفعل فان تينو لم يكن متفرغاً الا في الايام التي كانت فيها محبوسة في المستشفى. ففي الايام التي كانت فيها في البيت كان تينو يعتني بها كثيراً اذ كان يطبخ ويخيط ذيل فستانها الذي كانت تمزقه دائماً بسبب ضخامة جسمها المسمم بالعقاقير بساقيها المتورمين اللذين يشبهان ساقي عروسة. وكان عند المساء فقط يغادر البيت ولو لربع ساعة للتريض قليلاً. وعندما كان يخرج للتنزه كان يوصد الباب وراءه جيداً، ويقطع خط التليفون وجرس الباب بواسطة مفك يحمله دائماً في جيبه لكي تكون زوجته في مأمن من أي اتصال خارجي. فكل منظر غريب او صوت غريب كان بأمكانه ان يفزعها الى درجة انخراطها في نوبة بكاء لا يمكن تهدئتها منه حتى بالادوية الكثيرة المتوفرة في البيت. وفي بعض الاحيان كان على تينو أن يعيدها الى المستشفى خلال ايام اجازتها. وقد حدث هذا بالفعل ايضاً.

اشيع ان لوتا شتاين كانت بحاجة الى المعالجة منذ ان كانت تلميذة المدرسة الثانوية وقد جاءت الى البلاد وهي في سن التاسعة عشرة من عمرها ولم تكن قد انهت بعد دراستها في المدرسة ولم تكن تستطيع ان تنجز امراً بدأت فيه كما ينبغي. فلماذا تجالس بنات الست عشرة سنة والسبع عشرة وجميعهن ماهرات نشيطات. من الممكن انه لم يكن هناك داع لزواجها غير ان تينو شتاين اصر. ففي المدرسة كان وضعها سيئاً، والعائلة كانت توهم نفسها. ولم يطرأ تحسن بل ساءت حالتها. وفي السنة الثانية وربما في السنة الثالثة بعد ان اعترفوا بمرضها بشكل رسمي وأدركوا الا شفاء لها،، كان هنالك سبّاك يعمل في شقق العمارة خلال اسبوع واحد، وهو شاب قليل الكلام مفلفل الشعر كان يرتدي خلال عمله زياً عسكرياً ممزقاً لم يفهم معنى حب لوتا المريض بعد ان احبته بصورة مفاجئة. وكانت تتخيل انه سيكون لها حب على الطريقة الاوروبية،

ملوكية، حيث يأتي الشاب مع باقة من الزهور ويكتب اليها الرسائل. وفي الحقيقة من يمكنه ان يقول انه لا يحق لها ذلك؟ في تلك الايام لم تكن متورمة من اثر العقاقير، كان هناك خبث غريب فقط في عينيها، نار خبيثة. ولكن السبّاك لم يلاحظ، ولعله ايضاً لم ينظر الى عينيها. واذا كان استسلامها الفوري المطلق، من اللحظة الاولى تقريباً لدخوله المطبخ، قد ادهشه، فإنه لم يفكر فيما هو اغرب من ذلك، لقد كان عاملاً جيداً ومطلوباً، وقد انهى جميع التصليحات في الشقق الثمانية للعمارة المشتركة ثم سار في طريقه ليذهب الى اعمال اخرى. لقد ارادت ان تنجب، قال لي تينو شتاين. ارادت ان تنجب، وأنا لم اعلم كيف استتر من فرط الخجل.

ويبدو ان حالتها قد ساءت منذ ذلك الحين. وكانت مازالت تؤدي واجباتها كربة بيت. يوم نعم ويوم لا، ولم يكن تينو شتاين يعلم ابداً ما اذا كان سيعود ويجد وجبته ام لا، وفي الايام التي كانت تؤدي واجبها كانت ترتب سفرة الطعام لثلاثة، شارحة لتينو ان ذلك السبّاك سيعود في كل لحظة، وعليها ان تستقبله استقبالاً مناسباً، فهما متحابان و سيخرجان من هنا. بعد ذلك كفت عن اداء واجبها. وفي خلال فترة معينة كان هو ايضاً يضع بإذعان ثلاثة اطباق على المائدة، لارضاء زوجته، الى ان شعر ذات مرة بأنه لم يعد يحتمل بعد، وقال لطبيب لوتا انه لن يقوم بعد اليوم بترتيب السفرة لثلاثة اشخاص حتى لو جاء اليه كل الاطباء النفسانيين في العالم ليقولوا له ان عليه ان يقوم بذلك. ان قدرته على التحمل بلغت حدها.

لا ادري ماذا قال الطبيب للوتا وربما قص عليها ان السبّاك قد سافر الى اميركا او ذهب الى جيش الاحتياط، ففي بعض الاحيان هناك حاجة للاسف الشديد الى مواربة خبيثة، بالرغم من انه يخيل اليك ان العالم يتناقص بقيمه وانت ايضاً تتناقص. وعلى كل حال فقد اكتفت لوتا منذ الان بمجموعتين من الاطباق لدى وصولها الى البيت، لها ولتينو، واحياناً فقط كان يدور في خلدها وميض من التفكير فتقول: "نعم، نعم، ولكن في الاسبوع القادم سنضطر الى وضع ثلاثة اطباق، اليس كذلك يا تينو"؟ فكان يصرّ على اسنانه ويرد: "ربما، سنرى".

ومضت هذه الفترة ايضاً. الان اصبحت لوتا شتاين تنام اغلب الوقت، وعندما لا تنام تتناول الحلويات. كان الباب يجب ان يظل دائماً موصداً جيداً.

كانت هناك فترة كان تينو فيها يصارع الاشياء ولا يستسلم. كانت حركاته آنذاك كمن يريد طرد الذباب عنه، او صدّ رشات الماء المتدفق من رشاش ما بلا توقف رشاش يطاردك. بالنسبة لتلك الفترة فأنا اعلم تفاصيل كثيرة عما حدث في البيت إذ كان تينو شتاين يأتي الى منزلي، في حالة انفعال شديد، ويقص علي احياناً بصورة مباشرة. وغالباً بصورة غير مباشرة، كان يكابد ويعاني. كان يجلس غير مرتاح البال. ذات مرة لوى اسنان شوكة كعك، سناً بعد سن ولم يشعر بذلك. كان علي بعد ذلك ان ابعث الشوكة للتصليح في سوق محانيه يهودا. وقال مرة: "يخيل لهذا الجيل انه هو الذي اكتشف الجنس. امهاتهم وجداتهم فعلن اكثر وتكلمن اقل .منذ زمن كانت المرأة يتركها عشيقها فماذا تفعل؟ تذهب الى طشت الغسيل وتضرب وتضرب يوماً كاملاً وتفرك وتفرك على لوحة الفرك حتى يتقشر جلد يديها وفي المساء كان الغسيل نظيفاً والعشاء على المائدة ولا يخطر ببال احد ما حدث لها لا زوجها ولا اولادها طبعاً. اما اليوم فلجميعهن ماكنات غسيل او يرسلن الغسيل الى محلات الغسيل فلا ضرب ولا فرك. لذلك تراهن يهرعن جميعاً الى الطبيب النفساني".

قدمت له فنجان قهوة اعددته جيداً، اذ لا يوجد لدي في البيت لا من النسكافيه السريعة الذوبان ولا اكياس الشاي. فالشاي هو شاي والقهوة قهوة، وارتشف القهوة بشوق وقال: "تبارك الذي اكتشف القهوة"، ثمّ شكرني وذهب.

واذا كان تينو شتاين يأتي بالفعل في بعض الاحيان قبل سنين واذا كان قد كف عن المجيء فقد حصل ذلك بسبب بعض الحرج. والحقيقة، ان امرأة ما كانت تعمل معي في كوبات حوليم قالت لي ذات مرة ربما كان تينو شتاين ما وصفته "بالحل" بالنسبة لي. فشعرت باهانة شديدة بسبب ذلك. فما حاجتي الى الحل اذا لم تكن لديّ مشكلة، وحدث ذات مرة خلال فترة صراع تينو مع حالته، والتي كان يشبه فيها السبّاح الذي وقع في دوامة مائية فيخبط بيديه ورجليه مرة تلو المرة، انه جاء اليّ يوم

السبت ظهراً متشائماً مسبقاً، وعرض ما عرض عليّ بشكل غير صريح. وفي الحال اجبته بحزم " لا" ويبدو انه هو نفسه لم يكن يتوقع غير ذلك. وقد بقينا هكذا صديقين طيبين لساعات الاصيل ولكن في الشارع فقط لا في البيت، وسبق ان قلت ان هناك شيئاً من الشجن بين تيئو شتاين وبيني.

بعد ايام من ذلك الحادث لم اشعر بالرضى والارتياح، فتوجهه اليّ اشعرني ببعض المهانة مثل ذلك اليوم الذي اقتحم فيه اللصوص ليلاً مكتب كويات حوليم ورغم انه لم يكن لديّ على الطاولة مال بل ولم يكن هناك ما يأخذونه، فلدي الحسابات فقط، لا المال، ولكنهم مع ذلك فتشوا وقلبوا كل شيء. جئت في الصباح ورأيت ذلك فكدت امرض من جراء ذلك. فأنا امرأة مرتبة جداً وها هو كل شيء الان مكركب. وهكذا ايضاً كان توجه تيئو شتاين اليّ، فليسامحني الله، ولكنني، انا المرأة التي تناهز الخمسين، والتي ستحال الى المعاش عما قريب، ابحث في الناس عن جمال ما، وتيئو شتاين ليس جميلاً، انه ليس جميلاً على الاطلاق. لعله يتوجب عليّ ان اشرح اي نوع من الجمال احاول ان اجد، اذن اني افتش عن جمال رجالي على غرار جمال هذا البلد الذي اعيش فيه وانا اعيش بحب تام وليس لي شيء سواه، ينقصني بعض الجفاف في الناس، ففيهم الكثير من الاشياء التي يمكن الاستغناء عنها. تيئو شتاين رجل طلق اللسان ومؤدب في تسامحه، وذو نطق غريب. وحركات اليدين. والشرح الذاتي وهذا الاعتذار. كأن هذا مهم. هناك اناس يريد المرء احياناً ان يأخذ مكنسة ليكنس بعضاً من اقوالهم ليطرحها جانباً، لا اقول ان تيئو شتاين هو من بين اردأ الناس ولكنه ايضاً ليس جافاً. انه ليس ضعيفاً في ممارساته، هذا صحيح، ولكن ليست هذه القوة التي ارغب بها. وقد يستغرب الناس انني عنيدة، فأنا اعاند الكثير من امور الحياة. وهذه الصديقة في كويات حوليم، ماذا تقولون، تفتش لي عن حل.

كل هذا كان قبل سنوات. وانا اسرد ذلك لانه توجد علاقة بين تيئو شتاين وحكاية الكراسي التي امتلكها. قبل اسبوع وقفنا وتحادثنا بالقرب من متحف اسرائيل وامتدحنا كثيراً الجنائنيين الذين حولوا هذا المكان الى رقعة جميلة. غير انه من فرط

جماله ادرك هذا المكان حداً من السخف: اذ سرت تقليعة جديدة في المدينة بأن تأتي كل عروس يوم زفافها بفستان العرس مع عريسها الذي يتهادى بجوارها لاخذ الصور بين الزهور المزروعة قرب المتحف والمصور يقف او يضطجع بين الزهور ويأخذ لهما الصور من كل زاوية، لها الكثير من الصور وله القليل، ومبنى هيكل الكتاب القريب من المتحف يتوج رأسها ووادي المصلبة يمتد مقهوراً تحت قدميه، زر بذلة وزهرة. وهكذا يجعلون من هذا المكان شيئاً سخيفاً في نظرنا، تاركين وراءهم على الطريق الكثير من مصابيح الكاميرا. كأن هذا المكان سينما.

وبينما كنا نتحادث تيئو شتاين وأنا واذا بمشهد غير مألوف: عروس بفستانها الابيض الناصع وطرحة الزفاف على رأسها مسدلة الى الخلف وسيجارة بفيها وهي تجلس وحدها امام مقود سيارتها. تقاطيع وجهها خشنة وتقود سيارتها بسرعة متناهية وبغض ملحوظ، لم نعلم من اين هي قادمة والى اين كانت ذاهبة ولماذا لا يوجد من يقود سيارتها الى حيث تود في مثل هذا اليوم ولماذا هي غاضبة. لو كنا تيئو شتاين وانا ضحوكين، فلعلنا كنا سنضحك. ولكننا لم نضحك. تيئو شتاين قال: "اي نعم. نعم هناك انواع مختلفة من المحتلين".

حطّ الغربان على الصخرة التي كتب عليها "بلدة بن جوريون" وكأنها مقهى لهم، وتهكموا باللاتينية . تيئو شتاين وقف الى جانبي وشم سويق زهرة اكليل الجبل كان قد قطفها من وادي المصلبة. رائحة شذية جافة حريفة. وفجأة سألني ما اذا كان بامكانه ان يأتي في احد ايام الاسبوع ليشرب القهوة عندي. فهو لم ينق بعد قهوة كالتي شربها عندي في المطبخ، عندها كنت في حالة ارتباك لاني تذكرت كيف جلسنا آنذاك في مطبخي. تيئو شتاين وأنا، وفي هذه اللحظة لا توجد لدي كراسي في المطبخ. وقد مضت ستة اسابيع منذ ان اودعتها لتصليح قشها ولم اعد حتى الان لاخذها، لم ترق في عيني ذكرى ذلك اليوم الذي سلمتها فيه، وذلك المكان، والمرأة القصيرة التي تورطت بسببها في كذبة. ليس لدي كراسي وقد اعتدت غيابها، ولعل ذلك لانني استطيع تعود النقص سريعاً. ان الموجود هو الذي يغظيني وليس ما هو ناقص. والمطبخ

واسع بعض الشيء، وهو انظف عندما لا يوجد ما لا تجلس عليه. وانا ما الذي احتاجه، أكل كسرة خبز وقوفاً واشرب فنجان قهوة.

قلت لتينو بتردد ان مطبخي خال الان وبعد ان تعود اليّ الكراسي بعد اصلاحها تفضل، لم لا. اما هو فقد لاحظ ارتباكي ويبدو انّه خيل اليه انني ارفض، بسبب اللقاء السابق فقال بضع الكلمات لرفع العتب عنه وذهب وهو يشم زهرة اكليل الجبل.

هذا الامر حفزني على الذهاب فوراً في الغد لاسترداد كراسيّ. في النهاية كم يستطيع الانسان ان يتملص مما يجب ان يفعله. بل وقررت انه في اللحظة التي تكون فيها الكراسي في البيت سأدعو تينو شتاين بنفسي حتى لو كان ذلك بالتلفون من كويات حوليم، ولست أنا من هؤلاء الناس الذين يقومون بمكالمات شخصية من المكتب، فلا يوجد من اهاتفه، ولكنها مرة واحدة بصورة استثنائية.

ذهبت الى المنطقة الصناعية ومررت حتى نهاية الزقاق، وعندها اتضح لي انني لم اعثر على اثر لذلك الكوخ. كان هناك الكثير من الاكواخ. كوخ لصائغ، كوخ لاسكافي، كوخ لبائع العاب بلاستيكية الى جانب ادوات المطبخ. ولكن ذلك الكوخ لم اعثر له على اثر. كانت الضوضاء تصم الآذان كالمعتاد فالمقادح تثقب، والمناشير تنشر، اما الكوخ فلم اعثر عليه. عبرت الزقاق ثم اعدت الكرة مرات عديدة، ولم افهم كيف حدث لي انني ضللت طريقي هنا. فأنا اعرف هذا الزقاق منذ صغري ولا يمكن ان اضل طريقي. اغمضت عينيّ قليلاً ثم سرت دون ان انظر، لكي تجرني قدماي الى المكان الذي تعرفانه. ولم يفدني ذلك شيئاً، ما فيش، ما فيش.

فتحت عينيّ ثانية. بالفعل كان هناك شاب يعمل على نضد النجارة في الساحة تحت الشمس وقد تطايرت عليه ايضاً الشظايا، ولكنه لم يكن نفس الشاب والكوخ الذي كان بجانبه لم يكن نفس الكوخ المظلم الغائر، بل حانوت حقيقي حيث دهن من الداخل بدهان جديد فاتح اللون، وكان هناك اثاث ريفي ضارب الى البياض في مدخله. والان ادركت لماذا لم اعثر على المكان، ذلك بسبب ازالة العقد الذي سقّف الزقاق في ذلك

المكان، فالآن كل شيء مشمس، وعندما يتغير نور المكان، فكأن المكان بأكمله يتغير ومن الصعب التعرف عليه. كان هناك نور وذهبت انا لافتش عن مكان مظلم.

سألت الشاب عن الدكان الذي كان هنا سابقاً حيث استلموا فيه الكراسي لتجديد قشها وهو لم يعلم شيئاً.

"انتم هنا من وقت طويل؟" سألته.

"انا جديد هنا تماماً، لعل صاحب الحانوت يعرف شيئاً".

مسح يديه بطرف بنطلونه وذهبنا معاً لنسأل صاحب المحل بالرغم من انني لم ارغب، لا سمح الله، في تعطيله عن عمله. ولكن يبدو انه هو نفسه اراد ان يتوقف، ولعله كان يحب الاستطلاع فدخل معي.

كان صاحب المحل شاباً سميناً بعض الشيء، نشطاً ومؤدباً، بنوع من الادب غير الصادق ولكنه ضروري للتاجر في كل مكان، وفي اصابعه اثنان او ثلاثة من الخواتم الذهبية. لم يعرف ماذا حصل لصاحب الدكان السابق. هو الاخر جديد هنا. وكيل السيد اورفلي، ان المدام تعلم بلا شك اذا كانت من السكان القدامى هنا، ان اورفلي هو من اولئك الناس الذين يمتلكون محلات عديدة. وازقة عديدة، صاحب المحل هو بالفعل متزمت ولكن من المستحسن ملازمته. وكما يقولون من يحتك بالفلوس الكثيرة فقد يسقط عليه القليل منها. في الواقع سمع شيئاً ما عندما دخلوا الى هنا. قضية مع الشرطة. لعله كان هنالك ضرب، وشخص ما اصيب بنوبة قلبية، كما يظهر انه لا يذكر، ولكن كما تعلم المدام، يتقولون على انسان انه كانت له قضية، ثم لا يكون واضحاً ما اذا كان قد سرق او سرقوا منه. الله يبعدنا عن الشر. ولماذا نتكلم عن امور حدثت ومضت. وربما كانت هنا بعض الحاجيات القديمة عندما تبدل اصحاب المكان. ومن المؤكد انهم رموها من وقت طويل. السيد اورفلي لا يبقيها عنده، كراسي؟ قديمة؟ من القش؟ ما حاجة المدام بها؟ فهي ليست عجوزاً، معاذ الله. ان العجائز يتمسكون باثاثهم القديم، ومن له روح الشباب. يشتري حاجيات جديدة اننا نتوسم بالسيدة ان لها روح الشباب، فلديه تشكيلة جميلة جداً الى درجة ان المدام ستنسى انه كان لها بالفعل

كراسي من القش. ربما من خشب البوك؟ ام من الساج الجميل؟ ام تصنيع اسباني، فهذا رائج الان؟.

ولانه كان مؤدبا، وليس لئيماً، سألته عما اذا كان يعلم من هم اولئك المسنون الذين يسلمونهم كراسي القش للتصليح فربما ارسلت كراسيّ اليهم قبل وقوع الحادث الغامض مع الشرطة. الشاب نفسه لم يعرف ولكن بما أنه يحب المساعدة فقد سارع الى مكالمة زميله بالتلفون في حانوت آخر يمتلكه السيد اورفلي ايضاً. وتكلم معه وقتاً طويلاً واذا بيده العنوان: مشغل في بيت المسنين الفلاني في كريات يوفيل في منطقة المساكن الجديدة واذا كانت السيدة مقدسية الاصل، وبالتأكيد هي مقدسية، فذلك واضح عليها، فبالتأكيد ستجد المكان. المشغل في بيت قديم حيث كانت تلة بيت مزميل. المساكن جديدة ولكن البيت ذاته قديم. هناك عتبات عالية فيه ولا تلائم المسنين اطلاقاً. فالمسن لا يسعه التسلق ورفع قدميه عالياً. قد يكسر قدمه لا سمح الله وكسر القدم صعب بالنسبة للمسن. هناك من يقول لقد اقيمت هذه العتبات عمداً لئلا يهربوا. فالمدام تعرف ان المسن يفقد ذاكرته وينسى اسمه ايضاً. والشرطة بأجمعها تفتش عنه. الكثير من الاموال العامة تنفق عبثاً. الى اللقاء، قال، اعوذ بالله لا حاجة للدفع عن التلفون، انا متأكد من ان السيدة ستعود يوماً ما الينا. حتى لو كان ذلك مجرد زيارة لمشاهدة الاثاث. بكل احترام.

سافرت الى كريات يوفيل. وجدت المكان الذي كان متوارياً بين بيوت جديدة وعالية جداً. في كل دور من ادوارها كان الغسيل من مختلف الالوان منشوراً على الحبال: احمر واخضر وكحلي. وفكرت انه لولا الغسيل لحسبنا اننا في ثكنة، لا سمح الله. لحسن الحظ ان الناس لديهم على الاقل غسيل خاص بهم.

عندما وصلت الى ذلك البيت، اتضح لي ان هذا اليوم ليس كسائر الايام. اذ يجري اليوم احتفال في المشغل. امرأة ذات شعر اسود يشبه رأس خوذة يتدلى على جبينها ووجه مسطح ابيض وكل كيانها يشبه البومة، كانت في استقبالي في المدخل: لا اقول ان الدخول غير ممكن، معاذ الله، الدخول ممكن. بل وحتى تناول كأس من

العصير المذاب بالماء هو ايضاً ممكن، على الرحب والسعة، ولكن ان تسألي عن شؤون العمل هذا غير ممكن، على الاقل حتى ينتهي الاحتفال. متى ينتهي الاحتفال؟ من الصعب معرفة ذلك: هؤلاء المسنون عندما يبدأون احتفالاً يصعب جداً اعادتهم الى اسرتهم. ونحن لا نحسدهم في فرحهم، لا سمح الله، قالت المرأة البومة، لقد قاسوا الكثير في حياتهم حتى وصلوا الى هنا، لم يبق لهم الكثير، فليتمتعوا.

دخلت. علم الدولة كان يغطي حائطاً كاملاً في الواجهة. اصص من النبات الهزيل الفاني زينت سائر الحيطان، الجميز، وآذان الفيل وزهرة العنكبوت. المسنون والمسنات، بقسمات وجه طيبة وقفوا او جلسوا او رقصوا بحذر في مكان واحد، بابتسامة وضاءة، ولعدد منهم قبعات مهرجين من الكارتون الملون مربوطة الى جبينهم. وانا وقعت في حيرة وارتباك لانني لا احب المسنين المرحين. إن احداً لم ير جدي قط بشكل غير وقور، ولا ابي. ولن يروني انا كذلك بمثل هذا الشكل. ولكن لم يكن في سيمائهم اي نوع من اللؤم. فقط شيء من الولدنة وكأنهم يعلنون عن انفسهم بوجوه مضيئة براقة للغاية بأنهم في الواقع لا وزن لهم، وقد نفضوا ايديهم منذ امد بعيد من المعتقدات والآراء من الاذواق والمشاجرات وهم الان لا يأبهون الا بالشمس التي تتراقص على وجوههم والكعكة والعصير. طيب. طيب. وأنا كيف استطيع ان اسألهم ماذا حصل لكراسي القش التي امتلكها والتي اختفت. تقدم مني عجوز والح علي بأن آكل من الكعكة وقال لي بالبولندية: مويا دجيايتسكو، يا ابنتي، فتذوقت منها لكي ابعث الفرح في فؤاده وغادرت المكان في ارتباك وحرج شديدين. لهنيهة نسيت قضية العتبات العالية، وكدت ان اتعثر الا ان المرأة ذات وجه البومة امسكت بكوعي. كانت يدها باردة جداً، وجهها قريب مني وبدا قاسياً بالنسبة لي. كنت في حالة من الذعر.

لم اعرف ماذا اصنع الان. كانت الساعة تكاد تقترب من الغروب، والشمس شارفت على المغيب. تذكرت اني لا اعلم ماذا يوجد هذا المساء في نادي الادباء، فمنذ تلك الكذبة الطائشة تقلص ذهابي اليها اكثر فأكثر وكأن الجميع يقرأون في وجهي ذلك الخجل. الحقيقة كانت قاب قوسين مني او ادنى ولكن عينيّ فقط كانت فيهما غشاوة.

لعلني بحاجة الى النوم، قلت في نفسي، لعل الحلم سيطلق الاجوبة التي لا نجدها ونحن في اليقظة.

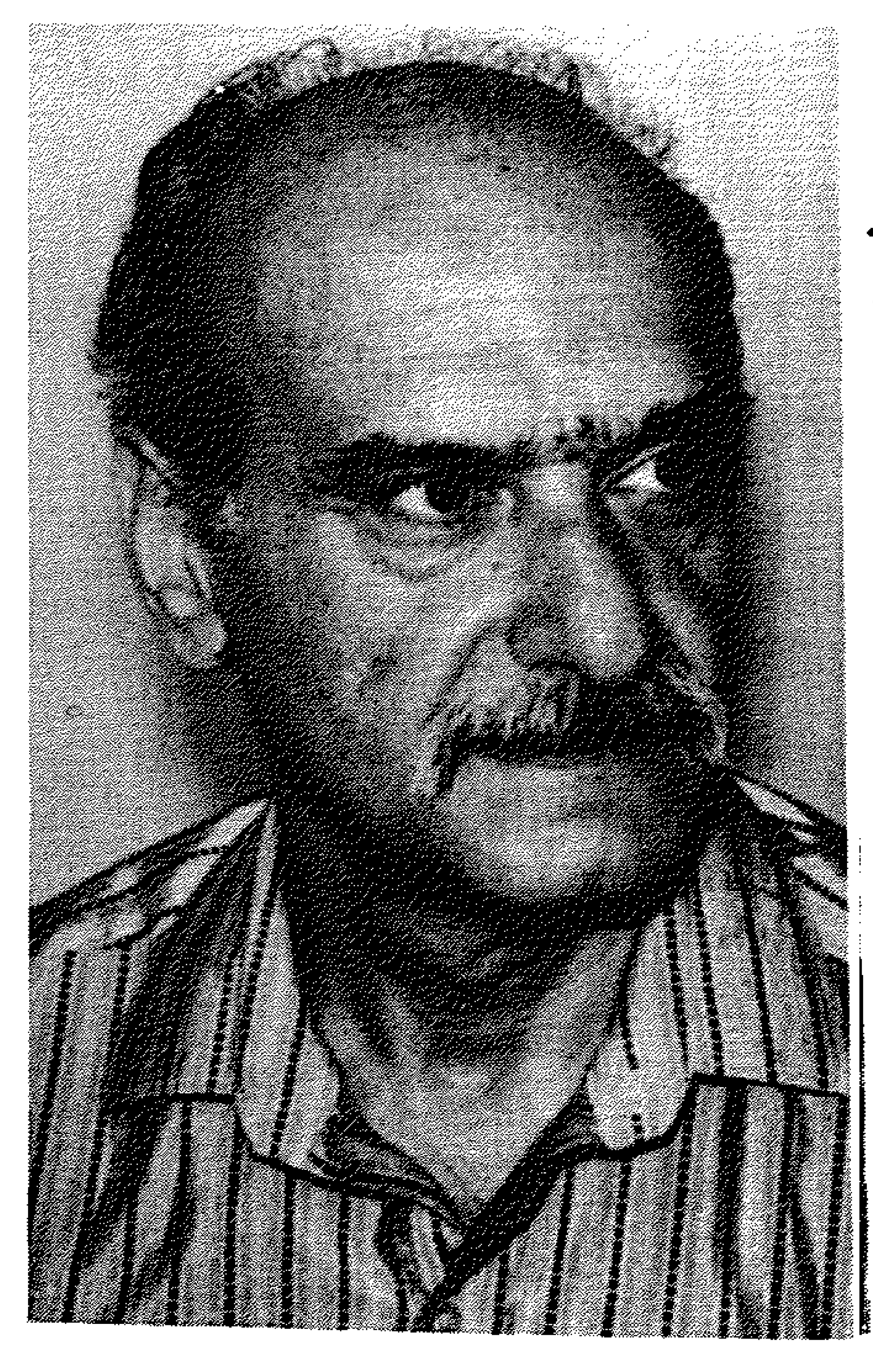
كان المطبخ خالياً خاوياً من دون الكراسي، وبالطبع لا يمكنني ان ادعو تيثو شتاين بهذه الحالة، ايها الرب الذي في السماء، حتى من دون كراسي! وخيل الي في هنيهة انه من المستحسن ان اعود الى الزقاق، الى نفس الشاب البدين، السريع الخاطر، الطيب القلب، تلميذ السيد اورفلي، وان اوصي مع ذلك على كراسي البوك والساج تلك، وبالرغم من ان ذلك ليس برغبة تامة، ولن يكون كذلك اطلاقاً. كل شيء يهمس بما معناه تنازلي، تنازلي، لا تكوني عنيدة طوال حياتك. فالدنيا تساعد الذين يتنازلون. وعلى كل حال فقد رأيت نفس الشق الذي كان في حائط المطبخ الذي دهنته بحرص ودقة وقد فغر فاه ثانية. ويبدو انه ليس الدهان هو الذي تشوه بسبب الاحتكاك بل ان الحائط نفسه لم يعد كما كان، وهذه قضية اكثر تعقيداً. فهناك حاجة الى حلول اكثر شمولاً قلت لنفسي بصوت عال، ولم تكن لدي اي فكرة ما هي تلك الحلول.

كراسي القش التي كنت قد تنازلت عنها في قرارة نفسي حوّمت عالياً في الفضاء، وهي ترقص رقصة بطيئة عائمة.

ترجمة: دافيد سجيف

د. شمعون بلاص

في المدينة السفلى



* شمعون بلاص
ولد في بغداد عام ١٩٣٠.
هاجر الى اسرائيل عام ١٩٥١.
حصل على شهادة الدكتوراة في الادب العربي من جامعة السوربون، ويعمل حالياً محاضراً للغة العربية وآدابها في جامعة حيفا، وهو يعد من كبار الباحثين في الادب العربي الحديث.
من بين اعماله القصصية المنشورة باللغة العبرية: "المخيم" (رواية، ١٩٨٨)، "وهو انسان آخر" (رواية، ١٩٩١)، "تباشير الخريف" (مجموعة قصصية، ١٩٩٢).

لا شك انه يمكن الاعتماد على ذوق ياعيل. البذلة الخضراء تناسبني. ترددت في شرائها، لكنها اصرت: "سترى انني وفقت في اختيارها". مع ربطة العنق الحمراء لا يبدو الامر سيئاً بتاتاً. اني ابتسم لنفسي بشيء من الارتباك. خمس وعشرون سنة، عمر طويل! غير انه لا شك سيعرفني. من المؤكد انه سيلاحظ فوراً. الشيب الذي اشتعل في رأسي، والتجاعيد في زوايا عيني، والكرش المستدير الآخذ بالانتفاخ منذ سنوات، ومع ذلك يخيل لي انه لم يطرأ تغير جذري في مظهري. مازلت احافظ على هيئة مقبولة، لا اقول جميلة، مع ان ياعيل تقول لي ذلك احياناً، خاصة في الامسيات التي نخرج فيها

للترفيه، تميل علي، تسند رأسها الصغير الى صدري وتتمتم بكلمات لطيفة. احياناً تحرجني حينما نكون في شارع او في صالة مسرح او سينما، فنحن في نهاية الامر والدان لابناء كبار. غير اني اتجنب ازعاجها فأحيط كتفيها بذراعي بلطف.

لا بد انه تغير ايضاً. سمكت زجاجات نظارته، كتفاه ازدادا ترهلاً، وربما صلع. اما ابتسامته. ضحكته الصاخبة، لا إن هذا لا يمكن ان يتغير. سأعرفه من اول نظرة، وهل يعقل الا اعرف رفيق الصبا، ذلك الفتى الذي طرزت واياه الاحلام؟ آه ربما ما زال يكتب اشعاراً! يجلس على ضفة النهر في الليالي ويلقي القصائد لحوريات الماء!.

يحسن بي ان آخذ الشمسية. عاصفة المطر قد مرت حقاً، ولكن من يدري؟ ما ارتدت يوماً مقهى "العوامة". ففي المدينة السفلى امر في حالات اضطرارية فقط. إية فكرة هذه ان نلتقي وعموماً في مقهى كهذا؟ بالذات في ليلة ممطرة، افكاره دائما كانت جنونية. سآخذ تاكسي. السائق ينقلني حتى باب المقهى ولن اضطر ان ابحث في الازقة. الثامنة تماماً. ما زالت امامي نصف ساعة بالضبط، وهو وقت كاف دون شك.

"خرجت لمقابلة صديق قديم، سأروي لك بالتفصيل حالما اعود. ستجدين في البراد جبنة فرنسية من النوع الذي تحبينه. كيف كان اجتماع اولياء امور الطلاب؟ قبلاتي".

من المؤكد ان الدهشة ستعتريها حالما تقرأ هذه الملاحظة. فهي متأكدة انها ستجدني جالساً امام التلفزيون. مقابلة مع صديق قديم؟ ما الخبر! ها- ها. ستذهب بها الظنون. لا، انها واثقة بي. وانا واثق بها ايضاً. بيننا تفاهم كامل. احدنا يكمل الاخر- كما يقولون.

الساعة الثامنة، وابله لم تعد! بعد ذلك لا رغبة لها في تحضير الدروس. هذه القضية تتكرر يومياً، ولا شيء يجدي. انني لا الوم يوسي ابداً. انه رجل. في مثل سنه.. آه-آه! نعم، كانت الحياة مختلفة، تربينا ونشأنا في واقع آخر. اي امور تشغل اولاد اليوم؟ رياضة؟ ديسكوتيك؟ حفلات سمر؟ سخافات. ولكن من يدري؟ لعله يداعب الآن فتاة ما في زاوية مظلمة! هنيئاً له! لا داعي للقلق بالنسبة للشاب. اما بالنسبة

لفتاة جميلة··· فلا. ايله فتاة جادة. لن تسمح لاحد ان يضللها. انها كأمها. اما يوسي فيشبهني، انه شيطان. اي بريق ينطلق من عينيه حينما يرى فتاة جميلة! كأنه ينوي افتراسها! ها-ها. انه مثلي. فلتفترس، يا يوسي، كما يحلو لك! انت اهل لذلك، أيها الشهم، الى ان تسقط في الشباك ولن تستطيع النجاة! كأبيك تماماً، الذي سقط في الشباك منذ عشرين سنة. عشرون سنة؟ يكاد لا يصدق!.

الآن، يقف والدك امام المرآة. ويتأمل تجاعيده. رجل كهل. نصف عمره قد ولى، لكنه لا يشكو. فهو سعيد. كلهم يقولون ذلك. ولم لا؟ وظيفة رفيعة، بيت واسع، سيارة، اسهم في البنك، امرأة جميلة. لم لا يكون سعيداً؟ ماذا ينقصه؟ آه، انا حقاً متوتر، كأنني ذاهب للقاء مصيري. لعل ذلك ما ينقصني، هذا التوتر؟ امر مضحك. حسناً، كفى تأملاً لوجهي. علي ان اسرع. سوف اقص على ياعيل عن كل شيء حالما اعود، وعن هذه الخواطر ايضاً. سوف تسرّ بها.

آه، الجو بارد. الرياح خفيفة حقاً ولكن البرد ينخر في العظام. وانا خرجت بلا معطف. تعودت الا احمل المعطف معي، كعادة السائقين، لا يهم. حالاً سيمر تاكسي. ما بك، بعض البرد لن يؤذي بل إنّ المشي ممتع. في الحقيقة، انا لا امشي كثيراً. ورييب يسخر مني دائماً.

"ستصبح مريع الشكل من طول الجلوس"! انه يمشي حوالي ستة كيلومترات يومياً، "الجسم بحاجة الى عناية، فهو ليس آلة هضم وحسب" ولكنني لا اهمل جسمي. بالعكس- فأنا امارس التمارين الرياضة كل صباح، ارتاد حوض السباحة مرتين في الاسبوع. ثم انني لا اجلس طوال اليوم امام الطاولة. لماذا آلة هضم؟ ان جسمي آلة تعمل بانتظام.

لقد مرت العاصفة حقاً، على ما يبدو. لكن السماء ملبدة بالغيوم. الشارع مقفر. وايله لم تعد بعد! لا اعرف حتى الى اي مكان توجهت. خرجت دون ان تقول شيئاً. كل سؤال يثير غضبها. يا له من جيل، ولكنها مع ياعيل اكثر استعداداً للكلام، فياعيل تتحلى بالصبر والحكمة.

"أنت لا تتحدث مع الاولاد" -تقول لي- "لا تجلس معهما مطلقاً". ان اجلس معهما؟ مع يوسي بالذات اتدبر امري جيداً. افهمه ويفهمني. اما ايله فشيء آخر. انها فتاة، بل ومنطوية على نفسها جداً ! "لم لا تحدثهما عن طفولتك"؟ طفولتي! ما الذي يهمهما من امر طفولتي؟ حاولت ذلك ذات مرة، فضحكا. بدا لهما ذلك مضحكاً. الابناء يهتمون بطفولتهم لا بطفولة آبائهم. طفولتي عالم آخر. عالم بعيد. وهم لا يستطيعون فهمه.

هنا، في مفترق الطرق، تشتد الرياح. يخامرني شعور بأن المطر سينهمر. من حسن حظي لم انس الشمسية. أرى اناساً يتلفعون بمعاطفهم. قد يعرفني احد منهم. إنها الثامنة والربع الأن. اذا مرت سيارة تاكسي الان فلن اتأخر! لا اريد اسئلة، لا اريد ان يروني، ها هي سيارة تاكسي! لا، يوجد شخص ما بداخلها، هنا الجميع يعرفونني. الناس فضوليون. سيارة تقترب. كأنها تعتزم الوقوف. فعلا، تتوقف! لا، ابداً. علي ان اواصل السير. اتظاهر انني متوجه لمكان ما. "تاكسي"-نعم ، إنه فارغ "تاكسي"! يتوقف. "ارجع من فضلك"! لن اتأخر! لا يهمني ان رأوني، انا حر، واستطيع الذهاب لاي مكان اريد وفي اي وقت يناسبني. واستطيع ايضاً ان اخرج بلا معطف. هذا امر يعنيني وحدي.

"للمدينة السفلى من فضلك". الان، لن اتأخر بتاتاً واذا تأخرت قليلاً فلا ضير في ذلك. في الواقع من الافضل الا اسبقه. فحينما ادخل المقهى سأجده جالساً سأعرفه حالاً. سامي! ويلقي كل منا نفسه بين ذراعي الاخر. اية مفاجأة! اية مفاجأة! "الى مقهى العوامة".

"العوامة"؟

"نعم. انا لا اعرف اين يقع".

"هنالك فيضان"

"المهم ان نصل، انا واثق بك". توقعت انه من غير المناسب ان اركب سيارتي في ليلة كهذه. لست بحاجة للتورط في هذه الازقة! السيارة تهبط بسرعة. الشارع جاف،

ليت هذا التحسن في الطقس يستمر.

"يا لها من عاصفة"

"لم تنته بعد! الراصد الجوي يتنبأ باستمرار تساقط الامطار".

"صحيح؟ لم اسمع".

"عندي المذياع مفتوح طول اليوم".

"هكذا توفر على نفسك قراءة الصحف"

"ستستغرب انني اقرأ صحيفتين كل يوم على الاقل".

يريد ان يتباهى بنفسه. صحيفتان! انا بالكاد اقرأ صحيفة واحدة. وقراءة سريعة. اصغي للاخبار بشكل عابر، فهم يكررونها كل ساعة.

"لا وقت لدي لسماع الاخبار"

"اسمع نشرة الاخبار اثناء عملي فقط. اتعرف لماذا؟ حتى لا اسمع ثرثرة المسافرين"! يقول ذلك بشيء من الاعتداد. "تجلس امرأة بجانبي مع سلال وحاجيات، تتنهد. وتتأوه وتظن انه لا شغل يشغلني الا سماع شكواها حول الاسعار والبلدية والشرطة والجيش. وعمن لا تحدثني؟ وانا. ماذا افعل؟ ادير زر المذياع بشكل لا يشجعها ان تفتح فاها". ينفجر ضاحكاً، وينظر الي. "الى ان يطلب احد المسافرين الجالسين خلفي بأن اخفت صوته".

"وهل تخفت صوته"؟

ينظر الى الامام ويصمت.

الانحدار يزداد حدة. يتجه يساراً، الشوارع ضيقة وخالية. "ها نحن نصل" يقول ذلك وينعطف ثانية، هنا المكان مظلم، المصابيح غير مضاءة-"بسبب العاصفة"- يقول وكأنه يعرف كل شيء. يتوقف. "هذا هو المكان".

"ماذا؟ هل وصلنا؟"

"لا يمكن ان نتقدم الى الامام، الشارع مغمور بالمياه".

"وكيف سأدخل انا".

"متأسف، لا اريد المخاطرة".

"سأدفع لك"

ينفجر ضاحكاً.

"ولكن كيف يمكنني ان ادخل"! قلت متوسلاً.

يوجد ممر ترابي، هناك اترى؟ انه مرتفع لا تغمره المياه. بعدها سر يميناً. تجد نفسك في المقهى. سوف ترى اللافتة المضيئة".

"لكنني لا اعرف المكان"!.

"لا حاجة بأن تعرفه. تدخل هذا الممر، ثم تتجه يميناً، هذا كل ما في الامر".

يضغط على زر العداد. لا فائدة ترجى على ما يبدو. "أصحيح انه ليس بعيداً".

"خمس دقائق وتصل".

"لم احمل معي معطفاً، انها حماقة"، يحدجني بنظرة ضاحكاً، الثامنة والنصف. لا مناص لي، علي ان ادفع الاجرة واعدو. آمل ان اهتدي الى المكان. "وكيف اعود"؟

"أتريد ان تعود"؟ يضحك ثانية.

ما الذي يضحكه؟ ألانني خرجت دون ان اخذ معطفي؟ المياه ضحلة. يستطيع ان يعبرها ببساطة. "أتسمي هذه المياه الضحلة فيضاناً".

"سيدي كفى، لن اتقدم حتى ولو متراً واحداً".

لا بأس. لا اريد حسنة من احد. هل اتجادل مع السائقين؟ خذ نقودك وامش.

"تصعد في هذا الممر. تتجه يميناً عند اول منعطف. لا تتقدم الى الامام، والا سوف تتورط. الاول، على اليمين، لعل امامك مئة متر فقط. والمطر توقف".

"حسناً، حسناً. سلام عليك".

"موفق يا سيدي"! ينفجر ضاحكاً ضحكة همجية. وكأنها فرحة شامت.

يا وقح٠٠ هيا انصرف! سوف اتدبر اموري بنفسي!.

لا رصيف هنا، ولكن بقيت مساحة ترابية ملساء على حافة المستنقع، في الجانب الاخر تمتد المياه حتى ابواب البيوت. اذا لم يضحك علي هذا الوغد فسوف اصل الى الممر بسلام. اتمسك بالجدار الرطب، واتكىء على عصا شمسيتي. عيناي تتعودان اثناء ذلك على الظلام. ارى طرف الممر جيداً. يبدو انه يصل الى هنالك نور ضئيل آت من مصدر ما. سامي لا بد وانه ينتظرني يا لها من فكرة سخيفة ان يجرجرني الى هنا. دائماً كانت لديه آراء شاذة، ما اصعب ان تفتح السماء ابوابها، كل شيء موصد ومغلق. الظلمة حثت الناس ان يلجأوا الى فراشهم. في الصباح سيفتحون شبابيكهم وينظرون الى المستنقع القذر بعيون منتفخة. سيأتي العتالون ويركبونهم على عرباتهم اليدوية، منظر خلاب. البندقية. البندقية السفلى. قاع المدينة. قاع الوجود. عالم بلا قاع سينهار. اسمع مواء قط. وقد علق المسكين على عتبة منزل او على حافة شباك، او في صندوق قمامة تحول الى قارب غارق. قط وحيد وخائف. النفس الوحيدة بعد الطوفان. نفس بائسة تندب الخراب. صوت مواء واحد طويل وممتد، هادىء وخافت، يدق على جدران خرساء، يتيه في الظلام. الفئران غرقت وماتت. الكلاب اختفت. لجأت الى امكنة آمنة. انكمشت في مدن بين اقدام اسيادها، بجانب مدفأة مشتعلة. تتكاسل حتى عن النباح. على من تنبح؟ على الريح، على الخالق؟ على المطر على القمر المحتجب؟ قط يستغيث لانقاذه وما من مجيب، وانسان ما، بجوار الجدار، متكئ على شمسية وارجله غائصة في المياه. لا يندب، ولا يشكو. ولا يستغيث. لا احد يعرف انه في هذا المكان، لا احد يشفق عليه. قد يغرق في هذا المستنقع. قد ينقلب الى عمود ملح. انظر الى الوراء. انظر الى الامام. ارن الى السماء المتجهمة. بعد قليل تمطر ناراً وكبريتاً. سخافات، اضغاث احلام. انت وحيد وحر ان تطلق العنان لكل فكرة شاردة. الوحدة حرية لكنني لا اطلب حرية كهذه. لا، انا لا اطلب حرية، اريد ان استرق النظر الى عالم هبط الى الهاوية. اريد ان اتجول مع سامي في الطرقات، ان اجلس على ضفة النهر واستمع لاشعاره الرقيقة. اريد ان انزل الى المياه لاسبح في توهج الغروب نحو الابعاد السحيقة.

ها هو الممر. ممر منحدر من الطين والوحل. يجب ان اتمسك بكلتا يدي

بالحائط. رجلاي تدوسان وتنزلقان. لقد تسرب الوحل الى الحذاء.

يظهر ضوء خافت من جهة اليمين. لعله من المقهى؟ سيكون منظري سخيفاً عندما ادخل. سامي سيصفق كعادته. لقد انتصر. لقد اتى بي الى هنا مثلما تمكن من جري الى كل مكان. سامي، سامي، اي مخلوق انت!.

في البيارة غاصت رجلاي في الوحل. كنت خائفاً.

قالت لي: "يوجد خنزير في البيارة". الحراس يحذرون من التوغل الى ماوراء القنوات.

قالت: الخنزير لا يرى الا امامه. في رقبته عظمة لا تمكنه من الالتفات، واذا حدث والتفت في لحظة ذهول فسوف تنكسر عظمة رقبته ويموت.

قلت: "علينا اذن ان نخيفه".

"ولكنه سيزداد شراسة".

قلت: "نعتلي شجرة". رفعت اليّ عينيها السوداوين وقالت بصوت متهدج: "الدنيا اظلمت لا امل لنا في النجاة".

قلت: "الا نطلب النجدة؟ الحارس سيسمعنا لا محالة".

قالت وهي تلتصق بي: "والخنزير سيسمعنا ايضاً. هل انت خائف"؟.

قلت: "انا غاضب على سامي".

قالت: "مسكين"، فعارضتها: "ليس مسكيناً، الخنزير قد افترسه ".

"لا الخنزير سوف يفترسنا" توقفت عن المسيرة: "لا نرى شيئاً". قالت وانفاسها تداعب شفتي.

قلت: "اريد ان اقبلك" فأجابتني "الان لا حيلة لي".

"تعالي نجلس على حافة الترعة وننتظر الحارس".

فطلبت قائلة "احتضني، فأنا اشعر بالبرد".

"ارى شعاعاً من بعيد، لابد وانه فانوس الحارس".

قالت: "لا، هذا ضبع".

ليس ضبعاً. قلت لها. ليس ضبعاً! هذا فانوس. فانوس قارب صيد ينعكس ضوءه على الامواج. الصيادون جريئون. سوف ينتشلوننا الى قاربهم ونبحر معهم الى الجزر في منحنى النهر. فهناك لا يوجد ضباع. ولا خنازير، ولا بنات آوى، جزر رملية قاحلة، تغطيها المياه في موسم الامطار. حتى العصافير لا تزقزق هناك. سنوقد ناراً ونشوي سمكاً مبهراً ذا رائحة اخاذة. الصيادون اناس وحيدون، وغناؤهم حزين، وصوتهم جميل في سكون الليل. في الصباح يرتادون الاسواق مع صيدهم، يمرون في الازقة، منتقلين من بيت الى بيت.

لا، لم اطلب سمكاً، اقول لهم. اريد سامي. هل رآه احدكم؟ يمر من هنا في طريقه الى المدرسة، لا يتلكأ لدى الباعة، ولا يسأل عن اسعار السمك. سامي ليس شاعر الاسواق، ولا شاعر المدينة المزدحمة وكفاح العمال. سامي شاعر الماء والسماء والسكينة.

رائحة عفن وبول خيل. الوحل هنا توقف تحت ارجل المارة. واصبح لزجاً ورخواً. نور الاصيل ينساب من كوى السقف المقبب. حمام هادل يعود الى اعشاشه في تجاويف الحجارة القديمة وفراخ تصفق بأجنحتها الصغيرة وتدفع مناقيرها الى مناقير امهاتها. المصباح يتدلى تحت العش. قديم هو الاخر ومغبر. وصحنه المستدير مغطى بطبقة سميكة من روث جاف. لم ينبعث منه النور بعد، لكن بائعي الخضار أناروا مصابيحهم الكهربائية الكبيرة، وفي ضوئها يرفل تفاح مورد، واجاص اشهب، ورمان وبرتقال وعناقيد تمر تنضح عسلاً. والبائع متعلق بحلقة نحاسية براقة متصلة بسلسلة حديدية تتدلى من السقف، يتحرك كطائر فوق الصناديق الممتلئة والمتراصة في صدر الحانوت. جثث خراف معلقة بكلاليب. واللحام يقطعها برشاقة بسكينه الحاد، يكسر عظامها ببلطة على سندان خشبي سميك مشبع بدم متخثر. نساء يتحسسن اللحم ويشتممنه. اخريات يقلبن الامعاء والقلوب في الطست واللحام يراقبهن ويحثهن. شمعة بطول قامة انسان، ثخينة ومزدانة بخطوط من ماء الذهب، ولهبها يتراقص على وجه البائع النحيل والمليء بالندوب. شموع كثيرة معلقة بذبالتها على طول الجدران، وتتدلى من السقف، ما بين صفراء وحمراء وذهبية وبيضاء، وعليها نقوش دائرية وحروف. شموع ذكرى مرتبة وعلى

رف منخفض انتظمت شموع لإحياء ذكرى المتوفين على مقربة من قطع من كرب النخيل. السنة الدخان تدمع العيون، والرائحة تنفذ الى مكامن النفوس. اني اراها على وجه النهر، ولهيبها يتراقص في ضوء الغروب. تتمايل وكأنها ترفرف بين الامواج، كروح الميت التي تحلق فوق الكون. لهيب صغير جداً يخبو وينتعش، يمسك بخيط رفيع من وجود عابر. وعيون قلقة تراقبها من الشاطىء، وشفاه جافة تهمس صلاة. يا رب العالمين، يا سميع يا بصير، يا رب العالمين يا رؤوف يا رحيم. واللهب يرقص رقصة الموت على الامواج.

المشترون يسرعون لانهاء مشترياتهم والبائعون يسرعون لبيع بضائعهم. البيوت في الخارج تتشح بالعقيق، ولكن الظلام يلف اعلى السقف المقبب، ويزحف على الجدران المنتفخة والبالية من طول السنين. ان نظرة نحو الوراء تظهر السوق كنفق يبحر نحو جبال الظلمة، مزدحم بالناس الذين يتصايحون ويتدافعون، كسرب من النمل اصابه الخطر. ارتجاف الاحتضار قبل النهاية، بعد ساعة يهدأ السوق ويموت.

لطيف يقف في مكانه المعهود بباب الخان. منذ ان وعيت على الحياة وهو هناك. مرت اجيال وهو هناك. لا يشيخ، لا يتغير. امامه وخلفه كتب قديمة مجلدة، وكتب جديدة ذات غلاف ملون، تلك الكتب ملقاة على الارض وهذه معلقة بحبل مشدود. فوق حجارة سور الخان القديمة، انه ذو نسب عريق، كأنه انبعث من بين الصفحات الصفراء كرسول التاريخ الى الخليقة. ينحني على كتبه، يداعبها بمحبة، وهو يوجه كلامه الى من يمر به خلال ساعات النهار. كلامه بليغ ومبهم. يستمد حكمته من مئات الكتب التي تملأ حياته. لطيف رجل نسيه الزمن. اوقفه عند باب الخان ومر عنه. الحياة تجري امام عينيه القصيرة الرؤية، وهو، ظهره مسند الى السور. يتأمل تقلبات الزمن.

"لطيف! هل تتذكرني"؟ اقول له

يمد يده لمصافحة حارة تكاد تنتزع اصابعي. "عمت مساء، سلكت طريقاً طويلة ومضنية".

"مررت في السوق وقلت لنفسي اتوجه لارى صديقاً عزيزاً".

"لم تبق صداقة في عالمنا" يتنهد لطيف.

"وانت هنا بين الكتب"؟

"لا احد يشتري الكتب". يتنهد مرة اخرى، ويخفض نظره الى كتبه اليتيمة.

"الناس يجرون وراء شهوات جسدهم. ويتخلون عما تطلبه الروح".- اقول له.

"مصدر الخطر يكمن في عدم التوازن بين المتحول والثابت". يقول لطيف ذلك بصوت رنان ويضيف "اذا قرنت عاملين متحولين فلن تحصل على عامل ثابت، ولكنك اذا قرنت عاملين ثابتين تحدث الكارثة. سر الخليقة في التوازن".

"انك حكيم يا لطيف".

"وانت لماذا جئت"؟.

"ابحث عن سامي".

"سامي نزح مع النازحين".

"سامي لا يستطيع النزوح أنه ينظم اشعاراً ويجلس على ضفة النهر."

"حلقت به اجنحة الشعر"

"انه هنا، لم يتحرك من مكانه".

"الحجر وحده لا يتحرك من مكانه".

"سامي ليس حجراً، انه حي يرزق".

"لا يبقى حياً الا الموت".

"سامي حي! انه حي".

"الحياة تعتاش من الموت. والاموات يعتاشون من الاحياء".

"كلنا سنموت. اما سامي فما زال حياً. انه ينتظرني في المقهى".

"السراب يخدع الضالين".

"لطيف! ساعدني على الوصول الى المقهى".

"كل الطرق تؤدي إلى مقهى"!

"أريد مقهى "العوامة"!

"العوامة ابحرت مع النازحين، العوامة حلقت مع النازحين"

"أنت مجنون! لقد اصابك مس من الجنون لكثرة ما قرأت من الكتب"

لطيف يمسكني، يهزني هزة قوية، فمه يتفوه بكلمات غير مفهومة ووجهه يحمر وينتفخ. احاول ان اتخلص منه. اطلب النجدة، واذا بي اتدحرج على الارض الموحلة، وضحكة لطيف ترن في اذني. احدق في الاشياء التي تحيطني فأوقن ان السوق قد خلت، وخيم عليها الظلام.

من مكان ما يتسرب مواء قط، ربما انحصر بين صناديق القمامة، وربما ترك نسياً منسياً وراء أباجور مغلق. مخلوق وحيد ومرتعب، يتوسل ويستنجد. لست انا الذي يستطيع مساعدتك. لا، لست انا. فأنا وحيد مثلك في هذه الليلة العاصفة، في مدينة مقفرة تتبعثر فيها ذكرياتي كشواهد القبور. من يضيء لي طريقي في هذه الظلمة؟ من يقودني الى غايتي؟.

اذكر مطعماً في الركن الشرقي لسور الخان كنت ارتاده في الايام الخوالي. صاحبه رجل سمين وقليل الكلام، يجلس الى طاولة صغيرة ويشرف على عمل النادل. يحيي القادمين والمغادرين بصوت خافت، احدى يديه تمسك كيس نقود من قماش ابيض اصبح لونه اسود، ويده الأخرى داخل الكيس تعبث بالنقود فينبعث لها رنين لا يتوقف. لا أراه الان، لكن الزقاق مضاء. واشخاص يسرعون الخطى تحت وابل الامطار. سراويلي اصبحت كالخرقة، والريح تبعث في القشعريرة. اركض صوب المقاهي. نور مصفر ينسكب من شبابيكها ويتمرغ بالوحول. الناس يمرون سريعاً. ويختفون في بيوتهم. شخص ما يطل من الشرفة وينظر الي. هذا هو الشخص الذي سيسعفني، سيدخلني الى بيته، ويسقيني قدحاً من الشاي ويجيب على اسئلتي. اركض نحوه ولا ادركه. رجلاي غائصتان في بقع المياه، انفاسي تنقطع، اركض فلا اصل. الدرب تركض معي، وتسبقني.

"تعال"!.

تقف في مدخل البيت، على بعد خطوتين مني، وبيدها سيجارة.

"أنت هنا"؟ انطلق السؤال من فمي.

"انتظرك" تجيبني وهي تمسح وجهي المبلل بمنديل صغير، فيغمرني عبير حلو.

"فقدت شمسيتي" -اقول كمن يعتذر.

تقودني الى ردهة رطبة ومعتمة، يتكاثف في فضائها دخان البخور. تطوقني بذراعيها، ورائحة جسدها تنخر في رئتي. الروائح تختلط وتدوخني.

"أشعر بضيق" -اقول واتباطأ في مشيتي.

"أصبت بالبرد" -تقول بصوت مبحوح. سن ذهبية تلمع في فمها ورائحة تبغ تختلط بأنفاسها.

"تبللت" -اقول متقهقراً وساخراً من نفسي.

"أسقيك مشروباً من المشروبات الروحية وتشعر بالراحة".

اني اختنق بين ذراعيها، ولكنني لا اريد خلاصاً. حرارة جسدها تخدرني بشكل ممتع وتثير غرائزي. صوت مغن يرثي الليل ينبعث من مكان ما. نمر امام باب مفتوح تنبعث منه ضحكات هامسة. "المكان مظلم" - اقول لها. "انقطع التيار الكهربائي بسبب العاصفة".

نقف امام باب. ومنقذتي تدفعه وتشعل عود ثقاب. سلم خشبي يظهر لي، ولكن هبة ريح تطفىء عود الثقاب. "اتبعني بحذر فالدرجات ضيقة جداً"! تقول ذلك وتسبقني. السلم يئن وينحني تحت ثقلنا وتظهر مساحة من السماء. من تحت المظلة والغيث يضرب بعنف السطوح المتلاصقة وكأنه يريد سحقها. وترتفع، مئذنة من بعيد الى قلب السماء. وهي تفتح باباً وتجرني وراءها في وسط الغرفة، كانون من الجمر، ينشر حوله هالة من نور غامض. تشعل ثانية عود ثقاب وتدنيه من شمعة قائمة على صوان.

"الآن ستدفأ وترتاح". تقول وهي تبتسم ابتسامة ودودة. هنالك بسط بالية تغطي ارضية الغرفة. وبساط احمر يغطي اريكة في طرف الغرفة، "انزع ملابك الرطبة

واجلس بجانب الكانون" تضيف بلهجة آمرة.

تجمع الجمرات وتنثر حبات من البخور عليها، فيتعالى دخان اخضر كثيف في فضاء الغرفة، يقطع انفاسي. لهب الشمعة يتراقص بجنون، كل شيء، يتراقص امامي ويبعث فيّ احساساً حالماً. من خلال الدخان ارى على وجه المرأة ابتسامة هادئة ورزينة.

" ما ألطف المكان"- اقول بامتنان.

"بعد هنيهة ستحس بمتعة اكبر" تقول بصوتها المبحوح والشهواني. ثم ترفع البساط الذي يغطي الاريكة وتخرج ابريقاً خزفياً يغطي رأسه كأس معدنية بيضاء. "هذا سينعشك" -تضيف وهي تملأ الكأس.

اشرب بتلذذ، ولكن الشراب يحرق حلقي. ويسري كالسنة اللهب في داخلي. "هذا لذيذ" -تقول. وانا احاول الابتسام وانفاسي المنقطعة لا تسعفني لاجابتها. "اخلع ملابسك، واجلس قرب الكانون"! تقول مكررة اوامرها.

اخلع بذلتي الجديدة، واجثو بجانب الكانون. لهب الشمعة يؤلم عيني ولكنني لا استطيع ان احيد نظراتي عنها. اني ارى الشمعة في قمة بهائها من خلال الدخان المتكاثف، من خلال ضباب الخريف الرابض على النهر. شمعة وحيدة ونحيلة تشتعل في بحر الظلام، لا لتضيء، بل لتصلي. اني اراها داخل الكهف المحفور في صخور الجبل، تداعب برقة وجوه المناضلين الحجرية، شاهد اخرس وكئيب لساعة القسم الرهيب. "لن نلتقي ثانية هنا"- قال حميد وهو يضغط على ايدي الحاضرين- "ربما سيكون لقاؤنا هناك"- اضاف بابتسامة حاد عنها ضوء الشمعة وكأنه وجل من صلابتها. الكل كان يعرف معنى "هناك"، والكل كان مستعداً للقاء هناك، للذبول هناك.

اطرقت محدقاً بالشمعة التي تذرف دموعها الحارة على وجه الصخر البارد. انت وحيدة وغير ضرورية، قلت لها، لا احد بحاجة الى نورك بعد، وبعد لحظة ستموتين بنفخة.

"حسنا فعلت بمجيئك الي" اسمع صوتها وكأنه قادم من الابعاد.

"انني اذكر كل شيء الان".

"التذكر لا يضر ابداً".

"جذبتني الى الداخل واغلقت الباب. حميتني من مطارديّ، انقذتني منهم"!

اقول لها بحرارة واشدها نحوي: "انا مدين لك بحياتي. بفضلك لم يلقوا بي الى "هناك".

"انت تبحث عن شخص ما"- تقول بنبرة جافة.

"لقد وجدتك".

"لست انا من كنت تبحث عنه"!

"انا سعيد لانني وجدتك، الان اذكر كل شيء"!

"بحثت عن سامي".

"سامي اختفى ولا وجود له".

"لا يستطيع الاختفاء. فلا احد يختفي".

تتخلص من قبضتي وتتجه نحو الشباك. ترفع الستار السميك وتنظر الى الخارج. "هو في انتظارك" -تقول وكأنها تحدث نفسها.

"لا احد ينتظرني"- اجيبها لا مبالياً.

"لقد عين لك موعداً".

"في مقهى العوامة، غير ان العوامة قد ابحرت".

"انه يستغرب انك لم تأت حتى الان".

"جئت اليك".

"اني اراه".

"اترينه"؟

"انه في انتظارك. تعال وشاهده".

اقوم واتوجه اليها. من وراء الزجاج الرطب تظهر صالة المقهى الخالية. سامي يجلس في احد اركانها ويتصفح جريدة. سامي ولا احد سواه. بنظارته السميكة، وشعره الاشعث.

"لم يتغير". اقول بانفعال.

تناولني ملابسي وتساعدني على ارتدائها، "أنت فقط تغيرت".

"نعم انا فقط".

"سأنظر من الشباك"- تقول وتقبلني على جبيني.

انزل السلم الخشبي وهاننذا في مدخل المقهى. لكن سامي ليس هناك. اذ يجلس مكانه رجل كهل يلبس بدلة خضراء، وربطة عنق حمراء. لا احد

في الصالة سواه. "سامي"! انادي وانوي الرجوع من حيث اتيت.

"لا تذهب"! يقول الرجل بلهجة آمرة ومرآه يعبر عن الثقة والسيادة.

"أين سامي؟ اين ذهب"؟

"لم يذهب، لانه لم يكن".

"في هذه اللحظات كان يجلس مكانك. انني ابحث عنه في كل مكان! قل لي اين ذهب".

"أنت لا تبحث عنه".

"أنا لا ابحث عن احد سواه".

"أنك لن تستطيع ان تجده ابداً".

"من انت"؟

"ما تبحث عنه مختف في الاعماق" .

"أنت مجنون! انت سكير مجنون"!

أتوجه للخروج، فتقع نظراتي على صورتي المنعكسة في المرآة المعلقة في المدخل. اتوقف محدقاً في نفسي ويخامرني شعور بالارتياح. لا، لم اتغير. مظهري يعبر عن سيادة وثقة. البدلة الخضراء تناسبني، وربطة العنق الحمراء ايضاً. انا انسان يطلب الناس نصائحه. اعرف نفسي جيداً.

واعرف ما يكمن في داخلي. لا بد وان هذا الرجل جُنّ، التفت اليه لكي اعلمه رأيي في نفسي ولكنني لا اراه. الطاولة يتيمة "سيدي"! - انادي- "سيدي! اين اختفيت"؟

امارات رعب تجتاح وجهي المنعكس في المرآة. هل جننت؟ ارفع نظراتي الى الشباك فألفاه اعلى مما كنت اتوقع. لا، انه يرتفع الى عنان السماء، ووجه المرأة يتلاشى ويختفي. انها تلوح لي بيدها وترمي بحفنة من حبات البخور. شرارات تتقد وتتجمع في شعلة نار عظيمة تخطف نظري. انني انتظر الانفجار. بعد لحظة اعرف او لا اعرف، بعد لحظة....

ترجمة: رياض حسين اغبارية
نشرت لاول مرة بالعربية في مجلة
" الشرق" تموز- ايلول ١٩٧٩

يهوشواع قناز

لحظة موسيقية



* يهوشواع قناز
ولد في بيتح تكفا عام ١٩٣٧. درس في الجامعة العبرية ثم في السوربون. ترجم بعض الاعمال الادبية الكلاسيكية عن اللغة الفرنسية نشر اول قصة له عام ١٩٦٠. حصل على جائزة بياليك عام ١٩٩٥. من بين اعماله: "بعد الاعياد" (رواية، ١٩٦٤)، "لحظة موسيقية" (مجموعة قصصية، ١٩٨٠)، "في الطريق الى القطط" (رواية، ١٩٩١).

ما اجمله من طير ذلك الملقى على الصينية النحاسية بريشه الاخضر والبنفسجي، وجسده المكور والمدلل، يربض بكامل ثقله على المادة المعدنية الباردة التي تعكس اليه اجزاء من صورته. رقبته الطويلة والناعمة متدلية على حافة الصينية، متشكلة كاللولب، وكأنما بسبب الفتور او بسبب حب الذات. رأسه متقوقع ويكاد يلامس بطرف منقاره عكن الرقبة المتضرجة بدمائه. عيناه زجاجيتان لا حيلة لهما، بليدتان ومفعمتان بالحنين ازاء مصيبته.

لم يصبني الملل من مواصلة النظر الى هذه الصورة بعد ظهيرة كل سبت، لدى قدومنا لزيارة بيت عمة والدي، فريدة، كنت انظر في الصورة لساعات طوال، واقوم بجمع كل قواي الداخلية لكشف سرها: ما هو سر ذلك الاحساس اللذيذ والخطير الذي تثيره

بي؟ في ركن الغرفة، على بعد مسافة قصيرة على يمين الصورة، جلست جدة والدي الطاعنة في السن على متكأها الدائم، يغطي رأسها منديل كبير ناصع البياض ومنشى جيداً، منديل على هيئة مثلث تتدلى زوايا اطرافه على رقبتها، واطرافه العريضة على عينيها العمياويين فتظللهما. كانت تجلس هناك على متكأها بركنها الخاص كامرأة غريبة، وكأنها بعثت من عالم اخر لم اعرف كنهه. كان وجهها منتفخا وفمها بلا اسنان، وكان ينفرج للحظات كأنه يقول شيئا، ولكنه يعود فورا ليزم الشفتين بشكل يضفي على سحنتها شيئاً من الاستخفاف، كأنه لا شيء يستحق عناء الكلام. وللحظات ارتسمت على وجهها مسحة من الابتسام ثم اخذت تذوب رويدا رويدا بين التجاعيد الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى حتى تلاشت في ملامح الاستخفاف.

كنا نأتي لزيارتها بعد ظهيرة كل يوم سبت كانت عمة والدي فريدة تفتح لنا، وهي انيقة الملبس دائما، وعلى قذالها لف شعر مستعار كستنائي اللون، وفي خرمي اذنيها علق قرطان من الكهرمان رقيقان جدا. لقد كانت امرأة طاعنة في السن ولكنها جميلة جدا، نحيلة، طويلة القامة وانيقة، وسأذكر وجهها دائما على انه تبدو عليه امارات الطيبة. كان زوجها، عم والدي، يقف بجانب والدته العجوز ويصرخ باذنيها اسم الداخل الى المنزل. احيانا لم تكن اذنا العجوز المصابتان بالصمم تفقهان شيئا، او ان ذاكرتها لم تعد تسعفها، وكان هو بدوره يشرح لها بلغتهما صلة القرابة لكل داخل، حتى كانت تحرك رأسها اشارة لفهمها. وكانت تتمتم شيئا ما بصوتها الاجش بسبب شيوختها، وكان عم والدي ينفجر ضاحكا، فهو يحب المزاح مع والدته العجوز، لكي يدخل المرح لنفوس الضيوف.

كانت المائدة المستديرة مغطاة بمفرش لامع يميل الى الخضرة، مزدان بشراريب مذهبة وجلست بجوارنا عمتاي الالمانيتان، بنتا عم والدي، ابنتا فريدة. وكنا نسمع عم والدي لا يكف عن المزاح بصوت يصم الاذان مع امه العجوز حول موضوع مجيء المسيح المنتظر وما شابه ذلك. حتى كانت فريدة تطلب منه ان يكف عن ذلك. كانت تقطع لنا من الكعكة الفاتحة اللون والتي تتوسط الطاولة وتقدم لنا منها مع كأس من

النبيذ الحلو الخاثر.

كانت عمتاي الالمانيتان تتكلمان بلغتهما وكانتا تشعران بالارتياح والرضى. وعندما انهيتا البحث في امورهما، رشقتاني بنظرة فاحصة وبدأتا بالنقاش مع والدي بشأن ارماش عيني فاشار والداي اليهما بالتوقف، لئلا اشعر بما تقولان، ثم وضع والدي يده على كتفي وضمني اليه، ليخبرني بأنه لا يبالي اطلاقا بأرماشي. اما امي فقد شرحت لهما بلغتهما بأن لا تطرقا هذا الموضوع امامي، لان ذلك يزيد وضع الارماش تفاقما، بسبب الانفعال، وعند سماعي ذلك، فهمت ما قالته امي وتعجبت كثيرا، لانني لم اشعر بأي انفعال. قلت لنفسي: حتى امي لا تعرف احاسيسي الحقيقية. ولذلك فلربما لا يوجد اي شخص يعرفها حقيقة.

كانت ابنة عم والدي ايرنا صارمة، مطالبة باتخاذ خطوات فورية، وعنيدة جدا، بينما كانت اختها قليلة الكلام، تنشد السلام، وتميل الى بعض الكآبة . كانت الاختان لا تنفصلان تقريبا عن بعضهما البعض، بالرغم من ان لكل واحدة منهما عائلة. لم تعبأ عمتي ايرنا بإشارات وطلبات والديّ. فقد امنت بكل كيانها بقوة الارادة وبتقويم الذات. توقفت وتركت مكانها حول المائدة وامسكت بيدي وطلبت مني ان آتي معها. تبسم والدي الي ليشجعني، او لكي يخفف عني مسبقا ما ينتظرني بصحبة ابنة عمه. وسارت بي الى طرف الغرفة، واجلستني على الكنبة الجلدية القديمة، الكبيرة الداكنة، فبدوت وكأنني غرقت بداخلها. جلست بجانبي، احنت ظهرها، وقربت وجهها من وجهي حتى رأيت مسامات بشرة وجهها والتجاعيد التي كانت ترتعش ارتعاشة خفيفة، من الصعب مشاهدتها. رأيت من وراء كتفها العجوز في ركنها، وفوقها، الى اليسار قليلا، صورة الطائر المحتضر. استهلت عمتي ايرنا كلامها فاخبرتني ببساطة شديدة بأنه حسب رأيها، فان كل موضوع الارماش ما هو الا نوع من الدلع، مثله كمثل مص الاصبع لدى الاطفال. وكما اننا نحارب ماصيّ الاصابع، هناك ايضا حرب على المرمشين. كما هو معروف فإننا نحارب ماصيّ الأصابع، بدهن الخردل او رشّ الفلفل الحار على اصبعهم المذنبة، وعندما يدخلون اصبعهم ثانية داخل فمهم. فإن الدنيا تسود أمام

اعينهم. وفي المرة القادمة سيأخذون حذرهم، الاّ إذا ارادوا أن يتذوقوا مرة أخرى ذلك الطعم الجهنمي، وكذلك الحال بالنسبة للمرمشين، اذ يوجد ضد هؤلاء حيل ماكرة جدا، ولكنها لن تكشف لي عنها الآن. ويجب ان لا ننسى بأنه في كلتا الظاهرتين فان الحرب هي لمصلحة الاولاد انفسهم ولمصلحة العائلة وعندما لفظت عمتي ايرنا كلمة "عائلة" بلهجتها الالمانية الخاصة، شع وجهها بملامح المسؤولية والجدية اللتين لا مثيل لهما.

فمن المعروف، اضافت قائلة، بأن ماصيّ الاصابع يضرون انفسهم فهناك انواع شتى من العصارات في الفم والتي تسبب تآكل الاجسام التي تلامسها. ولذلك فان الاولاد الذين يمصون اصابعهم فان ابهامهم يأخذ بالاضمحلال، حتى يصبح معلقا بلا شيء، كشعرة بكفهم، تتساقط منها في اول فرصة، فيصبحون ذوي عاهة مستديمة. وبالنسبة لارماش العينين، فمن المعروف بأن الجفون مرتبطة بالعين بواسطة عضلات صغيرة هدفها الذود عن اغلى ما لدينا، عن العينين، وحمايتهما من الغبار والاجسام الغريبة. لكن الاستعمال الرديء لهذه العضلات، ألاستعمال الزائد بدون اية ضرورة، يؤدي الى اضعافها، مثل نابض الباب الذي يصيبه الوهن من كثرة الاستعمال فيكف عن العمل بشكل سليم واية ريح عادية تدفعه وتبيح البيت للجميع. ان الاولاد الذين استعملوا عضلات جفونهم بشكل سيء يعجزون عن السيطرة عليها، فاحيانا، تفتح اعينهم فجأة اثناء نومهم في الليل، بدون ان يشعروا بذلك بتاتا، بسبب ارتخاء العضلات هذا، كما يحدث لبعض الحيوانات التي تنام واعينها مفتوحة. وعندما تنفتح العينان تلقائيا، في الليل، تأتي اسوأ الاحلام.

يجب الكف عن ذلك، قالت عمتي ايرنا فهذا الامر يحزن والدي ويسبب الخجل لكل "العائلة". الناس يتساءلون؛ الناس لا يفهمون الاسباب. واذا لم يكن من اجل صحتي وتقدمي في المستقبل فعلي على الاقل ان اقوم من اجل "العائلة" بأي جهد ممكن للكف عن الارماش القبيح، القبيح جدا.

وعند قولها هذه الكلمات، "القبيح، القبيح" قطبت عمتي ايرنا وجهها، وشرعت تحركه بقوة ذات اليمين وذات اليسار وأثناء ذلك كانت تغمض عينيها بشدة في حين

يتقلص جسمها، ويتشنج، وتزم شفتيها وبصورة فجائية كانت تفتح عينيها، تحدق بهما هنا وهناك وتجعلهما تدوران في حدقتيهما بعصبية بالغة وتعود لتغلقهما بسرعة، لكي تجسد لي خطورة الامر. عرفت بانها تبالغ فانفجرت ضاحكاً، لم تستطع ايرنا ايضا ان تكتم ضحكها، ولكنها اثناء ذلك لم تكف عن القول: "هكذا يظهر ذلك، هكذا بالضبط يظهر ذلك فلتعرفا".

جاءت عمتي اخت ايرنا لتجلس على الكنبة الجلدية وطلبت من اختها ان تتركني وشأني وتعود الى المائدة. لم تستطع ان تجلس هناك بدون ان تكون اختها بجانبها. لكن ايرنا اطلقت بعض العبارات السريعة بلغتهما فتبسمت اختها بحزن واعتذار واشاحت بيدها استخفافا. ثم وقفت للحظة بجوارنا وعادت الى المائدة.

واخترعت عمتي ايرنا حيلة جديدة للتخلص من الارماش بصورة تدريجية. فيتوجب علي ان اعد من واحد الى عشرين، بين ارماش وارماش. وبعد فترة، عندما اعتاد ذلك، يتوجب علي بأن اعد من واحد الى ثلاثين، وبعد ذلك من واحد الى اربعين.

وقد وعدتني بأنني عندما سأصل الى المائة سأتخلص من ذلك نهائيا. في نفس اللحظة طلبت مني بأن ابدأ بالتمرين الاول، من السهل الى الاصعب، ان اعد الى العشرين بدون ان احرك جفنيّ. فنفذت تعليماتها حدقت بها بعينيّ وبدأت العد بصوت خفيض. وعندما وصلت الى الرقم سبعة شعرت بحاجة ماسة لان اغلق عيني ولو لبرهة وجيزة، ولكني قاومت ذلك. رويدا رويدا اظلمت الغرفة امامي. ووقع نظري فجأة على جدة والدي العجوز، التي جلست امامي في معزل عن العالم، ومن خلال هذا الضباب الذي اسدل بستائره على عيني بدا لي بأنها تصفق بكفيها فوق رأسها، كأنها تطلب المساعدة. ولعلها في حقيقة الامر كانت تربط المنديل على رأسها، ولكنني رأيت الوضع مختلفا. وكأنما من بعيد تناهى صوت عمتي ايرنا عاليا ومتزامنا مع عدي، تسعة، عشرة، احد عشر، وصوتها يأمر ويجزم، كأنه ساعة القدر، بدون رحمة، اثنا عشر، ثلاثة عشر، ثلاثة عشر، اربعة عشر...

وامتلأت عيناي بالدموع بسبب المجهود الذي بذلتاه، ولم ار جدة ابي العجوز

مرة اخرى إذ التصقت اهداب عيني فجأة ورفضت الانفتاح.

اسرع والداي الي وانقذاني من يدي عمتي ايرنا، التي اصدرت اصواتا تنم عن خيبة امل وسخرية ذلك لان فشلي تراًى لها كأنه فشلها هي وفشل طريقتها، ولعله ايضا فشل "العائلة" كلها، فغضبت ولامت والديّ على تعاملهما معي بتسامح ودلال مما يعود عليّ بالضرر "لن يشفى من ذلك ابدا"، قالت عمتي ايرنا، "لن يشفى: انه غير مستعد للقيام بأي جهد، لا من اجل نفسه، ولا من اجل والديه ولا من اجل العائلة".

مسح والدي دموعي بمنديله وشرحت انا ثانية بأني لم ابك اطلاقا، الا انه بسبب اجهاد العينين سالت الدموع، ولكنهم لم يسمعوني، اما لان اقوالي لم تبد منطقية برأيهم او لانها لم تكن بذات اهمية بالنسبة لهم. ولكن بالنسبة لي كانت مهمة جدا. لانني رغبت بانقاذ كرامتي بنظر عمتي ايرنا، كي لا تعتقد بأني فعلا مدلل وكثير البكاء ولا تهمني العائلة. عندما فتحت عينيّ ثانية، كنت جالسا بجوار المائدة وامامي عمتي، اخت ايرنا، وهي تتبسم لي ابتسامتها الخجلى، الحزينة. اما ايرنا فتكلمت بحماس، علمت انهم يتكلمون عني. دخلت عمة ابي فريدة الى الغرفة وهي تحمل اناء زجاجيا ملونا مليئا بالحلوى. وضعت الاناء امامي وربتت على مؤخرة رأسي. مسحت بظهر يدي دموع المجهود التي بقيت في عيني وكرهت عمتي ايرنا لما سببته لي من اهانة.

في طريقنا الى البيت طلبت من والدي متابعة دروس العزف بعد ان حان الاوان لذلك، وكانت هذه الدروس قد توقفت قبل بضع سنوات رغما عني. لم انس رائحة الكلوفونيوم. كانت بها ذكرى الفراق وامل البداية، رائحة حامضة مرة ومسكرة، كرائحة صمغ الشجر الذي استخرج منه. لقد كان يطوف بخيالي الى مناطق نائية ويوقظ في قلبي حب المغامرة. كأن شد القوس قد اخذ منه شيئا ما ونقله الى الاوتار، والاوتار، نقلته الى النغم، الى سر الكمان كله؛ الى روحه. في طريقنا الى البيت تذكرت فجأة رائحة الكلوفونيوم فاعترتني اشواق عارمة اليها والى الكمان، الذي حرموني منه لاسباب صحية.

كان الامر حينئذ مرتبطا بمشاورات مستمرة. في تلك الايام التي سكنا فيها باحد الاحياء الصغيرة على جبل الكرمل- كان ذلك في نهاية سنوات الحرب- سافرت مع امي الى هادار- هكرمل، وفي احد الشوارع الصغيرة والهادئة، في بيت مكون من طابقين، غير بعيد عن التخنيون، تعرفت على معلمتي الاولى على الكمان، السيدة حنينا. لقد كانت امرأة طويلة القامة، ممتلئة الجسم، شعرها كستنائي اللون ومجدول على طريقة الروسيات. على شكل ضفيرة سميكة جدا، لفت عند مؤخرة رأسها، امتحنت معلمتي الاولى على الكمان السيدة حنينا حسن استماعي ووافقت على تعليمي العزف. عندما خرجت امي من غرفة المعلمة، بشرتني بان والدي سيشتري لي الكمان الاوسط (الفيولا)، وسنسافر للدروس مرتين في الاسبوع.

انذاك، ارتبطت لدي لاول مرة رائحة الكولوفونيوم السحرية مع معلمتي السيدة حنينا. رأيت بها الجمال والجلال بصورة لم اعرفها حتى ذلك الحين. لو شاهدتها اليوم بشكلها الذي كانت عليه حينذاك، او حتى لو رأيت صورتها من تلك الفترة، فمن المحتمل انها لم تكن تبدو لي جميلة وجليلة الى ذاك الحد. بيد انني اعرف الان ايضا ما الذي امتزج بشخصيتها فجعلها جذابة جدا. كان في سلوكها، وحركاتها، وكلامها شيء من النبل السلافي. كان صوتها منخفضا وناعما جدا، وعيناها بنيتين كشعرها، كالاثاث الذي في بيتها، كالستائر، انه لون بني ذو لمعة حمراء، بني مخملي من السهل معانقته ومشبع بالحنان. قامتها، ابطاؤها الرزين، وقوفها وطريقتها في امالة رأسها الى اليمين امالة بسيطة ولكنها واضحة كل ذلك جعلها تسمو بنظري الى مرتبة عالية جدا. وها هي ما ان اخذت الكمان وبادرت لعزف شيء ما حتى استعرت النار في عينيها، كأن الغجرية النائمة قد استيقظت في داخلها، كأن الكمان قد ايقظ الدم الغجري الصاخب والمثير، هكذا تترآى لي في مخيلتي الان حينما اغمض عيني واجهد تفكيري لاستحضار هيئتها وحركاتها. وكذلك كان حال دماثتها، ونعومة كلامها، بالاضافة الى محافظتها على بعد ما بينها وبين محيطها، كي تمنح الملكة ايضا مجالا كي تعيش به. في تلك الايام استنشقت للمرة الاولى رائحة الكلوفونيوم، الذي كنت اواظب على مسح

القوس به بين الفنية والاخرى. لقد عثر والدي من اجلي على تفسير الكلوفونيوم في الموسوعة: على اسم مدينة تقع في آسيا الصغرى، تستورد منها هذه المادة وهي مادة صفراء، صلبة، شفافة تصنع من بقايا تكرير صمغ الاشجار. وهي تظهر ككتلة صمغية صفراء فاقعة او بنية فاتحة، لا تذوب في الماء او في الكحول والاثير. تستعمل لصنع الطلاء اللامع، لسد شقوق السفن ولشحذ شعيرات القوس في الالات الموسيقية الوترية وكوسيلة للحد من صهر المعادن الا ان اكبر كمية منه تستعمل لصنع الصابون. ويستعمل ايضا كمادة ملينة في مجالات صناعة العقاقير، لاعداد بعض المراهم والعطور. بعد فترة ما اشادت معلمتي السيدة حنينا بتقدمي الجيد في العزف واقترحت على والديّ الحاقي بمعهد الموسيقى لدراسة علم الموسيقى.

في احد الايام الشتوية في ساعات ما بعد الظهيرة، جيء بي الى معهد الموسيقى في حيفا وتحدث والداي بما تحدثا به لدى سكرتارية المعهد ثم ادخلت الى احد الصفوف، في حين خرج كلاهما لانتظاري في الممر، حتى نهاية الدرس. ومهما أبذل من جهد، تترآى لي الصور من تلك الفترة محاطة بالضباب، مقطعة الاوصال، بدون اي رابط بينها، ثم يخرج من مكان سحيق ومنسي الم مبهم وغامض يضج في صدري، محاولا ان ينفجر ويملأ الدنيا دوياً، ولا ادري ما السبب، من المحتمل بأن الرؤوس استدارت نحوي ونظرت بي، عندما ادخلتني السكرتيرة الى الصف الذي جلس فيه من هم اكبر مني سنا وانتظروا ابتداء الدرس. اجلسوني في احد المقاعد الزوجية بجانب ولد قد طر شاربه وكان يتمعن في كراسة النوتة. لن اذكر بماذا فكرت في تلك اللحظات حتى ابتداء الحصة واذا ما كنت متأثرا. يخيل لي، بأني لم افهم تماما سبب ارسالي الى ذلك المكان وماذا يحاولون ان يصنعوا بي وما لي وللكبار من حولي، كما خيل لي بأني سمعت من عدة جهات حولي ملاحظات مبهمة واصوات ضحك لعلها كانت موجهة الي مع دخول المعلم الى غرفة الصف ساد الصمت وشرع الرجل الشائب ذو النظارات الفضية بالكلام. من حين لاخر كان يجلس امام البيانو الذي بجانب اللوح الاسود ويقوم بعزف مقاطع موسيقية مختلفة بعد ذلك سأل التلاميذ اسئلة مختلفة، فاجابوا عليها. من

خلال النوافذ الضيقة والطويلة التي في اعالي البناية القديمة ذات الطبقات، ظهر الشارع والسيارات المسافرة فيه، والناس الذين يركبون الدراجات والعرب مع بضائعهم. كان النور شتويا وباهتا ورويدا رويدا حل الاصيل واضيئت المصابيح وشعت الانوار من نوافذ البيوت. وفي الصف اضيء النور ايضاً، ومرة ثانية ظهرت وجوه الاولاد الكبار، وكتب الولد الجالس بجانبي امورا ما في كراسته. فظلت كراستي فقط مفتوحة امامي، جديدة بيضاء ولم اجد ما اكتبه بداخلها. فكرت في والديّ اللذين ينتظرانني في الممر واشتقت جدا لان اراهما، فتمنيت من اعماق اعماقي انتهاء الحصة والعودة معهما الى البيت.

بعد ذلك سألني والداي بعيون متشوقة كيف مر الدرس الاول، وهل فهمت ما قيل فيه. كذبت عليهما وقلت بأن الدرس كان جيداً وجميلاً ومفهوماً، ففرحا جداً. كان من الصعب عليّ ان اتفرس في عيونهما. شعرت بأنه يجب عليّ بأن لا اخيب آمالهما. الحماس الودود، المتحفز، لم يترك مجالاً للشك. هذه هي المقابلة الاولى التي اتذكرها مع ما تحمله من الالم الذي يكمن في العجز، ومن الشعور بالمهانة من جراء الكذب الذي يحاول ان يخفي ذلك العجز.

لقد شعرت ببعض المواساة عند عودتي الى معلمتي في العزف السيدة حنينا والى ذلك البيت الذي سبق وعرفته جيدا وعرفت كيف اتجول فيه. كنت آمل بداخل سريرتي بالا اعود ثانية الى معهد الموسيقى. ولكن بعد اسبوع عدت ثانية مع امي الى ذلك المكان. ودخلت ثانية الغرفة وجلست في مكاني. هذه المرة كان المكان الذي بجانبي فارغا ورأيت الولد الذي طر شاربه جالساً في مكان اخر، مع احد اصدقائه الكبار. ولهذا اقتربت اكثر الى النافذة ومن هناك استطعت ان ارى جيداً حركة السير في الشارع، الذي في الاسفل، نظرت الى المارة في الشارع الذين تراآوا لي كأنهم جنادب، وفجأة لم اعرف ما حدث لي، شعرت بمحنة فالاشخاص والسيارات الذين شاهدتهم في الاسفل غابوا عن ناظري وبدأوا بالدوران وكأنهم في دوامة، وتراخت قبضتي في وهن شديد، وكأنني اصبحت على وشك السقوط الى الهاوية وفقدان كل ما لدي. حاولت جاهدا ان اشيح بوجهي وامنع عيني من رؤية الشارع، ولكنني لم استطع. وتسمرت شخصية ما من بين المارة امام ناظري

واشارت لي بالقفز من النافذة الى اسفل. رأيت ذلك واضحا من خلال ملامح وجهها وحركات يديها الموجهة الي، الي فقط، داخل الخلفية الضبابية التي تتحرك دون توقف والتي نشأت عن زحمة الشارع. صورتها المألوفة لدي لدرجة الشعور بالالم قد مدت باتجاهي، جاهزة لاستقبالي بين ذراعيها. وبعد لحظة غابت في دوامة الشارع. حينئذ فقط استطعت بأن احول ناظري عن النافذة، لكن شدة الهلع جعلت بلادة الكرى تسيطر علي. نظرت امامي فرأيت المعلم الكهل جالسا بجانب البيانو والكبار يسجلون في كراريسهم وكان صوت الرجل الاجش المتعب يوقف انغام عرض نماذج من السلالم الموسيقية. غطيت وجهي بيدي واعتقدت بأن كل ذلك سينتهي بعد هنيهة. ولكنني لم استطع ثانية انزال يدي عن عيني. حاولت ان اشاهد بمخيلتي ذلك الممر الذي من خلف باب الصف، وان انفذ عبر الحائط، لارى اذا كان هناك شخص ما بانتظاري. وشاهدت بمخيلتي بان الممر خالٍ تماما ولا مكان لاذهب اليه. تجولت بعيني المغطاتين على طول الممر فلم يكن به اي مخلوق حي. حاولت ان انجر الى غرفة السكرتارية التي في طرفه، ولكن قبل ان اصل اليها استيقظت بفزع لسماع اصوات صاخبة من حولي. فتحت عيني فشاهدت المعلم الكهل يميل علي، وجميع التلاميذ يقفون ويصخبون بالضحك الشديد، تطلق لي وجه المعلم ببسمة مريبة. مد الرجل يده، وربت على كتفي، كمن يحاول ان يشجعني. وضج الصف ثانية بالضحك الشديد.

تركني المعلم الكهل وعاد الى البيانو. كانت النافذة عن يميني قريبة وخطرة، وكان الباب عن يساري، في الطرف الاخر للغرفة. نظرت حولي، انتصبت واقفا، اخذت كراستي الفارغة وسرت بهدوء نحو الباب، على اطراف اصابعي ادرت اكرة الباب رويدا، رويدا، ثم فتحت الباب واغلقته ببطء. وقفت في الممر الخاوي، وفعلا لم تكن امي هناك. بدأت بالخطو في الممر وبدا لي كل شيء تماما كما تخيلته بمخيلتي، بعيني المغطاتين تغلب علي شعور بالضياع والغدر. عضضت شفتي لكي اكتم صرخة ثارت في داخلي. وعندما كنت امر بجانب احد ابواب الغرف، كنت اقف قليلا محاولا ان اسمع او ان ارى، لعل امي هناك. شيئا فشيئا تخليت عن سلوكي المؤدب وبغضب اليأس شرعت

افتح الابواب واختلس النظر الى الغرف. في بعض هذه الغرف تواجد التلاميذ، وفي غرف اخرى جلس بعض الاشخاص، ومنها ما كان خاويا. ولكن امي لم تكن في اية واحدة منها. ولدى وصولي الى نهاية الممر، وصلت مسامعي انغام كمان بصحبة بيانو، وقد سمعت هذه الانغام في جميع ارجاء الممر ولكنني لم انتبه لها قبل ذلك لانني كنت منشغلا بغضبي وبالبحث عن امي. على مقربة من الباب تناهت الانغام بشكل اكثر وضوحا، جميلة لا شبيه لها، حزينة تكتنفها الأسرار. لم يكن الباب مغلقا تماما فاختلست النظر من خلال الفسحة، ولكن بما انني لم ار شيئا، ادخلت كف يدي الى الفسحة وقمت بتوسيعها قليلا. حينئذ شاهدت العازف، وهو غلام طويل القامة يلبس بنطالا قصيرا وجوارب طويلة تصل لركبتيه. وقد امسك الغلام بكمان كبير، وشعره اسود، ومسرح بعناية شديدة، وكان منهمكا بكل جوارحه في العزف لدرجة انه اغمض عينيه، وكان ينحني بكل جسده نحو الامام اثناء هز كف يده اليسرى لاصدار التناغم الايقاعي (الفيبراتو) من شدة الانفعال، ثم ينتصب فجأة، ويستمر في انتصابه واصابعه تنتقل بمهارة لتعزف مقطعا صاخبا. شاهدته من الجانب ولكني رأيت وجه عازفة البيانو باكمله، وهي بشوشة، تضع النظارات وشعرها جعد. كان الاثنان وحدهما في الغرفة ومنسجمين مع عزفهما. وفجأة توقف الغلام عن عزفه، وانا الواقف خلف الباب، فزعت من ان ينكشف امري. تراجعت عدة خطوات وسمعتهما يتشاوران بينهما، الا انه بعد لحظة، تناهى صوت العزف مرة اخرى من بدايته، فعدت الى الفسحة التي بين العضادة والباب، واصخت بسمعي للحن.

لقد اثر فيّ كثيرا العزف الحزين، البطيء والصاخب على التوالي. وانزوى جانبا المي وخوفي ووحدتي امام فخامة اللحن ذي الثلاثة ارباع، المليئة بالحزن وعزه النفس، بالخنوع والتمرد، بالنظام والفوضى. تارة، كان الكمان يعزف اللحن الرئيسي كأنه يبكي، فيعلن البيانو الحرب عليه ويتحرش به دون توقف، ويحاول جاهدا ان يقطع حبل افكاره، وتارة اخرى يرافقه برغبة بالصلح، او بفرح، او باعتذار، مستجيبا لجميع مطالبه وممتنعا عن مفارقته. ومع تغيير الايقاع، كان البيانو يصدح باللحن الرئيسي، محافظا

كعهده على الجمال والحزن الاصيل الكامنين فيه، فيكيد له الكمان ويتخذ له ايقاعا معاكساً ويلتقي معه في نهاية المقاطع ثم يفترق عنه في وسطها حتى ينسجما ثانية بنغمة واحدة.

عندما انهيا المقطوعة الاخيرة، قامت عازفة البيانو من مكانها، فتراجعت عن الباب واستندت الى حائط الممر، كأنني واقف بلا هدف. بعد لحظات خرج الاثنان من الغرفة. كانت تحمل تحت ذراعها ملف النوتة خاصتها، وكان هو يمسك بمودة حقيبة كمانه. تلكأ للحظة في الممر، فقمت بتفحصه جيدا وتمنيت ان اصبح هو وليس انا. وبدل الخوف والاشفاق على نفسي، اللذين عكرا مزاجي بصورة بالغة في الفترة الاخيرة، اصابني انفعال اخر، كأنه اخرجني عن طوري. سرت في أعقابهما في الممر مبتعدا عنهما بعض الشيء. ودعته عازفة البيانو ودخلت الى احدى الغرف اما هو فواصل المشي، رويدا، رويدا، كالمتردد، كالغارق في التفكير، كأنه لم يقرر بعد الى اين يتجه. انتهت الحصة في صفي وخرج التلاميذ الى الممر. نادى الولد الذي طر شاربه: اوري! فادار العازف وجهه. فرح الاثنان باللقاء في حين نظرت اليهما من الجانب. ومرّ المعلم الكهل بجانبي، القى علي نظرة لكنه بدا وكأنه لم يعرفني. صعدت امي الدرج واسرعت نحوي من اقصى الممر.

"هل انتهى الدرس منذ مدة؟" سألت وهي تلهث.

"كلا"، احبت، "الان فقط".

"كيف كان ذلك"؟

"جيدا"

"هل اشتركت في الدرس؟"

"لا، لا".

"ألم تفهم شيئا"؟

"لا اريد العودة الى هنا ثانية،" قلت وانا مطبق الشفتين.

لم انظر الى وجه امي ولذا فلن اعرف ابدا كيف كانت تعابيرها.

سكتت وامسكت بيدي ونزلت الدرج معي. شعرت بذنبي من خلال امساكها بيدي.

قلت لها: "رأيتك تسيرين في الاسفل على الشارع فادركت بأنك لا تنتظرينني هنا". الان نظرت اليها.

عضت شفتها العليا لبرهة وجيزة ونظرت الي بقلق.

"الهذا السبب لا تريد العودة الى هنا ثانية؟"

"كلا"، "اجبتها" ليس هذا السبب".

في الباص الصاعد الى الجبل حدثتها عن الغلام الذي عزف اللحن الرائع، وطلبت امي مني بأن ادندن لها اللحن فدندنت على مسامعها شيئا ما كان بنظري مشابها لذلك اللحن، كما علق بذاكرتي. وبالرغم من أنّ ذلك بدا بائسا جدا وبعيداً اشد البعد عن اللحن الذي عزفه اوري فان امي تأثرت جدا. وفي المساء لدى عودة ابي من عمله، طلبت ان ادندن له ايضا ذلك اللحن. ولكنني نسيت اللحن تماما، ورغم ما بذلته من جهد، لم استطع ان ادندن ولو نغمات قليلة منه. ولكن ذكرى تأثيره فقط كان لا يزال نابضاً في عروقي، بالاضافة الى الاحاسيس الجياشة التي اثارها في نفسي.

"لم لا تريد مواصلة الدراسة في معهد الموسيقى؟" سأل والدي.

لم اعرف كيف اجيبه.

"هل سبب ذلك انني خرجت الى الشارع فخفت ان تبقى هناك لوحدك؟" سألت امي، وكان في نبرة صوتها بعض التذمر.

"لا" . "قلت،" ان ذلك المكان غير جيد. لا يدرسون هناك جيدا".

"عسانا نجرب لبعض الوقت ايضا وسنرى؟". اقترح ابي .

اذعنت لاقتراحه. ووعدت امي بانها لن تترك المر ابدا في الوقت الذي يتوجب عليها انتظاري حتى نهاية الدرس. لم اخبرهما بشيء عن تلك الدروس. انها تبدو لي الان غريبة، كالكابوس لا بداية له ولا نهاية. بمرور السنين بذلت جهدي كي ابعد ذكراها عن تفكيري، كما لو انها لم تكن موجودة اصلا.

حينما كنت احاول القيام بتمرينات العزف في البيت، كانت ذكرى المعزوفة التي قام اوري بعزفها تحتل وجداني ولا تبارحني واثناء ذلك اصبح عزفي سخيفا بنظري، بالرغم من كلمات التشجيع من معلمتي ووالديّ راودني الشك ان كان بامكاني ان اصبح يوما ما مؤهلا للمس ذلك الجمال الذي هو من نصيب الاخرين فقط، ممن هم افضل مني. في احدى الامسيات سألتني امي عما بي. لم اعرف ما هو سبب قلقها. هل نمت جيدا سألتني. وكذلك ابي، الذي عاد من عمله عند المساء، نظر الي بقلق. نظرات الناس كشفت لي اموراً غريبة لم ادرك كنهها. وجرت الامور بشكل ما خارج ارادتي، لم يكن بمقدوري تغييرها، كانت تلمسني ولا تلمسني، وشعرت كأن سرا مبهما قد اودع بين يدي، ولا يسمح حتى لي انا نفسي بمعرفته، بل وانما فقط المحافظة عليه جيدا حتى يحين موعد الكشف عنه. ذلك الشتاء والربيع الذي تلاه، كانا للوهلة الاولى عبارة عن ايام كبقية الايام، ولكن كان بها شيء ما يتسلل خلسة، يزحف ويرتقي على وجهي، ليهدم ما بقي محسوسا ومضمونا بين يدي.

كنت اسافر مع امي الى المعهد مرتين في الاسبوع، لاجلس كالولد الغريب في غرفة الصف. لم يعد احد ينتبه لي، ويخيل لي انني بدأت اتعود على ذلك. لم اسمع اي شيء مما قيل هناك. تمنيت ان التقي واتعرف ذات يوم على الغلام اوري واسأله عن اسم المقطوعة الموسيقية التي عزفها. ولكنني لم اشاهد اوري ثانية، وعندما كنا نعبر الممر، كنت اشد امي نحو ذلك الباب الذي انطلقت منه النغمات، واتوسل اليها كي تقف للحظة للاصغاء، لعل ذلك الامر يتكرر، ولعل تلك اللحظة الساحرة تحدث ثانية. ولكن الغرفة كانت صامتة على الاغلب، واحيانا يتناهى منها لحن آخر. وكذلك الحال في بقية الغرف التي على امتداد الممر المظلم. اختفى الصبي كأنه لم يكن.

وفي الصف توجه لي الفتى الذي طرّ شاربه وسألني لماذا اغمز بعيني. لم افهم سؤاله وما قصده، ولكنني فهمت بأنه يتحرش بي ويحاول اهانتي. لم اجبه بشيء. في نهاية الدرس اخبرت امي عن الفتى وعن سؤاله. فظهرت بوضوح معالم الكآبة والقلق على سيمائها، شعرت بأن ذنبي كبير اتجاهها وخجلت جدا من نفسي. كأنني احمل

معي جراثيم مرض خطير، كأن انهيارا فظيعا يجري على وجهي، لا استطيع ان اوقفه، لا احد يستطيع ان يمد يد العون، وانما بامكانه فقط ان ينقل لي انطباعاته او ان يخفف وطأة الرعب.

"اذا ما سألوك،" قالت لي امي، "فقل بأن ذلك تعب في العينين. قل بأنك في حالة التعب او الرغبة في النوم، فان ذلك يحدث لك ويعد ان تستريح، فان الوضع يتحسن كثيرا. المهم هو الراحة". مجهود الكذب بدا واضحا على وجهها. اما انا فلم اشعر بأي شعور بالتعب في عيني او في اي مكان اخر، ولم تكن لدي اي رغبة للنوم. لم تكن الراحة لتنقصني، والشيء الذي كان ينقصني فعلا لم يكن بمقدور اي انسان ان يمنحني اياه. تفحصت وجهي في المرآة لم ار اي شيء مميز على الوجه والعينين. فزاد ذلك من رعبي، وكأن مؤامرة من الطمس وكم الافواه كانت تحيط بي.

"هل تشعر بتحسن؟" سألني الطبيب. وقف ابي وامي بجانبه، كأنهم اصبحوا جبهة واحدة في مواجهتي.

"نعم"، اجبت، "أنا على ما يرام."

"هل حدثت امور سيئة في الفترة الاخيرة؟".

اجهدت ذاكرتي كثيرا فلم افلح في تذكر اي حادثة من هذا القبيل. تفحصني جيدا ولكن لم ينظر الى داخل عينيَّ بتاتا.

"كم عمرك؟"

"سبعة اعوام".

"هل تقوم بقضم اظفارك؟" نظر الى راحتيَّ

"طبعا لا! هل جننتُ ؟" قلت .

ارتدت امي الى الوراء، القت علي نظرة دهشة وارتياع شديدين لم اعرف سببها. نظرت اليها متسائلاً، وهلعا من اي خطأ كنت سأقوم به في حقها. رأى الطبيب ارتباكي وطلب من والديَّ ان يخرجا من الغرفة ويتركانا لوحدنا. بعد ان خرجا، تبسم الرجل الي وسأل: "كيف والداك، هل هما على ما يرام؟"

"أجل"، قلت، واضفت العبارة التي كانت مألوفة في تلك الايام:" إنهما عشرة على عشرة".

ضحك ضحكة فاترة ومتشككة، كما خيل لي، وسأل:" الا يسببان لك المتاعب؟".

"ماذا دهاك؟" دهشت،" اية متاعب؟"

احببتهما جدا. تعجبت ولم استوعب كل ما يرمي اليه.

"هل تعتقد بانهما راضيان عما تفعل؟" سأل الطبيب.

"أنا افعل ما يقولان لي"، اجبته.

فبدت عيناه وكأنما توهجتا لسماع جوابي هذا. ولعل نبرة غضب ما قد كانت في اقوالي.

"هل تغضبك اسئلتي؟" سأل.

"كلا"، قلت محتجاً، "كلا، اطلاقا".

تبسم بعدم ثقة.

"ولكنك لم تفحص عينيّ بعد،" قلت.

ولكنه استمر باسئلته عن دراستي، عن اصدقائي، عن لعبي، وعن عزفي. لم اعرف سبب اهتمامه بكل ذالك رافقني الى غرفة الانتظار ودعا والديّ الى غرفته سألني اذا كنت موافقا بأن انتظر وحدي حتى ينتهي من الحديث معهما. اعتكفوا في غرفته في حين جلست انا في غرفة الانتظار الخالية. جلست هناك وقتا طويلا. كانت الغرفة مضاءة بنور ساطع من الخارج. كان اثاث الغرفة فاتح اللون وكذلك الستائر. وخشيت ان يصيبني ثانية الخوف الذي اصابني في معهد الموسيقى عندما كنت واقفا وحدي في الممر ولم تكن امي هناك، ولكن جلوسي وحيدا في غرفة الانتظار عند الطبيب لم يكن شاقا علي. ورويدا رويدا الفت الاثاث الغريب الفاتح اللون، وانصت لاسمع عما يتكلمون في الغرفة القريبة، خلف الباب الثقيل، ولكني لم اسمع شيئا. فقد تناهى الى سمعي فقط صخب حركة المرور في الشارع الذي خلف النوافذ المفتوحة. جلست هناك وحدي لوقت

طويل وتمنيت ان ينتهي كل ذلك ونعود في نهاية الامر لنعيش حياتنا الطبيعية. ولكن حياتنا الطبيعية كانت قد فقدت توازنها الى الابد على ما يبدو، ولم تكن هناك فائدة من تجاهل ذلك.

خرجوا من الغرفة بعد وقت طويل وتوجه الطبيب الي ربّت على كتفي وودعني فسألت:" متى سيجري فحص العينين؟". ولكنه ابتسم ابتسامة مبهمة وقادني والدي الى الخارج.

في الخارج، توقفت امي صارخة بوجهي بسبب قلة ادبي واهانتي للطبيب واحراجها امامه. لم افهم عما تتحدث. "عندما سألك اذا كنت تقضم الاظفار فاجبته :" هل جننت!"

"ولكن لا، قلت له " هل جننتُ؟".

"لا، قالت امي، "هذا غير صحيح. قلت: "هل جننتَ."

ولم تجد الاحتجاجات والادعاءات. القى ابي يده على رقبتي وشرعنا بالسير في الشارع الحيفاوي، كان الوقت ما بعد الظهيرة. الا انه لم يكن بامكان ملامسة يد ابي لرقبتي ان تزيل الظلم الذي تأجج بداخلي.

قال ابي: "ما اهمية ذلك؟"

ولكن امي صممت على موقفها. كرهتها. علمت بأنها مخطئة وبانها تظلمني. المها مقابل المي، فشلها مقابل فشلي. فجأة، شخصان يتصارعان على اهداف متعارضة، بعدم ثقة تام، بانانية فظيعة احتجاجها على انني خنت تربيتي في السلوك المؤدب، ولربما ايضا على شيء اكثر عمقا من ذلك، على انني اذعنت لخلل غامض حل بي، واعراضه الاولى تجتاح وجهي، وكل ذلك لم يحدث حسب ما يبدو الا بسبب ضعف التفكير وفتور الارادة، وهذا الاستسلام من شأنه ان يكون بداية لانهيار لا يمكن التنبوء بعواقبه. ولكني كنت واثقا من صدقي ولم اتراجع عن موقفي.

تعلقت بذلك كأنه آخر حبل للنجاة. نظرت الى ابي من شدة اليأس، فتبسم لي ابتسامة المشاركة والثقة. لم يكن لدي ما هو اهم من ذلك في تلك اللحظات. تآمر كلانا

ضدها. اصبحت الان وحيدة امامنا نحن الاثنين. ولكن لفرط الالم، لم نستطع ان نغير رأيها. لم يكن مزاجها صافيا، فحسبت انه بسبب اعتقادها الخاطىء بأني كنت وقحا اتجاه الطبيب فان الحزن قد اصابها. دخلنا الى مقهى للالمان في هدار الكرمل. جلسنا هناك وطلبا لي الكاكاو الساخن، في حين شرب كلاهما القهوة.

نسيت امي فجأة حزنها بسبب خيانتي للاداب وتبسمت لي ولكن برقة فاترة الى حد ما. وقالت: "يتوجب علينا ان نوقف دروس العزف على الكمان لفترة ما". اعتقدت بأن ذلك هو العقاب الذي تفرضه علي، بسبب ما ارتكبته من وقاحة وهمية، ورفعت بنظري الى والدي ليسعفني على امل ان يرفع هذا الظلم. يبدو لي ان التوقف عن العزف لم يكن يهمني كثيرا، ولكن الظلم الذي اساسه الخطأ وعدم الثقة اغضبني جدا. وها هو وجه والدي يبشرني بنفس البشرى فأدركت بأنه لا يخطىء.

"قال الطبيب بأنه يجب التوقف لفترة ما"، شرح لي والدي، "ان ذلك يؤثر على عينيك بشكل سيء".

لم استطع الوقوف على العلاقة ما بين الشيئين، ولكنني لم اتعمق بذلك.

"لم اقل له هل جننت"، كررت قولي، لعل ذلك سيغير شيئا، "قلت هل جننتُ".

"هذا ليس مهما"، قالت امي مثيرة دهشتي "لا بأس".

ومنذ اللحظة التي اصبح بها ذلك غير مهم، اختلت موازين نظام اهمية الامور الاخرى. نظرت الى الرجل والى المرأة اللذين احببتهما اكثر من اي شيء وتساءلت الى اي حد هما ملكي والى اي حد هما ملك نفسيهما. وهبت نسمة لطيفة في المقهى، وغمر الاصيل المقهى ومحيطه. ومر العمال في الشارع من امامنا، عائدين من اعمالهم بملابسهم الزرقاء، وحقائبهم بأيديهم. جلست امرأة طاعنة في السن بجوار الطاولة القريبة من طاولتنا، واخذت تطالع صحيفة المانية مثبتة بداخل اطار خشبي ذي مقبضين ساد جوّ من الشك في اجواء المكان الهادىء.

"كم من الوقت؟" سألت.

"حتى يتوقف الارماش"، قال ابي. "تأمل الا تكون ذلك لفترة طويلة."

"سنتوقف بعد الحفلة الموسيقية في نهاية هذه السنة في المعهد"، قالت امي بصورة قاطعة.

كانت الحفلة ستجري بعد اسبوعين.

لم يستطيعا اخفاء خيبة املهما، رغم ما بذلا من جهد لاخفائها. وانتقلت عدوى خيبة الامل اليّ ايضا بالرغم من الرقة الواضحة في تعاملهما معي.

كان في ذلك شيء من الفشل المحتم، والذي لا علاقة له بكل ما تفعله او لا تفعله. ومع هذا كان في ذلك شيء من الشعور الرائع بالمصير المشترك. اذكر بأني لزمت الصمت. ولم الح عليهما بالغاء هذا القرار الجائر شجعتني معلمتي، السيدة حنينا، في الدرس الاخير وتمنت لي النجاح في ظهوري في الحفلة الموسيقية التي يقيمها المعهد في نهاية السنة، وادعت بأن التوقف لن يضرني بتاتا، بل على العكس من ذلك، فعند عودتي بعد فترة للدراسة ستكون لديّ طاقة مضاعفة وسأصل الى نتائج افضل بكثير. وقفت امامها غاضا طرفي فربتت برفق على مؤخرة رأسي. لم انظر اليها. وكذلك عند خروجنا من بيتها لم انظر من حولي لانقش الاشياء في ذاكرتي لانه لم يكن لديّ شعور بالفراق. كل شيء كان محاطا بالغموض التام، والعرضية المبهمة، والشكلية جدا. ولكني لم اعد ثانية الى ذلك البيت، اما معلمتي السيدة حنينا فقد رأيتها بعد ذلك مرة واحدة فقط، وذلك في مساء الحفلة الموسيقية في المعهد.

جلست في الصف الاول، مع المعلمين الذين حضروا لسماع عروض تلاميذهم. وقد جلسنا نحن في احد الصفوف الوسطى. اذكر جلوسي في الوسط بين والدي، انتظر على احر من الجمر عرض اوري كأنني كنت مضطراً ان اسدد بنفسي ديناً ما، دين اشواق لا اعرف كنهها. لقد كان اهم العازفين في تلك الحفلة ولذا فقد ظهر في النهاية، كمسك الختام لهذه الامسية. خلال هذه الحفلة نظرت اليه مرات عديدة، اثناء جلوسه مع افراد عائلته يلبس قميصاً ابيض وبنطالاً طويلاً، ازرق داكنا، شعره مسرح جيدا، رطب وممشط الى الجانب. لم يكشف وجهه عن اي شعور بالانفعال. ربما كان عمره اثني عشر عاما او ثلاثة عشر عاما ولكنه بنظري كان شابا كبيرا. ان ذكرى المقطوعة الموسيقية التي سمعتها وانا مختبىء وانسياب عزفه في الممر المظلم جعلا شصخيته

بنظري ذات أسمى ميزة. بفضل معزوفته تلك، فقد تراءى لي جميلا جدا، مفعما بالسيادة والثقة، وقد حظي بفضله كل شيء كان يمت اليه بصلة ببعض الاحسان، بشيء سام، صعب المنال. كما ان طريقة جلوسه، وابويه الهرمين الجالسين عن كلا جانبيه، واخيه واخته الاكبر منه سنا، اللذين يجلسان معه بملامحهما الجادة، منظرهم الخارجي، لباسهم، الامكنة التي اختاروها للجلوس في القاعة، حركات رؤوسهم اثناء الاستماع للعزف، طريقتهم في التصفيق في نهاية كل معزوفة كل هذه الامور كانت غاية في الجمال والنجاح والكمال. احيانا، بين مقطع واخر، كان الوالدان والاخ والاخت يميلون نحو اوري الذي جلس في الوسط، يسألونه عن شيء ما، او يبدون ملاحظة ما، يتبادلون الحديث، لم يكن بالامكان التكهن بفحوى حديثهم.

عند اقتراب موعد نهاية الحفلة، قام اوري من مكانه، رافقته تمنيات عائلته له بالنجاح، وخرج من القاعة. فادركت ان موعد عرضه قد اقترب. وكانت السيدة دونيا فايتسمان، مديرة المعهد الموسيقي، تقدم العازفين ومعزوفاتهم، وتضيف ايضا ملاحظة خاصة ولطيفة عن كل واحد منهم، لبث المرح بين الجمهور والعائلات. وعندما وصل دور اوري، خيل لي بأن الجو قد اتخذ مظهر الاحتفاء والجدية في البداية، دخلت الطالبة، عازفة البيانو، ذات النظارات ووراءها اوري والكمان في يده. رفعت السيدة دونيا فايتسمان رأسها، بانتظار ان تهدأ الهمسات الاخيرة في القاعة، وعندما شعرت بالرضا، قدمت بايجاز وببساطة اسم اوري واسم مرافقته على البيانو واسم المقطوعة الموسيقية التي سيعزفانها: تقاسيم "لا- فوليا" تلحين كوريلي.

وضع اوري منديلاً على ذاقنة الكمان، ولمع كمانه تحت ضوء المسرح الصغير. وضع رأسه على الالة الموسيقية، امسك بالقوس واغمض عينيه للحظة بهدف التركيز، فتحهما وباشارة من رأس عازفة البيانو بدأ الاثنان بالعزف سوية. امتلات اجواء القاعة بشجن ذلك اللحن. وازداد ذلك الشجن مع تموجات النغمات في نهاية المقاطع الموسيقية . لقد حول شيء غامض ما الايقاع الراقص والصاخب، والمرح في ظاهره، لنوع من النواح اليائس والمنعم بالفخامة. كانت يد اوري مليئة بالثقة، وزاخرة بالاحساس المكبوت

والقوة الباطنية. يبدو لي انني لم اسمع اجمل من ذلك العزف من قبل. ففيه شيء من الطهارة المخيفة الى حد ما، المثيرة، غير الخاضعة اطلاقا الفاترة والموصلة الى ذروة النشوة في آن واحد. ويزداد ايقاع المقاطع صخبا فيبدو احيانا الفتى الطويل القامة بقميصه الابيض وبنطاله الازرق الداكن وحذائه القصير وكأنه يقاوم قوى خفية. احيانا يعبر وجهه عن مشقة ما، وهذا فقط نتيجة للجهد الجسدي المبذول في الاداء المتقن، وفي سرعة تحريك الاصابع واصدار التناغمات الموسيقية السريعة الايقاع. ان تركيزه شديد جدا لدرجة انه يجعله ينفصل عن المكان الذي يقف فيه، وعن العيون الكثيرة التي تحدق به، بل وكأنه قد انفصل عن المعزوفة الموسيقية نفسها، عن باطنها الغامض، الصاخب، المهدد. وقد وقف هناك كمثال لحسن النظام.

اني اشعر كيف يحدث هذا الامر بداخلي، وكيف يخلب لبي هذا اللحن. انا لا استطيع التركيز به بكل جوانحي، إنه آية في الجمال، اكثر جمالاً مما يمكن ان اتحمله. انظر الى الجمهور المصغي، اتفحص عيون الناس، استطلع في قاعة العرض وانظر بخوف الى الابواب المغلقة. انا اعرف بأن هناك شخصا ما قد يندفع فجأة ويصرخ بشدة: كفى! كفى! واعرف ايضاً من هو هذا الشخص. لقد رأيته اكثر من مرة في شارع "الملوك،" متسول مجنون، لم تفارق صورته مخيلتي في تلك اللحظات، مهددة من وراء الابواب المغلقة. ستحل الفوضى بين الجمهور، سيذعر اوري، وسيرتجف الكمان بين يديه، وستفقد عازفة البيانو الوعي من شدة الرعب، وسيرفع اوري رأسه، ويتوقف عن العزف، ويشحب وجهه من شدة الذهول، والشعور بالذنب والاهانة . راقبت وجوه والديه واخيه واخته الاكبر منه سناً، الذين يجلسون ويصغون بوجوه متجمدة بعض الشيء، كأن الامر لا يخصهم اكثر من الآخرين، كيف سيكون رد فعلهم عندما يحدث ذلك فيندفع الرجل المشاغب وينقض على المنصة ويصرخ كفى، كفى، السيدة دونيا فايتسمان تجلس في وسط الصف الاول، مع المعلمين. شاهدت مؤخرة رأسها تتحرك على انغام "لا- فوليا" فهي ايضا لا تعرف ما يستتر من وراء الابواب. ولكنني رأيت الرجل، رأيت قبضتي يديه اللتين رفعتا لضرب الباب، فتجمدتا في الهواء، بانتظار اللحظة الملائمة. كان شخصاً

هرماً يلبس اسمالاً عيناه حمراوان، وعلى محياه عنف رهيب.

وتوالت التقاسيم، وجلست انا هناك اشعر بضعفي وقلة حيلتي. لوهلة شعرت بأن عيني ابي ترمقانني، وتخيلت بأني اكتشف فيهما لوماً، فلربما عبر له وجهي عن فزعي وبان شيء ما في سلوكي. اصخت السمع لما يدور حولي. وفجأة يطرق مسامعي صمت القاعة العميق. الكمان والبيانو المرافق له يمزقان شر تمزيق هذا الصمت، والناس كالاموات، يجلسون في صفوفهم عائلات عائلات، بانتظار مقطع موسيقي ما، براحة نفسية تعقب اليأس. اتلفت الى الجانبين. امي تمسح بمنديلها دمعة تحدرت من طرف عينيها. بالرغم من ان عادتها الدائمة ان تنفعل وان تبدي تأثرها لسماع الموسيقى، فقد خيل لي هذه المرة بانها تبكي علي. انظر الى ملابسي، الى قميصي الابيض وبنطالي القصير المكوي بشكل جيد، وحذائي العالي الملمع جيدا، فاكرههم، اكره ارتباطهم الوثيق بي، وقربهم الظاهري، ورسميتهم الحقيرة والمتبجحة ارفع بصري نحو الابواب البنية، اللامعة، وهناك شخص ما لعله بانتظار اللحظة المناسبة، للوقع الملائم لدخوله. فزع الفوضى اللذيذ يوقف تنفسي للحظة فاجهد نفسي في الانفصال عن ذلك، ونقل اهتمامي الى اللحن الرائع وتناسي بقية الامور، ان اقبض على تلك اللحظات وهي تجوب الفضاء، لحظات ماضية بلا رجعة. ولكن لا يمكن الدخول بقوة الى دوائر النور تلك، كل شيء ابتعد عنها الى الخارج راجعا الى القاعة، الى الخطر الذي يكمن وراء الابواب. وتأخر الخطر في القدوم فالرجل يتأهب للدخول. انه يعود ويستظهر الاشياء التي يجب عليه ان يقولها، ويجهز صرخته المريرة امام الجمهور الذي يشارك دون ان يدري في الظلم الرهيب فليتوقف العزف! فليتوقف فورا، اطلب ان يكون هنالك عدل! ان تبدأ الحفلة كلها من جديد، ان تبدأ من البداية!.

بيد انه لم يرغب بقول هذه الامور على هذا النحو. اذ ينقصها شيء ما، كما ان شيئا ما فوت قصده بكل دقته، وبينما هو لا يزال يتردد من وراء الابواب، شارفت المعزوفة نهايتها، فاخذ قلبي ينبض بعنف، خشية ان يتمكن من الاندفاع فاتمنى ان تنتهي المعزوفة بسرعة، قبل ان ينفذ مآربه ثم بدأ مقطع اخر، ولكن يده المرفوعة لا

تزال متسمرة في الهواء، لا تهوي على اللوح الخشبي البني الذي امامه. عيناه اكثر حمرة من الدم كعيني قاتل، هول العمل الذي سيقدم عليه يشل جسده، انفاسه الثقيلة تحرك طيات السترة القذرة الملقاة على كتفيه وتهز صدره، والشعر الغزير الابيض بسبب الشيب او بسبب الغبار، يعلو ويهبط على صدره خلف القميص الممزق. كنت اعرف هذا الرجل جيدا بمجرد مشاهدتي لمكان اقامته الثابت في البلدة السفلى. كلما مررنا من هناك، استهوى فؤادي تحمل منظره، الا انني أعرف بأنه سيرتبط يوما ما بالحفلة الموسيقية في المعهد. هل سيكون بامكانه اثارة فضيحة كهذه؟ وها قد حدث هذا الامر.

كادت الضوضاء العظيمة ان تهدم البنيان علينا. وما ان خفتت النغمات الاخيرة الصادرة عن الكمان والبيانو، حتى وقف الجمهور واخذ يصفق. لقد كانت هذه النقلة الفجائية كأنها انكسار. كما وقف والداي بجانبي واخذا يصفقان بوجهين مشرقين.

انحنت عازفة البيانو ذات النظارات امام الجمهور، بينما وقف اوري بجانبها، حاملا كمانه وقوسه بيسراه، ونظر باتجاه الجمهور. وارتسمت شبه ابتسامة على محياه المتعب من مجهود التركيز والانفصال، وفرك عينيه بسبب النور. الذي بهره فجأة فبدا كمن استيقظ من نومه. ولا يعرف بعد اين هو وتبدر حركة ما من يده اليمنى الفارغة، كأنها تقول: مالي ولكل هؤلاء الناس؟

فتحت الابواب ولم يقف اي شخص. واصل الحضور التصفيق. وساعدت السيدة دونيا فايتسمان اوري عند نزوله من المسرح وقامت بمعانقته. تبسمت لي امي بارتياح شديد وامسك ابي بيدي وسار بي نحو الخارج. قالت امي بان كوريلي هو بلا شك من انجح الملحنين. وتجمع التلاميذ والعائلات والمعلمون جماعات جماعات في القاعة، وكانوا يتكلمون ويضحكون ويصافحون في مدخل القاعة قابلتنا معلمتي السيدة حنينا. ربتت بمودة على رأسي وسحبتني من والدي الى زاوية المدخل شعرت بلذة كبيرة للمس يديها انها منفعلة بعض الشيء، لم اعرف السبب. مالت بقامتها الي وهمست باذني: "ستواسيك الموسيقى دائما في كافة احزانك". لا ادري لماذا قالت لي ذلك وماذا جاش في نفسها. لعلها قالت هذه الكلمات لكل واحد من تلاميذها الذين تركوها. ولكن لحظة

الوداع التي افتقدتها في الدرس الاخير في بيتها، قد حانت بكل عنفوانها، واحاطتني برهبة الاحاسيس. شعرت بأن هذه هي اللحظة الاخيرة، وانني لن ارى ثانية هذه المرأة، الجليلة التي اهتزت مشاعرها الغالية علي جدا. كنت مضطرا ان ابكي، ولكنني لم اجد مكانا جيدا للقيام بذلك. اغمضت عيني واعتقدت بأنني بهذه الطريقة، سأؤخر مسيرة الامور التي كانت خارجي حتى يتسنى لي ان افتح عيني بلا ادنى خطر. وعندما فتحت عيني لم تكن معلمتي واقفة بعد بجانبي، جرني والداي الى المساء الذي في الخارج. مشينا مسافة كبيرة حتى محطة الباص التي سنسافر منها الى حينا فوق الجبل.

كان ذلك مساء صيفيا حارا ونسمات رقيقة هبت من جهة البحر ولاطفت وجوهنا. سرنا ببطء كأننا نتجول بمتعة، وساد الصمت بيننا نحن الثلاثة كأننا لم نزل نحمل بقايا الحفلة الموسيقية ويختلي بها كل واحد منا على انفراد. فرحت في نفسي لاننا لا نتجاذب اطراف الحديث، لان اللقاء مع المساء الذي في الخارج اضفى عليّ هدوءا فجائيا. شعرت بالامر بكل جوارحي.

كأن شخصا اخر بكى بكائي، من اجلي، وبقيت انا خاليا وطاهرا منه. نظرت اليهما فتخيلت في نفسي بأن ثلاثتنا قد خرجنا من وسط حلبة ما، او من حلم مغرٍ وخطير. كانت رأحتي براحة ابي ولم يكن هناك شيء اكثر امانا من ذلك في تلك اللحظة اتضح لي بانني في الحقيقة اشعر بالسعادة لان دروس العزف قد توقفت. الم اعرف بان هذه السعادة كانت ولعلها المرة الاولى في حياتي تنهيدة ارتياح تعقب التنازل، وتعقب قبول الحكم؟ كانت تلك سعادة بسبب الحرية التي جاءت بصورة عفوية، بدون اختيار. وعندها شعرت بالأمر بصورة مختلفة: شعرت بانني اعود واندمج مع الرجل والمرأة اللذين يسيران معي الى المحطة القريبة، لان مصيرنا ارتبط ثانية برباط جديد وقوي حتى ان مصاعب الفترة الاخيرة لن تتغلب عليه.

بعد شهور معدودة عدنا من حيفا الى مستوطنتنا. وعند خروجنا بعد ظهر ذلك السبت الخريفي من بيت عمّة ابي فريدة، بعد ايام عديدة، تذكرت ثانية رائحة الكلوفونيوم التي كانت دليلا على الشوق والامل. طلبت من والديّ بأن يجدّدا دروس

العزف ثانية، وحينئذ تغلغلت بداخلي تلك الرائحة. كان تأثير ذكراها في نفسي حسنا وغامضا. وحتى عند كتابة هذه السطور فانها تجعل تيارا من الشوق يجري في عروقي، مثل انتظار متحفز لما سيحدث ما بين لحظة واخرى،ومثل التفكير بالحبيب الذي تاه في مناطق نائية، وبالرغم من ذلك فانه لم يكن ابدا اكثر قرباً وحباً، مثل الامل في ثورة تجلب الخلاص والتي حتى لو لم تحدث ابداً، فانها تشع بالمغامرة والوعد الكبيرين.

بعد بضعة ايام هطلت امطار الوسمي. وقفت بجانب نافذة غرفتي استشف المطر الذي في الخارج. فتحت عيني بكل قواي، وحدقت بهما الى النور الخافت الذي في الخارج وبدأت بالعد من الواحد الى العشرين دون ان اغلقهما. ارتجفت يداي من التأثر، كأن امرا مصيريا يكمن بنجاح هذه المهمة. ومرة اخرى عند وصولي للرقم تسعة او عشرة، امتلأت عيناي بالدموع وكلّ بصري. وأصيب رأسي بالدوار وكأن هناك عجلات تدور بداخله، على ايقاع دقات قلبي. دخلت امي الى الغرفة ورأتني من الخلف.

"ماذا تفعل؟"

"لا شيء"

"الا تقوم بتحضير دروسك"

لم التفت نحوها. "انا افكر"، قلتُ.

"بماذا تفكر كثيرا الى هذا الحد؟" سألتني، ليس بدون محبة.

اقتربت من النافذة وتفحصت وجهي. "حاولت ان ارى. إذا ما كنت اذكر شيئاً من العزف، لاشيء. لقد ضاع كل شيء. فكرت في اللحظة الموسيقية لشوبرت، آخر معزوفة قمت بعزفها في حيفا. لا اذكر النوتة. لا اذكر كيف تقوم اليد اليسرى بعمل ذلك، اي اصبع لكل ايقاع. لا شيء. يجب ان ابدأ كل شيء من جديد". لم تجبني نظرت بوجهي بشيء من عدم الثقة، ومن الدهشة ايضا سالت الدموع على وجنتي وقلت لها:" انا متأكد انني عندما ابدأ بالعزف، يمكن ان يتوقف الارماش. انا اشعر بذلك".

"بطبيعة الحال سيتوقف ذلك بعد عدة سنين،" قالت امي.

"كيف يمكن ان نعرف؟"

"هذا ما قاله الطبيب آنذاك."

فجأة تذكرت الطبيب، وذكرى الجدال حول وقاحتي نحوه، وآلمني ذلك ثانية. "اذا كان الامر كذلك فلماذا توقفنا اذن عن دروس العزف."؟

بحثَتْ وتحرّتْ الامر فوجدت ان افضل معلم للعزف في المستوطنة هو المعلم "الفردي". في نفس المساء، لدى عودة والدي من عمله، قررا الامر نهائيا بأنه في اليوم التالي سأذهب مع امي الى المعلم الفردي للتسجيل عنده. تواصل هطول الامطار طوال الليلة وفي الغد ايضا، وعند عودتي من المدرسة غدا الجو صافيا، ونفذ صبري تماما. بعد الظهر تجدد هطول الامطار أما أمي التي طلبت أن نؤجل ذهابنا ليوم اكثر صحواً فقد لاحظت كآبتي. لبست المطر وزررت هي لي القلنسوة جيدا حول عنقي، ووضعت منديلا على رأسها وامسكت بالشمسية. على هذا النحو خرجنا الى المطر الغزير والى الوحل.

"لو عرف شخص ما الى اين نجري في هذا الفيضان، لحسب باننا قد اصبنا بالجنون،" قالت امي. ولكن لم يكن بصوتها تأنيب، بل نوع من الشقاوة، كأنها اصبحت مشاركة في عمل متهور. كنا الوحيدين تقريبا في الخارج ساعة هطول الامطار الغزيرة هذه. كان بيت المعلم الفردي في الطرف الغربي من المستوطنة وبيتنا في الطرف الشرقي منها، وقد قمنا باجتياز هذه الطريق من الشرق الى الغرب بمواجهة الرياح التي زادت من صعوبة سيرنا، وقذفت بشدة رذاذ المطر على وجهينا. امسكنا يداً بيد، نقاوم بعزيمتنا المشتركة قوى الطبيعة، تسربت المياه الى ملابسنا، فضحكت امي وقالت بصوت عال، لكي اسمع قولها عبر ستار الرياح والمطر وغطاء الرأس: "نحن مجانين، اقسم بالله باننا مجانين!".

وصلنا الى البيت ذي الطابقين الذي في نهاية الشارع، وفي الشقة السفلى، التي كانت فيها مدرسة العزف التابعة للمعلم الفردي، لم نشاهد احدا. دخلنا الى الكُنّة التي تفضي الى المدخل ووجدنا الباب مغلقا وقد وضعت عليه بطاقة: "لا يوجد دروس اليوم

بسبب جنازة العمة. الفردي". تبسمت امي:"لا حظ لنا". لن اعرف اذا قصدت سيرنا الذي كان سدى تحت المطر الغزير، او انها رأت في جنازة العمة، في يوم قدومنا للتسجيل الدروس بالذات نذير شؤم. وقفنا لفترة وجيزة في الكنة، حيث وجدنا فيها على الاقل ملاذاً من المطر والرياح، وحاولت ان اختلس النظر عبر القباجور المغلق، الى داخل الغرفة المظلمة، لرؤية ما بداخلها، ولكنني لم ار شيئا وبينما نحن واقفان هناك بانتظار توقف المطر، سمعنا اصواتا غريبة من مدخل غرفة الدرج الذي بجانب الكنة. تأوهات ولكمات وسقوط. اقتربنا من المدخل. في غرفة الدرج المظلمة تعثرت اقدامنا بحقائب الات كمان وملفات للنوتة كانت مكومة بفوضى، وباشخاص يتعاركون ويتشابكون ويغطي بعضهم بعضا لدرجة انه لا يمكن الفصل بينهم. اشعلت امي النور فرأينا الاولاد الثلاثة المتعاركين الذين توقفوا عن العراك فجأة ولبرهة ظلوا مطروحين ارضا دون حراك، كمخلوق كثير الاعضاء توقف فجأة عن التنفس. رأينا ثلاثة اولاد يلبسون المطرات الزرقاء وكانوا مطروحين الواحد فوق الاخر. أحنْت امي عليهم وسحبت يد العلوي من بينهم فهب واقفا، كما وقف ايضا صاحبه الذي كان تحته واخذ الاثنان يلهثان بصعوبة، خبطا على ممطرتيهما لينفضا عنهما الغبار. وكان الثالث ملقى على الارض ورأسه مدفونا بين ركبتيه وجسده يرتجف من الخوف او من الالم. حاولت امي رفعه، لكنه رفض بعناد توسلاتها، فهز كتفيه، وحمى مؤخرة رأسه بيديه وظل يرتجف. مالت أمي اليه وحاولت كشف وجهه. بقيت تشجعه لوقت طويل حتى وافق على الوقوف. كان ولداً قصير القامة ونحيلاً جداً، واصغر سناً من الاثنين الاخرين، اللذين وقفا مكانهما غاضبين ولاهثين، كأنهما كانا بانتظار متابعة تنفيذ العقاب الذي لم يكتمل.

"من هم اهلكم؟".

انتهرت امي الولدين الكبيرين،" قولا لي من هم اهلكم لاذهب اليهم واتحدث معهم!" وسخر احد الاثنين، وهو فاحم الشعر وذو عينين ماكرتين، بوقاحة ثم صمت. اما صاحبه، وهو ولد سمين متورد الوجنتين فقال: "ليحذر في المستقبل، بأن لا يبالغ في

تقدير نفسه."

نظرت امي بقلق الى الولد النحيل وراقبت جسده لترى اذا ما كان مصابا.

"لقد كسرا اصابعي" قال الولد بغضب واستعطاف شديدين: "اصابعي، لقد كسرا اصابعي لكي لا اتمكن من العزف مرة اخرى!" ونظر ثانية بقلق بالغ الى كفتي يديه، اللتين لم يظهر بهما اي كسر. "لقد ارادا كسر اصابعي"، كرر قائلا وعرض يديه امام امي، فقامت امي بفحصهما بهلع ما ولكنها لم تعثر على اي اصابة. فأضاف الولد قائلاً:

"انا لا استطيع الان ان اعزف مرة اخرى، ولا ادري ما الذي سيقوله المعلم الفردي عن هذا الامر".

وقف الاثنان الآخران في ركنهما مهانين بعض الشيء. وخطا الولد الاسمر ذو العينين الماكرتين خطوة تجريبية الى مدخل غرفة الدرج، وصاحبه، السمين ذو الوجنتين الورديتين عكش بعصبية اطراف ممطره ولحظ ببصره ليرى كيف ستنتهي محاولة صاحبة.

قال الاسمر: "انه يستفزنا دائما".

نظرت امي الى الولد النحيل والشاحب وقالت لهما: "اخجلا من نفسيكما، انتما اثنان كما انكما اكبر واقوى منه، ومع ذلك تنقضان عليه بهذه الصورة في الظلام".

جمعوا حقائب الات الكمان وملفات النوتة وخرجنا جميعا الى الشرفة لانتظار انتهاء غضب السماء.

"لم يصب اصابعك اي مكروه، يورام، وكفاك هراء،" قال الاسمر "دعني ارى."

مد يورام اصابعه له واظهر على سيمائه مظاهر الم مبرح. كانت عيناه فاتحتي اللون جدا، اكثر من المعتاد، وشعره اشقر وقصيرا. تفحص الاسمر اصابعه واختتم قائلا:" لم تصب باذى، انك تخادع عبثا".

"كان ذلك مجرد دعابة،" قال السمين وابدى ميلا للظرافه اتجاه امي، "اننا دائما نفعل له ذلك، ولم يصبه اي سوء ابدا".

"وهل يسمح المعلم الفردي بذلك"؟ سألت امي.

ضحك الاثنان بارتباك. وقف يورام امام الدرابزين، واحتضن حقيبة كمانه وملف النوتة، وضع عليهما ذقنه ونظر مفكرا الى المطر الذي لم يتوقف. "عندما يعلم المعلم الفردي بهذا الامر"، قال يورام وهو غارق في تفكيره، "سيقوم بطردهما من دروسه مثل كلبين". فضحكا ثانية. وتعب الاثنان على ما يبدو من انتظار توقف هطول المطر، فاخفى كل منهما حقيبة آلة الكمان وملف النوتة تحت المطر، ثم اعتمرا القلنسوتين وخرجا الى الشارع. وفعل يورام مثلهما وركض وراءهما كي يلحق بهما. ركض بكامل طاقاته تحت المطر حتى لحق بهما في منحدر الشارع، وهناك انضم اليهما واختفى ثلاثتهم في احدى المنعطفات.

توقف هطول المطر في اليوم التالي، وخرجنا انا وامي ثانية بعد الظهيرة الى مدرسة العزف التابعة للمعلم الفردي. بدخولنا الى غرفته، وقف المعلم ليعرض مقطعا موسيقيا صعبا امام الطالب الاسمر ذي العينين الماكرتين الذي قابلناه البارحة وبانتهائه من ذلك، امسك الطالب كمانه وعزف بعده شعر المعلم الفردي بدخولنا فاشار لنا بيده بالجلوس والانتظار. كان الطالب على ما يبدو احد الطلاب الجدد ولكنه اجاد العزف. نظرت انا وامي الى المعلم. كان رجلا طويل القامة جدا، وشعره اصهب يعلوه الشيب، كما انه مسنون الوجه وانفه ازلف. كان رجلا بشعا جدا بنظري، وحسب ملامح وجه امي، شعرت بأنه لم ينل استحسانها هي ايضا. وبانتهاء عزف الفتى للمقطوعة الموسيقية توجه نحو معلمه، فتلاقت عيناه بعيوننا، وتبسم لنا بذكاء رادع، فلعله خشي بان نشي على صنيعه البارحة، لكن المعلم الفردي حدد له وظيفة بيتية وانتهى من الدرس بسرعة.

حاولت تذكر معلمتي السيدة حانينا وبيتها في حيفا. كانت الذكريات من قبل سنوات قليلة غامضة كحلم بعيد. تذكرت فقط اللون البني الغامق؛ لون جديلتها الملفوفة على مؤخرة رأسها ولون اثاث البيت العتيق واللامع، على خلفية الحيطان البيضاء الناصعة، وتذكرت شيئاً اخر: رعشة منخريها الشهوانية رعشة من ابسط ما يكون، ويبدو انني الوحيد الذي شعر بها، كان المنخران يتسعان للحظة واثناء ذلك كانت

عيناها تضيقان قليلا بشعور من اللذة السامية. وتذكرت ايضا ما قالته لي عند فراقنا في حفلة الانهاء الموسيقية وخيل لي بأنني سافهم يوما ما قصدته في اقوالها. كانت غرفة تعليم المعلم الفردي صغيرة جدا، كانت هناك مشربيتان خشبيتان متداعيتان تصطفقان في الخارج مع الريح، وجلسنا على كنبة غريبة، مغطاة بنوع من السجاد الاكثر غرابة، وكانت حولنا كراس قديمة جمعت من اماكن متفرقة وكانت بعض هذه الكراسي قابلة للطي. اخبرت امي المعلم الفردي عن نتائجي في العزف قبل سنين، ولكنه لم يظهر تأثره من ذلك بشكل خاص. عن قرب كان بالامكان رؤية الكثير من النمش القبيح على وجهه، كما كانت ارنبة انفه المنبسطة مليئة بالبثور. وكانت عيناه الصغيرتان المائيتان بلون غير محدد وجاء بكمان ملائم لي واعطانيه بيدي. وضع كراسة النوتة على العمود الذي امامي، فتح احدى الصفحات وطلب مني العزف بحسب ما تسعفني به الذاكرة.

نظرت الى النوتة والى الكمان الذي بيدي ولم اذكر شيئا. لم يبد في داخلي فجأة اثر من الماضي غير البعيد في ساعة الاختبار هذه كل شيء ضاع مني، كأن الشقاء السابق كان سدى. وقفت صامتاً ونظرت على التوالي الى وجه المعلم الفردي، الذي عبر عن الاستهزاء والتشكك، ثم الى الكمان الذي بيدي. طلب مني ان اصدر نغمة ما على الكمان. امررت القوس على احد الاوتار لكن الصوت المزعج الذي انبعث من الصندوق كان قبيحاً جداً ومنفراً، حتى انني افلتت القوس حالا، واطرقت .

"ماذا عزفت انذاك؟" سأل المعلم الفردي. "اية معزوفات، اي تمارين؟"

حاولت الكلام لكنني لم افلح في ذلك. حاولت جاهدًا ان اتذكر اسم احدى المعزوفات الموسيقية، ولكن بدون جدوى سكتت طويلاً وقال المعلم الفردي لامي: الا تذكران اي شيء؟" تفرست فيها منتظراً تخليصها لي. فقالت امي: "ومع ذلك، فانه قام بعزف "اللحظة الموسيقية" لشوبرت في حفلة نهاية السنة في المعهد الموسيقي في حيفا، والسيدة دونيا فايتسمان قالت انه..." وقاطعها المعلم الفردي قائلا "يجب ان نبدأ كل شيء من البداية، انه لا يعرف شيئا". عادت نظرة عدم الثقة الى وجهه. ودخلت طالبة الى الغرفة فسيطر عليّ الخجل بسبب عجزي ونسياني.

"ولماذا تغمز بعينيك طيلة الوقت؟" سأل المعلم الفردي. "هل هذا جميل؟ كيف ستصبح عازفا للكمان؟ كيف ستعزف في حفلة موسيقية، وانت تحرك عينيك بهذا الشكل طيلة الوقت؟"

ضحكت الطالبة بصمت وغطت وجهها بيدها. وكان على بنصرها خاتم ذهبي على شكل قلب.

"لا تأبه لذلك،" قالت لي امي بعد خروجنا." انه معلم ممتاز، لا تأبه لذلك".

وفعلا، كان المعلم الفردي معلما جيداً ورجلاً لطيفاً جداً. خلال فترة قصيرة الفت وجهه بل ورأيت به بعض الجمال، كان هذا الجمع ما بين جسمه العظيم الجثة وما بين طريقة عزفه. غريبا بنظري عندما كان يقف امام طالب ليستعرض طريقة عزف مقطع ما، كان يتصرف وكأنه رجل اصابه وهن مفاجيء. كان يشهق ويزفر ويلين عند عزفه، حتى ان المقاطع الخافتة تكاد لا تسمع من كمانه، وكان وجهه كوجه مريض بمرض عضال عند قيام راحة يده اليسرى بحركات التناغم الايقاعي- (الفيبراتو)، كان يغمض عينيه من خلال تعابير الم شديد جدا، ويوقف تنفسه وكأنه سينهار فورا ويهوي على الارض ميتا. في اللحظة الاخيرة كان يستنشق الهواء ملء رئتيه وتبدأ روحه بالانين والتأوه ثانية مع كل تمرير قوس. لم احب هذا الانفعال المبالغ به اثناء عزف المعلم الفردي والذي كان يظهر ايضا في التمارين المملة جدا وفي المواضع التي لا تصلح لذلك ورويداً رويداً بدأت اصبح قلقا بشأن اظهار الاحاسيس اثناء العزف واظهار الاحاسيس بشكل عام عندما سمعت عزف يورام للمرة الاولى، تعجبت جدا، بالرغم من صغر سنه فقد اصبح افضل طالب من طلاب المعلم الفردي. ولكن عزفه ايضا لم يرق لي: كان شبيهاً جداً بعزف المعلم بل والادهى من ذلك: كان عزفه نسخة طبق الاصل من عزف المعلم الفردي، والامر المدهش ان عزف المعلم نفسه بدا نسخة مشوهة عنه. لقد ادخل يورام تحسينات على عزف المعلم من ناحية القدرة الفنية في التعامل بالالة، وكذلك من ناحية الانفعال الشديد. عندما كان يعزف مقطوعات صعبة، ونغمات شاقة وانتقالات ايقاعية سريعة، كان مثيرا للدهشة بخفة ونعومة عزفه، تماما الولد المعجزة

الحقيقي، لكن عندما قدر له بأن يعزف مقطعا بطيئا ويحتاج الى نفس طويل، كان يحاكي معلمه بانفعالاته بل ويتفوق عليه.

كان هنالك شيء منفر، وغير خجول في ذلك التناغم الايقاعي (الفيبراتو) الباكي الصادر عن يورام، حينما تحن القوس حنينا تراجيديا كانت محاكاة عمياء، اشبه بتعرٍ علني مخطط وجذاب، وكأن من الممكن ان يثير تساؤلا حول ما اذا كان في جسد هذا الولد الصغير، النحيل والشاحب، يستتر مهرج عجوز، لا يردعه اي وازع في استخدام اي حيلة رخيصة ليأسر خيال سامعيه ويسحرهم. ومن جهة اخرى اعجبت بالشجاعة التي يتطلبها ذلك. كان ذلك كمثل الوقوف منتصبا لدرجة التحرش والبذاءة، امام العالم اجمع واحكامه. كما ان مرآه اثناء عزفه كان يشبه الى حد ما القرد المرّوض، مذهل، غير طبيعي، رخيص، مشبوه الا انه ايضا بطولي في عدائه وعدم كبح جماح نفسه.

اما انا فلم انجح ابدا بتعلم فن التناغم الايقاعي- الفيبراتو. فعلى الرغم من جميع جهودي وجهود المعلم الفردي، كان معصمي يتحجر في اللحظة الحاسمة. حاول المعلم ان يرخي معصمي الايسر، ويفحص طريقة امساك الالة، بيد ان كفي لم تتمكن من التحرك كما يجب لاصدار التناغم الايقاعي - الفيبراتو. لقد ادركت ان العزف بدون الفيبراتو لا يعد عزفا، الا انني شعرت انه من المستحسن القيام به بصورة اكثر تحفظا، واكثر تكتما.

ولكن يدي تسمرت ولم تستجب لارادتي، من الممكن بأنها لم تكن مؤهلة لذلك. واساني المعلم الفردي وقال لي بأن ذلك سيأتي مع مرور الوقت، ولكن ذلك لم يحدث حتى بعد مرور سنة وسنتين وثلاث. هل النفور من اظهار الاحاسيس هو الذي سمّر معصم يدي؟

ومع ذلك، فعندما اعدت عزف دروس العزف وحدي في البيت، حاولت جاهدا ان اعزف "الفيبراتو"، ولكنني لم انجح بذلك. من الممكن انه منذ ذلك الحين ادركت بأنني لن اصبح عازفا للكمان ولا حتى افضل طلاب المعلم الفردي. وفهمت بسرعة انه

مع مرور السنين، سيأتي طلاب جدد وسيخرج القدامى اما لانهم توقفوا عن العزف او ليواصلوا الدراسة لدى معلم اخر، اما انا فسأبقى دائما في مكان ما في المرتبة الثانية، وقد اعتبرت ان العقبة التي تعترض طريقي هي عدم استطاعتي عزف "الفيبرات و"، كان من السهل علي ان ابرر سبب فشلي بهذا الخلل الفني. وبالرغم من ذلك، بعد مرور بضع سنوات تم اختياري لاعزف على الكمان الثاني مع يورام، في الكونشرتو الثنائي الباخ، وذلك في عرض نهاية السنة.

لم يكن بيت يورام بعيدا عن بيتي، لقد كان في نفس المقطع من الشارع، ولكني لم اعرف يورام حتى التقيت به للمرة الاولى في ذلك اليوم الماطر، عندما جئت مع امي للتسجيل لدروس العزف، حيث كان الولدان يتعاركان معه في بيت الدرج، وقد صاح: "ارادا كسر اصابعي، لكي لا استطيع العزف ثانية". لقد تعلم في مدرسة اخرى وكان ايضا يصغرني بعدة سنين. اردنا ان نقوم وحدنا ببعض التمارين تحضيرا للكونشرتو في بيته، بناء على طلبه. كانوا يسكنون في بيت ذي حجرة واحدة في الطابق الارضي داخل بناية ذات طبقتين، وكان يبعد قليلا عن الشارع. كما كان امامه شجيرات بريه متشابكة، وعلى جانب الشارع غرس صف من اشجار الكازورينا الباسقة التي تخفي مدخل البيت.

عندما اريد الدخول هناك ثانية بمخيلتي، اقف عند حافة الشارع، بجانب الاشجار الباسقة الهرمة فأرى البيت ذا الطابقين خلف الشجيرات المتشابكة ويسمّرني شيء ما في مكاني. ان منظر الشجيرات المتشابكة والبيت الذي يقع خلفه يثير بي احساسا بالالم، وبالقلق العميق لا اعرف سببه. واشعر بما يشبه الاختناق، وكلما اتنفس عميقا يبدو لي ان الهواء لا يكفي لملء ما تحتاجه رئتي.

على مدى اسبوع كامل الح علي هذا القلق، الذي لا ادري سببه فمنعني من مواصلة كتابة هذه القصة. تعكر صفوي وانهارت قدرتي على التركيز. جلست ساعات طوال امام آلة الطباعة واصابعي، كافكاري، كانت متحجرة. فقررت في نفسي الا اذكر هذه الفقرة وان انتقل الى ما بعدها، ولكن الاحساس بالضيق لم يمكني من ذلك. لا

مناص اذن من ان اقف وجها لوجه ازاء ذكرى الصورة وان احاول معرفة سبب القلق، لكي اتخلص منه. ثلاث مرات سيظهر في هذه القصة منظر اشجار الكازورينا الهرمة، ووراءها الشجيرات المتشابكة التي تخفي البيت ذا الطابقين: قدومي للبروفات مع يورام، العراك مع ايتان؛ ومشهد الشارع مع عائلة يورام، الذي طبع في ذاكرتي كأنه مشهد من عرض لمسرح شعبي من الواضح بان هذه المشاهد هي مبعث موجات الالم. وعند محاولتي لمعرفة اي مشهد هذا، اصطدم المرة تلو الاخرى بنفس الجدار السميك، فيصيبني ثانية ضيق التنفس الذي يشلني.

تذكرت حالات غير قليلة هاجمني فيها الم شبيه بهذا. في ظروف مختلفة وغريبة كان ذلك الشعور يصيبني فجأة فيشلني، وعرفت دائما بان سببه يكمن في مسألة ما لم اوليها اهتماما عندما حدثت معي فعليا او فكريا. تركتها دون حل، وها هي تأتي لتطالب باصلاح امرها. ادركت في هذه الحالات بانه فقط اذا ما تركزت واعملت فكري جاهدا بكل ما املك من قدرة واستعرض امام ناظري تلك اللحظة التي اصابني بها الالم، الثانية التي ولد بها، اسبابه المباشرة، وعلاقاته المختلفة، عندها سأصل الى النقطة المهمة، وسأستطيع حل المعضلة، لاكرر اللحظة بمكوناتها الحقيقية، التي هي اصغر بكثير مما تبدو عليه بعد مرور الوقت. لم انجح دائما بذلك، ولكن عندما نجحت فعلا، كأن العجلة دارت الى الخلف، فوقفت انا امام تلك اللحظة وسويت حسابي معها. ومن جراء ذلك شعرت براحة نفسية رائعة، كمثل شيء ضائع ثمين ومنسي اعيد الى مكانه، وكعقد مصالحة بعد نزاع طويل وقاس. ولكنني الان لا استطيع ان اجد تلك اللحظة. ولعلني لن اجدها ابدا. لا اعرف مكان انطوائها، في اي بعد، واي رباط يربطها بالامر الذي اردت ان ارويه فامتنع عني. يده الطويلة تلمس كتفي، تطالب برد اعتباره ولا تسمح لي بالتحرك من مكاني الذي اقف به، تحت ظل الاشجار الهرمة، امام الشجيرات المتشابكة التي تخفي الطابق الاول من البيت.

الوقت متأخر جدا، وبيتي مغلق ومقفل، وعلى الحاكي وضعت اسطوانة، لكي اتغلب الى حد ما على ضجيج مكيف الهواء. الحرارة في الخارج شديدة والرطوبة

مرتفعة جدا. هنالك شيء من العناد في هدير المكيف، فاثناء الراحة النفسية النسبية يزيد من الارتياح، كأنه يغني للصمت تهليلة رتيبة. اما في اوقات الحزن والالم فان صوته يملأ الفراغ بغضب شديد لا يمكن تحمله، كأنه حيوان بريّ يسخر بتآوهاته من آلامك. الم الاشباح هذا ظهر امامي، احيانا، بالذات من الاجسام الساكنة، التي لم تنقذ بعد من لمس اليد التي امسكت بها في لحظة من اللحظات. وفي هذه اللحظة الورقة التي ترتفع سطرا بعد سطر على عجلة آلة الطباعة.

لكن بعد مرور اسبوع كامل شعرت ببعض الارتياح فأعبر بمخيلتي البوابة المفضية الى طريق الشجيرات المهملة، هذه الدغيلة التي اخفت الطابق الاول من البيت عن الشارع. كما ان احجار التبليط مهشمة وغير متواصلة. قرعت باب بيتهم. ففتحت لي ام يورام.

كانت نحيلة وشاحبة مثله. كانت حركاتها اكثر سرعة بعض الشيء مما يجب لم يكن يورام في البيت، لدهشتي، بالرغم من ان الساعة كانت هي الساعة التي اتفقنا عليها. قالت لي امه بانه سيعود بعد قليل وطلبت مني بان انتظره، بالرغم من ان سلوكه غير مهذب، وأشارت الى المكان الذي استطيع ان اضع فيه الكمان والنوتة الموسيقية. ثم قامت بالتحقيق معي حول والدي وعائلتي، ويبدو ان فكرها قد ارتاح، لانها تركتني وحدي في الغرفة وخرجت. لا اذكر منظر الغرفة، والاثاث الذي بها، ولكنني اذكر جيدا بانها كانت مظلمة، بالرغم من ان الوقت كان بداية ما بعد الظهر بقليل؛ ربما لان الشجيرات المتشابكة تحجب بعض ضوء النهار. بعد وقت قصير، دخلت ام يورام ثانية وشاهدت حينئذ بأنها تكبر امي بكثير، بالرغم من ان يورام يصغرني بالسن. كان شعرها شائبا ووجهها متغضنا وظهرها منحنيا بعض الشيء لم يكن هناك اي تشابه في الوجه ما بينها وبين ابنها. لقد دخلت اذن وجلست على الكرسي الذي بجانبي وتفرست فيّ.

"بماذا تفكر؟" بدأت ام يورام بالحديث واضافت،" انه لن يعيده في الوقت المحدد عن قصد. انه يعرف ان لديه بروفة الان، ولا مؤاخذة."

لم اشعر بالارتياح.

"لقد وجدا متسعا من الوقت للذهاب الى المستوطنة، للحوانيت. هل تعتقد ان شراء كل هذه الاجهزة مفيد له، وبالذات قبل الحفلة الموسيقية التي ستقام في نهاية العام؟ كلا، ذلك غير مفيد، اذا ولا مؤاخذة ماذا يريد من الولد؟ قل لي ماذا يريد منه؟ ليتركه يعزف بهدوء. اما هو - فلا. المهم بأن يكون لديه اجهزة وعدة انواع من البنادق والمسدسات والعلب المعقدة التركيب، المهم بان يشغل تفكيره عن العزف. هل تعتقد بانهم فعلوا ذلك مع ياشا حفتص؟ هل فعلوا ذلك مع يهودي منوحين؟ لا ابدا! وهو يرسله ليقوم بمزاولة الرياضة ضمن شبيبة المكابي. ما حاجته لذلك؟ هل تعتقد ان ذلك مجد ليديه؟ للعزف على الكمان لا بد من انعم يدين في العالم، ولا مؤاخذة. ولكنه يخاف بان يكبر ويصبح مثل فتاة. قل لي من فضلك، اي ترهات هذه؟ هل العزف على الكمان يجعل المرء فتاة؟ ان افضل عازفي الكمان لم يتغيروا، اليس كذلك؟ لعلهم يتغيرون من البيانو، ولكن ليس من الكمان. هل اصبح ياشا حفتص ويهودي منوحين فتاتين؟"

انفجرت بضحك مليء بالسخرية والانتصار." لعلهم يأتون بعد قليل، ما رأيك؟".

لم تنتظر ردي."اذا رغبت، يمكنك ان تنتظر يورام في الخارج، حين يأت به،" قالت العجوز.

لا اعرف لماذا قالت ذلك وهل اكتشفت شيئا ما بسلوكي:"يجب التمرن الساعات تلو الساعات، وان نكرس كل حياتنا لذلك، ولا مؤاخذة، والا فان ذلك لا يساوي شيئا. فالامر الذي لا نكرس له كل الحياة، لا يستحق ان نكرس له حتى ولو لحظة واحدة، اليس كذلك؟. وبعد ذلك، فان ذلك متأخر جدا. كل شيء يصبح جامدا، منحنيا وفظا كالحديد. كما ان المعلم الفردي لا يفهم ذلك بنفسه. رباه!"ضربت العجوز كفا بكف.

"رباه! الناس لا يفهمون البتة. الناس يشاهدون ويسكتون. ان الامر لا يهم احدا! انهم يرون ما يحدث امامهم فيحولون انظارهم الى الجهة الاخرى، كي لا يروا.

يجب قذف ذلك كالنار على اعينهم، حتى يروا ويفهموا. اذا لم يفتحوا القلب يجب فتحه بالقوة، يجب الاقتحام لداخله مثل السارقين، اليس كذلك؟ تستطيع الخروج للانتظار، "قالت، وقفت، سارت نحو الباب وفتحته امامي.

جلست على الدرجة التي امام المدخل، وبعد مضي وقت طويل جاء يورام وابوه ولكنهما كانا صفري اليدين. قمت متوجها نحوهما. كان والد يورام هو ايضا قصيرا ونحيلا، وتظلل وجهه طاقية ذات حاجبة، وعندما نظر الي، لاحظت ان عينيه ايضا كعيني ابنه، فاترتين وفاتحتين جدا. كانت عينا والد يورام مفعمتين بالاعتزاز. دخلنا الى الغرفة وذهب الرجل الى مكان اخر في البيت. لم يقل لي يورام شيئا. فتح حقيبة كمانه، مرر القوس على الكولوفونيوم وتمتم شيئا ما بينه وبين نفسه. قمنا بضبط الكمانين للتنسيق بيننا وبدأنا بعزف ثنائي باخ. بعد بضع دقائق وقف والد يورام فجأة امام الباب وصاح بنا:

"هذا نشاز! هذا فظيع ومريع جداً!" حدجني بعينيه المرتابتين، كانه يتهمني واغلق علينا الباب بصفقة.

توقف يورام للحظة عن العزف، وقف هنيهة ليعيد تركيزه وطلب بان نبدأ ثانية، لانه حسب رأيه، ان لحظة ابتدائي بالعزف على الكمان الثاني لم تكن دقيقة تماما بدأنا ثانية. وبما اننا تدربنا مرات عديدة مع المعلم الفردي، فلم نتوقف عن العزف ثانية لادخال التحسينات عليه. وعند وصولنا للمقطع الثاني، الحزين، البطيء، حيث يتجاوب الكمان الثاني بصورة معاكسة للاول، وكأنه رجع صداه، عزف يورام كعادته التناغم الايقاعي- الفيبراتو، بكل ما يملك من احساس، وانا كنهجي دائما، شعرت بخجل شديد نتيجة هذا الاكتشاف، ومن الممكن انه دون ان اقصد ذلك. ضاعفت من نغمة عزفي لتصبح جادة وهادفة جدا، كي اعبر عن امتعاضي ونفوري من هذه المشاركة الحسية- وعندها انطلقت فجأة صرخة مهولة ومتواصلة من خلف باب الغرفة. وبعدها انطلقت صرخة اخرى، وبعد ذلك ساد الصمت. توقف يورام عن العزف، واسرع حاملا كمانه وقوسه نحو الباب، فتحه وخرج الى الممر الصغير، ليرى ما حدث لامه

ليجعلها تصرخ هكذا. وقفت لحظات طوال في الغرفة الخالية وتغلب علي الخوف. سمعت بابا يفتح ويغلق واصوات مكتومة تصدر من مكان مغلق لم استطع فهمها. كانت صرخة ام يورام مهولة، حتى ان صداها لا يزال يتردد في اذني، كصرخة حيوان جريح. دخل والد يورام الى الغرفة والهدوء والفخر يعلو وجنتيه كما كان سابقا. قال لي: " اذهب الان الى البيت وتعال مرة اخرى، لا يوجد ليورام الان متسع من الوقت لذلك."

انتظر حتى انتهيت من وضع كماني في الحقيبة ورافقني حتى الباب. وقبل خروجي من المر الصغير، سمعتها تصرخ ثانية، وقد سمعت ما تصرخ به هذه المرة: "قاتل! قاتل!" واغلق الرجل الباب خلفي.

لدى عودتي للبيت خجلت ان اروي لوالدي ما شهدته وسمعته في بيت يورام. كنت كبيرا بما يكفي لان احافظ على اسراري لنفسي. ولكن اذكر باني نظرت اليهما عن بعد.

شاهدتهما غارقين في مشاغلهما فحذرتهما داخل سريرتي تحذيرا عنيفا. واستحلفتهما بصمت بان ينفذا رغبتي، ولا يحيدا عنها. ولكنهما لم يولياني اهتماما. كان من السهل علي ان انظر اليهما هكذا، ان اراقب كل حركة من حركاتهما. ومن خلال ذلك بانت لي حدود سلطتي عليهما. اصابني هلع شديد من المجهول، ومن الازدواجية في مفاهيم الاشياء، ومن المفاجأة التي ستأتي مع كل لحظة. سرت الى غرفتي ونظرت حالما من خلال النافذة. بدأ النور بالمغيب. لسبب ما دارت في خلدي في تلك اللحظة، ذكرى جدة والدي العجوز، التي ماتت منذ زمن. كيف كانت تجلس على متكأها الثابت في زاوية الغرفة، وامور الناس الذين حولها بعيدة عنها جدا. حسب شهادة ابنها، عم والدي، فانها جعلت جل تفكيرها في مقدم المسيح المنتظر. لا نعرف اذا ما كان قد خمّن افكارها بصورة صحيحة، واذا ما كانت قد كشفت له شيئا ما بنفسها. ولكنها لم تكن آنذاك تنتمي الى المكان الذي شاهدناها به، وكأنها كانت سرابا. ظننت ان لمسة الحنان قد مستها آنذاك واهلتها للرحلة الرائعة التي ستمضي بها. لاول مرة في حياتي، على ما اعتقد، تراءى لي الموت في تلك اللحظة في غرفتي، امام الغسق

الذي في الخارج، وكأنه صورة ذلك الطائر الناعم المضرج بدمائه، في اللوحة القريبة من مكان جلوس العجوز. تذكرت الصورة فاتضحت لي العلاقة التي بينها وبين الشخصية التي على المتكأ. كان ذلك مثل معاهدة غامضة، مطهرة ومنقذة. حتى ذلك الحين تراءى لي الموت فقط من خلال رعب الكارثة التي ستسلبني الرجل والمرأة اللذين احبهما، كما سلبتني جدي. احيانا كنت استيقظ ليلا، مرتعبا من مشهد طغى علي ثم نسيته فجأة، كنت اصيخ بسمعي لسماع اصوات تنفسهما من غرفتهما، هلعا من ان ابقى فجأة بدونهما، اثناء نومهما. ولكن في ذلك المساء، بعد ايابي من بيت يورام، اذهلني بعنف ادراك انه ليس فقط انهما لا يعرفان كل شيء عني، وان اسراري غير مكشوفة لهما، وانما انا ايضا لا اعرف اي شيء عنهما، ومهما حاولت ان اراقبهما، واستحلفهما، واحذرهما وأهددهما في سريرتي، فلن استطيع اعادة الامور الى سابق عهدها، حينما كنت انا كل آمالهما، ومحور حياتهما. منذ الان ستمضي اسرارهما معهما الى كل مكان كالظلال، بعيدا عن سيطرتي. كان في ذلك بعض طعم الانكسار واسى الفراق، وفيه ايضا بعض الانطباع المثير للامور التي ستحدث لي وحدي، جلست هكذا فترة طويلة في غرفتي التي اظلمت، وعيناي معلقتان في النافذة التي امامي.

وفجأة دخلت امي الى الغرفة.

"لماذا تجلس في الظلام ولا تفعل شيئا؟"

ادرت وجهي نحوها بفزع، وكأنني ضُبطت متلبسا بمنكر ما، ولم اعرف كيف اجيبها. اضاءت النور في الغرفة وتفحصت وجهي بقلق ولوم. واعتراني الغضب بسبب الاهانة، وبسبب الرغبة في المحاسبة. وجهت تفكيري ليرى فيها امرأة معروفة تماما ولكنها غريبة جدا.

"ارغب بذلك،" قلت.

"لم اسمع عن انسان يجلس في الظلام وينظر الى الخارج ولا يفعل شيئا،" قالت امي:" هكذا تبدأ اسوأ الاشياء. البطالة هي مصدر كل سوء. هذه بداية الاضمحلال."

"أود ان اضمحل قليلا"، قلت.

بعد الاهانة والغضب الأولي، تلاشت المرارة التي بداخلي وادركت بأن الخطوة الصحيحة ستكون من الان فصاعدا هي فن الحياة معا، وعاودني الاحساس بانني لا اكن لها اي ضغينة. وفعلا، شعرت بضرورة مفاجئة بأن اقوم بعمل ما، لم اعرف ما هو. وقفت هي بالغرفة واستغربت مني. لعلها هي ايضا ادركت فجأة ان القواعد السابقة لم تعد تصلح الان فاضحت مرتبكة وعاجزة؟

"انك لا تتدرب بشكل كاف في البيت،" قالت امي." فالحفلة الموسيقية بعد اسبوع. وستظهر انت مع يورام. ان ذلك ملزم ، اليس كذلك؟. هل تريد ان يشعر الجميع بالفرق في العزف بينكما؟"

"سيكون ذلك على ما يرام، لا تهتمي. "

"اذا لم اهتم انا، لن يهتم احد. ولن يكون ذلك على ما يرام، لانك غير مهتم اطلاقا. انا لا ادري بماذا تفكر".

هل فعلا ظهر علي آنذاك بأن اهتمامي بالعزف قد قل؟ تلك اللحظات التي عكرت هي صفوها بدخولها الى غرفتي ستحدث لي الان اكثر من اي شيء اخر. ان اكون مصغيا الى افكاري التي يحركها شيء جديد ما، وان امتحن ذاتي وصمودي امام الاخرين، كل ذلك يبدو لي كحقل واسع من الاكتشافات التي اكتشفها وحدي، وصبري ينفذ بسرعة. لقد الحت علي كثيرا الحاجة لعمل شيء ما فلم اعرف الى اين اتوجه. ولكنني ادركت بأني اريد الوصول الى لب الموضوع وان لا اشغل فكري، وان لا اقابل اي شخص. وعندها حدث لي احد الامور الاكثر غرابة، والتي جعلتني لاحقا أومن بأن خطواتي موجهة احيانا بقوى خارجية، كأن يدا خفية تمسك بي، دون ان اعرف، وتقودني بسرعة البرق من ميلاد الحوادث الى اهدافها.

كانت في بيت خالي المجاور لبيتنا مكتبة كبيرة من الكتب العبرية. وفي اوقات متقاربة كنت اذهب لاتصفح بها بل واستعير بعضها للمطالعة. وبما انه لم يكن لدي ما افعله، فقد قادتني قدماي في تلك اللحظة الى بيت خالي. وقفت امام خزانة الكتب واخترت منها بشكل تلقائي محض احد الكتب الموضوعة على احد الرفوف. كان ذلك

مجلدا للكاتب ج . شوفمان، الذي لم اقرأ له اي سطرٍ في حياتي. فتحت الكتاب في وسطه ووقع ناظري على العنوان: الكمان.

"انا لا احب هذه الالة الموسيقية وها انا اتجرأ على التمرد على "ملكوتها". فحقيقة ان الصوت يصدر هنا بواسطة الاحتكاك بين جسم واخر، يمكنها ان تجعل النفس تشعر بالاشمئزاز. فاحيانا تحتك الملعقة بالصحن فتجعلك تشعر بقشعريرة في عمودك الفقري. ان الشعور بالضيق تسببه بشكل خاص بعض النغمات المنخفضة، نغمات التلوين اللحني. والاوتار، بالمناسبة، مأخوذة من كائن حي وفي ذلك ايضا ما يمكن اعتباره مسيئا.

لعله ما زال بالامكان تعديد مزايا الات الكمان المتقنة الصنع، المسماة ستراديباديوس حينما تكون بأيدي البارعين. (وحتى هذه يجب ابقاؤها، حسب رأيي، ضمن اطار: بحاجة للمراجعة).

انما الات الكمان الرخيصة، الرديئة، الموجودة بأيدي التلاميذ فإن آلة الهارمونيكا أفضل منها! فهنا تجابهنا صرخة باكية، صرخة توسل تصم الآذان والروح معاً، وتسبب لنا الاكتئاب والسوداوية بشكل لا يطاق.

اجل، الاكتئاب والسوداوية. كل كابوس المنفى والغيتو يصرخ من خلال الات الخشب المجوفة هذه. فلقد كان الكمان بالنسبة لليهودي في المنفى اشبه بالطقوس الدينية. لقد هاجر اليهودي والكمان وهما ملتصقان معا." ايدل ميتن فيدل" (بالايديش: اليهودي الصغير الذي يحمل كمانا)... لم تكن هناك عائلة يهودية، لم يكن احد ابنائها سواء اكان موهوبا ام ابله تماما، لم "ينشر" هناك بكمانه، ليستحوذ على قلب الام، التي رأت بذلك قمة سعادتها. ومهما يكن فالكمان لم يختف، المصائب الكثيرة والسيئة وشتى انواع القلق والوصولات والمحاكم والكمان!".

قرأت هذه الكلمات للكاتب ج. شوفمان فخفق قلبي بشدة، ولا اعرف اذا كان ذلك بسبب المصادفة الغريبة ام بسبب فحواها. حز في نفسي عار الاجسام المحتكة والصرخة النائحة، صرخة التوسل اليهودية في المنفى. قرأت المقال مرة ومرتين وثلاث،

فوجد قلبي المتعطش للعمل هدفا جيدا: التوقف عن دروس العزف ومفارقة الكمان.

لقد احتفظت بهذا الامر في نفسي ولم اشرك به والدي. خشيت ان يحزنهما ذلك كثيرا. فقد كنت اعرف الصعوبات التي واجهتهما في ايام الشح، كي يتحملا عبء تلك المصاريف، وفرحتهما لتقدمي في العزف. الا انني كنت أعرف ان ذلك هو ما يتوجب علي عمله. لم اقرر الموعد بعد. في البداية، كان من الضروري الانتهاء من الحفلة الموسيقية.

قبيل الحفلة بايام معدودة، تم اجراء بروفة بمشاركة عازفة البيانو، وعزفت انا على الكمان الثاني، لم يستحوذ العزف على احاسيسي. منذ قراءة مقال ج. شوفمان لم استطع التنكر لاشمئزازي من الالة. غير انني، ولشدة دهشتي، شعرت بأن العزف بالذات ينساب بجمال ودقة، كأنني لست انا العازف. اذ لم يصدر عني عزف كهذا من قبل كأن العزف يجري وحده، بدون رقابتي، افضل من كل مرة . تساءلت اذا كنت انا الوحيد الذي يشعر بذلك، ولكن بعد الانتهاء من المقطع الثاني، البطيء والحزين، هتف المعلم الفردي واستدعاني: "برافو! برافو!" مدحني وقال بأنه من الواضح انني تدربت كثيرا في بيتي. ولدى مواصلتنا عزف المقطع الثالث، استغربت انني متأثر جدا من ذلك الاطراء، مع انني كنت اعتقد بنية خالصة بأن الامر لا يهمني بتاتا.

وبانتهائنا من البروفة، تمنى لي المعلم الفردي بأن يكون عزفي في الحفلة مثل هذا اليوم. وكنت ادرك انه في الحفلة ستكون النهاية الاحتفالية لطريقي الموسيقي.

اثناء خروجنا من الغرفة التي جرت فيها البروفة برفقة البيانو، رافقني ايتان، الصبي الاسمر ذو العينين الماكرتين. لقد انهى بروفته قبلنا، ولكنه انتظر حتى انتهائنا من العزف الثاني كان يصغرني قليلا في السن، ولكنه اطول مني، وكان يبدو لي دائما ان جميع اسرار الحياة مكشوفة امامه وفي احيان متباعدة كنا نلتقي معا لدى المعلم الفردي ولم نتبادل الحديث تقريبا. احسست دائما بأن في سريرته تحفظا ما بل وكراهية ما اتجاهي، فامتنعت عن المبادرة لاي حديث معه.

خرجت في طريقي الى البيت فرافقني ايتان. في البداية سرنا صامتين. ثم قال

ايتان: "انا لا اطيق عزف يورام، انه يعزف وكأنه عازف كمان عظيم ومشهور في العالم. حسب رأيي، انت عزفت افضل منه في المقطوعة الثنائية لباخ".

كان يخيل لي انني سمعت نبرة رياء في كلامه فلم اعرف الام يصبو.

"لديه طريقته في العزف." قال ايتان، "لا جدال في ذلك. ولكن عزفه مصطنع. ان المعلم الفردي يعتقد بأن يورام هو عازف كمان عالمي. ولكن المعلم الفردي نفسه ليس بعازف كمان. اذ لم يقبلوه حتى لفرقة العزف".

شعرت برغبة ملحة بأن اخبره بقراري التوقف عن العزف، ولكنني خشيت ان ينكشف الامر من جراء ذلك للمعلم الفردي، وهذا ما لم ارغب به، كي لا اجعل المعلم يستاء مني، قبل ان تحين اللحظة الاخيرة.

قلت له: "عموما، فان الكمان ليس آلة. انه احتكاك بين جسمين تصدر عنهما صرخة نائحة". حدق ايتان بي بعينين مدهوشتين، كأنه لم يفهم اقوالي او انه نسب لهما معنى مبالغا فيه ولكنه شعر، بالرغم من ذلك، بأنه حصل بذلك على تأكيد لاقواله التي قالها لي. سرنا مسافة طويلة ونزلنا في منحدر الشارع، غير بعيد من بيتي. وقف ايتان بجانبي وقال: "سرنا حتى بيتك، الان سترافقني انت الى بيتي". كان يسكن في حي القطار في الطرف الاخر من المستوطنة. لم افهم ما يريده مني. ظننت بأنه يمزح. نظرت اليه وكانت ملامح وجهه في غاية الجدية. كما اختفت ايضا الابتسامة الماكرة كثيرة الحيل، التي كانت دائما في عينيه.

"ولكنهم ينتظرونني في البيت، يجب ان اعود"، كذبت عليه.

"لا بأس"، قال ايتان، "ان ذلك يحتاج ربع ساعة، لن يصيبك اي مكروه."

"انا لا استطيع "، قلت

وقفنا نحن الاثنين في الشارع، حقيبتا الكمان بايدينا، وكل منا مصمم على رأيه. لم يكن الوقت متأخرا ولم يكن لدي مانع ان ارافقه حتى حي القطار؟ ولكن شيئا من العناد الشرير سيطر علي، لعل ذلك بسبب نبرة كلامه الصارمة الامرة، وبسبب الشك الذي كان لدي دائما اتجاهه. نظر ايتان يمنة ويسرة من حوله. انحنى فجأة، وضع

حقيبة الكمان في وسط الشارع ثم تفرس في وجهي. رأيت في عينيه نظرة غير مفهومة. كنت سأفهمها مستقبلا بعد مرور سنوات عديدة. تراجع عدة خطوات وقال: "لا يهمني ما سيجري. سأترك كماني ها هنا، وكل ما سيحدث سيكون على مسؤوليتك لانه يتوجب عليك مرافقتي للبيت، وانت لا تريد. تذكر بأن ذلك على مسؤوليتك!".

كان ذلك عملا لم اتوقعه ابدا. لقد ادار فعلا ظهره نحوي ومضى يمشي في مرتقى الشارع. كان كمانه ملقى في وسط الشارع. لم اعرف ماذا افعل به. اذا ما لمسته فانه سيكون فعلا على مسؤوليتي، حسب اقواله. واذا لم اسحبه الى حافة الشارع، الى المكان الذي لا تمر به حركة المرور سيحدث ما لا تحمد عقباه. استبد بي هذا الخوف فملت نحو الكمان لانقله من هناك. ولكن ايتان الذي ادار وجهه بسرعة عجيبة، اثناء سيره، رأى ذلك، فاسرع راكضا نحوي، ونقل الكمان ثانية الى وسط الشارع ."لا تلمسه هل تسمع؟ انه ليس لك وليس من حقك ان تلمسه. انه ليس لك! اذا ما حدث شيء ما لكماني، فان ذلك بسببك لانك لا تنفذ وعدك."

"لم اعد بشيء،" اعترضت على اقواله.

ارتعش وجهه غضبا او الما. خشيت ان يبدأ بضربي. ولكنه قال لي فقط:" رجاء، تعال رافقني الى البيت، بماذا سيؤثر عليك ذلك؟ انا اطلب منك. ارجوك. ساحكي لك ايضا اشياء كثيرة."

من خلال فكرة ثاقبة بعيدة الرؤية تبين لي ان الامل الوحيد للتخلص من ذلك هو ان اقفز في تلك اللحظة واركض بسرعة الى البيت واتركه هناك في وسط الشارع مع كمانه، وكل المسؤولية ستقع عليه. وهذا ما فعلته فعلا بل وسمعت صراخه لي اثناء ركضي: "تذكر ان الكمان سيبقى هنا طوال الليل على مسؤوليتك، ليمح الله اسمك وذكرك."

جئت الى البيت لاهثا وتمنيت بأنه لا يسير في اثري لمواصلة هذا الشجار الغريب في بيتي. ولكن بعد مرور دقائق معدودة ساورني القلق، فلعله ترك كمانه فعلا في وسط الشارع. كان سلوك هذا الصبي المحتال كما بدا لي غريبا وغير متوقع. لم اعرف

سلوكا مشابها له لدى الاولاد الذين عرفتهم حتى ذلك الحين. عدت الى الخارج كالمتسلل. لم يحل المساء بعد، وكان من الممكن الرؤية عن بعد. لم اشاهد كمانه، كما لم اشاهده هو نفسه. خشيت ان يكون كامنا لي في احدى الساحات، تنحيت الى جوار جدار البيت وانتظرت لارى اذا ما كان سيخرج باتجاهي. مر وقت طويل ولم يحدث شيء. تشجعت، وتقدمت دون اختباء مسافة طويلة ولكنه لم يكن هناك. يبدو انه يئس وذهب الى البيت وحده. توقفت امام بيت يورام، تحت صف اشجار الكازورينا الباسقة وحاولت جاهدا رؤية نهاية مرتقى الشارع. كان الناس رائحين وغادين، ولكنه لم يظهر. تصورت بمخيلتي بأنه بعد اختفائي عن ناظريه، رفع كمانه وقفل راجعا الى بيته. ان هذا التصور، بدل ان يمنحني هدوءا نفسيا، اثار فجأة زوبعة في اعماقي.

كنت صبيا، ولكنني كنت بالغا بما يكفي كي افهم ابعاد العمل الذي قمت به، وعندئذ انقض علي أسى الشعور بالذنب وبالندم.

انني اذكر الالم الذي شعرت به، وخزي الخيانة والفشل. لم اعرف كيف سأخفي هذا الخزي. ولم اعرف من اين اتتني تلك القوى الشريرة. كان المي شديدا، حتى انني ادرت وجهي عن الشارع لئلا تنحدر الدموع من عيني. كنت مصابا بالذعر، لم اعرف ما الذي يتوجب علي فعله، ولكنني عرفت بأنه لا يوجد ما هو اكثر الحاحا منه، هذا الولد الذي شاهدته بضع مرات، ولم يكن له ابدا اي مكان داخل افكاري، اصبح فجأة ذا اهمية مصيرية قصوى، لدرجة ادت لشل اطرافي. "تذكر ان كل شيء على مسؤوليتك!" تردد صدى صوته في اذني. وفعلا، شعرت بأن هذه المسؤولية كانت اصعب من اي شيء عرفته حتى ذلك الحين. وقفت وظهري للشارع فبدت امامي الشجيرات البرية المتشابكة، التي اخفت تقريبا الطابق الاول من البيت ذي الطابقين.

حاولت ايجاد مبررات مختلفة كي اوضح صحة تصرفي وجنون تصرفه. ولكن هذه المبررات تلاشت فورا، فقد كانت تافهة وواهية جدا ازاء عظم ما ينغص علي من الخزي والاسى. فمقابل كل ادعاء ومبرر ذكرته للدفاع عن نفسي، مثل امام ناظري وجهه وتعابيره الغريبة، حينما وضع الكمان في الشارع، انه منظر رفض ان يفارقني،

كالعقاب، يضرب ويضرب دون توقف. هذه التعابير التي فهمت معناها فقط بعد سنوات عديدة، بعد ان فشلت بذلك مرارا وتكرارا. كنت غارقا في ذاتي الى حد كبير، حتى انني لم اسمع نداءه للصداقة. لو كنت حساسا لذلك اكثر، لما وصل لتلك الدرجة من العنف. كرهت نفسي في تلك اللحظات، مثلما كنت اشعر دائما ولكن بشكل متأخر، كما انني كنت افهم تلك النداءات التي وجهت الي برغبة الصداقة او لطلب المساعدة دائما بتأخير كبير. ويبدو ان حاسة سماع مشاعر الغير، وفهم الامور بطريقة غير مباشرة، بل بالاشارة، بما لا يمت بصلة بالموضوع، هذه الحاسة افتقدتها تماما.

في تلك اللحظات المؤلمة والمهينة، بينما ظهري مستند على جذع احدى الاشجار الباسقة، وانا لا اعرف الى اين اتوجه، وماذا افعل، لم افكر بذلك، بل بكيفية انقاذ نفسي، هناك في تلك اللحظة. لم يكن هناك شيء اتوق اليه اكثر من ان اقف امامه غاضا طرفي وان اقول له بانني آسف جدا، آسف جدا على ما سببته له من اذى. وكلما اواصل الاعتذار تهان عزة نفسي، ويؤلمني هذا التأنيب الذاتي، وسيقلل عقابي من عظم عاري. ولكن لم يكن هناك انذاك شيء اصعب منالا من اظهار المشاعر بهذا الشكل. كنت قادرا على ذلك في داخلي فقط، ولكن ليس مع الاخرين. شعرت بأنه طالما انني لا اعرف انه غفر لي: فسيبقى الامر بلا حل في داخلي، حتى لو انه هو نفسه سينسى الامر مع مرور الايام كان من المهم بالنسبة لي ان ارى ما يفعله الان.

الحاجة لرؤيته- كانت هذه الامكانية الوحيدة امامي للانفصال عن المكان الذي وقفت به فترة من الزمن يصعب علي تقديرها، لأنها مرّت عليّ من خلال شعور بالالم والاضطراب لم اعرف مثيلا لهما. ارتحلت من المكان الذي كنت فيه وسرت نحو حي القطار. كنت آمل ان امر بين البيوت وان اشاهده من خلال احدى النوافذ او في احدى الساحات، لارى ما به دون ان يراني. لقد ساد الظلام ورائحة الغبار الناعم لم تزل عالقة في ذهني جيدا منذ سيري وحدي في مرتقى الشارع، في ذلك المساء الصيفي الحزين بينما كان حمل ثقيل من الشعور بالذنب يقبع على كاهلي. استبد بي الخوف عند وصولي الى حي القطار، الذي كان عبارة عن طريق غير معبدة على جانبيها بيوت

صغيرة واكواخ خشبية سوداء واشجار يوكاليبتوس عالية تمنيت ان اسمع صوت الكمان ينبعث من احدى النوافذ. لعله يداوي اسى اهانته بواسطة العزف، وبذلك اتعرف على بيته. اجتزت حي القطار على امتداده ونظرت الى الانوار الباهتة من خلال النوافذ، فلم اره. الم يعد الى بيته؟ هذا الاحتمال والمسؤولية المرتبطة بذلك افزعاني. تسكعت هناك وقتا طويلا ثم يئست من جهودي. وغمر قلبي فيض من الاشفاق على عنائي.

سرت الهوينا عائدا الى بيتي. وتضاعف حزني على نفسي وخفف قليلا من الضيق الذي كان من الصعب علي تحمله قبل ذلك. وبذلت جهدا مضاعفا لاتخيل صورة نفسي المعذبة بالندم، كي ابعد عن فكري صورة ايتان، التي تضخمت في خيالي لابعاد مأساوية. هذا الصراع لم يصل الى حسم واضح. فاحيانا كنت انا المنتصر، واحيانا اخرى كان هو المنتصر.

فزعت من لحظة لقائي مع ايتان في الحفلة الموسيقية. وقد وضعنا الالات الموسيقية في الغرفة الصغيرة الملاصقة لقاعة العرض، في بيت الثقافة التابع للهستدروت، وهي الغرفة التي كانت تستعمل طوال ايام السنة كمكتب. وقف المعلم الفردي منفعلا، اصدر اوامره الاخيرة، وضبط بعض التلاميذ شاحبو الوجوه الات الكمان، ومسحوا الاقواس. وفي طرف الغرفة، وقف ايتان ووجهه كالسابق وهو مسند ظهره على المكتب. عادت تلك البسمة الماكرة الى عينيه الداكنتين واشعت بهما. لم اعرف اذا كان من حقي مخاطبته. ولم اعرف هل سيتوجه الي، وماذا سيقول. ولكن فاجأني جدا اكتشاف عدم حدوث اي تغيير خارجي لديه. لست ادري ان سرني ذلك ام احزنني. وهل اراد فقط ان يمتحنني؟

وهل كان الامر كله بنظره مجرد مقلب ليس الا، وقد نسيه حالا ولم يعد يفكر به؟ هل يستشيط غيظا في اعماقه الا انه يخفي الامر جيدا بسبب عزة نفسه؟ وقفت عند المدخل فنظر الي نظرته المألوفة المفعمة بالمؤامرات، التي لم تفصح عن شيء. لم املك الشجاعة لاتوجه اليه. وضعت كماني وخرجت الى الصالة لاجلس مع والدي.

"انت غير منفعل اطلاقا"، قالت لي امي. "ان ذلك غير جيد. لا يهمك اطلاقا

ان نجحت ام لا. لم يعد يهمك اي شيء".

دخلت ام يورام لوحدها الى الصالة ولاحقتها امي بنظراتها. بعد ان جلست المرأة ذات الشعر الشائب على احد المقاعد التي تطوى في الصف الاول، همست امي باذن ابي شيئا ما لم اسمعه. ادركت ان الامر يتعلق بام يورام. اجاب ابي بهز رأسه ونظر الى ظهر المرأة. ماذا يعرفون عما يجري داخل بيت يورام؟ لقد لاحظت فقط جانبا من تلك الامور بيد ان جوهرها خفي عني.

بعد الحفلة، لدى خروجنا من الصالة للذهاب الى البيت، قلت لوالدي بحذر، بانه علي ان افكر مليا بتوقفي عن العزف. ولو لفترة ما، كي استطيع ان اكرس وقتا اطول لدراستي في المدرسة الثانوية. خيل لي بان والدي يبتسم وحده في الظلام وكأن الامر كان متوقعا بالنسبة له. اما امي فابدت دهشتها واستياءها، ولكنني استطعت ان اشعر بان معارضتهما ليست شديدة، وغير مبالغ فيها.

"في الفترة الاخيرة،" قالت امي، " لم تعد تبالي باي شيء. لا شيء يعنيك اطلاقا."اعترضت وذكرت ثانية موضوع الدراسة.

قال ابي:" افعل ما ترتأيه."

اخبرتهم عن مقالة ج. شوفمان، التي قرأتها في كتاب بمكتبة خالي. حفظت جملا منها عن ظهر قلب. كانت امي مذهولة لسماع هذه الرذائل التي وجدتها في مكتبة اخيها المحبوب." ترهات! انا لا اصدق بان شخصا ما يكتب ترهات كهذه في كتاب!" لقد صدقت، بدون شك، هذا ما اعرفه اليوم، ولكن في تلك الفترة بدت لي، كلمات المقال اسمى من ان يشوبها اي شك. قال ابي:" لا بأس. اذا كنت تريد التوقف، فلا حاجة للجدال حول هذا الامر".

لقد شعرت بشكل غامض، مع انني لم افهم ذلك بشكل قاطع بان ذلك سيكون فراقا آخر منهما- الى داخل ذاتي. لم اعد اخشى مما سيصيبهما من اسى لدى سماعهما قراري. لا يوجد اي اسى بسبب نقض من طرف واحد لأي اتفاق بيننا.

" كيف ركضت معك كالمجنونة في ذلك المطر الفظيع، هل تذكر؟" قالت امي."

انت صممت، طلبت منك الانتظار يوما آخر أو يومين، لم كل هذه العجلة، ولكن لم يكن لديك صبر".

تذكرت ذلك اليوم الماطر، فبدا لي امره غريبا جدا في هذه اللحظة، كأن الامر لا يتعلق بي. اثناء عودتنا الى البيت في ذلك الوقت احببت هدوء والدي، واعتداله وترويه واتزانه في كلامه والمرح في قوله لي:" اذهب بنفسك لتخبر الفردي بانك ستتوقف عن الدراسة".

" نعم، " قلت بدون سرور، "طبعا".

لم افكر بذلك اطلاقا. مرة اخرى تتجلى لي طبيعة المسؤولية المتجددة. "نعم"، اضفت قائلا بعد تفكير، "ساذهب بنفسي لاخبره، بعد العطلة مباشرة".

عند رجوعنا الى البيت، وضعت الكمان في زاويته المعهودة، وايقنت باني لن المسه ثانية.

بعد الحفلة السنوية بدأت عطلة المعلم الفردي الصيفية، التي استمرت شهرا او شهرين. في احد الايام نظرت امي الي وسألتني سؤالا، بدا لي مألوفا جدا، ولكنه بعيد ومنسي:" هل تشعر باي تغيير في وجهك؟"

لم اشعر باي تغيير. ولكن ملامح وجهها اخبرتني بان الارماش قد بدأ يختفي عن وجهي. ان البيئة المحيطة بي بدأت تلمح عن التغيير التدريجي، الذي لم تكن له اي علاقة مع ما يجري بداخلي، كأنما كان ذلك نظاما آليا، خارجيا وتافها، بلا معنى. بانتهاء العطلة قررت في سريرتي ان اذهب الى معلم العزف واودعه بشكل لائق. مرة اخرى قطعت تلك الطريق الطويلة جدا، والتي سرت فيها مرات عديدة، دائما في نفس المسار، دون ان احيد عنه ودون ان اغير واختصر. كان في داخلي شيء من الجبن، وكنت اخشى الاحراج الشديد. لم اعرف كيف سأنظر في وجه المعلم الفردي عندما ازف له هذا الخبر. اعتقدت ان الامر يهدد كيانه. خفت ان يشك بأني خدعته، طوال تلك السنين فيغضب علي. ولكن في نفس الوقت ادركت ايضا بأن ذلك هو اختبار لمسؤوليتي على قراراتي والطريق التي اخترتها في ان اعيش حياتي كما يحلو لي. عند اقترابي من

مدرسة العزف واجهتني ثانية احدى النقلات السريعة الغامضة التي تحدث صدفة، والتي تمنح خطواتي حتى اليوم دلالة وتوازنا في ناظري. فقد انبعثت من الغرفة نغمات كمان كنت اعرفها من قبل. كأنما من نهايات الازمنة جميعها تدفق ذلك اللحن، الذي كان من قبل بمثابة الدنيا بما فيها بالنسبة لي، كنفس حبيبة عادت من بعيد، غريبة، جديدة، متباعدة، متقاربة، يجب تعليمها من جديد، تسمرت في مكاني، مندهشا جدا. مرت بضع دقائق الى ان تمكنت من تسميتها:" لا-فوليا" لكورلي. لم اسمع هذه النغمات منذ تلك الحفلة في معهد الموسيقى الحيفاوي. وقد كان ذلك قبل سنوات عديدة.

أخذت أصغي من جانب الطريق لتلك النغمات المنبعثة من الغرفة بشكل مشوه بعض الشيء فانتابني القلق وخفق قلبي بعصبية، كأنما تم القائي في مفترق طرق يتعلق بمصيري. لقد تذكرت جيدا ذلك الولد الذي عزف في حيفا ال" لا- فوليا"، ولكني استصعبت تذكر ذلك الولد الذي اصغى له في الجمهور وهو متأثر جدا من شدة الشوق والغيرة. صعدت الدرج فاخذت النغمات تعلو. دخلت الغرفة فشاهدت المعلم الفردي يعزف وحده ولا احد معه في الغرفة. اشار لي بحركة من رأسه بالجلوس والانتظار. لن اعرف اذا لاحظ انني جئت بدون كماني، اصغيت لعزفه. تنهد ولهث كعادته، في حين حاولت انا ان اتذكر سر النغمات، التي اسرت قلبي من قبل بشكل كبير.

ولكن "لا فوليا" بدت لي فجأة بأسمالها، مسكينة ومتعبة، تريد ان تتدلل امامي، ان تتظارف، وان تذكرني بذكرى صداقتها: لكنني لم اتذكر ذلك. لم يكن اي سر باللا- فوليا.

كلما واصلت الاستماع، شعرت بالجفاء اتجاه سخافة المقطوعة الموسيقية، والحماس المبالغ فيه الذي اظهره المعلم الفردي اثناء عزفه. لقد كان ذلك ايضا دليلا على صحة قراري. تجاوزت مفترق الطرق. لقد اصبحت اشارة المرور من ورائي.

قال المعلم الفردي:" خسارة. بعد فترة قصيرة كنا سنبدأ بعزف موسيقى حجرية(ذات جمهور وعازفين محددين) كما كنت ارغب في ان تستكمل على الكمان الاوسط".

تبسم لي بمودة ولاحظت انه غير غاضب اطلاقا. غير مندهش غير مخدوع.

لعلي لم انقض اي عهد. لعل سبيل الحياة هو بان يتوقف تلاميذ العزف يوما ما عن العزف، وهو بلا شك قد مر بتجارب كهذه اكثر من مرة. اخبرته عن الدراسة التي تزداد صعوبة في الثانوية وعن رغبتي بان اكرس لها جل وقتي. وهذا يعني توقفا، لعدة سنوات، قلت، فتبسم انه يتفهم الامر جيدا ويهز رأسه موافقا.

ودعنا بعضنا بمودة كبيرة، ولدى خروجي من غرفته سمعته يعزف ثانية انغام اللا-فوليا، ومن يدري لأية غاية. فهو لم يقبل حتى لفرقة موسيقية!

قفلت عائدا الى البيت وكان في قلبي امل متجدد عظيم وشاف. لم اتصور كيف سيكون، ولكني رغبت به من صميم قلبي. غالبني شعور بالحرية، وفرح ازاء الاتي. كانت تلك الايام ايام الخريف، ايام البدايات، اكثر فترة احببتها طوال عمري. اقترب موعد الاعياد فانتشرت في الجو نعومة تقبض القلب، وانتظار مشوب بتوتر بسيط. اثناء نزولي في شارعنا رأيت تجمهرا بجانب اشجار الكازورينا، أمام بيت يورام.

اقتربت من حلقة الناس. فرأيت ام يورام تبكي بكاء شديدا واحدى النساء تسندها بذراعيها لئلا تنهار. على بعد بضع خطوات منها وقف والد يورام، وقبعته ذات الحاجبة التي يعتمرها دائما على رأسه، تظلل عينيه الفاتحتين، الفخورتين، وفي الوسط وقف يورام نفسه، فيلتفت على التوالي تارة الى ابيه وطورا الى امه ثم الى ابيه. كان الجيران والمارة الذين تجمعوا حولهم يهزون رؤوسهم بأسى ويتهامسون فيما بينهم، وكان البعض يشرحون لمن قدم لتوه تطورات الامور التي استمرت على ما يبدو وقتا طويلا.

ضربت ام يورام كفا بكف وصاحت:" هذا القاتل يريد ان يأخذ هذا الولد، كي لا يصبح عازفا للكمان. يريد ان يدمره، ليصبح مثله! انقذوا الولد من هذا القاتل!"

لم يجب والد يورام على اقوالها. وبدا عليه انه لا يرغب بالدخول في نقاش معها. نفذ صبره فالقى آخر ما في جعبته: "يورام"، صاح، "اذا جئت معي فستحصل على شعار البلماخ!"

وقفت جانبا وحاولت الا يراني. ولكن من بين رؤوس الناس لمحت وجهه الناظر الى وجه ابيه، متوسلا الا يضعه امام اغراء قاس جدا. ولكن اباه عاد وكرر:" تذكر، يا

يورام، ستحصل على شعار البلماخ!"

لم يكن بحوزة ام يورام اغراء مشابه لهذا لكي تقترحه. ولذلك، فانها توجهت الى الجمهور وبسطت امامه بشكواها؛ العدل والرحمة، هما فقط من كان لهما امل مقابل شعار البلماخ:

"انه يريد ان يظنوا بأني مجنونة فيأخذوا الولد مني ويعطوه اياه. ولكني لست بمجنونة! انا طبيعية! لن اعطي ابني لهذا القاتل، كي يجعله قاتلا ايضا!"

مال الجمهور الذي تابع النقاش احيانا الى الطرف الاول واحيانا الى الطرف الاخر، كما اخذ بعض الناس يتجادلون فيما بينهم، يحاولون الاقناع بصحة موقف احد الاطراف. هناك من غض الطرف عن التفاصيل، لان القوى والادعاءات كانت متوازنة جدا. خيل لي لبرهة بأن عيني يورام قد وقعتا على عيني. لم اشعر بالراحة. كان بنظري افشاء سرهم بين الناس في الشارع امرا مهينا.

لم استطع ان افهم لماذا يفعلون ذلك. منذ سنوات طويلة تطاردني تلك الصورة التي يظهر فيها يورام الصغير والنحيل، وهو يقف شاحبا ومرتبكا وسط والديه، يتعذب بعذابات اتخاذ القرار، محاطا بدائرة من الناس الذين يهزون رأسهم اسفا على مصيبته. قبل ذلك باسابيع قليلة عزفنا سوية في الحفلة الموسيقية ثنائية "باخ"، وها هو هذا الولد يصبح الان غريبا جدا عني، كأنني لم اعرفه من قبل ابدا، كان بعيدا عني، كأنه غير واقعي. حتى انني لم اشفق عليه حقيقة، ولم اشاركه الامه. وانما تراجعت عن العرض المخجل في الشارع، من خلال رفضي ان اكون تابعا له باي شكل من الاشكال.

"لديه يدا عازف كمان عظيم!" صرخت ام يورام؛ امسكت يده ورفعتها الى اعلى، لتعرضها على الجمهور الذي يحيط بها، كي يشاهد ويتأكد بنفسه. اما والد يورام فقد قال له:" يورام، اذا جئت معي، فستصبح رجلا، واذا بقيت معها، فستصبح مجنونا مثلها."

فقد يورام صوابه؛ رأيته يفلت من يدي امه ويغلق اذنيه بكلتا يديه. انه لا يستطيع الاختيار ما بين القاتل والمجنون. خارت قواه. لم استطع تحمل هذا المشهد.

ابتعدت عدة خطوات من هناك، وادرت وجهي ثانية لرؤية ما يجري هناك، فبدت لي الصورة بشكل جديد: هذه المرة كان ذلك عرضا مسرحيا. رفض ابطال المسرحية انهاء ادوارهم، التي التصقوا بها بشكل كبير حتى غاصوا فيها، كما ان القصة القديمة عن الاب، والام والطفل المعجزة عزيزة جدا على قلوبهم. انني احتفظت في ذهني بصورة هذا المشهد. ومع مرور الزمن بدأت بالشك في صحته. ومع مرور الايام توقفت عن ازدرائها. بدل الازدراء الصبياني، المتعجرف، الذي شعرت به اتجاه ذلك آنذاك، تعلمت ان احب هذه المسرحية والممثلين الثلاثة، الذين ينتقلون من مكان الى اخر، يريدون دعوة الناس، للمشاركة في مصيبتهم، وتشجيع الناس ليتنازعوا بنزاعهم، ليحتكموا بالعدل بينهم. كنت بحاجة لسنوات طويلة لكي افهم ان جوهر هذه المسرحية مليء بالحب، بالرحمة وبشعور من الرضى.

ولكن في ذلك الوقت الخريفي، اثناء عودتي الى البيت، كنت لم ازل مشمئزا لما شاهدته عيناي. فتكرر امل التجدد، الذي اضطرم في نفسي قبل ذلك، " في الفترة الاخيرة،" قال لي والدي، "تحسنت حالة عينيك كثيرا. خف الارماش كما اختفى احيانا تماما. الا تشعر بالتغيير؟"

لم اشعر باي تغيير. ذهبت الى المرآة الصغيرة في الحمام وتأملت بوجهي. لم اجد به شيئا. فمثلما لم ار شكل الارماش في وجهي اطلاقا، كذلك لم ار اختفاءه. كان وجهي غامضا وغريبا عني كالعادة. ورويدا رويدا تلاشى الغضب من وجهي. كما واختفت عنه تلك المحنة الغريبة التي تسللت وتسلطت عليه قبل سنوات. ومثلما لم اعرف سبب اهتياجها آنذاك، فلن اعرف لماذا اختارت الاختفاء الان بالذات.

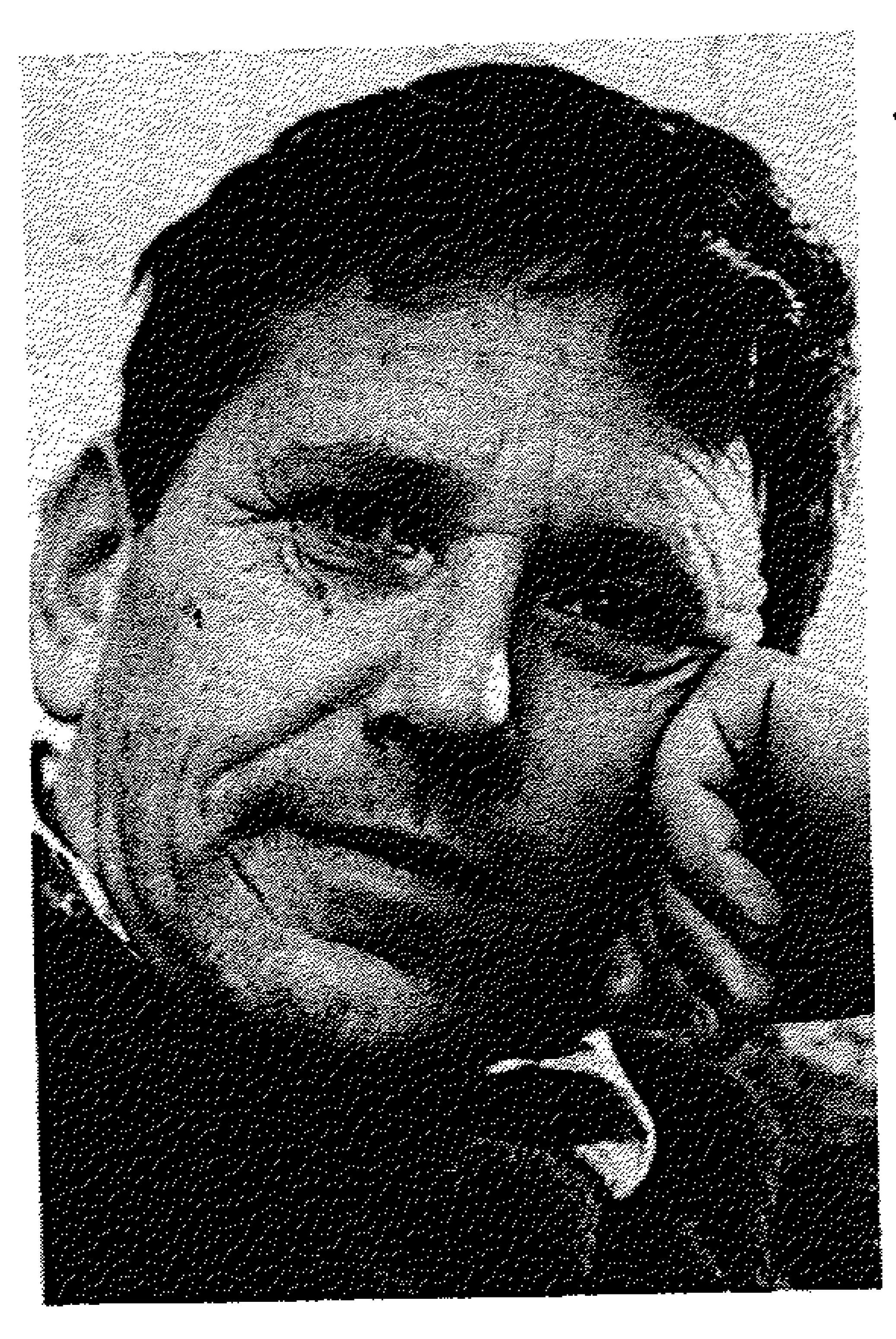
قالت امي: فعلا، ذلك الطبيب قد قال آنذاك بأن الامر سينتهي في فترة البلوغ بلاشك."لقد بدت لي لسبب ما كلمتا" فترة البلوغ" في كلامها مهينتين.

لم تمر ايام عديدة حتى اختفى ذلك الخلل. وساد الهدوء على وجهي ولم يفارقه ابدا حتى اليوم.

ترجمة: حسني شحادة

عاموس عوز

عادة للريح



* عاموس عوز

ولد عام ١٩٣٩ في القدس. وانتقل في الخامسة عشرة من عمره الى كيبوتس "خولده". درس الفلسفة والادب العبري في الجامعة العبرية في القدس. يقيم حالياً في مدينة عراد، ويعمل محاضراً للادب العبري في جامعة بن غوريون في بئر السبع. يعتبر من اشهر كتاب القصة والرواية في اسرائيل. كما نال شهرة عالمية واسعة بفضل ترجمة انتاجه الى ما يقارب العشرين لغة من بينها العربية. حاز على جائزة السلام في فرانكفورت عام ١٩٩٢. من بين اعماله: "حتى الموت" (قصتان طويلتان، ١٩٧١)، "العلبة السوداء" (رواية، ١٩٨٧) "معرفة امرأة" (رواية، ١٩٨٩). وقد ترجمت روايته "عزيزي ميخائيل" (١٩٦٨) الى العربية ونشرت في مصر تحت عنوان "حنه وميخائيل" (١٩٩٤).

اشراقة رائعة للشمس آذنت ببدء اليوم الاخير لجدعون شنهاف، وشبه خريفي، كان الفجر، خيوط ضوء خافتة انبجست من خلف الاغضان الكثيفة التي شكلت سوراً اغلق الافق الشرقي. كأن اليوم الجديد كان يخفي بنوع من الخداع نواياه الحقيقية، ولم يعط اية اشارة للقيظ الذي ينطوي عليه.

وفي الجبال الشرقية ألَقٌ بنفسجي مشتعل. اججته ريح الصباح. بعدها شقت اشعة الشمس سور الغيوم. وطلع النهار. كرة معتمة انشقت امام اصابع النور. وبالتالي

صعدت الكرة المتوهجة، اصطدمت بسلاسل الغيوم واخترقتها. وصار الافق الشرقي يخطف الابصار. واستسلم البنفسجي اللذيذ للارجواني الساطع والمريع.

هز صخب الاستيقاظ المعسكر بضع دقائق قبل الشروق. نهض جدعون وخطا بقدمين حافيتين وهو لا يزال يغالب النوم خارج السقيفة وتطلع نحو مصدر الضوء. وبيد نحيفة، سمراء ظلل غدعون عينيه اللتين لم تتخلصا من اثر النوم في تلك اللحظة. وانطلقت يده الاخرى تزرر بعفوية ازرار بزته العسكرية. تعالت الاصوات ورنين المعدن، وكأن بعض النشيطين منكبين على تنظيف سلاحهم بأنتظار طابور الصباح. لكن جدعون كان بطيئاً. اثار مشهد الشروق في نفسه انفعالات متعبة، لعلها اشواق غير واضحة. كان الشروق قد اكتمل والفتى لا يزال يغالب النعاس واقفاً الى ان دفعوه من الخلف حاثينه على التحرك.

دخل السقيفة ورتب سريره الميداني، نظف رشاشه وتناول ادوات الحلاقة. وفي طريقه بين اشجار الكينا المطلية جذوعها بالابيض ولافتات التحذير والنظافة والطاعة، تذكر جدعون فجأة ان اليوم هو يوم الاستقلال، يوم الخامس من أيار العبري. وفي هذا اليوم ستنظم سريته هبوطاً احتفالياً بالمظلات في مرج ابن عامر (عيمق يزراعيل). دخل سقيفة الحلاقة وانتظر الى ان يخلي احدهم مرآة ما. في غضون ذلك فرك اسنانه وفكر بالفتيات الجميلات. بعد ساعة ونصف ستنتهي الاستعدادات ويستقل افراد السرية الطائرات ويقلعون الى موقع الهبوط. جموع غفيرة من المواطنين المتحمسين وبينهم الفتيات ايضاً سينتظرون المظليين الذين سيهبطون قرب كيبوتس "نوف حريش"، مسقط رأس جدعون، حيث ولد وترعرع وسكن حتى التحاقه بالجيش. وعندما ستلامس قدماه تراب الحقل سيحيط به اولاد الكيبوتس ويهجمون عليه صائحين باسمه جدعون، ها هو جدعون ابننا وزميلنا.

اندس بين جنديين اضخم منه بكثير، وبدأ يصوبن وجنتيه ويحلق ذقنه بعجلة.

قال جدعون:

"يوم حار".

اجاب احد الجنود:

"ليس بعد. ولكنه سيكون كذلك".

واضاف جندي آخر من الخلف:

"لعلك تنتهي من الحلاقة، بدلاً من الثرثرة منذ الصباح".

لم يتأثر جدعون لذلك. بالعكس: ولامر ما تسببت له هذه الكلمات بفرح شديد. نشف وجهه واتجه نحو ساحة الطوابير في تلك الاثناء اصبح الضوء الازرق رمادياً يميل الى البياض، ضوءاً ساخناً غير نقي.

(ب)

بالامس فقط افترض شمشون شاينبويم بثقة ان القيظ لن يتأخر عن المجيء. لذلك اسرع فور استيقاظه في الصباح الى النافذة وتيقن برضى صامت انه اصاب هذه المرة ايضاً. لذلك أغلق الاباجورات لحماية الغرفة من القيظ، غسل وجهه وكتفيه وصدره، المغطى بشعر شائب وكثيف، حلق ذقنه واعد لنفسه قهوة، ورغيف خبز صغير احضره بالامس من غرفة الطعام. لشد ما كان شمشون شاينبويم يكره اضاعة الوقت، وبخاصة في ساعات الصباح الخصيبة: الخروج والذهاب الى غرفة الاكل، التحدث، قراءة جريدة، تبادل الاراء، ليضيع نصف الوقت في الصباح، لذلك اعتاد الاكتفاء بالقهوة ورغيف خبز صغير، وفي الساعة السادسة وعشر دقائق، بعد موجز الاخبار الاول، يكون والد جدعون قد جاء الى مكتبه، صيفاً وشتاء، بلا كلل.

جلس الى طاولته وبحلق للحظات معدودة بخريطة بلادنا المعلقة على الحائط المقابل، بدا انه يحاول تذكر حلم مزعج لازمه قبل الفجر، تماماً قبل استيقاظه. لكن الحلم تسَرب من الذاكرة. قرر شمشون بدء العمل على الفور وعدم اضاعة اية لحظة بعد الان. حقيقة، انه عظيم هذا اليوم، ولكن العيد لا يحتفلون به بالتفرغ بل بالعمل. والى ان يحين اوان الخروج ومراقبة المظليين وجدعون الذي قد يكون بينهم بالفعل ولا يمرض في اللحظة الاخيرة، لا تزال امام شمشون بضع ساعات من العمل. يجب على انسان في الخامسة والسبعين من العمر الا يضيع اوقاته سدى، وبخاصة اذا كانت الاشياء التي

عليه تدوينها على الورق كثيرة، كثيرة لدرجة الالم. فالمهام كثيرة.

شمشون شايبنويم ليس بحاجة لان يلصقوا بأسمه الالقاب. فحركة العمل العبري تعرف كيف تكرم آباءها. منذ عشرات السنين يحمل اسم شمشون شايبونيم مجداً لا يذوي. ومنذ عشرات السنين وهو يحارب بكل ما اوتي من طاقة من اجل اعلاء نبوءة شبابه. ولم يتزعزع ايمانه او يتأثر جراء خيبات الامل والهزائم، بل اغنت نفسه بوتر من الحزن الحكيم: وكلما تعلم ان يفهم ضعف الاخرين وانحرافاتهم الفكرية، كلما اشتدت القسوة تجاه ضعفه الشخصي . وبيد من حديد كان يقضي عليه ويتواصل حسب مبادئه، بخط مستقيم كالمسطرة، وبطاعة داخلية لا تعرف الرحمة وكذلك بما يشبه الفرحة الخفية، ولكن الحماسية.

الآن، بين السادسة والسابعة من صباح يوم الاستقلال، لا يزال شمشون شاينبويم اباً غير ثاكل، لكن ليس هناك ما هو أنسب من ملامح وجهه لحمل هذه الهالة إن تظهر على وجهه المتغضّن ملامح جدية، حكيمة، ترى كل شيء لكنها تتمالك مشاعرها ازاء ما ترى، ومن عينيه الزرقاوين يشع الاسى الساخر.

يجلس الى مكتبه منتصب الظهر منكباً على الاوراق. يداه مستكينتان. كانت الطاولة مصنوعة من خشب بسيط، مثل بقية الاثاث الضروري في الغرفة، بدون زينة: حجيرة راهب متنسك وليس مسكناً في كيبوتس قديم.

هذا الصباح لن يكون خصباً على وجه الخصوص. وها هي الافكار تتبعثر المرة تلو الاخرى كأنها تتبع اثر الحلم الذي ومض وانطفأ في آخر الليل. يجب تذكر الحلم، وبعد ذلك يمكن ان ننسى وبالتالي التركز بالعمل ايضاً. اتذكر انبوبة. وسمكة ذهبية ما، او شيئاً آخر. جدال مع احدهم. لا صلة. والان الى العمل. ظاهرياً، كانت حركة "عمال صهيون- بوعلي تسيون" قائمة منذ البداية على تناقض ايديولوجي لا يمكن جسره، وفقط بواسطة شعوذة كلامية، نجحت في اخفاء هذا التناقض. ولكن التناقض ليس سوى تناقض وهمي، ومن يأمل باستغلاله لصالحه الشخصي ليزعزع او ليتهم، فإنه لا يعرف ماذا يقول،وها هو ايضاً البرهان البسيط.

شمشون شاينبويم رجل خبير بتجارب الحياة. علمته حياته كم من التعسف والحماقة يخيمان فوق اليد التي تحسم تقلبات مصيرنا، مصير الفرد، وكذلك مصير المجموعة. ولم تبعد الفطنة عن شمشون شايبنويم طيبة القلب التي استقرت فيه منذ صباه. ومن مزايا روحه العجيبة، والمثيرة للاعجاب السذاجة القائمة على العناد: مثل آبائه واجداده والاتقياء الصديقين والذين لم تؤثر نباهتهم على ايمانهم. ولم يسمح شاينبويم لأفعاله بالإنفصال عن اقواله. حتى عندما تحول بعض قادة حركته الى العمل الحزبي وكما لو بالصدفة تخلوا نهائياً عن العمل الجسماني، لم يترك شاينبويم الكيبوتس. رفض كافة الوظائف والمناصب خارج الكيبوتس، وبعد تردد كبير وافق على ان ينتخب للمؤتمر العام للعمال، ولسنين قليلة خلت ظلت اوقاته موزعة بالتساوي بين العمل الجسماني والفكر، ثلاثة ايام في حديقة الزينة وثلاثة ايام في كتابة المقالات، وحديقة الزينة الجميلة في كيبوتس "نوف حريش" معظمها من صنع يدي شمشون شاينبويم، ما زلنا نذكر كيف كان يزرع ويقلّم ويقصّ، يروي وينكش، يسمّد ويغرر، يعشب ويقلع ايضاً، وهو لم يجعل مكانته كمفكر مركزي للحركة تعفيه من الواجبات الملقاة على عاتق كل عضو عادي، الحراسة، المناوبة وجمع الغلال، ولا يعيب سيرة حياة شمشون شاينبويم اي ظل من الزيف منذ البداية وحتى هذه اللحظة، فكله كتلة واحدة من النبوءة والتطبيق، لم يعرف الكلل ولم يهرمه الكدر، هكذا كتب عنه سكرتير الحركة في الجريدة قبل سنوات معدودة بمناسبة مرور سبعين عاماً على ميلاد شمشون شاينبويم.

رغم ذلك كانت هناك لحظات من اليأس الحاد. كانت هناك لحظات من الغثيان القوي. لكن شمشون شاينبويم حوّل هذه اللحظات الى مصادر سرية لطاقة صاخبة. وكما جاء في النشيد العسكري المفضل لديه والذي يثير فيه نشوة العمل: الجبال، في الجبال سطع نورنا، سنهاجر الى الجبل، وراءنا يظل الماضي- لكن ما اطول الطريق الى الغد. لو ان هذا الحلم الاحمق يتكرم بأن يظهر من داخل الغموض ليبدو الآن كاملاً، لاصبح بالامكان القاؤه عن جميع السلالم، والتركز اخيراً بالعمل. الزمن يمضي. انبوبة مطاطية، حيلة في الشطرنج، اسماك ذهبية، مشادة كبرى، ولكن ما هو

الرابط؟

لسنوات عديدة عاش شمشون شاينبويم وحيداً. استثمر طاقته كلها في الابداع الفكري. وقد كلفه مشروع حياته التخلي المؤلم عن اقامة عش عائلي. وبدلاً من ذلك حظي شمشون شاينبويم بالاحتفاظ حتى مرحلة الشيخوخة بصفاء الشباب. وفقط عندما بلغ السادسة والخمسين تزوج فجأة من راعية غرينشفن وانجب جدعون وبعدها انفصل عنها ليكرس اهتمامه لخواطره وتأملاته. ولكن لا داعي للتظاهر بالفضيلة، فقبل زواجه لم يعش شمشون شاينبويم حياة تزهد فقد شدت شخصيته النساء اليه مثلما شدت الطلاب ايضاً. ومنذ ايام الشباب ابيض شعره الغزير وتشقق وجهه المكتوي بأشعة الشمس على هيئة مربعات متقاطعة اسرة من الخطوط والقنوات. ظهره المربع، كتفاه القويتان والحكيمتان، نغمة صوته الذي كان دافئاً، شكاكاً، كأنه غارق في التفكير دائماً، وكذلك عزلته، كل ذلك شد اليه النساء كالعصافير التي اصابها الدوار. تنسب اليه الشائعات واحداً على الاقل من اطفال الكيبوتس، كذلك انتشرت الاساطير في اماكن اخرى. اما نحن فسنلتزم الصمت حيال ذلك.

في السادسة والخمسين من عمره قرر شمشون شاينبويم انه من المستحسن ان ينجب ابناً ووريثاً يحمل طابعه واسمه الى الجيل القادم. لذلك احتل وبشكل صاخب جسد راعية غرنيشفين، الفتاة الصغيرة البنية والثقيلة اللسان التي كانت اصغر منه بثلاثة وثلاثين عاماً. وبعد ثلاثة أشهرمن الزواج الذي تمّ وسط مجموعة مصغرة ولد جدعون، وقبل ان يفيق الكيبوتس من ذهوله ارسل شمشون شاينبويم راعية الى غرفتها السابقة وعاد ليكرس جهوده لخواطره وافكاره. تركت هذه المسألة اصداء مختلفة، كذلك سبقتها حيرة وتردد في نفس شمشون شاينبويم نفسه.

الآن سنتبنى الفكرة ونفرض على الذاكرة طريقة منتظمة: ها هو الحلم يقع بالمصيدة شيئاً فشيئاً. جاءت الى غرفتي وطلبت مني القدوم على جناح السرعة الى المكان ووضع حد للفضيحة الدائرة هناك. لم استفسر عن الموضوع بل اسرعت في اعقابها. احد الاشخاص سمح لنفسه ببناء بركة في المرجة الخضراء أمام مطعم الكيبوتس فثارت

ثائرتي غضباً لان احداً لم يقرر بهذا الشكل المفاجيء استحداث تجديد كهذا- بركة للزينة امام المطعم على غرار قصور النبلاء البولونيين. صرخت عالياً، ولكن على من، فإن الصورة ليست واضحة هنا، كانت هناك اسماك ذهبية في داخل البركة، وولد ما يملأ البركة بالماء بأنبوب بلاستيكي اسود. عندها قررت وضع حد لهذا الشيء في الحال، لكن الولد رفض الامتثال لاوامري. قررت تتبع الانبوب للوصول الى الحنفية ووقف تيار المياه قبل ان ينجح احدهم في تحويل هذه البركة الى حقيقة ثابتة. فمشيت ومشيت الى ان اكتشفت فجأة انني اسير بشكل دائري وان الانبوب غير متصل بأية حنفية بل يعود الى البركة ويستمد منها المياه. كلام فارغ. لقد انتهى. يجب فهم البرنامج الاصلي لحركة "عمال صهيون" دون اية جدلية، بصورة حرفية ودون اي تأويل.

(ج)

بعد انفصاله عن راعية غرينتسفين لم ينس شمشون شاينبوم واجباته كأب روحي ولم يتنصل من المسؤولية. ومنذ ان اكمل ابنه سنته السادسة او السابعة غمره بأشعة شخصيته. رغم ان الولد خيب الامل قليلاً. فبطفل مثل جدعون لا يؤسسون سلالة. اثناء فترة طفولته كلها كان انفه ينضح باستمرار: نوع من الرشح المتواصل، او ربما ميل الى البكاء. ولد بطيء وحائر يتلقى الضرب والاهانة ولا يكيل الصاع صاعين، ولد غريب، يحمل على الدوام اوراق الحلوى الذهبية، اوراق شجر مجففة، وديدان القز، وابتداء بسنته الثانية عشرة كانت كافة الفتيات من كافة الاشكال يحطمن قلبه الواحدة تلو الاخرى. كان يحمل على الدوام قصة حب فاشل. وقد نشر القصائد الحزينة، والمعارضات الهزلية القاسية في نشرة قسم الأولاد. إنه غلام أسمر الشرة، لين وجميل بصورة شبه نسائية، يتجول باستمرار في الكيبوتس بصمت عنيد. وهو غير بارز في العمل ولا في حياة المجتمع. يتحدث ببطء ومن المؤكد انه يفكر ببطء.

اما قصائده التي نظمها فبدت لشمشون عاطفية، ميئوس منها، والمعارضات الساخرة لاذعة بدون اي الهام. ثم ان كنية "بينوكيو" تلائمه تماماً، لا يمكن انكار ذلك. والابتسامات المتواصلة التي لا تطاق والتي يلصقها على شفتيه بدت لشمشون نسخة

طبق الاصل ومثيرة للاحباط عن ابتسامات راعية غرينشفين.

وها هو جدعون، قبل سنة ونصف تقريباً، يتسبب لوالده بمفاجأة هائلة: ظهر فجأة وطلب من شمشون أن يوقع على الموافقة الخطية على التحاقه بجيش المظليين إذ لا يحق للابناء وحيدي اهلهم الالتحاق بهذا الجيش إلاّ من خلال تصريح موقع من الوالدين. وبعد ان اتضح لشمشون شاينبويم ان ابنه لا يمارس هذه المرة تهريجاته الغريبة وافق على الطلب. وقال بسرور أجل، إنه تحول يبعث على التشجيع في تطور هذا الفتى، وهناك سيجعلون منه رجلاً بكل معنى الكلمة. ليذهب اذن. ما المانع؟.

لكن المعارضة العنيدة من راعية غرينشفين وضعت عقبة غير متوقعة امام خطط جدعون- كلا، انها لن توقع هذه الورقة. ولا بأي حال من الاحوال هكذا دون سبب .

ذات ليلة ذهب شمشون بنفسه الى غرفتها، حاول اقناعها، قدم المبررات، وبخها ولكن كل شيء ذهب سدى. فهي لن توقع، وليست لديها اسباب، هكذا دون سبب. اضطر شمشون شاينبويم الى اللجوء لاساليب ملتوية كي يستطيع الفتى الانضمام الى المظليين. كتب رسالة شخصية الى يوليك نفسه. طلب خدمة شخصية. السماح لابنه بالتطوع. فالام ليست مستقرة عاطفياً، والفتى سيصبح مظلياً ممتازاً. شمشون سيأخذ على عاتقه المسؤولية. وبالمناسبة، انه لم يتوجه ولم يطلب من قبل ابداً أي مصلحة شخصية. ولن يطلب ثانية فهذه هي المرة الوحيدة طيلة ايام حياته، رجاءً، ان يبذل يوليك كل ما بوسعه.

في اواخر شهر سبتمبر، عندما ظهرت علامات الخريف الاولى في البساتين، التحق الفتى جدعون سنهاف بوحدة المظليين.

منذ تجنيد جدعون انكب شمشون شاينبويم بكل ما اوتي من قوة على الابداع الفكري. الذي يشكل وحدة بصمات الانسان على هذه الدنيا. هذه البصمات لن تختفي ابداً من سيرة حياة حركة العمل العبري. وهو لا يزال بعيداً عن الشيخوخة. ورغم كونه في الخامسة والسبعين فإن شعره الكثيف لم يتناقص بعد، وما زال جسمه يتحرك بواسطة عضلات صغيرة وقوية. عينه ساهرة، والقلب مرهف، صوته القوي والجاف والاجش الى

حد ما، ذو وقع ساحر على النساء في كل جيل. سلوكه غير متهور، ويتصرف بتواضع. ويمكن القول ان حبل سرته لا يزال متصلاً بأرض كيبوتس نوف حريش. كره الطقوس والاجتماعات الخطابية والتعيينات والوظائف. وبريشته فقط يسجل شمشون شاينبويم اسمه على حائط بنايتنا القومية والحركية.

(د)

اشراقة رائعة للشمس آذنت ببدء اليوم الاخير لجدعون شنهاف. حتى ان عينيه تخيلتا حبات الندى المتبخرة في الحر. ومن بعيد اشتعلت العلامات على رؤوس القمم في الشرق. اليوم عيد، عيد استقلال الدولة وكذلك عيد الهبوط في سماء بيته. طوال الليل ألحّ عليه حلم ليس بالحلم، منظر خريفي في غابات شمالية معتمة، رياح خريفية وأشجار كبيرة لم يعرف اسمها. وطوال الليل تساقطت اوراق شاحبة فوق سقائف المعسكر. وبعد ان استيقظ في الصباح ظلت تتردد في اذنيه اصوات حفيف الغابة الشمالية وكافة الاشجار الكبيرة التي لم يعرف اسمها.

لقد احب جدعون حباً شديداً ذلك السقوط العذب في تلك المرحلة بين القفز من فتحة الطائرة وفتح المظلة: تصعد الهاوية اليك بسرعة البرق، وتيارات هوائية صاخبة تلعق جسدك فتنتشي من اللذة. السرعة تملي، ماجنة، تصفر وتزأر فيهتز جسدك كله امتثالاً لها والابر الملتهبة عند اطراف الاعصاب والدم يضرب ويضرب. فجأة، عندما تكون كالبرق في الريح، تنفتح المظلة. وتمنع الاحزمة سقوطك كأن ذراعاً قوية هادئة وحازمة تأتي لتضع حداً لمجونك، كأن هذه الاذرع تمسك بك من تحت ابطيك. وبدلاً من اللذة الماجنة تحل الان لذة مكبوتة ومحمية. ويضطرب جسمك ببطء في الاعالي، يطفو، يتردد، وينجرف قليلاً مع الريح الخفيفة ولن استطيع ابداً التكهن بالموقع الذي ستلامس عنده قدماك الارض -هل فوق قمة تلك التلة ام امام البيارات- وأنت عصفور مسافر ومتعب، تهبط على مهلك ترى اسطح البيوت والشوارع والبقر في اسطبلاتها، بطيئاً كأنك تملك الخيار وكأن القرار كله بيدك.

عندها، تلامس قدماك الارض فتبدأ دحرجتك التي تدربت عليها بغية

التخفيف من صدمة الوقوع. وعليك استرداد وعيك خلال ثوان معدودة. وتعود دورتك الدموية المتسارعة الى طبيعتها. وتسترد الابعاد نظامها الاعتيادي. ولن يظل بقلبك سوى الاعتزاز المتعب حتى لحظة التقائك الضابط والزملاء، لتخضع لوتيرة اعادة تنظيم الصفوف بشكل سريع.

سيتم كل ذلك هذه المرة في سماء كيبوتس نوف حريش. سيرفع كبار السن في المنطقة رؤوسا تتصبب عرقاً ويرفعون قبعاتهم الحاجبة للشمس محاولين التعرف على جدعون وسط النقاط الرمادية المتراقصة في الهواء. وسيقفز الصغار في الحقل وهم ايضاً سينتظرون بحماس بطلهم الذي سيهبط من السماء. وستخرج الام من غرفة الطعام لتقف في الخارج وهي ترمش بجفنيها وتتحدث الى نفسها. اما شمشون فسيغادر مكتبه مدة قصيرة، ولعله ينقل كرسياً الى شرفته الصغيرة ليرقب المشهد كله بنظرات متأملة وفخورة.

بعد ذلك سيستضيف الكيبوتس السرية ببشاشة، وفي غرفة الطعام سيقومون بإعداد اباريق الليمونادة التي سترشح لبرودتها، وستكون هناك صناديق ملأى بالتفاح او ربما بالكعك الذي خبزته العضوات القديمات وقد نقشت عليها كلمات التهنئة بحروف من الكريما.

في السادسة والنصف صباحاً تغلبت الشمس على هفواتها الملونة، وارتفعت بدون شفقة فوق اعالي الجبال الشرقية. قيظ لزج هبط ليسيطر على البلاد كلها. وسخنت اسطح الصفيح لسقائف المعسكر وعكست لظى ساطعاً. وبدأت الجدران ترسل الى الداخل توهجاً قوياً ومذهلاً. وعلى الشارع المحاذي لسياج المعسكر لوحظت حركة سير نشطة للباصات والشاحنات. لقد بدأ سكان القرى والبلدات المجاورة بالتوجه الى المدينة الكبيرة لمراقبة العرض العسكري. ومن خلال حاجز الغبار امكن تمييز لمعان القمصان البيضاء لهؤلاء المواطنين المحتفلين، وحتى سماع صخب غنائهم من بعيد.

انهى المظليون طابور الصباح ، كذلك تمت قراءة الامر اليومي الصادر عن رئيس الاركان وتم تعليقه بالدبابيس على لوحات الاعلانات في المعسكر. كان طعام

الافطار احتفاليا اشتمل على بيضة مسلوقة مزينة بورقة خس ومحاطة بالزيتون من كل جانب.

بدأ جدعون الغناء بصوت هادىء وقد غطت غرته السوداء جبينه. وانضم اليه الاخرون. وبين حين وآخر كان احدهم يستبدل احد ابيات الاغنية ببيت ساخر او بذيء من عنده. وسرعان ما تبدلت الاغاني العبرية بألحان عربية صاخبة شبه بائسة، ووقف قائد الفرقة، وهو ضابط اشقر الشعر جميل المنظر تدور حوله الاساطير التي تروى حول المواقد الليلية، ليقول: كفى. وتوقف المظليون عن الغناء، وارتشفوا بسرعة بقايا القهوة الدسمة من فناجين الصفيح واتجهوا نحو مسالك الاقلاع. هناك جرى تنظيم طابور آخر تحدث فيه الضابط الى الاشخاص الموجودين ببعض كلمات الحب حتى انه وصفهم بأنهم ملح الأرض، ثم امرهم جميعاً بالصعود الى الطائرات التي كانت تنتظرهم.

وقف قادة الاقسام عند مداخل الطائرات يفحصون العتاد وأربطة الاحزمة، اما القائد نفسه فقد تجول وسط الفتية مربتاً على اكتافهم مازحاً متنبئاً وباثاً الحماس: كأنما كان ذلك عشية حرب وكأنما كان هنالك خطر. رد جدعون من جانبه على التربيت على كفته بابتسامة عابرة ارتسمت على شفتيه النحيلتين. كان نحيفاً شبه متزهد، وبشرته تسفعت تماماً. كانت تلك عين الضابط الاسطوري الاشقر الثاقبة التي استطاعت تمييز شريان ازرق انتفخ في عنق الفتى ونبض بايقاع سريع.

آنذاك اقتحم القيظ المخازن المعتمة ايضاً مبيداً بلا رحمة المعاقل الاخيرة للبرودة، مشعلاً كل شيء باللهب الداكن. وصدرت عن المحركات ضجة خفيفة وهربت العصافير عن المسلك. اهتزت الطائرات وبدأت تتحرك بتثاقل ثم اخذت تزداد سرعة لا يمكن الاقلاع بدونها.

(هـ)

يجب الخروج الى الحقل واستقباله بالمصافحة.

هذا ما قرره شاينبويم بنفسه مغلقاً الدفتر امامه. يبدو ان شهور الخدمة في الجيش قد صقلت الفتى. انه امر لا يصدق، ولكن يبدو ان عوده يصلب. وهو ما زال

بحاجة لان يتعلم كيف يتدبر اموره مع النساء. يجب ان يتحرر مرة واحدة والى الابد من حيرته وميوعته: فليترك هذه الصفات للنساء. اما هو فعليه ان يكون قوياً. والى اي مدى تحسنت قدرته على لعب الشطرنج، قريباً سيصبح بامكانه ان يعرض والده للخطر، ولعله من يلحق به الهزيمة ايضاً في يوم من الايام. إن غداً لناظره قريب. المهم الا يتزوج معاذ الله من اول فتاة تستسلم له. عليه ان يحطم اثنتين او ثلاث فتيات منهن قبل حفل الزفاف. وخلال سنوات قليلة عليه ان ينجب الاحفاد. الكثير منهم. وسيكون لابناء جدعون أبوان: سيقوم ابني بتنشئتهم اما أنا فسأفتح عيونهم على الجوهر. لقد نما الجيل الثاني وترعرع في ظل مشروعنا، لذلك وجد نفسه في ورطة. جدلية. لكن الجيل الثالث هو الذي سيشكل دمجاً عجيباً ومحصولاً مباركاً، سيعلمهم آباؤهم العفوية اما شيوخهم فسيعلمونهم الفكر. وسيكون ذلك تراثاً عظيماً سيصفى من الشوائب الوراثية الهوجاء. يجب تسجيل هذه الجملة في المفكرة، سيحين اوانها لتحتل مكانها في احد مقالاته القادمة. انني ارى امام عيني جدعون واصدقاءه والاسى يعتصر قلبي. اذ يبدو عليهم اليأس الظاهري، الملل، وتهكم ساخر، انهم لا يعرفون الحب بكل ما اوتوا من قوة، وهم ليسوا قادرين على الكره بنفس القدر. لا حماس ولا قرف. وانا لا اعيب اليأس نفسه. فالشقيق الازلي للعقيدة هو اليأس. ولكن اي نوع من اليأس يقصد، انه اليأس الرجولي الغاضب، ليس الحزن الشاعري والسوداوي. اجلس بهدوء يا جدعون وكف عن الحكاك، كف عن قضم اظافرك. سأقرأ لك مقطعاً رائعاً من كتابات برينر. تعرب عن امتعاضك؟ حسناً. لن اقرأ. انصرف الى الخارج وأنشأ كالبدوي اذا كان ذلك ما تريده، ولكن اذا لم تتعرف على برينر فلن تملك اية فكرة عن اليأس والعقيدة، فهنا لن تجد تلك الاشعار الباكية عن ابن اوى علق في مصيدة او زهور متساقطة، كل شيء تشتعل فيه النيران لدى برينر، الحب، والكراهية ايضاً، قد لا تكونون انتم بل ابناؤكم من سيعرف النور والظلام عن كثب، تراث عريق سيصفى من الشوائب الوراثية العوجاء. ولن نسمح بإفساد الجيل الثالث بالدلال واشعار سيدات نبيلات وفاسقات. هاهي الطائرات قادمة. الان سنعيد برينر الى مكانه على الرف ونخرج للمفاخرة بك قليلاً يا

جدعون شاينبويم.

(و)

قطع شاينبويم المرجة الخضراء بخطوات عريضة، وتابع سيره على المسلك الاسمنتي وتوجه نحو القسيمة الجنوبية- الغربية، حيث الحقل المحروق الذي اختير لهبوط المظلليين. تلكأ في طريقه اكثر من مرة قرب مشاتل الزهور وانتزع الاعشاب الضارة التي حاولت التحايل من خلال الاختباء في ظل الشجيرات الصغيرة المزدهرة لكن عيني شاينبويم الصغيرتين الزرقاوين كانتا ماهرتين على الدوام في اصطياد الاعشاب الضارة. ورغم انه بسبب جيله إعتزل منذ سنوات قليلة عمله في فرع حدائق الزينة، الا انه ما دام حياً فلن يتوقف عن تفتيش المشاتل بلا رحمة ليستل منها كل عشبة ضارة.

في لحظات كهذه يفكر بوريشه الاصفر منه سناً بأربعين عاماً، ذلك الشاب الذي سلمه فرع حدائق الزينة ذلك الرسام المحلي الذي يرسم الرسومات المائية وكيف انه استلم حديقة زاهرة ثم اخذ وضع كل شيء فيها يتدهور ويفسد من شهر الى شهر وها هي تفسد امام ناظريه تماماً.

مرت ثلة من الاولاد المنفعلين بسرعة امام شمشون شاينبويم. كان الاولاد غارقين في جدل عنيف وتفصيلي حول نوع الطائرات المحلقة في سماء المرج وبسبب ركضهم فقد دار الجدال على شكل صراخ عال يتخلله اللهاث. امسك شمشون احدهم بطرف قميصه واوقفه بالقوة، ادنى وجهه من وجه الولد وقال:

"انت زاكي".

قال الولد:

"دعني" .

وقال شاينبويم:

"لماذا كل هذا الصراخ؟ ليس لديكم سوى الطائرات في رؤوسكم؟ والركض هكذا بين الزهور حيث كتب ممنوع الدخول -هل هذا مسموح لكم؟ كل شيء مسموح؟ مشاع؟ انظر الي عندما اتحدث معك واجب مثلما يفعل البشر، والا-."

لكن زاكي استغل فيض الكلمات المنهالة عليه، وبشكل مفاجيء وقفزة مخادعة ومجنونة، سلخ نفسه عن اليد الممسكة به، اندس بين الشجيرات ولوى سحنته ودلع لسانه.

اطبق شاينبويم شفتيه، وبلمح البصر اخذ يفكر بالشيخوخة، ولكنه بلمح البصر استبعد هذا التفكير من نفسه وقال لها: حسناً، سنعالج ذلك ايضاً، زاكي، اي- عزاريا. بحساب بسيط، مؤكد انه في الحادية عشرة على الاقل وقد يكون في الثانية عشرة ايضاً. انسان متوحش. جحش.

في تلك الاثناء احتل الفتية المتدربون مواقع مراقبة في اعلى برج المياه، يحومون بأنظارهم في ارجاء المرج. اعاد هذا المنظر الى ذاكرة شاينبويم صورة منظر طبيعي روسي. وللحظة استهوته فكرة التسلق الى قمة البرج ومشاهدة الهبوط عن بعد، وتوسيع الافاق. لكن التفكير بالمصافحة الرجولية المرتقبة دفعه لان يوسع اكثر فأكثر خطواته الحثيثة الى ان وصل طرف الحقل. في هذا المكان توقف منفرج الساقين ويداه مكتوفتان فوق صدره وقد غطت غرته الشائبة الرائعة جبينه. اشرأب بعنقه متتبعاً طائرتي النقل بنظرات عادية وثابتة. التجاعيد في وجه شمشون شاينبويم اغنت ملامحه. التقاطعات الفسيفسائية المشققة قدمت مزيجاً نادراً من الكبرياء والتأمل وكذلك دليلاً معيناً عن سخرية مكبوتة. حاجباه الابيضان الكثيفان ذكرا كل من يتأملهما الى حد ما بصور قديسي الكنيسة الروسية. وبخصوص الطائرتين فقد استكملتا في هذه الاثناء دورة واحدة واقتربت الاولى من سماء الموقع.

انفرجت شفتا شمشون شاينبويم قليلاً مخلية السبيل لصوت غمغمة مكتومة وعميقة. لحن روسي قديم بدأ ينبض في صدره. المجموعة الاولى من المظليين قذفت من الباب المفتوح في جانب الطائرة. اجسام صغيرة وداكنة انتشرت في الفضاء كالحبوب التي يلقي بها الفلاح الذي يقوم بالبذر في لوحة صهيونية قديمة.

حينها اخرجت راعية غيرتشفين رأسها من شباك غرفة المطبخ. ولوحت بقوة بالمغرفة التي كانت بيدها كأنما تحذر قمم الاشجار. كان وجهها محمراً وغارقاً بالعرق

بسبب القيظ الثقيل. وقد تسبب العرق بالتصاق ثوبها الخشن بساقيها القويتين الشعراوين. كانت تلهث وبأظافر يدها الخالية اخذت تنبش في جدائلها المهملة، وفجأة استدارت بوجهها الى الداخل واخذت تصرخ ببقية العاملات:

"بسرعة! الى الشباك ايتها الزميلات! غيدي هناك غيدي في السماء!"، وسكتت مذهولة.

بينما كانت مجموعة المظليين تحلق وتبدأ مثل حفنة ريش بين الارض والسماء. انخفضت الطائرة الثانية قاذفة مجموعة جدعون شنهاف. وقف المظليون متلاصقين قرب الباب المفتوح، البطون تدفع الظهور لتصبح اجسادهم كتلة واحدة متسمرة مليئة بالعرق. عندما جاء دور جدعون شد الفتى على اسنانه، وضم ركبتيه، وكالمولود في داخل الضوء القائظ القى بنفسه وبدأ يسقط. صرخة فرح وحشية ومتواصلة انطلقت من حلقه في ذات اللحظة. سقط ورأى اقاليم طفولته ترتفع اليه وسقط ورأى السطوح والقمم وسقط وابتسم لها كمن يسلم عليها، سلاماً لكم جميعاً، وسقط نحو الكروم وممرات الباطون والعرائش والانابيب اللامعة وسقط بقلب فرح. لم يذق ابداً من قبل في حياته مثل هذا الحب القوي الذي يسمر الظهر. تحفزت شرايينه كلها، وكأن ينبوعاً من اللذات تدفق بداخله وفي اعلى ظهره حتى مؤخرة عنقه وجذور شعره. وكالمجنون تواصل صراخ جدعون لشدة الحب، وانغرزت اظافره بكفيه المتكورتين حتى كاد الدم ينزف منهما. ثم انفتحت احزمة المظلة وضربته تحت ابطه وبقوة احاطت وسطه. وبلمح البصر احس كأن يداً خفية تشده للوراء، الى اعلى، نحو الطائرة، حيث قلب السماء. وتبدل السقوط العذب بتأرجح لين، بطيء، كأنه في مهد، او كمن يطفو ببركة ماء دافيء. فجأة اصابه ذعر شديد: كيف سيميزونه من الاسفل؟ كيف سيتعرفون على وحيدهم وسط غابة المظلات البيضاء؟ كيف سيعانقونني، انا فقط من بين الجميع بنظراتهم القلقة والمحبة؟ امي وأبي والفتيات الجميلات والاطفال الصغار والجميع؟ يجب الا اضيع هكذا سدى وسط جمع المظليين. الست انا، وانا فقط من يحبون؟ ليكن!.

في تلك اللحظة اومضت فكرة برأس جدعون، مد يده الى كتفه وسحب خيط

المظلة الاحتياطية المخصصة لحالات الطوارىء فقط. عندما انتشرت المظلة الثانية فوقه ابطئت حركته وبدا كمن توقف تأثير الجاذبية الارضية عليه. كان الفتى يبحر وحيداً الى قلب الكون، كما النورس، كما الغيمة الوحيدة. كان آخر زملائه قد ثبتوا اقدامهم على الارض وبدأوا يطوون مظلاتهم. وجدعون شنهاف وحده ظل يحلق كالمسحور يحلق ويحلق ومظلتان ضخمتان مفتوحتان فوق رأسه. ثملاً وسعيداً كان محط مئات النظرات المنغرزة به. به لوحده، بوحدانيته الساطعة. لتعظيم هذا الموقف ورفع مكانته هبت من الغرب ريح قوية، شبه باردة، شقت القيظ، وعبثت بشعر المشاهدين أبعدت الى الشرق قليلاً جسد آخر المظليين.

(ز)

بعيداً من هنا، في المدينة الكبيرة، استقبل جمهور المواطنين الذين انتظروا العرض العسكري بتنهيدة ارتياح ريح البحر المفاجئة: لعل القيظ قد انتهى. ريح باردة ومالحة اشفقت على الشوارع الساخنة. اشتدت الريحوانقضت معولة على قمم الاشجار وثنت جذوع السرو وباعدت بين اغصان الصنوبر، حملت خيطاً من الغبار مكدرة المشهد في عيون مشاهدي تظاهرة الهبوط، وبهيبة ملوكية، مثل طائر ضخم ووحيد، انجرف غدعون شنهاف نحو الشارع الرئيسي، شرقاً.

لم يكن بمقدور الفتى ان يسمع صرخة الخوف التي انطلقت من مائة حنجرة، دفعة واحدة، منتشياً، حالماً ومغنياً واصل التأرجح على مهله نحو سلك الكهرباء المركزي المشدود بين اعمدة ضخمة. احتضنت عيون الجمهور بفزع المظلي وسلك الكهرباء الرئيسي الذي يقطع المرج من الغرب الى الشرق بصورة آمنة ومستقيمة. خمسة اسلاك متوازية ومقعّرة بين الاعمدة لثقلها هي ذاتها، تطلق ازيزاً عنيداً وخافتاً في هذه الريح المتدافعة.

علقت مظلتا جدعون بالسلك العلوي. وبعد لحظة واحدة استقرت قدماه على السلك السفلي. وعلق جسده بشكل مائل. لتمسك احزمة المظلات بخاصرتيه وكتفيه وتمنعه من السقوط الى الارض المحروثة. ولولا نعلا حذائه المصنوعان من طبقة عازلة

وصلبة، لتلقى الفتى ضربة صاعقة لحظة هبوطه. لكن السلك في تلك الاثناء ثار ضد الحمل الغريب مبتدئاً بإحراق النعلين، والشرر الصغير يتلألأ ويتفرقع تحت قدمي جدعون. وبكلتا يديه امسك بأحزمة المظلة، عيناه جاحظتان وفمه فاغر.

وفي الحال هب احد الضباط، قصير القامة، والعرق يغمره، وانطلق من بين الجمهور المتجمد وصرخ:

"لا تمس الاسلاك يا غيدي، اسحب جسدك للوراء وابتعد بقدر المستطاع" بدأت كتلة الجماهير المتراصة والمذعورة، تتحرك على مهلها شرقاً، انطلق صراخ وتعالى عويل، وبصوته المعدني امر شاينبويم الجموع الصارخة بالتزام الصمت والحفاظ على رباطة الجأش، واندفع يركض بثبات، ساحقاً بنعلي حذائه مدر الارض، شاقاً خطاً مستقيماً وصارماً، ووصل تحت السلك مباشرة، ابعد الضباط وجموع الفضوليين الذين سبقوه الى المكان، وأمر ابنه:

"فك نفسك من الاحزمة يا جدعون، فكها واهبط في الحال، هذه اثلام محروثة ولن يحدث لك اي شيء، فك نفسك واقفز".

"لا استطيع".

"لا تجادل الان، تحرر واقفز، اسمع ما يقال".

"لا استطيع يا ابي، يا ابي، لا استطيع، لا استطيع".

"لا تقل لا تستطيع. حرر نفسك واقفز الى الاسفل قبل ان تتكهرب هناك".

"لا يمكن، تشابكت الاحزمة، لا استطيع، ليوقفوا هذا التيار بسرعة، ابي لقد بدأ حذائي بالاحتراق."

في غضون ذلك كان عدد من المظليين بدأوا يعيدون النظام ويصدون الجماهير المتدافعة، يبعدون مقدمي النصائح ويخلون مكاناً تحت الاسلاك، وكمن يردد قسماً او همساً سحرياً كان المظليون يرددون بلا انقطاع الكلمات "لا حاجة للذعر" لا حاجة للذعرمن فضلكم".

وبالجوار تدافع صغار الكيبوتس وأقاموا الجلبة، لم ينفع التوبيخ ولا الصراخ

وبجهد كبير نجح مظليان غاضبان بالامساك، بزاكي الذي اخذ يتسلق بغباء تام عمود الكهرباء المجاور مطلقاً صراخاً وصفيراً مؤدياً حركات بهلوانية لجذب انظار الجمهور اليه.

صرخ الضابط قصير القامة فجأة:

"حربتك؟ لديك حربة داخل الحزام، اخرجها واقطع الاحزمة".

لكن جدعون لم يسمع ولم يرد ان يسمع وبدأ ينتحب بصوت عال: "انزلوني ستصعقني الكهرباء في الحال، أبي، انزلوني من هنا، لا يمكنني النزول لوحدي".

"كف عن النحيب" وبخه شمشون "قالوا لك استخدم الحربة واقطع الاحزمة، افعل ما يقولونه لك! بدون بكاء".

وامتثل الفتى، بينما نحيبه يتواصل وبصوت عال، تحسس مكان الحربة وبدأ يقطع احزمة المظلة الواحد تلو الاخر، ومن حوله سكون تام لا يقطعه سوى صوت بكاء جدعون، الغريب والمؤثر، من حين لاخر، بقي حزام واحد فقط، كان جدعون متعلقاً به، ولم يجرؤ على قطعه هو الاخر.

"اقطع" صرخ الاولاد "اقطع واقفز، لنراك".

واضاف شمشون بصوت معتدل:

"ما الذي تنتظره الان؟"

"لا استطيع" رد جدعون متوسلاً

"انك تستطيع بالتأكيد" قال ابوه.

"تيار كهربائي" قال الفتى باكياً "بدأت احس بالتيار، انزلوني بسرعة"

قفز الدم الى عيني الاب الذي زأر:

"جبان، اخجل قليلاً، انك جبان"

"لكنني لا استطيع، ستتحطم عظامي كلها، المسافة عالية".

"تستطيع، وانت ملزم بذلك، لكنك مجنون، هكذا انت، مجنون وجبان"، سرب من الطائرات النفاثة كان في طريقه الى العرض الجوي في سماء المدينة مر فوق رؤوسهم،

كانت تلك الطائرات النفاثة على هيئة منتظمة، لقد دوى صوتها وهي منطلقة غرباً مثل سرب من الكلاب المتوحشة، وعندما ابتعدت من الطائرات عاد الهدوء وكأنه اصبح اكثر عمقاً. توقف الفتى عن البكاء، وسقطت الحربة من يده الى الارض، وانغرز نصلها في الارض عند قدمي شمشون شاينبويم.

"ماذا فعلت؟" صرخ الضابط القصير.

"ليس عمداً"، رد جدعون متوسلاً "افلتت من يدي".

انحنى شمشون شاينبويم الى الارض وامسك حجراً صغيراً، استقام ورمى به غاضباً نحو مؤخرة ابنه المعلق.

"بينكيو ايها الخرقة، يا لك من جبان بائس".

حينئذ توقفت ايضاً ريح البحر.

وعاد القيظ بكل ثقله لجيثم فوق الناس والجماد، وتمتم مظلي اشقر وأنمش، بصوت خفيض "انه يخاف القفز، هذا الغبي، سيقتل نفسه بهذه الطريقة" سمعت فتاة نحيفة قبيحة الوجه هذه الجملة فاندفعت نحو مركز الجمهور وفتحت ذراعيها:

"اقفز الي، يا غيدي، لن يحدث لك سوء".

"المهم" قال احد الطلائعيين القدامى الذي كان يرتدي ملابس العمل المهم ان نعرف هل فكر احد بالاتصال بشركة الكهرباء والاهتمام بقطع التيار"، وتحول منصرفاً من المكان نحو مباني الكيبوتس في اعالي التلة المنبسطة. خطا بسرعة وبغضب، ليعتريه الرعب فجأة لسماع صلية رصاص قريبة ومتواصلة. وللحظة خيل لهذا الطلائعي القديم انهم يرمونه بالرصاص من الخلف. لكنه شاهد في الحال ما يحدث: ضابط المجموعة، بطل الاساطير الجميل والاشقر، حاول قطع اسلاك الكهرباء بالرصاص.

ولكن عبثاً.

في غضون ذلك وصلت مباشرة من ساحة الكيبوتس سيارة نقل صغيرة مهلهلة انزلوا منها بضعة سلالم وكذلك الطبيب العجوز، وبعد ان نزل الطبيب قاموا بإنزال حمالة عن السيارة.

بدا في تلك اللحظة ان جدعون اتخذ قراراً مفاجئاً. وبضربة قوية دفع نفسه بعيداً عن السلك الذي تطاير منه شرر ازرق، وانقلب في الهواء. وبقي معلقاً بالحزام الوحيد تحت السلك بنصف متر، رأسه الى الاسفل ونعلا حذائه المحترقان يلوحان في الفضاء، قريباً جداً من السلك السفلي.

كان من الصعب على المشاهدين التحديد بدقة، ولكن خيل انه لم يصب حتى الان اصابة خطيرة. تأرجح في الهواء، واهناً ومنقلباً على رأسه، اشبه بجدي مذبوح علق بكلاّب.

اثار هذا المشهد نوعاً من الفزع الهستيري في نفوس الصغار. فأخذوا يضحكون ضحكاً كالنباح. واخذ زاكي يضرب بيديه على ساقيه، ويتلوى بجسمه، ويشعر بالاختناق. كما اخذ يقفز في مكانه صارخاً كقرد صغير وشرير.

ما الذي شاهده جدعون شنهاف ليمد عنقه فجأة وينضم الى جوقة الضاحكين الصغار؟ لعل وضعه الغريب شوش فكره: امتلأ رأسه بالدم وخرج لسانه من فمه، وكذلك غرته تدلت نحو الارض، وبقيت رجلاه ترفسان وحدهما السماء.

(ح)

سرب ثان من الطائرات النفاثة شق السماء. اثنا عشر طائراً فولاذياً تجمع الجمال والقُبْح وتعكس اشعة الشمس بتراقص يخلب الانظار. كانت منتشرة على هيئة نصل الحربة، هز غضبها الارض. والى الغرب، تمضي، ليملأ السكون المكان.

كان الطبيب العجوز قد استقر في تلك الاثناء فوق الحمالة، اشعل سيجارة ويحلق نحو الناس، نحو الجنود والاولاد المتدافعين وقال لنفسه: ليكن ما يكون! سيحدث ما يجب ان يحدث بطبيعة الحال. وما اشد الحر اليوم.

بين الفينة والاخرى كان جدعون يطلق ضحكات خرقاء. ارتعدت رجلاه راسمة في الفضاء المغبر اشكالاً مختلفة لدوائر واهية. هرب الدم من اطرافه المعكوسة واستقر في رأسه، واخذت عيناه بالجحوظ. واظلمت الدنيا. واختفى الالق الارجواني لتحل مكانه بقع بنفسجية تراقصت امام ناظريه. اخرج لسانه ففسر الاطفال ذلك مداعبة ساخرة منه،

"بينوكيو المقلوب" هتف زاكي "بينوكيو المقلوب"، هيه، لماذا لا تكف عن النظر الينا بعيون مقلوبة؟ لعلك تبدأ بالمشي على يديك من اجلنا".

رفع شاينبويم يده لضرب الوقح، لكنه صفع الهواء. لان الولد هرب جانباً. اشار العجوز للقائد الاشقر فانزويا جانباً بضع لحظات. حالياً، لا يتهدد الفتى خطر فوري، فهو لا يزال بعيداً عن ملامسة التيار. ولكن يجب انقاذه، يستحيل ان تتواصل هذه الكوميَديا بهذا الشكل الى ما لا نهاية. السلم لن يفيد كثيراً: فهو اعلى بكثير. لعلهم يحاولون تزويده بحربة مرة اخرى واقناعه بقطع الحزام الاخير والقفز فوق شادر خيمة. ذلك تمرين اعتيادي للغاية في تدريبات المظليين. المهم العمل بسرعة، لان الوضع مهين. والاولاد. نزع الضابط القصير قميصه واخفى بداخله حربة. فتح جدعون يديه الى الاسفل محاولاً الامساك بالارسالية. لكن القميص والحربة بداخله عبرا بين ذراعيه المقوسين وسقطا على الارض. وضحك الاولاد. وبعد محاولتين فاشلتين اخريين نجح جدعون بالامساك بالقميص واخراج الحربة من داخله. امسك به بأصابع داكنة وثقيلة لكثرة الدم المنجذب الى اسفل، الى التراب. فجأة ادنى الفتى الحربة من خده الملتهب. منحه الفولاذ بعض البرودة. مرت به لحظة عذبة. فتح عينيه وشاهد عالماً مقلوباً. كان كل شيء مهزلة بنظره. سيارة النقل، الحقل، الناس، والده والجيش والاطفال الصغار وكذلك الحربة التي بيده. لوى بوزه نحو كتلة الاولاد وضحك من اعماق قلبه ولوح باتجاههم بالحربة ايضاً. حاول ان يقول لهم شيئاً ما. لو انهم يستطيعون رؤية انفسهم من مكانه، بالمقلوب، وهم يتدافعون كالنمل المذعور، كلهم، لكانوا قد انضموا الى ضحكه بالتأكيد. لكن الضحك تحول الى قحة سيئة، لكأن جدعون قد اختنق وجحظت عيناه.

(ط)

ايقظ تهريج جدعون المقلوب مشاعر شيطانية في زاكي.

"انه يبكي" هتف الولد بخبث "جدعون يبكي، ها هي دموعه بادية من هنا... انه يبكي... المظلي المدلل بينوكيو يبكي كالطفل، انظروا، انظروا...".

وهذه المرة ايضاً اصابت قبضة شمشون شاينبويم الفضاء. "زاكي" نجح جدعون

بأن يصرخ بصوت خفيض ومشوه "زاكي، سوف اقتلك، ساخنقك، واحد بندوق!". وضحك فجأة وهمد.

اذن، لا فائدة. انه لن يقطع بنفسه الحزام الاخير، والطبيب بدأت المخاوف تتسرب الى نفسه من انه لو بقي هكذا فترة اضافية فسيفقد وعيه. يجب البحث عن فكرة اخرى. فلا يمكن السماح لكل ذلك بالاستمرار طيلة اليوم.

قطعت شاحنة الكيبوتس ببطء الارض المحروثة وتوقفت في المكان الذي اشار اليه شمشون شاينبويم. وعلى ظهر الشاحنة وضع سلمان ربطا ببعضهما بسرعة للوصول الى الارتفاع المطلوب. وامسكت عشرة اذرع قوية بالسلم من كل جانب. وبدأ ضابط المظليين الاسطوري الاشقر بالتسلق. لكنه عندما وَصَل الى نقطة وَصْل السلمين سُمِع صرير مخيف، فانحنى الخشب جراء الثقل والعلو. مرت لحظة تردد على الضابط الذي كان انساناً ممتلئاً شبه مكتنز. بعد ذلك قرر النزول وتقوية رباط السلمين. هبط الى ارضية الشاحنة، مسح عرق جبينه وقال: "لحظة. لنفكر". وبلمح البصر، وقبل أن يصبح بالامكان ردعه، بل قبل ان امكنت رؤيته، كان الولد زاكي في اعالي السلم، وقد تجاوز نقطة وصل السلمين. مسرعاً كالقرد اليائس نحو درجات السلم العلوي، وبيده حربة لا احد يعرف كيف وصلته. وبدأ يصارع الحزام المشدود. فحبس المشاهدون انفاسهم. فقد بدا ان الولد لا يأبه بقوانين الجاذبية نفسها، لا يستند الى شيء، لا يحاذر يقفز في اعالي الدرجة العليا، سريعاً، مرناً، وناجعاً الى درجة الفساد.

(ي)

وبكل نقلة اثقل القيظ على الفتى المعلق. وبدأت عيناه تنطفئان. وكادت انفاسه تتوقف. وببصيص صفاء ذهنه الاخير شاهد امامه اخاه القبيح واحس بأنفاسه على خديه، وأحس برائحته. شاهد الاسنان القواطع التي انبثقت من فم زاكي، رعب فظيع اطبق عليه كمن ينظر في المرآة ليشاهد وحشاً. ايقظ الكابوس لدى جدعون ما تبقى من قوة. رفس الفضاء. ارتعد، ونجح في قلب نفسه، امسك بالحزام وشد نفسه الى اعلى. وبأذرع مبسوطة انقض على السلك وشاهد الضوء. وواصل القيظ احكام سيطرته على

المرج. وسرب ثالث من الطائرات النفاثة اذهل الجميع بزئيره.

(ك)

مكانة الاب الثاكل تحيط الانسان بهالة من العذابات المقدسة. لكن شاينبويم لا يفكر الان بهذه الهالة. حاشية مذهولة وصامتة ترافقه نحو غرفة الطعام. وهو يعرف حق المعرفة ان عليه الان ان يكون الى جانب راعية.

في الطريق مر به الولد زاكي، متحمساً، لاهثاً وبطلاً. واطفال كثيرون حوله. كاد ان ينقذه. وضع شمشون يداً مرتجفة على رأس ولده محاولاً القول... ولكن صوته لم يسعفه، وارتجفت شفتاه بصمت. وبتثاقل داعب الغرة الجعدة والمليئة بالغبار. وهو لم يداعب ابداً هذا الولد من قبل. بعد عدة خطوات اظلمت الدنيا فانهار العجوز فوق احواض الزهور.

في ختام عيد الاستقلال خف القيظ. واشفقت نسمة بحرية على الجدران الساخنة. وطيلة الليل تساقط الندى الثقيل على الاعشاب الخضراء.

اية بشرى تحمل تلك الاستدارة الشاحبة حول القمر؟ على الغالب، فهي تبشر بالقيظ سيتجدد القيظ غداً بالتأكيد، شهر ايار، وسيليه شهر حزيران، ريح تمر بين اشجار السرو في الليل محاولة مصالحتها بين قيظ وآخر. عادة الريح القدوم، التوقف ثم القدوم ثانية. لا جديد

ترجمة: سلمان ناطور ومحمد حمزة غنايم

عماليا كهانا- كرمون

ليتني اعجبتك



* عماليا كهانا- كرمون
ولدت في كيبوتس عين حارود ثم انتقلت للاقامة في تل ابيب. درست فقه اللغة وعلم المكتبات في الجامعة العبرية في القدس. صدرت مجموعتها القصصية الاولى وهي بعنوان:
"تحت سقف واحد" عام ١٩٦٦.
حازت على جائزة بياليك عام ١٩٩٤.
من بين اعمالها:
"والقمر في وادي ايلون" (رواية، ١٩٧١)،
"معها في طريق العودة" (رواية، ١٩٨٤).

الرجل الذي يعيش على كوكب له يدان ورجلان ورأس، والعينان مفقودتان كحجرتين فارغتين، حدثنا الحبر سملاي متسائلاً: ماذا يشُبه الجنين في احشاء امه، انه مطوي وضعه كوضع الدفتر، ويداه موضوعتان على صدغيه وعضداه موضوعان على ركبتيه، ورأسه موضوع بين الركبتين وفمه مسدود وعلى رأسه شمعة مشتعلة وهو يرقب الدنيا بنظره من اقصاها. الى اقصاها ولا عجب، فأن الانسان نائم ها هنا ويرى اضغاث احلام، في اسبانيا، ولو دنوت بخدي من خده ولو هززته ولو قلت له متوسلاً: ايها الرجل الذي يعيش على كوكب، يا ايها الشمعة الخافتة، من تكون؟ ليتك تبوح لي بسرك فألتزم سمعاً وطاعة.

ولكنه ابداً لا يقول شيئاً باستثناء انه يصححني كلما تلوت اسمه من دفتر اليوميات، أما انا فلا اتمكن من ادراك الطريقة التي يريدني لفظ اسمه بها.

جو الصف ملؤه غبار الطباشير، والناس بسحناتهم غير النضرة محشورون داخل كراسي الاطفال المهترئة يسندون ذقونا غير حليقة مغضني الجباه- مجموعة من اصحاب العوائل الساعين للتقدم في وظائفهم، ياقاتهم ملوثة وعيونهم تعبة، ومن ضمنهم ايضاً امرأة مطلقة وفتاتان من الطوائف الشرقية، احداهما متماسة الحاجبين وعلى خديها مسحة من شعر كشعر الابط، والاخرى على رأسها كومة من الشعر عالية، تجلسان كالطواويس تحت الضوء الكهربائي تطليان اظفارهما مدى الدرس كله ورائحة الطلاء النافذة تمتزج بابخرة السجائر الرديئة والدخان المغثي المنبعث من عيدان الكبريت المشتعلة في المنافض، "الموضوع: اطقم ٠٤٧٧، اواني الشاي، واطقم ٠٤٤٨، اواني القهوة، نظراً للطلب غير المتوقع على الاطقم الانفة الذكر فقد نفذ مخزون هذين الصنفين من انتاجنا الذائع الصيت..." مدرسة مسائية لتأهيل الموظفين: اما انا فمعلمة المراسلة التجارية.

انه معنا وليس معنا في آن، ذلك الرجل الذي يعيش على كوكب، اشبه بمن عوقب فارسل الى عالمنا ليكفر عن ذنبه، لا تراه العين المجردة الا دخيلاً وافداً غامض الملامح بطاقيته الحريرية المائلة جانباً بتراخ كالمهزلة، المربوطة بمشبك، كم عمره؟ رجل بلا عمر، لا جمال فيه ولا اناقة، متراخي الجذع، طويل القفا والذراعين وجيوب ملابسه منتفخة وممتلئة، اثار لسوالف، صورتان جانبيتان ملتصقتان ببعضهما تغطيهما غابة هزيلة، الصوت العميق غير مناسب والراحتان معدتان لتصفح الكتب، وهو فعلاً يحمل دائماً هذا الكتاب او ذاك، "الى من يهمه الامر، نرجوكم مشكورين ان ...." كانت الكتابة تكلفهم قسطاً لا بأس به من الجهد، كنت انتقل بين المقاعد فتوقفت عند الرجل الذي يعيش على كوكب، وفتحت الكتاب الذي كان حمله معه وكان موضوعاً على مكتبه، وكان عبارة عن قاموس للمفردات الاجنبية، وتصفحت فقرأت: "كاكاو" (المكسيكية)، "كاكادو" (الملاوية)، "كاكتوس (اليونانية)، وسألته: هل تقرأ ذلك؟.

فهز رأسه بالايجاب، ثم اخذ مني الكتاب واغلقه، وجلست على المقعد الشاغر الكائن بجانبه وامسكت بدفتره وتأملت في خط يده العنكبوتي الذي لا يصلح لشيء اذ لا يترك اي اثر على الورقة. وكان الرجل الذي يعيش على كوكب منتصباً في مقعده ينظر الى امام وكأنه عازم على دفع المقعد جانباً، وكنت انا اراقبه، ووضعت دفتره امامه مفتوحاً، ثم نهضت مبتعدة عنه، ولكنني كنت اسير وكأنني مصنوعة من ورق، اما قلبي فقد انفغر فيه ثقب هائل.

كنت انوي اجراء مكالمة هاتفية قبل الدرس، فأردت صرف ورقة من فئة نصف ليرة. وكانت صور لاسطح وشرفات ترتسم على مدفن النهار الحار في الغرب، وكانت الحيطان تبدو كالمنهارة. ودلفت الى مطعم في ناصية الشارع فكان الرجل الذي يعيش على كوكب جالساً الى مائدة عند المغسل يأكل بيضة محشوة على الطريقة الروسية، وكان مسبل العينين، يمسح صحنه بشريحة من الخبز.

"انها مكالمة خارجية"- قلتها لمن عند المنضد الذي كان عبارة عن ثلاجة كبيرة، متظاهرة بأنني لا الحظه، فرؤية انسان وهو يتناول الطعام بمفرده فيها ما ينافي الحشمة.

ونظرت صاحبة المطعم الي، ثم اشارت علي بأن اتبعها لتدلل صامتة وهي تفتح الصندوق على ان ليس فيه قطع من فئة العشر أغورات، انها فرصة سانحة!! غالبت شعوري وتقدمت من الرجل الذي يعيش على كوكب:

"لو سمحت...."

وقبل ان افرغ من الكلام فتح راحته عن نصف ليرة مصروفة خمس قطع من عشر اغورات. لقد سمع، اذن.

خارت قواي واستحوذ علي نوع من التواضع الغريب نحونا نحن الاثنين، وكأنه تلبد فوقي انا ايضاً سحاب خفي يبتلع الاصوات كلها، وكأنني ايضاً ولجت عالماً عجيباً كعالم الطرشان. ووضعت الورقة النقدية الملساء على راحته الكبيرة المنبسطة الاصابع، ان ظفر الابهام غير نظيف- ثم تناولت القطع النقدية الواحدة تلو الاخرى.

وتساءل بأدب وعلى لحيته نقطة من الصلصة: لعلك بحاجة الى عدد اكبر.

لقد فتح فاه ليتكلم!

واخرج محفظته وراح يعد بعض القطع الاخرى.

"اشكرك، ولكن لا حاجة" -قلتها لاهثة ثم خرجت.

اما وقد تكلم، فأصبح كأنه يطير نحوي، بجناحين متوترين متحفزين يطير وبعينين لا تريان، انه يقطع مسافات من سنوات ضوئية، يبتلع ضوؤها القمري المتألق بالبلاتين الذي ليس للبشر الفاني نصيب فيه، الشمعة الخافتة الضوء ليغمر عيني، وبعد لحظات، وعند تجمعنا كلنا في الصف، هززت له رأسي وهو داخل، الا انه لم يرد علي، بل مضى وجلس مكانه.

ومن لحظتها لم يكن لي عينان الا لرؤيته، ولا اذنان الا للاصغاء اليه، ولا قلب الا للدعاء: ايها الرجل الذي يعيش على كوكب، لا ترفضني. اما ذلك الوجه الابيض المختفي ذو الشفتين المنحوتتين كشفتي زنجي ابيض والشامات المنتشرة حتى على الشفتين، فقد كان يعز علي اشد العز ويوجه لي انذاراً في نفس الوقت.

وفي الاستراحة خرجت لاستطلع سجلات المكتب فعلمت انه يبلغ من العمر الثانية والعشرين. اما ثقافته فإنه خريج كلية دينية ووظيفته موظف استعلامات في احدى الدوائر الحكومية.

انتهت الحصة، فسارع الطلاب الى الباب متزاحمين يسحبون اقدامهم، وكانوا كمن يبغي الفرار يترك وراءه اطلالاً.

"سيدتي، الست شقيقة ذلك الرجل...."- كان مخاطبي تلميذي الاعرج الدائم التساؤل- "اعني السيد امستردام الموظف في مكتب الجمارك في اللد".

فأجبته بصوت عال: "ان امستردام اسم زوجي"، ثم اضفت ما لا يمت الى قولي السابق بصلة: "زوجي ليس هنا. انه يمد خطوط الانابيب في النقب".

غير ان الرجل الذي يعيش على كوكب لم يكن يصغي، اذ كان جالساً على كرسيه كمن يدفع المقعد عن نفسه، يبدو وكأنه شفاف، وكأنك ترى من خلال عبارة "فما

هو الانسان حتى تذكره" تاج الخليقة وهو يمس نياط قلبك. وكان بذقنه الملقاة عل صدره الغائر اشبه بمن يذاكر شيئاً، وخطر ببالي انني سأتذكره هكذا ابد الدهر، ولملمت اغراضي بعناية كبيرة، اذ لم يبق سوانا. ونهض الرجل الذي يعيش على كوكب وراجع نفسه فخرجنا. وكان ينسل بمحاذاة الجدران بخطى حثيثة كالشعنينة المنتوفة الذابلة. اما انا فقد كنت اهرول وراءه او اكاد. انهم حقاً لا يربون على المروءة في الكلية الدينية.

وفي الزقاق كان المساء رقعة فوق رقعة، وفي دكان الاطعمة الفاخرة المقفل كان صاحب المحل يجمع حساباته واقفاً. اما محل الحلاقة فقد خلا من العميلات وكانت الفتيات تلميذات الحلاقة المتسخات يغسل بعضهن رؤوس بعض يجلسن بأنفسهن تحت نواقيس ماكينات تجفيف الشعر. وكانت احداهن تنشر شعرها الداكن امام المرآة، ترفع بيديها خصلا من الشعر كثة الى جانبي وجهها ثم تدعها تتساقط كالساحرة الحيزبون. وكنت انا كعادتي ابحث عن غرف مضاءة، اصطادها مكتشفة ستاراً او طرف قطعة من اثاث او مفرشاً او ماكنة خياطة او منكب امرأة ملقى عليه شريط قياس.

"تسكن بعيداً سيادتك؟" - كنت قد تكلفت السؤال قدر استطاعتي على طريقة الدردشة العابرة، اذ كنت عالمة بمكان سكناه.

"بجوار مطبخ اليتامى الكبير."

اتراه فهم بغير كلام كيف يضطلع بتمثيل دوره في المسرحية؟

قلت مواصلة الدردشة المتكلفة: "كيف يمكن السكن هناك؟، انه اشبه بالتقهقر عودة الى القرن التاسع عشر او الى غيتو من غيتوات المدن الاوروبية، اذ لا ينقصك سوى قرقعة الترام".

فأجاب مكلفاً نفسه عناء الشرح: "احب ذلك، فانه قاب قوسين او ادنى من حي "ميآه شعاريم" ومع ذلك فليس جزء من ذلك الحي بل انه دافق يعج بالحياة".

"دافق يعج الحياة؟".

"عندما كنت وصلت لتوي الى البلاد، تصادف زيارتي للمكان، ففكرت في انني اذا اتفق سكني في القدس فانها هي المنطقة التي ارغب في السكن فيها، وها اناذا

اسكن هناك بالتحديد".

"ومن اين جئت"؟

"من لندن"

"هذا يعلل كل شيء، اذاً" -قلتها محاولة جمع رأيي برأيه، "انها ولا بد تذكر بشوارع اليهود في لندن".

"اني في لندن لم اكن اسكن شوارع اليهود".

انه من لندن. قد يكون هذا هو ما يعلل كونه صامتاً هكذا ومنزوياً هكذا.

"اتسكن لوحدك"؟

"اجل".

"وهل لك اصدقاء؟"

"نعم".

سكت .

واردف مُبَيناً: "اننا نحن اعضاء (الشبيبة المتدينة) نلتقي معاً بممرضات مستشفى (شعاريه تسيدك)".

"عظيم".

كنا قد وصلنا الى الشارع الرئيسي، وكانت رائحة قهوة مريرة النكهة كالجوز تنبعث من احد المقاهي. وفي واجهات الدكاكين اسفنجات الاستحمام، خطاطيف المناشف، مخافق البيض، قوالب الكعك، حصائر المداخل، حزم الزهور المنحوتة المصنوعة في الخارج، والوسائد والفرشات والموائد القابلة للطي والخزانات. انه متحف يضم جميع ما نؤثر نسيانه وعدم تذكره، ليس الا. شارع ليس لانسان. اناس ليسوا لانسان. وكالات ومكاتب ولافتات وبنات. اللافتات منتشرة في مداخل بيوت الدرج التي تعتبر ملكاً عاماً وبداخلها بسطات محكمة الاغلاق من الداخل والخارج. اما قدس السحاب المبنية افخم بناء، قدس الرخام والاقوام، القدس التي عرفتها، فأين هي؟

استرقت النظر اليه من طرف عيني، وفكرت في انه هو ايضاً وبطريقته

الصامتة بحاجة للتزود من عشرة الناس مثلما تتم عملية التناضح، انني انظر في مخيلتي الى الشارع الذي يسكن فيه نظرة جديدة، واليهود انظر اليهم نظرة جديدة، انا التي لم ازر كنيساً باستثناء كنيس (هآري) في صفد والكنيس ذي الشبابيك الذي رسم على زجاجها الرسام مارك شاغال.

اردفت متسائلة: "لماذا اتيت لتدرس عندنا؟"

"ماذا؟"-قالها برقة غير متصورة، ثم استعاد عنفوانه فقال: "لانني لست راضياً عن عملي".

كنت سأنفجر ضاحكة لولا ان وداعته وصراحته حالتا بيني وبين ذلك. وبدأ جرح مندمل ينزف من جديد، وهبت ساعتها ريح وطيرت طاقيته فحطت على عنقي فاستردها واعادها الى طرف رأسه.

قلت: "هلا ذهبنا للسينما؟"

ورمقني الرجل الذي يعيش على كوكب بعينين فزعتين، ثم قصد الطابور ممتثلاً.

وقفنا صامتين، وحين نظر الي ابتسمت، غير انه ما لبث ان اشاح بعينيه. كنا نتقدم كالبهائم الى الحظيرة المسيجة بالحديد صامتين، ووضعت امرأة تقدمتنا في الدور رأسها على كتف رفيقها فداعب ذقنها، ونادتها امرأة اخرى كانت واقفة خارج الطابو (ستيفي، ستيفي)، ولكن (ستيفي) لم تسمع. واشترى كل منا تذكرته ماداً يده عبر قفص بائع التذاكر ليلتقط الفكة.

وانتحينا عن الطابور واقفين امام مدخل دار السينما كغريبين تصادف وقوفهما عند بعضهما، وكان المكان مزدحما مشبعاً بروائح مواد الزينة وكان بعض الفتية واقفين على شفا الشارع مستندين الى اسطول من الدراجات النارية، وكان شخص كله سواعد يبدو كمشجب للمعاطف مدور يجول موزعاً اعلانات دعائية لاحد القفالين تبشر بانتقاله الى عنوان جديد، وكان الناس يتسلمون منه الاعلانات ليتخلصوا منها حالاً. "انه هو نفسه" - قالها احد الفتية مخمناً، وهو يترنح كما لو كان على انغام

لحن وعلى اساس مفهوم مستعار لسلوك من يوهمون انفسهم بأنهم من ابناء الصفوة، فابتسم له الرجل ابتسامة بلا اسنان مسروراً بالخطأ الواقع فيه الفتى الذي قال متعجباً: "انه يضحك!" وكان شرطي يغطي جبهته يوجه السيارات المارة بحماس. ربما كان يومه الاول في وظيفته فبدا كاللعبة الميكانيكية المشدود نابضها الى الاخر. وفطنت من الموسيقى المتصاعدة من جيب احد الاشخاص الى ان اغنية (ابتسمي من خلال دموعك) عادت الى الموضة بعد ان كانت فيما مضى يكثر تقديمها غناء ورقصا. وحده الرجل الذي يعيش على كوكب كان واقفاً مقوسا ظهره على طريقة من طالت قاماتهم، رغم انه لم يكن طويلاً ولا كان قصيراً. واذا بالجموع المحتشدة كالعاصفة الهوجاء والموج العارم يهدد باغراقنا، اذ كان باب جانبي قد فتح منطلقاً كالريح ودفعتنا الجماهير المندفعة نحوه ووقعت على الرجل الذي يعيش على كوكب فأغمض عينيه وبقي بلا حراك. وقلت في ذاتي: انك ترى نفسك خجولاً ولا تعرف انني اكثر خجلاً منك.

وقلت بصوت عال: حضرتك شخص غامض، فأجاب:

"كلا، مجرد تعب اشعر به اليوم".

فقلت مسبلة عيني:" لم اكن اقصد اليوم بالذات، بل دائماً".

ولم يرد علي.

ورفعت عيني، وكانت محارة اذنه وما ارتفع من عنقه فوق عيني يجتاحهما الاحمرار فتذكرت كيف انني وانا طفلة غطيت مصباحاً يدويا براحتي فراعني ما رأيته لاول مرة في حياتي من عروق متشعبة فيها، ولكن ما الذي يحول كيت وكيت رطلاً من اللحم والعظام الهزيلة المغلفة بالثياب الى بؤرة تدور حولها حياتي برمتها في هذه اللحظة؟ انه بهاؤه المتواضع الذي يشع من خلالها. اعطني اشارة! اشر! اهدني!.

ومن ساعتها اصبحت الامور خيالية اكثر فاكثر. وقلت بنفس اسلوب الدردشة المفتعلة:

"لا تجبني اذا كنت اتدخل في امورك الخاصة، ولكنني اردت سؤالك، هل ستكون زوجتك ممن يحلقن رؤوسهن بعد الزواج، ام سترتدي قبعة؟"

فأجابني الرجل الذي يعيش على كوكب برزانة:

" سيتوقف الأمر على رغبتها".

"واذا طلبت رأيك، فبم تراك تنصحها؟"

"بارتداء القبعة".

"لماذا؟"

"سيرا على احكام الشريعة".

"ولكن، لماذا؟"

"لانك لا يجوز ان تنتقي ما يعجبك من احكام الشريعة دون غيره".

"ولكن، لماذا؟" سألته بوقاحة .

كنت طيلة تلك المدة ملتصقة به التصاقاً مكنني من الاحساس بمدى ذحافة الذراع التي كانوا يلصقونني بها وبمدى رخاوتها. وكانت خيوط الكنزة الدقيقة تكاد تلمس أهدابي، ربما كان بإمكانه الابتعاد، ولكنه لم يفعل. وكنا الان ننجرف ضمن الموجة الجماهيرية الى الداخل يقذف بنا الى ردهة الانتظار.

قلت: "انهم يقومون بتهوية الصالة".

لم يجبني الرجل الذي يعيش على كوكب، وكان يطوي تذكرته ثم يعود يقومها، وايقنت انه بذقنه الملقاة على صدره ولحيته المنتصبة لم يعد موجوداً.

قلت: "الاحظ ان حضرتك اذا احسنت معاملتي لحظة، اسأتها في "اللحظة التالية"، وكالعادة، لم اتيقن من أنّ كلامي قد بلغه.

وفوجئت به يضحك نصف ضحكة يطوي انفه بشيء من اللامسؤولية. وكان لبرهة كساق النبتة في صباح شمسه باردة، لاذعة، ليس بينها وبين الدنيا حاجز. وكنت لطرفة عين تستطيع رؤية كيف سيكون لو كان كما ينبغي ان يكون- مرحاً، مختلفاً، كما سيكون يوماً، ولكن ليس معي.

"انتظري ودعيني اتذكر ما قبل لحظة، كيف كنت، لنعرف كيف نكون الان".

"قبل لحظة كنت طيباً، جداً، لا تكن شريراً، ارجوك". لقد تساقط التكلف

كالحجاب.

ربما لم يسمع، اذ انه لم يعد حاضراً، كان يتأبط كتبه، يطوي تذكرته ويقومها، يطويها ويقومها.

"انني" -قلتها فجأة- "انني اتقدم قفزات، فخلال محاكمة (آيخمان)، على سبيل المثال، انتابني شبه ازمة، حتى انني ظننت في انها فرصة مواتية لاحد الحاخامات للاعتناء بي وتحقيق بعض المكاسب." قلتها وندمت في الحال، لانها كانت الحقيقة، اما هو، فقد بدا لي انه سيحسبها حيلة لاكتساب عاطفته.

القى نظرة على ساعته ذات السلسلة المصنوعة من ذهب صناعي والحلقات المسطّحة للزينة.

"هل اتتك الساعة هدية لعيد بلوغك *(البار متسفا)؟

"أرى ان نتخلى عن الفيلم" -قالها وهو يلقي بنظرة على ما حوله.

"يا للاسف، انظر الى هذا الجسر كم هو جميل، وما اجمل هذه القردة والببغاوات." كالابرة في اللحم الحي. ولكن ربما كان لا ضير في الامر. ربما لم يكن بهذه الفظاعة. قلت: "كم هي جميلة النجوم والنخيل"، ونظرت الى اعلان الفيلم، وسرعان ما كنت اخطو خلفه نحو باب الخروج. اما المرأة البيضاء الجميلة المرسومة على الاعلان والمقيدة عارية بالجذع وفمها يتأوه والسكاكين مغروزة في الجذع حول رأسها، فلم اخصها بكلمة.

"ليس جميلاً الا ما يعجبني" -قالها جازما لا مبالياً وبدون ان يقيم لكلامه وزنا، وهو يشق الطريق. فجأة، اصبحت جموع الناس تحمل حملاً، وكأنه عن طيب خاطر، الى فوهة الصالة ليحبس فيها الناس جميعاً في الظلام، وكأنهم جاهلون كونهم يشتركون في طقوس غامضة قاسية هم بها مأمورون، والويل للمنبوذين.

فكرت في ذاتي: أما انا، فهل حقاً انا ايضاً مما يعجبه من اشياء. يا سيدي، ليتني اعجبتك. انه لشك مرعب. ما ادراني لو توقفت عن المسير فقد لا ينتظرني بل وقد لا يحس.

قلت وقد خرجنا: "لي ولد".

لم يبد الرجل الذي يعيش على كوكب ايما اهتمام.

"صاحبة البيت تأوى به الى فراشه. انه صبي طيب وعمره ست سنوات". لم اكن قد شعرت يوماً بمثل هذا الاهمال من احد. واردفت قائلة: "وايضا اواجه بعض المشاكل". انها فعلاً مضيعة للوقت. وسألته: "ماذا كنت تفعل لو انك مكاني؟".

وقاطعني الرجل الذي يعيش على كوكب مبتسماً:

"لست مكانك".

فقلت موافقة: "اجل". ثم اردفت: "هل جو لندن بارد؟"

وفكر الرجل الذي يعيش على كوكب مليا قبل ان يجيب:

"لست اعرف، ولكن يا للعجب، انني هنا حتى في الشتاء احس بالحر".

"لقد قلت لك انك رجل شديد الغموض. "قلتها بحزن، فعاد وابتسم، اما انا فقد شعرت بأنه ابداً لن يكون لي.

واردت ان اقول: صدقني بأن لا تجربة لي البتة كزوجة للعزيز. ولكني قلت في نفسي: ما الفائدة، مطيحة بسلسلة الاعتذارات التي خطرت ببالي. انه ابداً لن يكون لي. علي ان احاول رؤية نفسي من خلال مقلتيه الخاويتين الناقصتين: امرأة عادية ليست من اهلنا، مثلها مثل الالوف المؤلفة باستثناء انها تقابل بأسارير منفرجة شاباً وحيداً من المتدينين.

ووقف رجل من المتسكعين يضع قبعة من الصوف في مدخل متجر "هماشبير لتسرخان"، وبدا كدبّ مصبّر كبير في مدخل فندق يعود الى عهد الملكة فكتوريا، وتعالت من جيب رجل اخر تلك الاغنية التي عادت للموضة بعد ان كانت رائجة غناء ورقصاً في الاسابيع السابقة لزواجي وانا مسرحة من الجيش للتو.

البار متسفا: تقضي الشريعة اليهودية ببلوغ الفتى بحلول عيد ميلاده الثالث عشر، ليصبح مسؤولا امام الله والناس عن القيام بجميع الفرائض، ويقيم والدا الفتى احتفالاً بهذه المناسبة، حيث يتلقى الفتى الهدايا من المدعوين.

"أرأيت الملكة في لندن؟"

كنا نمر بشارع (هراف كوك)، وقفز بخفة من الرصيف الى الشارع، وقال:

"انني اسير من هذه الطريق".

قلت محتجة:

"ولكن الطريق الى "مطبخ اليتامى الكبير" اطول هكذا، انني مقتنعة بذلك ومتيقنة من انني استطيع اثبات كلامي على الخارطة".

"ربما، اما انا فأسير دائماً من هذه الطريق. طابت ليلتك."

فقلت هازة رأسي بتأدب: "تصبح على خير".

تجاوزت الشارع وتوقفت امام واجهة محل للاحذية. قد يعود، قد يأتي ولو ليقول كلمة طيبة، مثل: "سيدة امستردام، ما اسم ابنك؟" او "سيدة امستردام، اشكرك، لقد قضيت وقتاً غاية في المتعة"، او "سيدة امستردام، لقد غيرت رأيي، سأرافقك الى الحافلة"، او: "السيدة امستردام العزيزة، يا عصارة قلبي، يا نور عيني، سامحيني. احبك. لقد احببتك حباً جامحاً من اول نظرة".

كتب على اللافتة بخط متموج: "احذية كاليفا، تشكيلة كبيرة، هدايا للعيد".

كانت امرأة مارة تقول لزوجها بلغة "الايديش": "شقتها انيقة كعلبة الشوكولاته الفاخرة، وفساتينها كالعدس المنقى." وكان يبدو عليهما ان ما خلا من سنين لم يقرب بينهما، فبقيا حديثي العهد ببعضهما البعض. وكان ثلاثة من الزنوج الافريقيين الضيوف يتجاوزوننا ذهابا واياباً وكان شعرهم كفروة الكراكول ووجوههم كالغريبفروت الاسود. كان احدهما يضع طاقية من حرير ابيض وازرق مطرز عليها: "ان نسيتك يا اورشليم تنسى يميني" وكان يرتدي جوربين اصفرين ويلقي علي نظرة خاطفة فضولية من حين لاخر. اما انا فكنت في حيرة من امري.

عدت الى البيت.

كان الولد نائما في غرفته الصغيرة. اشعلت النور في مصباح القراءة بالغرفة الاخرى، وكان ذا بقعة سوداء محروقة في رق كمته، كان حذاء البيت الفارغ موضوعاً

على السجادة بوضعية راقصة الباليه، وكانت الريح قد طيرت الستائر الى داخل الغرفة: انها انا، ولكن شفافة، بلا جسد. طيرت الريح الستائر الى الخارج. انني انا التي خرجت الى الشرفة. كانت مصابيح السيارات على سفح الجبل تشع نوراً داكناً متراقصاً يجول على الحائط. هرب قط وسمعت اصوات موبخة من طابق اخر. عدت الى الغرفة. فنجان قهوة فارغ من بقايا الليلة الماضية. كتاب ملقى على المتكأ المسطح للاريكة المفتوقة: "واجابني اوريئيل احد الملائكة القديسيين الذين كانوا معي، فقال لي: لماذا تخاف، يا حانوخ، هكذا، ولماذا ترتجف... ان تلك النار التي رأيتها تجري هي النار الغربية المشتعلة وراء كل اضواء السماوات... واخذوني الى الماء الجاري ونار الغرب التي تستقبل الشمس كلما غربت.... وقال اوريئيل لاحد الملائكة القديسيين: لماذا تسأل يا حانوخ ولماذا تتحرى... "كاكاو" (مكسيكية) "كاكادو" ملاوية، "كاكتوس" (يونانية)... اغلقت الكتاب وخرجت من البيت.

كنت واقفة على الرصيف.

ان الياسمين الاصفر المزهر في الليل في ساحات البيوت كافة يبدو كقصاصات الورق المعلقة على الاسلاك الشائكة. وعند عامود الانارة تقف شجرة الازدرخت المتجددة كل سنة يسيل منها الطلاء بغزارة وكأن الربيع لم يسمع به احد قط. اما انا فما يضيرني؟ فلينور ويزهر ما شاء. وفي الافق، ما بين العمارات كان البرق يرتسم في السماء آتيا من العدم . ها هي بعض القطرات تتراقص ترقط وجه الرصيف فتنبعث منه رائحة الاوزون. نزلت الى ساحة البيت المجاور وقرعت باب جاري الذي كان هو الاخر يسكن في شقة بالقبو، ولوحده هو ايضاً. نحن الاثنان نحضر العشاء في ذات الوقت. حيث لا اراه الا في ذلك الوقت، اومليت بشرائح السجق والبصل المقلي وكوب من الشاي والجريدة المسائية. اطل عليه كمن يصادف خياله في المرآة. اما هو فيطل علي هو الاخر بفزع، يضع على وجهه في الحال سحنة مثيرة للشفقة اشبه "بالسيدة الجميلة بلا رحمة".

كنت الان واقفة امام بابه المثبتة عليه لوحة هذا نصها: "ب. يواخيم، مدوزن بيانوهات". كان السيد يواخيم يبدو عن قرب اضخم جثة مما كنت اتصوره، فقد كان

فعلاً ضخم الجثة. وقد فتح الباب لابسا بيجاما وروبا، اما انا فلم اكن اعرف ماذا اقول. وادخلني، وكان في الغرفة سرير مهلهل وعلى اللحاف بطانية صوف برتقالية اللون مصنوعة من خيوط مغزولة على شاكلة قرص العسل، كانت اسطوانة تدور على الحاكي عند السرير عنوانها بونا سيبرا سنيوررينا" وكانت حلقة من سلسلة اسطوانات لتعلم الايطالية. كانت الغرفة الخالية من سجاجيد تبدو وكأنها مخزن لمحل لبيع الكتب وكانت تضم كتب الفكر والشريعة والتقاليد والثقافة اليهودية، كان على المائدة كتب وعلى الكرسيين كتب. ورأيت كتباً مفتوحة تبين انها كتب تحوي قوائم للكتب لا غير، ومن ضمنها كتاب عنوانه "فهرس الفهارس" يقتصر محتواه على قوائم لكتب يشكل كل كتاب منها قائمة للكتب بحد ذاته، وكان الحاكي هو ايضاً موضوعاً على برج صغير من كتب القطع الكبير (الفوليو). وكان السيد يواخيم غاضباً يتفحص ظهر راحته بعناية وينتظر. اما انا فلم تصدر مني كلمة، وفكرت مشاورة ذاتي في انني سأسأله ان يعطيني جريدة لاستطلع الصيدليات المناوبة، ولكن السيد يواخيم كان هو الذي فاتحني قائلاً:

(الزانية يكال لها بما كالت به، فلانها كانت تقف على باب بيتها لتريه، فإن الكاهن يقف بها على باب (نيكانور) ليري عارها للجميع". واردف قائلاً: ولانها جللت رأسها بالمنديل الجميل، فأن الكاهن يأخذ الطاقية من رأسها ليضعها تحت قدميها. ولانها جدلت شعرها. فإن الكاهن ينثر شعرها، ولانها اتشحت بوشاح جميل، فإن الكاهن يأتي بحبل (مصري) ليربطه فوق ثدييها. ولانها زينت وجهها، فإن وجهها يشحب، ولانها كحلت عينيها، فإن عينيها تجحظان...."

وكان السيد يواخيم قد علق في غرفته عوض الصور بعض تصاوير لانواع الطبع القديمة، وكان احدها عبارة عن خارطة العالم والتي كثرت فيها اذيال الامواج يسبح فيها الدرافيل وحور البحر ووحوش البحر ونبتون الممسك بالشوكة. وكان تصوير آخر مؤطر يحوي بابا لكتاب لاتيني بطبعة بازل، رسم اعلاه صف ضيق من شخوص قصيرة القامات تجري كما لو أصابها من الجنون منها رجال ومنها نساء يحملون ادوات

البستنة يرافقها الكلاب والاوز تتجه جميعها نفس الاتجاه. وفي الاسفل، وفي صف ضيق نفس تلك الشخوص ازواجاً ترقص رقصة جماعية اشبه برقص الشياطين تتطاير لها ضفائر النسوة، وفي الوسط مربع مزخرف فيه حرف M كبير يلصق جزؤه الاوسط عجوزاً بالارض، هو يعقوب الحالم بالملائكة الصاعدين النازلين في السلم المنتصب البالغ رأسه السماوات.

"أيوجد عندك جريدة؟"

لكن السيد يواخيم لم ينقطع:

"ولانها اشارت له بأصبعها، فإن اصابعها تتساقط، ولانها مدت له فخدها، فان فخدها تسقط، ولانها استقبلته على بطنها، فإن بطنها تنتفخ...."

"أيوجد عندك جريدة؟" كنت اخطو منسحبة الى الباب، فواجهت باب كتاب الماني من طبع ستراسبورغ، مرسوم عليه بوابة حجرية شاهقة ومن تحتها لجاج البحر، حيث الاسماك وحيوانات البحر بأنواعها، وعلى امتداد العواميد تحتشد اللقالق والطواويس والطيور بأنواعها، وعلى ظهرها الزواحف والحيوانات الاليفة والحيوانات البرية، اما الساكف في الاعالي وكأنه بنك معلق في الهواء. فكان يقبع عليه رجال ونساء كبار بلا ثياب، تكسو اجسادهم ثنايا السمن، يضع بعضهم ساقاً على ساق واقدامهم مدلاة، ومنهم من ينفخ الابواق الجبلية الطويلة كالغلايين المفرطة في الطول، وجميعهم بسحنات القردة والثعالب او الدببة.

"ولانها اطعمته من ملذات الدنيا، فإن قربانها من غذاء الحيوان، ولانها سقته النبيذ المعتق في الكؤوس الفاخرة فان الكاهن..."

لذت بالفرار وظل السيد يواخيم يهتف ورائي: ".... يسقيها ماء مراً من كأس خزرف.." وكان صوته يضيع في المطر.

كان المطر ينهمر.

تسلقت الدرج الخرساني بخفة الى مستوى الشارع، وكانت القدس كلها تبدو صورة من الشتاء الفائت، وبمثل ما صعدت، هبطت مسرعة درج بيتنا. كان الماء يغني

في المزاريب يتدفق من افواهها على الارض. "اما الشخوص التي ينقذف من افواهها الماء في المدائن، فمحرم ان تطبق فمك عليها لتشرب الماء لانك تبدو كمن يقبل الاصنام". استغربت ان يصدر مني هذا النص الذي لم اكن اعرف قط انني حافظته منذ الصغر، او قد يكون السيد يواخيم هو الذي يقذفني بعلقمه بطريق التنويم المغناطيسي، أخذت أفكر بسخرية ولكنني ذعرت حقاً، اما المفتاح فلا اعثر عليه داخل محفظتي. وطوال تلك اللحظات كنت ارى رجلاً يجول في المطر يدقق ارقام البيوت ولم اعره اهتمامي. الا انه الان يقف على درج بيتنا فعدوت نحوه. كيف لم الاحظه؟! انه مبتل، بسببي ومن اجلي انا، وكتبه ليست معه. لقد توقف عندما لاحظني. كان ذلك الشاب الرجل الذي يعيش على كوكب كان متعذراً تصديق انه الان ايضاً يحتفظ، وكأنه بفعل رقته، بتلك الوقفة البائسة التي هي نوع من البؤس الطوعي وفيها نزر يسير من اعتزاز بالبؤس، او نوع من الرقة يسري في اتجاه لا آلفه.

"اتراك جئت لتلقي درس خصوصي في المراسلة التجارية؟" كان الوجه الوحيد في الدنيا يتراقص امامي، وكان المطر يتلف تسريحتي والماء يغني في المزاريب: لقد جاء، لقد جاء، لقد جاء.

"لقد عدت الى المدرسة وسألت عنك البواب الساكن في الساحة"- قالها بتردد، ينطق بذلك الرفق الذي اخالني سمعته في كلامه قبل ذلك. واردف: "الا انه لم يعرف، فعثرنا على العنوان في المكتب". كيف تراني كنت على استعداد لنسيانه سهواً ويمثل هذه السرعة؟ ها هو، اكثر روعة بكثير من ذي قبل. أيمكنك تمني ما هو ابعد من ذلك؟.

لقد بحثا عن عنواني، بسببي ومن اجلي أنا. عزيزتي السيدة أمستردام، ياعصارة قلبي، يا نور عيني. عزيزي الرجل الذي يعيش على كوكب، يا عصارة قلبي، يا نور عيني.

"اوه، في المكتب" اوه، سأموت، قلت مشيرة الى بابنا: "ولكن، لا داعي للوقوف في المطر".

"كلا" مدّ يده في المطر رافضاً الدعوة التي وجهتها اليه.

كنت انظر اليه متسائلة، مستعرضة وجهه، وعلت شفتيه ابتسامة معتذرة، وقوم من وضعية طاقيته الرطبة على رأسه.

"ماذا نحن فاعلان، اذا؟"

"لا شيء".

"تذكرت انني ما زلت اجهل سبب حضورك". قلتها وسرعان ما عضضت اصابع الندم. "وانا ايضاً اجهله".

كان كلامه خالياً من اي نبرة ويتسم ببساطة ابرزت نوعيته المتميزة، ولكنني تلقيتها بمشاعر متناقضة.

وصعدنا وعبرنا الشارع كمن يعبر نهراً.

لا احد في الشارع، والبيوت الحجرية في المطر وتيارات المياه كأنها تتحطم، وشباك النوافذ في المطر، والقطرات تقفز على العوارض، ومن احد الشبابيك يعلو صوت تدريب على البوق والصرناية، والمطر كالجلاد يضرب بسياطه كشك بطاقات اليانصيب ويتلف ملصقاً يعلن عن مؤتمر يعقد بمناسبة مرور الفين وخمسمائة سنة على اعلان كورش. وقد أرفق به نص برقية تهنئة موجهة للشاه. المطر يلوح بقماط يتيم منشور على حبل ككم ريح او هيكل في ميدان للرماية، ووراء السياج شجرة لوز، لا تزال مزهرة، ومع ذلك فقد اخذت الاوراق تكسوها، انه كالمطر والثلج في آن معاً.

"قد يكون آخر مطر في هذا الموسم" -قالها سائق الحافلة الفارغة وهو يقبض النقود، اما انا فلم اكن اعرف كيف لقيت نفسي داخل الحافلة انا الاخرى.

"إنه مطر متأخر شبيه بالمطر الوسمي."

جالسان في الظلام على المقعد قبل الاخير. كانت الحافلة تمزق الستائر الماسية- الملساء من المطر الشبيه بالماس الزجاجي.

الى أين نحن ذاهبان؟" لم ينبس الرجل الجالس بجواري ببنت شفة.

"الى اين نحن ذاهبان؟" اردت وضع جبيني على كم الرجل الذي ينظر من الشباك الى الخارج، الى البلاد الديجور التي يكتنفها المطر، المقامة فيها شواهد من

بيوت مبتلة. "الى اين؟" يا ليتني قربت خدي من خده، ياليتني هززته، ياليتني توسلت: ايها الرجل الذي يعيش على كوكب، ايها الشمعة الواهنة، من تكون؟ ها انا ذا جالسة بجوارك.

صرف شخص نصف ليرة، وتصادف خروجكما الى الشارع، وثارت فكرة في الذهاب معاً الى السينما، وتراجع احد الطرفين، علام الضجة، اذاً؟ ولكنه جاء!- قالها شيء في داخلي مطالباً، فقلت:

"لقد حفرت لك مدفناً جميلاً، بل واعددت شاهداً جميلاً، فما الذي بعث فيك الروح؟"

"لا اعرف كيف اشرح لك".

"ليس ثمة ما يدعو الى الشرح. ان مفاتني، معاذ الله، لا تعمل فيك".

"اعتقد ان الامر اكثر تعقيداً من ذلك".

"انه نظام دقيق يشغله او يعطله ابسط تغيير في درجة الحرارة، عادت الي قواي".

"اتعرف، ان الاقدار قد قذفت بك الى عالم لا يناسبك".

"وانت كذلك."

"انا كذلك؟"

"لا اطيق رؤيتك فيما انت فيه. انني اتساءل كل مرة عما لك ولتلك الدروس، وعما لك ولهؤلاء الناس، او مثلا ما لك وللسينما؟ ما لك ولصاحبة البيت؟ وكأنك تنكرت. واتساءل هل من فائدة هنا لامثالك؟ فأقرر: كلا. انه تبذير كبير. اننا زائدان عن الحاجة، انا وانت، ولا احد يعلم. لست متأكداً من انك تفهمينني. لست متأكداً من ان مثل هذه الامور يجوز الحديث عنها".

انني افهم. انها تلك الامور الدقيقة اللعينة. كنت احبذ لو انني لم اكن ممن يفهمها، ولكنها هي ولا شيء سواها الداخلة في مجال اختصاصي.

"منذ بداية الامسية وانا راغب، بين امور اخرى، في ان اثبت لك انني فاطن

الى ذلك، ولكنني لم اكن اعرف ما العمل وكيف العمل. اما الان فيسرني ان اكون قد قلتها، ولا ازيد الا هذا: لا اريد ان تسقط شعرة من شعرك، ولكن لا تعلقي امالك فيّ، فليس في اليد حيلة، حتى لو لم اكن من اولئك المتململين الذين يثقل كاهلهم اي انتماء. ها أناأشعر بالضغينة عليك".

ايها الرجل الهادىء، لن تعود مجهولاً، فقد اكتشفتك في زاوية من زوايا عالم منقرض. انا اكتشفتك وانت اكتشفتني. هلا قلت لي الان، اترانا نتجاسر بمثل هذه السهولة على ترك هذه الصلة الدفينة يطويها النسيان وكأن شيئاً لم يحدث. الهي، ما هذا الذي يعود وينكمش ويقل في داخلي؟.

(يا ابي، مركبة اسرائيل وفرسانها)، املك الكثير من النقود وليس عندي صراف يحصيها- كنت احدث ذاتي بصوت خافت، صوت السيد يواخيم الذي لا اعرف كيف اتفق وجوده بداخلي. وسرعان ما دفعت الكابوس عني. تلك الصلة سيطويها النسيان بلا ادنى شك. وتلك النكهة المميزة للامور ستتبخر بلا ادنى شك، الجزر المرجانية، على سبيل المثال، هل زرتها؟ بستان وخليفة ووزراء. وحريم لاحد الباشوات، هل زرته؟ ليل كهرماني قرفي قمره احمر، والدرويش الذي يبلع النار في يوم السوق، هل رأيته؟ مواقع المعرفة والانتماء تتقلص والناظران في محجريهما يظلمان، وان سقطت شجرة في الجنوب وان سقطت في الشمال، فأنها حيث تسقط تبقى، ولكن حذار كي لا تضبط المنظار بحركة سريعة فينقلب الجمع طرحاً.

"انك بين الحين والحين ترتكب عملاً مريعاً، عبارة عن عملية قتل صغيرة، وانني اسلم بها، غير ان شيئاً ما بداخلي يضيع كلما حدث ذلك."

لست اعرف ان كنت مسلمة بها، فثمة شعور جامح بالفقدان، شعور بالخسارة، كالشخص المبتور الساق الذي يشعر بالام في ساقه المفقودة.

ومن غياهب النسيان تم عبثاً استدراج خليط من الاكسسوارات الخالدة ونصبت في الحال كمعالم على الطريق، فكان منها امسية حضرية تتخللها زهور ذابلة ساعة الغروب وارصفة بسيطة ومسارات حديدية لا نهائية مفضية الى شباك تذاكر دار

للسينما، وتكرار لانهائي لتلك الاغنية الصارة المنطلقة على زخات والتي كانت فيما مضى يكثر تقديمها غناء ورقصا، ثم حافلة وشوارع ليلية مقفرة تنعكس من خلال زجاج شبابيكها الذي يسيل عليه الماء ويشوه الرؤية. ها نحن قد مررنا بلوحة اعلانات. مرة اخرى تطل علينا وبمقياس مصغر تلك المرأة ذات الفم المتأوه، وقد رسم عليها احدهم بالفحم او ماشابه شارباً ونظارات وقلباً.

قلت ملحة: "مع ذلك، لماذا جئت؟"

"لقد قلتها بنفسك، شعرت انني قابيل بعد واقعته مع هابيل. هابيل- لست هابيل، بل انت وانا." كان رواق من الحوانيت مضاء يقترب من الشباك يقف فيه بائع مكسرات وحيد مكتئب، شعرت بالاعياء. قال: "معذرة، سأترجل في الموقف القادم" ثم سحب حبل الجرس. انهم قطعاً لا يربون على الشهامة في الكليات الدينية.

توقفت الحافلة وتأملته وهو يترجل. مسحة من سماحة ومسحة من لطف وخيط من امل، ممزقة كانت هذه المسحات وملقاة على الارض يداس عليها بالاقدام. كانت هنا لا تزال، اما في المرة المقبلة سنكون كالغرباء، عالم الطرشان تغزوه الاصوات، والضوء القمري المتألق بالبلاتين ينحسر هو الاخر شيئاً فشيئاً. كان ذلك ما يشبه الهبة الالهية، ولكنها فاتتني. فبطريقة ما، ولانني كنت عمياء، صادفت رجلاً على كوكب ولم اهتد الى القناعة.

سافرت حتى المحطة النهائية وعدت وقطعت تذكرة لارجع الى بيتي.

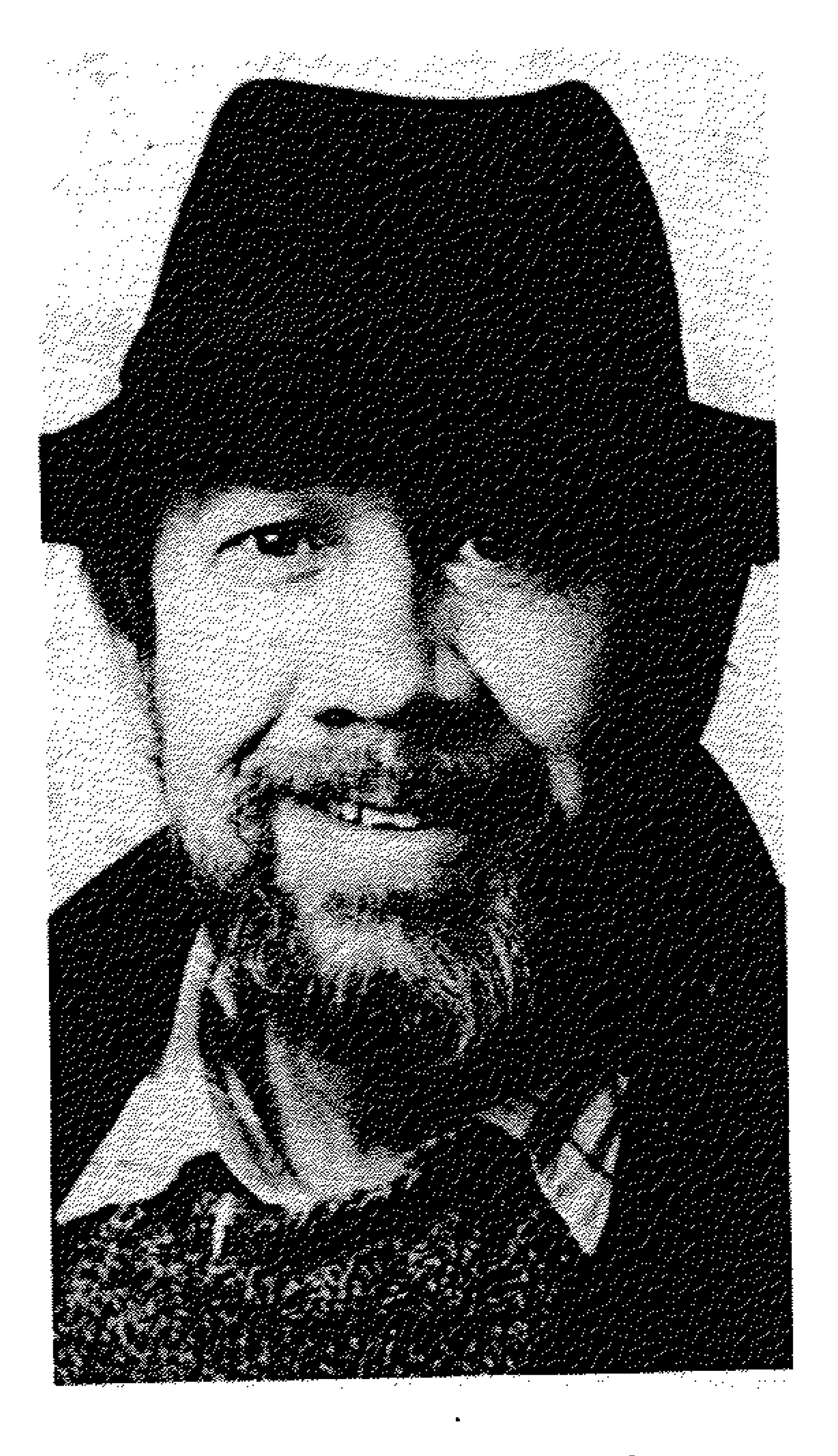
لو سألني احدهم بحضوره: حبذا لو اخبرتني برأيك في الرجل الذي يعيش على كوكب؟ فسأمعن النظر في عينيه لأرد: من هو الرجل الذي يعيش على كوكب؟ اوه، انه هو، نعم، لم لا؟ ان رأيي فيه ايجابي.

ولكن ليس ثمة من يسألني، اما انا فسأذكر ابد الدهر كيف كان يجلس هنا، ولكنه لم يكن هنا، وذقنه ملقاة على صدره كأنه يذاكر.

ترجمة: يتسحاق شنيبويم

اسحق بن نير

الغروب الريفي



* اسحق بن نير
ولد عام ١٩٣٧. ونشأ في احدى مستوطنات مرج ابن عامر. اشتهر كروائي وصحفي وناقد سينمائي. حاز على العديد من الجوائز الادبية اشهرها جائزة عجنون عام ١٩٨١. وقد تم انتاج فيلمين سينمائيين اعتماداً على عملين ادبيين من تأليفه من بين اعماله: رجل من هناك" (رواية، ١٩٦٧)، "غروب ريفي" (مجموعة قصصية، ١٩٧٦)، السدبية والغابة" (رواية، ١٩٩٥).

امس الاول، وبعد هطول المطر، رفعت زوجتي يوتا رأسها، واستعرضت من وراء نافذة غرفتها -ربما لاخر مرة في حياتها- هذه الارض الغريبة التي تمضي فيها ايامها في حزن واسى، وعندما ستوافيها منيتها، سنشيعها الى مثواها الاخير تحت سماء رمادية.

وفي ايام المطر تستطيع كل الطرق الترابية السبع، المؤدية الى القرية ذات الشكل الدائري من كل جوانبها، بفعل المياه التي ملأت الاخاديد التي تحدثها العجلات- وحتى تلك الطرق التي لم تمر عليها العربات منذ سنوات طويلة. وتحت قبة السماء الداكنة، والتي لا تبعث الامل تزهر القرية المستديرة كالشمس المشرقة، لها سبعة قرون كتلك الرسومات التي كنا نرسمها في طفولتنا البعيدة.

وتحركت شفتا زوجتي وهي تنظر من خلال النافذة. لعلها لعنت قريتي واهلها -بلغتها الاصلية- في سرها. لست ادري. منذ اسبوع، وفي الطريق الذي لا يبعد كثيراً عن نافذة غرفتها، دهس فتى من ابناء القرية ويدعى روبي تسور، وعمره ستة عشر عاماً حين كان يقود جراراً يمتلكه ابوه، دهس، طفلاً عمره ثلاثة اعوام من ابناء المدينة، كان مقيماً هنا مع والده عند احدى الاسر. وعلى الفور نقل الطفل الى المستشفى في حيفا مهشم الظهر، في حين اصطحبت سيارة الشرطة روبي تسور للتحقيق معه. وفي طريق عودتي من عملي في المقابر، رأيت كيف كانوا يدفعون الفتى الى داخل السيارة وهو كالمصعوق. وفي الايام التالية بذل اعضاء اللجنة جهداً كبيراً في تهدئة الخواطر، واصلاح مايمكن اصلاحه. ولم تكن للفتى روبي رخصة قيادة فكان الوضع معقداً في الواقع. ولكنهم في نهاية الامر، ان لم اكن مخطئاً، نجحوا في مسعاهم، وهم يطالبون دائما الا تخرج الامور عن دائرة القرية، ان خيراً وان شراً.

هذه هي القرية التي ولدت فيها، والتي احبها حباً جماً. احبها واحب اهلها وحقولها وحدائقها وسماء صيفها وسماء شتائها وطرقاتها الحجرية، واحب اجرانها واقنان الدجاج فيها وحظائر الماشية، واحب مروجها وهدير جراراتها، ودائرة اشجار السرو الباسقة، والمتشابكة التي تشق عنان السماء، والتي تشبه وراقها الفرو الاخضر، القاتم، الرقيق الظلام الكاتم الاسرار. واحب الاطفال فيها، واحب طرقاتها، الطرقات الترابية، المغبرة صيفاً والموحلة شتاء، واحب القش الذي يتطاير مع الريح في شوارعها، واحب الابقار الكثيرة التي تحدق بعيون ندية وزجاجية من وراء الاسوار الحديدية، واحب قرقرة الدجاج، واحب الدردشة بين الرفاق الذين يلتقون، وصوت امتصاص الانبوبة التي تضخ الحليب من الدنان المعدنية، واحب رائحة الخبز الطازج، الذي يخبز هنا فقط، ذلك الخبز المربع والصلب، واحب الفتية السمر الوجوه والفتيات المشوقات القوام، الفاتنات واللاتي تجد فيهن بعض الخشونة.

كما احب استدارة الطريق الحجري المحيط بقريتي، واحب الطريق الضيق، الذي تبتلعه ظلمة البساتين، ونقد مطارق رشاشات المياه، واحب صوت دفق المياه، واحب

صوت زقزقة العصافير التي تعتلي اغصان الاشجار، واحب سحب غبار الدقيق التي تحط على صوامع الفلال، واحب الاطفال النين يخوضون بجزماتهم في بقع الحياة القريبة من الجراج، واحب الحمام الكثير الذي يحط اثناء تحويمه على اشجار الكينا الباسقة، كما احب السكة الحديدية المهجورة التي نبت فيها العشب، واحب حقول العلف، والبرسيم، والذرة، والشعير والقطن والذرة الشامية. واحب ساعات القيظ الساكنة في ظهيرة الصيف، واحب الافق الممتد عبر الجبال، الذي تنبعث منه آخر اشعة الحنين الى قريتي.

ما اعظم حبي لهذه القرية، التي تزخر بالناس المفعمين بالنشاط، وتعج بالحدائق، والمروج والابقار والماشية والاشغال- حتى وان لم تكن قريتي واهلها يبادلونني مثل هذا الحب. وماهي اهميتي؟ ها أنذا على استعداد للتضحية بنفسي من اجل قريتي واهلها. فهم الامل لكل ما سيكون وما سيتم. واحياناً ارغب في النهوض ومناداة جميع الناس قائلاً: "قفوا، يا احبائي، وتأهبوا للدفاع عن انفسكم. ان العالم كله يواجه العواصف، فالسيف يقارع السيف والنار تأكل النار. وتفغر هوة كبيرة ومهولة فكيها لتبتلع الجميع، سواء اكانوا اقل شراً او اكثر شراً. ان قريتي هي جزيرة الجمال والطهر في طرف العالم. واهلها مثابرون وليس بينهم رجل سوء، ولا بينهم اشرار، وهم جميعاً يؤدون عملهم، وترتسم على وجوه الجميع طمأنينة خضراء من الجهد الخير والمثمر، وتأخذ تلال البيض في الارتفاع، وتتدفق انهار الحليب الابيض الرقراقة، وترى العيون ما تشتهيه من البرتقال بلونه الذهبي المفعم بالخير.

وكثيراً ما اود ان اعرف -وانا في يأسي- كيف يمكن الحفاظ على هذه الخيرات. فأنا اريد ان احافظ على هذه الجزيرة الخضراء، جزيرة الطمأنينة والمثابرة والعدالة، والحب الهادىء الوادع الذي لا يتهجم بكلمات عفا عليها الزمن، مثلي في حبي، وجزيرة التفاهم والمسالمة والصداقة. وكيف احميها من كيد العالم فيما وراء حدودها، ومن افكار المؤامرات، ومن الشر المستطير، ومن المزاج الجامح، الذي لا يعرف الراحة، المزاج البشع الشديد العصبية؟! اني ارى ابناءنا عائدين من الخدمة في الجيش

وارى نفس الراحة والامان اللذين كانا يبدوان في عيونهم وقد حل محلهما رويداً رويداً: الشك، والقلق، ورعشة الاضطراب، والتردد، حيث يقتحم العالم الحواجز الرقيقة التي نظموا بها حياة القرية، ولم يعد هؤلاء نفس الصبية، فقد شبوا عن طوقهم، وتحول صباهم -على غير ما ينبغي- الى نضوج. ولم تعد لديهم ثقة بما كان وبما سيكون. وقد غرس فيهم العالم الخارجي الشك والخوف وعدم الرضى.

فيقولون انني رجل ضخم الجثة، وعندما انهض بقامتي المديدة، ابث الهلع في الغرباء، حتى وان لم اكن ارغب في ذلك. قوتي كبيرة. وقد كان عمري ستة عشر عاماً عندما داهم جنود من الفيلق الاردني كرم المرحوم والدي، وجمعوا العنب في سلالهم. وكنت وحدي اواجه ثلاثة منهم، وقد كلت لهم ضربات موجعة. اما البندقية الانجليزية الصنع التي صوبها الي احدهم، فقد حطمتها على ركبتي، واما العريف الذي كان ضخم الجثة مثلي على الاقل، فقد اضطروا بعد ذلك الى علاجه في المستشفى العسكري في حيفا. لقد اختبأت لمدة يومين من رجال الشرطة الذين كانوا يبحثون عني، بين الشجيرات القريبة من المقبرة القديمة. وبعد يومين فقط، اقنعني ناتان جوردون عضو لجنة قريتنا، بتسليم نفسي للسلطات. وقد احتجزت لمدة ثلاثة اسابيع في سجن حيفا التحتا (السفلى)، مع شقيقين لصين من صور ومع بائع متجول محتال من يقنعام، وطوال الوقت كان اهالي القرية يمضون اناء الليل واطراف النهار في مساعي الوساطة حتى نجحوا واطلقوا سراحي بدون محاكمة. وبسبب ذلك وبسبب امور اخرى قامت بها قريتي من اجلي خلال حياتي فانني اعترف بالجميل لها. ولذلك اريد ان اقف عند مدخل الموشاف، وابسط ذراعي مدافعاً عن اعزائي جميعهم. وعندئذ سيأتي كل رجاله ونسائه، والشباب والاطفال ويستظلون بظلي فلا يلحق بهم ضر، وتعم الطمأنينة الوادعة الخضراء على قريتي واهلها مدى الحياة.

وانا اليوم اناهز الثالثة والاربعين وقد خط المشيب شعر رأسي في المواضع التي لم يصبها الصلع، وخط المشيب ايضاً كل شعر ذراعي وصدري. ولكنني مازلت في عداد الشباب، لأنني كنت اول مولود لهؤلاء المقيمين على هذا التل، كما ان كل من ولد في

دائرة القرية يصبح في عداد الشباب، ومع ذلك فالكثير من هؤلاء الشباب، وهم اصغر سناً مني، آباء لبنين وبنات بلغوا سن الرشد، وما زالوا هم يعدون من الشباب. وما زلت اتردد بإخلاص على اجتماعات الشباب واحتفالاتهم بمفردي، اذ لم توافق، زوجتي يوتا على المجيء معي قط. كنت اجلس وحدي مع الاخرين واسعى جاهداً كي اساهم فيما يفعلون، ولكنني كنت اود دائما الا احرج الاخرين، اذ انني حقاً لا اعرف بأنه ليس ثمة ما يربطني كثيراً بهؤلاء الشباب الذين يستلقون في غبطة على الرصيف ويقزقزون اللب، ولا بالفتيات المتوردات الخدود اللاتي يرتدين التنانير القصيرة. وثمة بون شاسع بين جيلي وجيلهم. وبعد ان حملت بي امي وانجبتني انا وشقيقي قامت ضجة كبيرة بين المستوطنين الاوائل: فقد اقاموا جميعا، كل زوجين في شق خاص داخل كوخ الصفيح الواحد، وقد قرّروا حقاً عدم الانجاب مطلقاً حتى يتم بناء تخشيبات للسكنى، ولسوء الحظ، عرقلت الوكالة اليهودية بناء هذه التخشيبات وبعد ذلك تفشى بين الرفاق مرض شديد فأرجيء مرة اخرى انجاب الاطفال. وهكذا فأنني اكبر بثلاث سنوات من اترابي الاوائل الذين ولدوا بعدي. ولتنظروا اليهم، وانظروا الي: ممشوقو القوام، هادئون، لهم نظرات ساحرة، وما زال شعرهم اسود، وما زالت اسنانهم تلمع وهم يبتسمون وفيهم روح الصبا والحياة. ولاسفي الشديد، فأنا اكبرهم سناً وانا غريب بينهم.

هل كنت مثلهم يوماً ما؟ كنت العب وحدي فوق اكمة ترابية مهجورة في ظل اشجار السرو. مات شقيقي التوأم في اعقاب مولده، وكانت امي تتحدث عنه احياناً وهي بعد على قيد الحياة. وكانت تقول في انفعال بأنه كان اشقر الشعر، اسود العينين. وكان ابي يقول وهو يطمئنها: حسناً، اذاً، انك تعلمين بأن لون عيون الاطفال الصغار، ولون شعرهم يتغير عندما يكبرون. وكانت المرحومة امي تعود وتقول: كلا، كلا، كما لو كان هذا امراً عجباً. وكنت وحدي، على اكمة مهجورة من التراب في ظل اشجار السرو حيث كانت ترمقني من بعيد صبية صغيرة، تكاد تكون طفلة ترتدي تنورة شفافة متسخة، ولا تجرؤ على الاقتراب. كنت اقول لنفسي لعلي انتزعت شيئاً من قوة اخي

ونضارته فمات، واتمرغ في التراب عابساً، والصبية ترمقني بنظراتها. وربما كنت منذ ذلك الحين ضخماً ابعث الرعب في النفوس. حين أتأمل تلك الايام، وانا اراقب زوجتي يوتا حتى وافتها منيتها، من خلال الصور القليلة التي بقيت من ايام صباي فارى نفسي حليق الشعر، ضيق الجبين، وذا نظرة مباشرة، وكنت لا ازال صبياً، ومع ذلك فحاجباي عريضان، وشفتاي مزمومتان، وكتفاي متهدلان، ويغطي بنطلوني نصف ساقي وحذائي ثقيل، بدون جوارب. وفي الصورة الشمسية توجد مساحة من الفراغ تفصل بيني وبين اترابي تلاميذ الصف الثاني في مدرسة القرية المجاورة والجميع يعانقون بعضهم البعض هذا وذاك وهذه وتلك مبتهجين معاً الى حد تنبعث فيه اصوات ابتهاجهم من الصورة القديمة -وانا واقف جانباً، مقطب الجبين، صارم وغريب، أنتظر أن ينجز المصور عمله وكفى. ويبدو كما لو ان المصور قد التقط صورتي وتركني هكذا حتى اليوم.

لست هرماً ومع ذلك داهمني المشيب- واشعر احياناً كما لو ان عيني تغطيهما طبقة من الضباب الخفيف. وارى كل شيء كما لو كان يبدو من بعيد، كمن ليس له دور فيما يحدث. واهل قريتي نشطون جداً. الجرارات تروح وتجيء، والعربات محملة بالخضراوات والاولاد يبتهجون بين رذاذ الماء في بركة السباحة، والسيدات اللاتي لفحتهن الشمس يتحدثن فيما بينهن بصوت عالٍ، وهنّ يتنقلن هنا وهناك بين رفوف الجمعية التعاونية الاستهلاكية. وتعيش القرية حياتها وتنتعش بهم. اما انا فلم يتبق فيّ شيء من الصبا تقريباً. كما ان زوجتي يوتا، التي تكبرني بست سنوات، اصبحت عجوزاً على شفا الموت فعلاً. وهي لم تناهز سوى التاسعة والاربعين، واذا بحياتها القصيرة التي داهمتها العواصف مرتين وتحطمت فجأة، قد انتهت. وبعد سنوات قليلة من زواجي امتلأ جسمها وترهلت. وعندما كانت تسير وتؤدي القليل من الاعمال المنزلية، قبل ان تستلقي على فراش الموت، كان مريولها متجعداً ومشققاً وكان شعرها الجميل قد اصبح خفيفاً، ومربوطاً بأهمال وراء عنقها، في ذلك الحين، كانت عيناها محمرتين. وفي الليل كانت تنتظر حتى اغمض عيني واخلد للنوم فتبكي. وكانت تبكي وحدها الليالي

بطولها، وكنت اغضب بسبب ذلك بيني وبين نفسي، وانا في عملي وحيداً في النهار. وحينذاك اردت ان تحب ما احب في هذه القطعة من الخضرة والناس، التي نعمل فيها، فلم تشأ. وفي هدوء، وعناد، وفي سخط، ابت ان تحب ما احببت.

والان لا اتحامل عليها بسبب ذلك. منذ عدة سنوات لا نجد ابداً ما نقوله لبعضنا البعض. مرت العواصف وانتهت لم تعد تعتريني رعشة من تلك اللذة لذكرى الليالي والايام العارية، على الملاءات البيضاء المشبعة بالعرق، بين الافخاذ الناصعة البياض، التي تنفرج في وهن استجابة للذة، مع الاذرع الممتدة، والمتشبثة والمتشابكة والشفاه الظمآنة التي لا ترتوي والنفس اللاهثة، والتأوهات الصادرة من الاعماق التي تتغلغل فيها كل المتعة الاتية الى الجسد، كما لو لم تكن هذه امرأة الامس، التي سلبت من زوجها، وجاءتني انا، المغتصب، متناسية الذكريات والحب والمشاركة والصبر اللانهائي والمنزل الذي تسوده الحياة المنتظمة. في غرفتي، في الكوخ القديم الكائن في ساحة بيت والدي بين الشيش المغلق والباب الموصد، وبين الجدران المغطاة بورق القار، وتحت سقف الصفيح الذي يتوهج في الحر كنا نمزق ونتمزق. امرأة شابة، ناصعة البياض، ذات جسد ممتلىء وجميل ومثير، متوردة الخدين كما لو كنت اول رجل في حياتها، ولايمكن لعينيها الزرقاويين، وفمها الذي ينفرج في شبق ان تخفي شيئاً من شهوتها العارمة. وشعرها ذهبي ناصع، وخصراها عريضان ونهداها ناعمان وممتلئان بعض الشيء. انها امرأة اجنبية اتى بها زوجها من بولندا. كانوا يعرفون انه يهودي، ولكن لم يعرف احد ما اذا كانت زوجته قد اعتنقت اليهودية، وبما انهما اقاما في قريتنا، لم يكترث احد بهذه القضية. كلا. فحتى الحاخام الذي زوجنا بعد ذلك بعام، لم يدقق ولم ينقب. وكذلك فعل الموظف في الحاخامية. اما آباء اعضاء القرية الشيوخ فقد كانوا يديرون رؤوسهم فقط عندما كانت تمر في تلك الايام في الشارع مثلما يفعلون عندما يشاهدون امرأة زانية.

والان لم تعد تمر منذ سنوات في شارع القرية واصبحت اهتم بنفسي بمتطلبات المأكل والملبس، كما اشاء. وهل يحققون الان -عند وفاتها- في امر عقيدتها؟ وفجأة

انتابني القلق بسبب ذلك وانا اقبع في الغرفة المجاورة انتظر. وطوال حياتنا معا، مدة اثنتين وعشرين سنة، لم اسألها حتى ولو مرة واحدة عما اذا كانت قد اعتنقت اليهودية حقاً ولم اتعقبها قط لاستجلاء ما اذا كانت تخفي -سراً- بقايا عقيدتها التي نشأت في كنفها. وفي ساعات الحب تلك، وبدون حساب، وبدون زمن، وبدون خوف، ومع كل الاتهامات، والالم، والحزن، والرغبة والكراهية، وحيث كانت اللذة تفقدها رشدها، كانت كالمختنقة تنطق اسم يسوع وكان كل جسدها الملتصق بي يرتعش من الالم الشديد والعظيم، كما لو كانت قد مستها في نفس اللحظة فعلا يد الله.

وكان العرق يغمرنا وتمتصه الملاءات وينسال متدفقاً من جسدينا، وكان سقف الصفيح يتوهج في الشمس ومن المؤكد ان المرحوم ابي كيان يتنهد في ظل كرمه. لقد كان يعرف كل شيء ولكنه لم ينبس ببنت شفة. انني كثيراً ما نغصت عليه حياته ولم يوبخني بكلماته. وكنا ملتصقين في وهج الشمس حيث كانت الشمس تحرق كل الطرق السبع المؤدية الى قريتي وتحرقنا بأشعتها. وكانت يوتا حبيبتي التي سلبتها تصرخ وهي تعض على شفتيها حتى يسيل منهما الدم. يا يسوع، يا يسوع. ولكن هذه الذكريات عندما اعود واسترجعها الان امامي لا تثير في اليوم الحنين او الجمال. لا تثير شيئاً.

- ٢ -

انني لادرك الان ما اقترفته من ظلم منذ سنوات طويلة. وهو ظلم مريع. وجميعنا، نحن الذين مسنا هذا الظل، نتجول، كل منا قرب الاخر في نفس قطعة الارض الصغيرة هذه، دون ان يتمكن احدنا من وداع الاخر والهرب الى كافة الجهات. وكنت اشاهد كل يوم ابنها اوري وابنتها ايزا. وهما اليوم يافعان وقد اصبحت لهما اسرتان واطفال واعطيت لهما مزارع في القرية- وانتهى كل شيء، كما يبدو بسلام. كما اشاهد زوجها بنو ايضاً، وما زلت ادعوه بـ"زوجها" بيني وبين نفسي- واحياناً، كنت اقول لها على مسمع منها "زوجك" وذلك من خلال الكلمات القليلة التي كنت اتبادلها معها، وان كانت قد صارت لي شرعاً وطلقت منه شرعاً واصبحت زوجتي منذ اثنتين

وعشرين سنة. لقد ظلمناهم وظلمنا انفسنا ظلماً شديداً، ولكن ليس بسببه فقط، نبتعد انا وزوجتي يوتا كل منا عن الاخر، ويكاد كلانا يستغني عن الاخر منذ عشر سنوات. ان كل اهتمامها يعود ثانية، الى زوجها بنو، والى ابنها اوري والى ابنتها ايزة. هم كل حياتها الان وليس لي نصيب ربما الا في القليل من الذكريات الخفية، المودعة في اعماقها، والتي قد تشينها، حين تخفق في رأسها الملتهب بالعذاب من حين لاخر -ومتاعب الرتابة القليلة التي ازعجتها ايضاً قبل ان تغدو طريحة الفراش، الذي لن تبرحه البتة. وبالنسبة لي كنت على استعداد لان اعشقها ثانية كما كنت من قبل. وكان من الممكن أن اجد في نفسي حباً وهياماً بها، ولو بدافع رغبتي فقط -ولكنني تخليت عن ذلك حينما لم تكن تبدي اهتماماً بالموضوع.

بصمت وألم لا ينتهي، ولا يوهن، نحن نادمان على افعالنا، وعلى قساوتنا، وعلى ما اقترفناه من آثام. ورغم ان هذه السيدة البائسة - تقاسمني هذا المنزل شبه الخالي، المتشقق الجدران، والكئيب- لم تكن خطيئتها تقل عن خطيئتي. فقد كانت امرأة ناضجة وأُماً لولدين وتكبرني سناً واكثر مني حنكة في حياتها، وفي رحلاتها، وتجاربها بحيث يمكنها ان تبدأ اي شيء من جديد في حين كنت ابلغ من العمر عشرين عاماً عندما تعرف كل منا على الاخر، فتى حماقته اكثر من تجاربه- انني على استعداد منذ ايام عديدة ان اتحمل جميع العواقب مهما كانت خطورتها، ومهما كانت اكبر واضخم من تلك المكافأة البسيطة والسريعة والقصيرة الاجل كالبرق الخاطف. ولست اخشى شيئاً. لقد قدت نفسي الى هذه الافعال -ولم يبق لي- مطلقاً- شيء انتظره من الرجاء. ولست انا الرجل الذي اقيم في مضارب الله ولا اسكن في جبل قدسه. وقد تكشفت الحقيقة متأخرة جداً- ولكن طالما انها انكشفت، فأنني مستعد لكل شيء. وسأدفع جزاء ما اقترفته واكون كفارة لقريتي هذه، واهلها، وزوجتي التي ضيعت حياتها معي، وزوجها بنو، الذي كان دائماً يغض الطرف عندما نلتقي صدفة في طرقات القرية، وولديهما اللذين كانا احياناً يطرقان باب منزلي، ويسألانني في جفاء عندما افتح لهما: "ماما هنا؟" كما لو انها غادرت ذات مرة دار عذابها. ثم يتواريان في غرفتها

ويطلعانها على اسرارهما.

وبعد سنوات خف قليلاً الالم، والريبة والشعور بالذنب، وتعزت زوجتي يوتا بأولادها قليلاً. وقد تجشمت كثيراً من اجل ذلك-وبشكل غير مباشر، عن طريق الاخرين، وأنا شبه متوسل، حتى جاءا اليها في النهاية. اولاً، ايزا قبل ان تنخرط في الجيش، اذ كانت تأتي اليها وتدخل متسللة. وبعد ذلك وافق الابن اوري ايضاً- الذي كان أكبر سناً من شقيقته والذي شهد في صباه كل ما جرى-على ان يزور زوجتي الملتاعة والملهوفة، بل واحضر معه زوجته وطفله لزيارتها. ومرة اخرى رأيت بريقاً خافتاً ينبعث من عيني يوتا. ولم يكن هناك طريق للعودة. ولكن تقلصت فجأة المسافات كثيراً، ولم تعد عبارة عن سنوات ضوئية. بل بضع خطوات. فها هي السنين قد مضت.

حينذاك كنت شاباً قوياً، والفتيات المجندات في الجيش، اللاتي كن يضحكن في البلدة لارتباكي، زدن من قوتي- وعندما عدت من الجيش، وسكنت هي وزوجها والصبي والطفلة في الكوخ الصغير المواجه لنادي الشباب المهجوروسط الحشائش المهملة والطويلة، بدأت تتعقد الامور: اذ كان زوجها بنو حينذاك موظف القرية، وكان نحيل الجسم قصير القامة مهندم الثياب ممشط الشعر مفروقه وكان يرتدي ثياباً من الصوف صيفاً وشتاءً. وفي النهار حين كان ينكب على اوراقه في المكتب، او ليلا حين كان يسهر، او حين كان في خدمة الاحتياط، كانت زوجته تلازمني. وكيف بدأ كل شيء؟ بدأ كما بدأ. بدون كلام تقريباً. كما لو كان بشكل تلقائي. كنت اساعد في فك الواح صندوق خشبي كبير فيه اشياء كثيرة جلبوها معهم من وراء البحار. وكانت تسقيني شراباً. كلا. مجرد ماء من الثلاجة، فأحطم لها قالباً من الثلج، واضع شظاياه على ظهري المتوهج، العاري، الرطب. وكنت احس بنظراتها. وكانت تضحك وأنا آخذ من الشظايا وامسح بها وجهها. وكانت تقاومني وتضحك وعيناها لا تخفيان شيئاً. ووسط الحشائش البرية قضيت منها وطراً للمرة الاولى. وكانت ابنتها الطفلة تنام في الكوخ في حين كان ابنها في روضة الاطفال. اما زوجها ففي مكتبه -وفي طريق القرية، القريب جداً، تمر العربات المحملة بأجولة العلف للدواجن، والنساء يحملن السلال في طريقهن الى

الجمعية التعاونية الاستهلاكية ومنها، وكلانا ملتصق بالاخر، كالبهائم، وكل ما تجمع عندي على مر السنين الماضية افرغته فيها فلا ينضب معينه ولا حد لرغبتها فيه، وبعدها لم تكن هناك نهاية لذلك.

بعد بضعة شهور- وبما ان قريتنا صغيرة وانا لا اعرف الخجل، فقد ذاع حينها كل شيء واصبح معروفاً في قريتنا. واصبح الناس يتحدثون عن ذلك سراً ومن ثم جهراً. وكان ابي يرمقني بنظرة غريبة بجزع. ولا احد ينبهني الى افعالي هذه. ولست اتهم احداً. ومن المحتمل ان يخشى اعضاء لجنتنا التطرق الى امور شخصية للغاية. ومن المؤكد انني كنت غريب الاطوار في نظرهم، اما هي فقد كانت في نظرهم كزانية من الغرباء -وبسبب كل هذا- من ابتسامات الناس ومن اسرارهم المتهامسة ومن النظرات- يحاول زوجها بنو ان ينتحر. وفي نادي الشباب المهجور، قرب الكوخ الذي يقيم فيه على اكوام الجرائد التي جمعت من اجل الجيش ولم تنقل الى الجيش قط، يعثر عليه ابنه اوري ملقى مجروح اليدين، ونظارته مطوية وموضوعة بدقة متناهية في جيب جاكيته الصوف، ورباط عنقه محكم وفمه مطبق، كما لو كان قد صمم- بكل ما لديه من قوة التفكير الاخير الذي كرسه لعذاب حياته العظيم- على ما اقدم عليه. وقد كنت في ذلك الوقت مع زوجته- اما ابنه، كشخص بالغ، فقد وجدنا في وضعنا معاً وناداني. اجل ناداني.

حملت زوجها بين ذراعي، كربطة هزيلة واهنة، وكنت احمله طوال الطريق الى المستوصف ودمه يسيل علي وعلى العشب وعلى طرقات القرية، من رسغيه المجروحتين، الى ان وصلنا الى هناك حيث ردوا اليه الحياة رغماً عنه. اما انا فقد كنت طوال الليل في مخبأي القديم قابعاً في المقبرة، كي لا اواجه نظرات المرحوم ابي. وفي اليوم التالي، نزلت الى المزرعة وطلبت منه -متجنباً مواجهة عينيه- ان يبيع البقرات المعدودات لاسافر الى ميناء حيفا. وكان البحارة مضربين آنذاك وكان اصحاب البواخر يبحثون عن بحارة آخرين يحلون محلهم للعمل على البواخر التجارية. ولم انتبه لنظرات البحارة المضربين ونزلت الى الباخرة. وكنت كالشارد. لقد اردت ان انسى كل شيء؟ واردت ان

اعذب نفسي بالنسيان. رجل شارد. لكن عند جزيرة قبرص اشتد حنيني وشوقي الشديد الى ابي، والى اهل قريتي، والى البلاد، والى الزوجة يوتا، والى زوجها الذي بقي كي يعيش في عاره، والى الطرقات المتشققة المؤدية الى الكروم، فغابت كل احلام العالم والنسيان. كصبي مشدود بمريلة امه، نزلت في ميناء فاماجوستا -ولم تكن معي نقود، فأرسلت برقية من القنصلية الى لجنة القرية، وفي صبيحة اليوم التالي، ورداً على البرقية، وصل التصديق بدفع ثمن التذكرة وفي نفس المساء ايضاً، قفلت عائداً الى ميناء حيفا، في الباخرة التي كانت تنقل الابقار من يوغسلافيا. ومر يوم آخر واذا انا في قريتي -وفي طريق الحقول، صعدت الى منزلي متسللاً حيث اخبرني ابي بأن الرجل على قيد الحياة. ولا تزال عينا ابي تراقباني من وراء ظهري حتى اليوم.

وبعد ذلك بنصف عام، وربما اكثر، كان كلانا يتجنب لقاء الاخر، كي لا تتحكم فينا افعالنا دون ان نتمكن من السيطرة عليها. فهي تقيم في الكوخ منطوية على نفسها -وعندما تخرج، ينظر الجميع اليها- فهي غريبة ولذلك فعارها اكبر بكثير. وفي كل يوم ينهي زوجها عمله اليومي في الوقت المحدد، ويجمع ابنه وابنته مع زوجته، امهما، الزانية وينزوون داخل الكوخ الى ان عيل صبري، فاذا بي اخرج ليلاً الى الحشائش البرية، التي يمكن ان يقف فيها الصبي بطول قامته دون ان يكتشفه احد، واجثو هناك امام نافذتها -التي يضيئها السراج- وانتظر، وقد كنت انتظر وانا اقبع داخل العشب، طوال تلك الليلة. وكانت ثيابي مبللة بالندى، وكنت احس بهوس جسدها الدافيء في اعماقي طوال الليل.

لم استطع ان انساها ولم تستطع هي ان تنساني. وفي صباح اليوم التالي، اختلط الحابل بالنابل مرة اخرى. اذ خرج زوجها لعمله ورآني فاخفى وجهه كمن لا يراني وسار في طريقه. اما هي فقد خرجت ورأتني فامتقع لون وجهها فجمدت في مكانها. وهكذا وقف كلانا امام الاخر -وفي الطريق فيما وراء الحشائش، كان كل اهل القرية يشاهدوننا.

وبعد ذلك اصبح كل شيء جلياً تقريباً، وقد سلم زوجها بنو بالامر. وكانت

تمضي الليالي بأكملها في الكوخ في فناء مزرعة والدي ولم نكن نهتم بشيء. وكنت اتجاهل نظرات ابي وكانت هي تختلس النظر الى ولديها قبل مجيء ابيهما لاخذهما من الروضة ومن المدرسة. وقد نبذوا زوجها، اما انا فلم يتهموني، فأنا من اهل البلد، في السراء والضراء. وكانت لي اطوار غريبة. اما هي فقد وجهوا اليها كل الاتهامات بدون كلام. وبدون قول شيء. وعندما توفي ابي، طيب الله ثراه متأثراً بحزنه الشديد، وبآلام المرض، دفن قرب قبر امي- وكان ممثلو لجنة القرية قد امضوا اياماً كثيرة في المساومات والكلام الى ان وافق بنو زوجها على ترتيب الطلاق بينهما. وحينذاك، وبدون مزيد من التلكؤ، دفعونا للزواج، في مدينة حيفا، في فناء الحاخامية. شهود بالمصادقة من الشارع، ومسؤول افراح القرية، وكنت ارتدي قميصاً ابيض اللون وبنطلون ابي المقلم الذي خيط لي من جديد في عجل وكاد يخنقني. اما هي الغريبة عنا فقد كانت ترتدي فستاناً ابيض اللون وفي يديها باقة من الورود، وليس لها رجل سواي. وفي ذلك الفندق المهمل، في شارع الانبياء، بدأت يوتا زوجتي -وانا اكشف عن مفاتن جسدها- تولول وتبكي بلا انقطاع، بكاء مراً، وكانت تخور كالعجلة المذبوحة. وقد بكت طوال تلك الليلة، وهي التي لم تبك قبل ذلك قط، اخذت تبكي، وانا اقلبها، واضاجعها، بقدر سخطي عليها وعلى نفسي وعلى بكائها.

واهل قريتي ناس طيبون. فقد اعطوا زوجها واولاده منزلاً- ربما لمواساتهم قليلاً في مهانتهم، وربما كي لا تخرج الامور عن دائرة اشجار السرو المغبرة هذه- كما طيبوا خاطره ايضاً بعاملة من مهاجري اليمن، كي تدبر له امور منزله وتعد له وجبات طعامه وتغسل ثيابه. وهكذا حاولوا ان يصلحوا -ولو بقدر قليل- ما افسدته مع هذه المرأة. ومثلي مثل باروخ زروبابل، الذي ضاجع فتاة المعبرة فحملت منه واضطروا الى تهدئة خاطر والديها واسكاتهما وترتيب كل الامور الخاصة بإجهاض الجنين. ولم نستطع ان نتحمل المزيد من النظرات ولا حالات الصمت مع العلم بأن الجميع يعرفوننا- وبما ان الاجواء لم تكن مريحة وبما في القرية، فقد وافقت رغما عني، ومن اجلها، على نصيحة اعضاء اللجنة ورحلنا عن القرية في تلك الايام. وقررنا ان نقيم في مدينة

الخضيرة، واخذت اشتغل هناك في مصنع لتعبئة الحمضيات. وقد كان عامنا هناك عاماً رهيباً وكنت اسير كالمختنق. ولم ننجب اولاداً ولم ارغب في التحدث عن ذلك وازداد الشعور بالاختناق. اذ انني لا استطيع ان اعيش خارج حدود قريتي حتى ولو اصبح منزلي هناك جحيما، لا استطيع، اني مشتاق لقريتي، وزوجتي مشتاقة لاولادها، وبدأ الندم يحز في نفسها. ولم يعد كلانا يجد في الاخر عزاء، وهكذا انتهت سعادتنا قصيرة الاجل.

وهكذا، ارتديت ثياب زواجي، وحصلت على اجازة من عملي وقمت بزيارة لاعضاء لجنة قريتي وقد اشرق صباح جديد. وهناك تضرعت امامهم، فصفحوا عني. وانا لا احب الكلام -ولكنني حينذاك وجدت ما اقوله من كلمات على مسامعهم فكفوا عني. الست منهم وهم اهلي- وبعد مضي عام عدنا الى القرية ونحن على استعداد لتحمل كل شيء- النظرات والذكريات، والاتهامات، والسخرية، والعزلة. ولا استطيع الا العيش في قريتي. لا استطيع. وامسكت بمنجل ابي القديم، وحصدت الحشائش التي نبتت في الحديقة، من حول بيت عائلتي القديم، الذي اصبح مهجوراً، وببلطة حطمت الكوخ الخشبي القديم الذي الصق على جدرانه ورق القار، حطمت هيكل غرامنا الجامح هذا، وقمت بسد الشقوق في جدران المنزل بالطين، وهأنذا صاحب بيت، ولي مزرعة وزوجة في القرية القديمة والطيبة مسقط رأسي، ورويداً رويداً ردت لي قريتي -كأنما في غفلة منها- القليل من راحة البال والتسليم بالامر الواقع، وهدأت من روعي.

انني اعترف بالجميل العظيم الذي اسدته لي قريتي واهلها. وثمة خيط خفي من البهجة يربطنا جميعاً كعائلة واحدة، الاخيار والاشرار. الصديقون والفاسقون؛ بالطهارة والجمال. كما اعترف لهم بالجميل لصفحهم عني وموافقتهم على قبولي بينهم مرة اخرى. انني احبهم جميعاً. وفي قاعة السينما الكبيرة المغطى سقفها بالقرميد، والتي تهب الريح من نوافذها لا اتطلع الى الشاشة بل اتفرس في وجوه اهل قريتي في الضوء الخافت المتراقص. اتفرس في وجوه الصغار منهم والكبار، الاباء والاجداد. سلالة من الاقوياء. حواجب مقوسة من الكدح. قمصان من قماش خشن، تجاعيد في العنق. شعر

الصدغين غير مرتب. واكف الايدي غليظة فيها الطمأنينة. نظرات وديعة، فضول هادىء، غير ودود بعض الشيء. احياناً اتوقف في طرقات قريتي لانظر اليهم، واظل انظر اليهم حتى يشعروا بأنني امعن النظر فيهم- واحاول ان احتوي في داخلي كل ما فيهم ولكنني لن اقوى ابداً على ذلك مع الاسف الشديد: زخم المكان ولون الهدوء وجمال النفس القنوعة، انني اثق بهم، واثق بهم وحدهم. فمنهم ينبع امل العالم.

- ٣ -

ومنذ عودتي الى قريتي وانا لا اغادرها كثيراً. ولم تعد احلام العالم الكبير تطاردني. واني لادرك ان العالم يخطو نحو ضياعه. واني لاكثر من قراءة الصحف بنهم يكاد يكون نهماً مرضياً واقرأ ايضاً كتباً كثيرة واعرف كيف اقرأها بسرعة واستوعبها في اعماقي بتفاصيلها الكاملة. وأعرف أن هذا الامر يضيف الى غرابة اطواري في نظر اهل القرية. انني طويل القامة ممتلىء الجسم. لا هيبة لي ولا وقار. ثيابي مكرمشة وضيقة وقذرة، يبدو كأن قوتي الجسدية تمزقها في ابتذال، ورغم هذا كنت امتلىء، وازخر بحكمة الالاف المؤلفة من الكتب التي قرأتها. ولن استعمل قط هذا المعين الذي لا ينضب من المعرفة التي تجمعت في رأسي المتبلد والثقيل هذا. اجل! فأنا اصوغ كلماتي القليلة، والقصيرة بصعوبة شديدة اثناء مناقشاتي مع اعضاء الموشاف. ثمة شيء ما يتدفق في رأسي ولا يمنحني فرصة للراحة، عندما يتوجه الي شخص ما بكلمات قصيرة، او حتى مجرد كلام. انني انفعل من اي علاقة تنشأ. واحيانا كان احد الرفاق يطلب مني المجيء للمساعدة في حلب البقر او بناء مخزن للتبن، فأترك اي عمل والبي طلبه فوراً. ويصعب علي الكلام- ولكن الجميع يعلمون انني رغم غرابة اطواري اقرأ واكتب بثلاث لغات بطلاقة، بالاضافة الى العبرية. فقد تعلمت وحدي الانجليزية، والفرنسية، والالمانية. كنت التهم كتباً كاملة، الى جوف ذلك المخزن الذي لا يعرف الارتواء، مستعيناً بالقواميس -اما المفردات الغريبة، التي لم يتصادف لي لفظها حتى هذا اليوم، فقد نقشت في ذاكرتي. كما لو نقشت على خرسانة طرية ترتسم امامي بحروفها لا بنغماتها. واعتقد بأنني رجل المتناقضات في نظر رفاقي اهل القرية، وهم لا يعرفون هل

يزدرونني ام يجلونني، اذ انني لم أقم ابداً باخراج ما اختزنته- ولكنني لا انوي الآن التحدث عن نفسي بل عن خوفي على قريتي واهلها واشفاقي عليهم.

اني لاشفق عليها، لانه يعز علي ان تكون ملاذ الهدوء والوفاء داخل عالم آخذ بالانهيار. كما انني ارى بوادر الكارثة المرعبة، وملامح الهوس الذي يزحف نحونا جميعاً، ليخرب، ويدمر، ويبيد ويحطم ولا يرحم. ولقد مسهم الهوس اجمعين. انني اتأمل اقوال المنجمين في الصحف واسمع صرخات الاعلان في الراديو وتصلني اخبار الشباب الذين يرغبون في تجربة متعة المخدرات، واعرف هذا الشوق الغريب والمتجدد الى الله، واعجب لهذه السذاجة المميزة لجميع الذين يسعون الى المثل العليا والذين يؤمنون بالسلام، وارى الطرق الزاخرة بالسيارات التي لا تعد ولا تحصى، والتي تزعق في عصبية وهي تنطلق بأقصى سرعة، واصغي لكل هذه الجماهير التي تبحث لنفسها عن زعماء يتولون قيادتها، واذا بضجة كبيرة وهول شديد وضياع. ولكل منهم دور في هذا الهوس. وكل منهم يخدع الاخر. وكل منهم يرتاب في الاخر. وكل منهم يعذب الاخر. وكل منهم يحط من شأن الاخر، ويداهنون، ويغضون الطرف، ويهددون، ولا يتطرق الشك الى احد، ولا تنقسم الامور الا للخير او للشر، بشكل جازم، وكلهم يحاولون اكتساب المناعة في مواجهة الشر الذي يجتاح الغير. اجل كلهم، وانا أيضاً. أحياناً كثيرة، وانا اتناول لقمة فطوري، واحزن بنفسي على نفسي، يعلن مذيع الراديو بصوته المعدني عن مصرع مائة وعشرين شخصاً في اعصار بجزيرة اوكيناوا، او عن اب قتل اولاده الثلاثة في سياتل بالولايات المتحدة الاميركية، فلا يقلق راحة بالي. كيف يضطرب العالم في كل مرة من جديد؟ ولماذا لا يجن جنوني في كل مرة لسماع اخبار الهول، والمصيبة والموت؟ مائة وعشرون حالة وفاة دفعة واحدة، ومصرع ثلاثة اولاد؛ واصطدام اتوبيس اولاد بلغم- وانا امضغ خبز القرية واجرع حليب القرية، ولم يتحرك في اعماقي شيء باستثناء فكري الذي يعذب فؤادي بأموري الخاصة.

وبعد ذلك افكر في الامور وافهم بأن ذلك افضل. ذلك افضل. علينا ان نقيم في داخلنا سوراً واقياً، بل عسانا نجعل مشاعرنا تتحجر بعض الشيء، واذا لم يكن الامر

كذلك، فسيجن جنون الجميع بسبب كل اهوال العالم. اجل، اعتقد بأنه يتعين علينا ان نصب جداراً سميكاً في داخلنا، لتتحطم عليه كل الشرور. تصل عنده ولا تتجاوزه. فلا يمكن للمرء ان يستوعب كل آلام واسقام عصره، اذ قد يصاب العقل بالجنون من الموت بصوره المختلفة، ومن العنف، والدسائس والفقر والجوع والشقاء والنفاق، والعصبية، والتبلد، والسماجة -ومن الخوف بصفة خاصة- ذلك ان الهول قد استبد بنا في كل ما يحدق بنا من وراء هذا الضباب. وهذا الهول يطاردني بلا انقطاع.

وانا لا اهتم بنفسي، ولا حتى بزوجتي يوتا. لقد انتهى كل شيء بالنسبة لنا واصبحت انتظر النهاية. ويملؤني الخوف من التفكير في اليوم الذي يقوم فيه شخص ما من اعزائي في قريتي مسقط رأسي ويقف في الشارع المؤدي الى الطريق الرئيسي ويرفع بصره الى العالم فيرى النكبة المنطلقة كالاعصار الترابي على الطريق، الذي يتأهب كي يكتسح كل شيء ويلتهم كل شيء في احشائه ويدمر كل شيء ويجعل كل شيء سحابة من الشظايا -وحينئذ، وبدون حماية، تدمر كل هذه الخضرة، وكل هذا الهدوء، وهذا العزيز والخيّر، الذي تراكم هنا على التل الصغير عند منعطف الطريق؛ كل هذا يدمر الى ابد الابدين. ان هول هذه النكبة هو الذي يستولي علي في كل مرة افكر فيها ملياً؛ ومرة اخرى اود ان اوضح، لا لنفسي، بل من اجل المكان وهدفه ومن اجل اهله وغايتهم. واود ان احول بينهم وبين تفتح عيونهم. وكلما تأخروا في تمييز الشر الذي ينقض عليهم كي يفنيهم من هذا العالم الضال، كان افضل. لذلك اود احياناً ان اخرج امامهم جميعاً الى مفترق الطرق عند مداخل قريتي واقف هناك باسطاً ذراعي ولا اسمح بوقوع شيء ما. وربما ويمكنني ان ادافع عن قريتي وعن اهلها.

لذلك اريد ان احول بين احبائي جميعاً في القرية وبين الاسى والالم، كي لا يعرفوا الغم. وفي ذلك الوقت كان اجداد كثيرون- بيض اللحى تغطي التجاعيد وجوههم- قد انتقلوا الى رحمة الله، واصبح الاباء انفسهم اجداداً الان ودبت فيهم الشيخوخة. ومن حين لاخر كنا نودع للابد واحداً من الاعضاء المؤسسين، فيؤدي موته الى جزع خفي هادىء في قلوب الباقين. ويكاد الكنيس الرائع الذي شيد في ذلك الوقت من اجل

الشيوخ ان يكون خالياً الان. لذا أبدأ انا في الذهاب الى الكنيس، وقبعة العمل على رأسي، محاولاً ان اخفف قليلاً من عزلة الشيوخ القلائل الباقين، الذين يذهبون اليه. يومئون لي برؤوسهم، محيين وربما مذهولين، وشفاههم تتمتم بالصلوات. وانكب على الكتب المقدسة السميكة محاولاً جلب الهدوء الى رأسي المتعب، باحثا عن كلمات الحكمة وكلمات الباطل بين السطور- ومن نوافذ البناية الكبيرة من ناحية الغرب يطل غروب الشمس، وهي ترمق قريتي بعداء احمر، وتهب ريح من الجبال، القريبة، فتبرد جبهتي الملتهبة، فيلهج فمي تلقائياً بصلاة العشاء، رغم انني كنت اودّ الا يسمعونني، فقد كان همسي يتعالى هادراً كالرعد.

ما زلت اواظب على الذهاب الى الكنيس واكاد اكون صديقاً لمن يترددون عليه. وفي ايام السبت والاعياد لم نعد قليلي العدد، بل نحن بضع عشرات، واكثر المترددين كانوا غير صادقي الايمان تماماً، ولا يؤدون كل احكام الدين، فهم يأتون للصلاة اما خوفاً من النهاية واما خشية من الغيب الذي وراء هذه النهاية، وها نحن جماعة واحدة نحاول ارجاء يوم الحساب بتضرعاتنا. نحن قلة، خمسة عشر شخصاً في الايام العادية، في قرية كبيرة عمرها خمس واربعون سنة وتعدادها تسعمائة وثلاث وسبعون نسمة. وتدور الايام ونفقد واحداً منا، ونشيعه الى مثواه الاخير. وحينئذ اقرأ في عيون اهل قريتي وعلى وجوههم كآبة الموت واحاول ان امحوها، فأنا لا اريد ان يكابدوا الى هذا الحد. وعندما اخبر زوجتي يوتا بوفاة هذا الشخص او غيره من اهل القرية، يبدو في عينيها بصيص معتم من الغبطة المليئة بالمرارة، والعذاب والسخرية معاً، دون ان تنبس ببنت شفة.

كم هو رهيب خبر الوفاة. فذات يوم، ومنذ سبع سنوات تقريباً قدمت سيارة جيب تابعة للجيش الى بيت عائلة براق في القرية واخبر الضابط كلا من الام والاب بأن ابنهما العاد اصيب بعيار ناري وفارق الحياة. وانا اذكر صراخ امه حتى الان. وهي سيدة فاضلة، هادئة ومجتهدة، تتحمل على كاهلها كل اعباء المزرعة، اذ ان زوجها مريض بالقلب، وهي تتولى بنفسها ادارة شؤونها طوال حياتها. ولم ترفع صوتها قط حتى

ذلك الحين، ومنذ ذلك الحين، والى اليوم ما زال عويلها المدوي والطويل الذي يتجاوز طاقة البشر، الآتي من عالم غريب، لا نهائي، بلا توقف- يمزق صدري. وفي مرة اخرى نطح عجل مسمن افرايم شخنر، ومزق امعاءه بقرنيه الحادين. وظل لثلاثة شهور يتلوى من الالم على فراش موته قبل ان يسلم الروح، وصرخاته تتصاعد ويتردد صداها في سكون القرية، فلا دواء ولا مخدر يساعد في اسكاته. وكيف تهالك مرجليت على عكازه، في طريق القرية فجأة -وهو في السابعة والثمانين من عمره، وكان ينطق بوقار الشيخوخة وبهائها بقامته المديدة النحيلة، ولحيته التي لها ملمس الحرير، الناصعة البياض -اما ابنه زئيف مرجليت، الذي يبلغ من العمر خمساً وخمسين سنة ونيف، وهو أب لابناء كبار السن- فيسقط على جثة ابيه مذهولاً وينشج ويولول كالطفل ويقول: "بابا، بابا"، ويحاول عبثاً ان يفتح عينيه اللتين انطفأ بريقهما دفعة واحدة. وكيف كانت تسفريرة كتساف تحتضن شاهد قبر زوجها الذي استشهد في الحرب، بعد ثلاث سنوات من وفاته، عندما ذهب الجميع لتشييع بنحاس هوروفيتس الى مثواه الاخير. وكان حبها لا يزال شديداً وابدياً، وقد تركت الاخرين وجثت عند شاهد قبر زوجها ولم تقو على مغادرته، واخذ بكاؤها يشتد. وتمزق قلبي لعويلها، وهم يبعدونها عنوة عن شاهد القبر.

وانا لا افكر في نفسي ولا انشد كثيراً من الهناء في هذه الدنيا واجد في القراءة احياناً قليلاً من الهدوء الذي يثلج الرأس المحموم الذي يفكر بلا انقطاع. وانا استطيع بعد ان اقلع عن هذه الشهوة الجسدية، وحيث ان هذا امر معدوم بيني وبين زوجتي منذ ايام طوال، فإنني كنت انسل في الخفاء كلما داهمتني شهواتي الجنسية الطاغية، واغشى واحدة من بنات الهوى في ستانتون بحيفا. وكنت افعل هذا كاللص مرة في الشهر، واحياناً مرة واحدة كل شهرين وكنت اخجل من ذلك. ولم يكن شباب القرية مضطرين قط لقضاء وطرهم مع امثال اولئك الفتيات- بيد انني كنت لا ازال مضطراً الى ذلك من حين لاخر، واتعشم الا يعلم احد من ابناء قريتي بهذا الامر قط. واولئك الفتيات يعلمن بأنني ارمل من كيبوتس أ. -ولم يسألن اكثر من ذلك، ولم

اخبرهن بأكثر من ذلك، فأنا لم اكن ابحث بينهن عمن احادثها.

هذه هي كل ملذاتي التي ما زلت انشدها لنفسي في هذه الايام. هذه هي لا اكثر ولا اقل. وانا على استعداد لاهب كل حياتي لاهل قريتي. وانا على استعداد لاستيعاب كل حزن احبائي، في القرية -حتى وان لم يدركوا مدى حبي لهم، فهذا الامر لا يهمني. وكنت منذ اربع سنوات قد بعت كل ابقاري وجئت الى مقر اللجنة وطلبت من المسؤولين هناك تعييني مشرفاً على كل شؤون الوفيات. وقد رمقني اعضاء السكرتارية بدهشة كبيرة، ولكنهم اقتنعوا، اذ كانوا يعرفون اطواري الغريبة منذ سنوات. وهكذا فإنني اخذت اساعد اكثر فأكثر في تخفيف الحزن عن الاخرين. فأنا الرجل الذي يحيطونه علماً بوفاة الاخرين. فإذا توفيت سيدة وهي تلد، او اذا استشهد فتى من فتيان القرية وهو يؤدي واجبه المقدس او اذا قضى احد الاباء نحبه، او اذا قتل احد الرفاق في حادث عمل- وهذه القرية كبيرة ونحن نقوم سنوياً بتشييع عشرة او اثني عشر شخصاً الى مثواهم الاخير- فإنهم يسرعون ويبلغونني بأمر الوفاة فأذهب بقناعة تامة، وعزم كامل، وبكل ما لدي من شفقة واخبر ذويهم المفجوعين بهذا.

ولا اعرف كيف اخفف من الاهوال ولا افعل هذا. وامتص الاضطراب، والذهول، واسدد نظرة مباشرة الى هؤلاء المفجوعين، وامسك بهم وهم يتداعون. واحيانا، وبدون قصد، يخفون وجوهم في صدري، ويبكون سراً او جهراً، ورعشة لا نهائية من الحب والحزن تنتقل منهم الي. واحياناً يبعدونني من امامهم في صمت ويحاولون الحفاظ على ثبات وقفتهم. وارى نصب عيني بياض الهول في عيونهم العدوانية، والرعشة الغريبة التي تنتاب اجسادهم وافواههم الفاغرة في صمت. انني ارى كل هذا. واحاول ان اصرف نظرهم عن الموت، حيث بالطبع ستستمر حياتهم بعد ذلك -دون ان اعرف كيف. فأنا حائر مرتبك. فلو استطاعوا قبول الموت كأمر مسلم به تماما، دون ان يسبب لهم المآ مريعاً، لكان هذا افضل بالطبع- لقد مات اناس وولد اناس آخرون وماتوا بملايينهم على مر الاعوام، اذ ان درب الحياة تنتهي بالموت. ولا ينبغي ان نتمادى وحدنا في ان يحب كل منا الاخر، حيث ان الفراق الاخير -بين الحبيب الذي على قيد الحياة

والمحبوب الميت- صعب جداً. وعلينا ان نحب المجموع وهكذا يخف حزننا عندما يختطف الموت عزيزاً من بيننا. والموت اكثر رهبة من ان نستطيع مواجهته بحزننا، وآلامنا وعجزنا.

كنت انقل بشائر الموت، فاصاب بالقشعريرة والهول في اعماقي من جراء صدمة الموت لهؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة. ولا يمكنني انقاذ احد، لعلي اقدم بعض المساعدة بسبب كوني الناعي. وكنت اتفانى اكثر واكثر في عملي هذا من يوم لاخر، لا لانني اجد فيه القداسة، بل لان فيه القليل مما اسديه من خير لاهلي واسري عنهم. وانا الذي استدعي الاطباء لتحديد حالات الوفاة، كما استدعي مسؤولي الطهارة والدفن وحفاري القبور والمصلين. وبين الفينة والاخرى امر بخياطي الاكفان ونحاتي شواهد القبور، وكنت قد اهملت كل اعمال الزراعة قبل ذلك فيما عدا مشتل زهور القرنفل، واصبحت اهتم اكثر بالمقبرة، عند منحدر تل القرية، حيث اعددت جنة فيحاء تكريماً للموت، اشجار السرو والصنوبر، واشجار السنديان، المرجات المشذبة واحواض الزهور المنظمة بعناية. واطوف بالمكان ساعات طوالاً وفي يدي معزقي ومقصي، وخرطوم الماء، واشذب المرجة، وانعم التراب في احواض الزهور، وامسح الغبار عن شواهد القبور الرخامية. ومع مرور الوقت خصص لي مسؤولو اللجنة من تلقاء انفسهم اجراً محدداً مقابل عملي، وهذا يكفيني ويكفي منزلي. اجل- انني اكد ساعات طويلة في المقبرة- وفقط عندما يبدو لي على حين غرة بأنني اجد المتعة في عملي هذا، انهض واجمع ادواتي واذهب لحال سبيلي.

وفي القرية شرع الناس يخشونني بعض الشيء وهم يحاذرون بشكل ما، كي لا يلتقوا بي وجهاً لوجه، وهم يسيرون امامي في طرقات القرية، ويتهربون بغضهم الطرف. فقد التصق بي على ما يبدو شيء ما من ملامح الموت- وان لم يكن احد منا هنا يؤمن بالمعتقدات الخرافية، فإن سر كل المخاوف في العالم يكمن في الخوف الاول والاخير، اعظم انواع المخاوف جميعها، وهو خوفنا من الموت الرهيب والمفزع هذا. فالكل يخافونه، ولكنني انا وحدي فقط الذي لا اخاف الموت.

انني لا اخاف الموت. وقد اكملت دائرة حياتي، وان كانت اطرافها لا تزال ممتدة. وانا ادرك ان كلامي غريب. فقد اعتاد الجميع على التهرب من التفكير في موتهم، الا انهم يتوقون اليه، مثل زوجتي يوتا- ولكن يكمن لكل واحد على حدة ويختبىء خلف حدود الفكر، وينتظر. وانا نفسي افكر في يوم مماتي، في مزيد من الهدوء. ولا اخافه حتى وان كان العذاب من نصيبي قبل ذلك. واعتقد بأنني لست مهووساً، ذلك انني لا اتعجل النهاية، ولكنني متأهب لها. واتوق ايضاً كي اعود الى شقيقي التوأم الذي توفي بعد ميلاده بفترة قصيرة، اذا ما كان ينتظرني هناك حقاً. وافكر ملياً في اليوم الذي يجمعني به، وبالمرحوم ابي. واعلم ان هذا الامر ليس من الطبيعة البشرية، ورغم ذلك كنت اود ان يفكر كل اعزائي -وعددهم تسعمائة وثلاثة وسبعون رجلاً وامرأة، شيوخاً وفتياناً وفتيات، وصبية واطفالاً رضعاً، ابناء قريتي -ملياً ايضاً في وفاتهم في ساعة رضا، وسكينة، وهدوء، كما لو كانوا يفكرون في وفاة شخص غريب، آخر، بدون هذا الخوف الازلي، وبدون رجفة. وربما تخف بذلك آلامنا حين يقبل، ويخف هلع الميت وحده ويتوزع الحزن بين كل افراد الجماعة، كل واحد ونصيبه القليل، كي لا يثقل الالم على الفرد فلا يستطيع تحمله وحده. وربما يكون ثمة هوس في كلامي، ولكن من الممكن ان يخدم هوسي هذا اتزان المجموع في قريتي، ومن المحتمل ان يضيف الى هذا الهدوء وهذه الراحة، وهما لا تجدهما في اي مكان آخر. فأنا طوال الوقت ابحث عن السبل لاجلب لهم جميعاً الغبطة والبهجة.

ولذلك اقدمت منذ خمس او ست سنوات على القيام بخطوة خطيرة. فذات يوم، ندمت على ما جنيته في حق الرجل بنو زوجها، وما جنيته في حق اولاده، وزوجتي يوتا، واهل قريتي- وحاولت ان اعيد المياه الى مجاريها. اردت ان اعيدها الى اسرتها. فأنا لم اكن اسرتها، وحينذاك كان لدي قدر قليل من الحب لها، كما كانت هي ترغب في احياناً- ورغم هذا، خرجت ذات مساء، راجياً الخير، معذب الضمير، نادماً على ما جنيته، وطرقت باب منزل زوجها. اردت ان اقول للرجل النحيل المهندم، المشط الشعر

الشديد البؤس بسبب المساس بكرامته- بأن آلامي بسبب كل ما جنتيه عليه تفوق شقاءه. فربما يجد في ذلك قليلاً من العزاء مثل الاخرين. واردت ان اقول بأنني على استعداد لانهاء كل شيء: ان تعاد له زوجته، ولا اراها ثانية ويمكنني ان اتكفل بنفسي.

وقفت بالباب، في ظلمة المدخل، مديراً ظهري الى الليل القروي الساحر، وقلت كلامي. رمقتني ابنته وهي شاحبة الوجه. اما هو فقد زم شفتيه وطرح الجريدة جانباً. لقد علمت انه احبها حباً شديداً، وان ما جنيناه قد عذبه طيلة حياته حتى الان. ولست اذكر الكلمات التي انتقيتها، اسندت ظهري الى الباب وانا مرتبك ولكن مصمم، احاذر ألا تلوث جزمتي الارضية النظيفة. ويغض الرجل طرفه وما زال لا يستطيع ان ينظر الي مباشرة، كما لو كان آثماً وكنت ارمقه بنظرة مباشرة، لكي أحتوي في داخلي كل الم بقدر العقوبة التي استحقها. وصمت الرجل برهة طويلة جداً وبعد ذلك، قال رويداً رويداً، وهو يمد اصابعه ممعنا النظر فيها بارتباك "اعتقد انه لا داع. هل تفهم"؟! وكان يتوقف عن الكلام، ويستدير بنظره الى ابنته: "وكما يقولون فإن الزمن قد لعب دوره. اي اننا تعلمنا..." وكانت عيناه ترمقان الفتاة في حب هادىء، "تعلمنا كيف نتغلب على الـ... على الامر. تعلمنا كيف نستغني عنها... وكان هذا صعباً علي...."وهكذا كان يومىء برأسه، لنفسه" أجل كان هذا صعباً جداً ‥ على الاولاد‥" وراح ثانية يمعن النظر في اصابعه، ويتوقف ويصمت لحظة طويلة. وكان كلامه معي اشد وطأة من الموت. "ولكن هكذا افضل الان. وهذا يعني ان السنين قد مرت. ولا يمكن ان يعود كل شيء كما كان".

بحث عن الكلمات. "لا يمكن ان يعود كل شيء كما كان، المحاولة من جديد‥‥ إن ذلك لن يكون كما كان سابقاً واذا لم يكن الان كما كان من قبل-" وهنا اجده يرمقني بعينيه لاول مرة في حياته، وكانتا صافيتين وتشعان بالذكاء، وساخرتين بعض الشيء؛ وفيهما نزر يسير من بريق الفوز المتأخر، ولم يكن سبب مجيئي الى هنا هو الجدال معه، فقد رضخت قبل ان اجرؤ على الاقتراب من عتبة داره. عينا الرجل

الذي قمت بحمله منذ ايام طويلة، وهو ينزف دماً من موته الى حياته المهينة." "فما هي الفائدة من ذلك"؟!.

"اسمع"، اقول له بكلماتي، غير الموفقة، وغير المريحة، "انك احببتها. جداً. وانا اعرف هذا. لقد كانت امرأة جميلة جداً. ما زالت فيها حتى الان مسحة من الجمال". وفي مخيلتي امتدت شوارع مدينتهما فاروتسلاف، حيث المنازل الرمادية اللون والشارع المزدان بالاشجار السوداء من جراء تساقط الاوراق في الخريف. وكان هو وهي شابين كما يبدو في الصور، وهي تضع قفازاً رقيقاً في يدها وتمسك بشمسية وجسدها نحيل وترتدي تنورة باللون الازرق الفاتح ترمقه بنظرة كلها اشتهاء، وشعرها الذهبي يلفحه بلهيبه. لقد عرفا حقاً ايام غرام وتاق كلاهما للاخر في الليالي. لقد غادرت وطنها وتبعته، وتركت كل عالمها من اجل هفوة وطنه الاخر، الذي فيه كان من المقرر ان تنفصل حياتهما، وتتحطم، ومن المؤكد انهما لم يكونا يعرفان الحزن هناك. واقول "اسمع"، كل ما في الامر انني كنت شاباً احمق ادرك هذا. ولا حاجة للعودة الى هذه الامور واسترجاعها. صدقني، انني جد آسف على ذلك، طوال الوقت. وانا افكر منذ عام، وربما اكثر، في التوجه اليك وحتى الان لم استطع –وانت تفهم- ان اجد القوة لهذا. وكنت طوال الليل اشجع نفسي على الاقدام واحجم" واجفف العرق من فوق جبهتي. :"اعرف. ليس من اللائق ان يأتي مثلي انا الذي فعل ما فعل، ويتكلم مع من...." ثم اتوقف ثم اتابع "انا- لا خيار امامي. لا استطيع، لان..."، ومرة أخرى لم أجد الكلمات المناسبة فأتأمله، وهو يزم شفتيه، ويغض بصره ثانية- ولكنه كان اكثر تصميماً مني، اعرف هذا. اما ابنته- ولها شعر اشقر وطويل مثل شعر امها، ووجها نحيل واسيل، ولها عينان حانيتان كعيني ابيها- فملتزمة الصمت.

وهي في صمتها تكن لي الحقد، وربما هي في حيرة من امرها. اما شقيقها، وكان حينذاك في الجيش، فقد كان يتجنب لقائي- اثناء اجازاته- ونحن نمر بطرقات القرية. اما انا فلم ارزق من هذا الزواج اولاداً- وهو، ابن زوجتي كان فتى وسيماً، وكنت اتمنى ان يكون ذلك الفتى ابني. ولم يكن بيننا كلام قط، منذ ان جاء -وهو

بعد صبي- لاستدعائي الى ابيه الممزق اليدين.

وكنت استعطف زوجها بكلماتي، وفي الضوء الخافت، عند مدخل المنزل: "اسمع، انها آسفة. وتبكي طوال الليل." واغض طرفي عن ابنته- وبحس مرهف ما امكنني قلت بشكل متقطع: "منذ ثلاث سنوات وأنا تقريباً..، وهي تصد عني. اي انه لا يكاد يجري بيننا كلام. هل تفهم؟! لست اريد منها شيئا. ولتفهم ان كلاً منا آسف على كل ما جرى، وفي الليل...."- ولكن يده تقاطع كلامي، في حزم لم اعهده منه حتى الان وفي جرأة شديدة قائلاً: "كفى!"، قال ذلك في حزم، وبدون مواربة. ولكنني احاول ثانية واقول "ولكنها تبكي طوال الليل. انها اسفة، وانا اعلم ان الناس يقومون بأفعال طائشة. بل قد تقترف امور رهيبة. ولكن هذه الامور يمكن اصلاحها. انها بائسة

إنها بائسة جداً. ولماذا تدفع طوال حياتها ثمن حماقة واحدة"؟ وكنت افكر في ان اقول بأنها ربما فكرت حينذاك في ان تجد بي انا الفحل، الشهواني، الضخم وهي خائفة وغريبة، بكل جوارحها، ملح الأرض الغريبة التي جلبت اليها،، بعد ان انسلخت عن ماضيها، وربما كان الامر كذلك. وربما كان في ذلك سر الامور التي وقعت. ومن يدري. فأنا لم اعرفها قط، اللهم الا من خلال لذاتها العارمة وآلامها. واردفت قائلاً "انها لا تكاد تأكل شيئاً فهي تدور في المنزل كالظل. ولاتغادره. وعندما تأوي الى فراشها في الليل، تدير وجهها الى الحائط".

وهنا نهض الرجل على قدميه، وكانت نظرته قوية ومزدرية وقال: "كفى، ان كل واحد يدفع ثمن اخطائه- ولا يمكن اصلاح كل خطأ". وكان يرمقني بنظرة باردة غضبى، وكان كلامه منمقاً كما لو كان قد اعده قبل ذلك بأيام كثيرة. وظلت ابنته صامتة طوال الوقت. وانفجر في وجهي قائلا: "انك لا تدرك كم كنا بؤساء. تعلمنا كيف نعيش مع بؤسنا. وكيف نسير معه، بين نظرات العطف اللعينة هذه من ابناء قريتك، مع التكرم والتفضل والجود والرأفة من جانب اوليائك. وتعلمنا كيف يروننا ولا نراهم. وكيف نقبع في دارنا. وننسى" ثم ادرف وهو يضحك دون فرح: "ان ننسى. نعم" ثم غابت الابتسامة عن شفتيه." كانت ثمة ليال كثيرة خالطها التفكير في الانتقام. اجل. ولم يعد

النوم يجد طريقه الى جفوني منذ ذلك الحين على الاطلاق. انني نموذج فريد من نوعي"- وارى بريق عينيه- "هل سمعت عن انسان لم يجد النوم طريقه الى جفونه طوال سبع عشرة سنة؟! وكنت استلقي على فراشي في الليل وافكر فيكما. وكذلك في عملي". هكذا كان يسترسل في كلامه وبريق عينيه يزداد حدة، "كنت اؤدي عملي كرجل آلي. وكانت الحسابات تتم تلقائياً، دونما خطأ. فأنا نموذج فريد من نوعي. وقد كنتما تشغلان تفكيري طوال الوقت. اجل طوال الوقت. انت وهي، هي وانت. طوال الوقت. وبعد ذلك، لم اعد افكر في الانتقام. لقد اعياني التفكير في الانتقام، فأصبحت ابحث عن الراحة للافكار المحمومة التي استبدت بي- فلا استطيع. وانما رويداً رويداً، وبدون نوم، وبدون راحة بال، تلاشى هذا الالم. لا يمكن نسيان أي شيء، يا رفيقي" ثم يسارع لتحذيري، "ولكن حلّ الهدوء مع التسليم بالامر الواقع، يا رفيقي، وليس هناك مكان لعواصف جديدة في حياتنا، يا رفيقي". وينظر الى ابنته. "انها تبلغ من العمر ستة عشر ربيعاً الان. وبعد قليل ستستقل بنفسها. وقد كيفت نفسها مع الامر الواقع. ولن اقحم ثانية بتلك المرأة الى حياتها الخاصة بها. انها تعرف كل شيء وتفهم كل شيء. هل هذا صحيح؟!" فتومىء ابنته برأسها بتمهل. "فالقضية ليست في الصفح واجراء الحسابات". يقول بغضب "لقد انتهى الامر، وليس ثمة مجال لتغيير شيء"!

وحينذاك وقبل بضع سنين سرت في الظلام من منزلهم الى منزلي، وانا اعرف ان حبه لزوجتي، زوجته، كبير مثل شدة كرهه لها. ولا يمكنني عمل شيء من اجلهما. لايمكنني. ومن هنا، تأخذ حياتها في الافول ببطء امام عيني.

- ٥ -

ولكن السنين تغير الاشياء ببطء. فبعد سنتين او ثلاث سنوات حاولت اقناع زوجة ابنها اوري الشابة، وهي فتاة طيبة من فتيات القرية. وكم كانت غبطتي كبيرة لانه تزوج فتاة من فتيات القرية. وسيصلح شأن الجيل القادم اذا ما حافظت قريتي على طهارتها، فقد فهمت منطقي واحضرت الى زوجتي ابنتها ايزا، قبل التحاقها بالجيش. ويمضي الوقت ويأتي الابن نفسه. ومن حين لاخر كانا يدخلان ويطرقان الباب، وجهاهما

شاحبان، ويسألان ما اذا كانت امهما في الدار فينفردان بها. ولم يكن لي معهما كلام، وكانت هذه بالنسبة لزوجتي ساعات تعيسة من السعادة. اما زوجها بنو فكان يعرف هذا ويرمقني بنظرات الحقد بسبب نجاحي النسبي هذا. وانا لا أكن له ضغينة على ذلك. وكنت احاول ان احسن صنعاً اليه- ولكنني لا اعرف كيف. وهو رجل مكابر جداً ولا استطيع قط ان اخفف من وطأة اهانتي له.

منذ عام وضعت زوجة ابنها حفيدها الاول، واتسعت عينا زوجتي يوتا وهي ترقد في فراشها. وامسكت به وضمته الى صدرها ونادته -كمن يتكلم في حلم بعيد وباطني- ستيفان، ستيفان. واحتجت زوجة ابنها وقالت: "ولكن يا يوتا"- وكان قد سمح لي بدون كلام، بأن اقف بباب الغرفة- "اسمه ايال! ايال!" بيد ان اسمه الاخر لم يبعث بأي بريق في عينيها. اذ كان اسم ستيفان هو الاسم الذي يعنيها وحينذاك عرفت بأن زوجتي لن تعيش طويلاً. وفي هذه الايام اخذت اعد نفسي لوفاتها. ولا اترك فراشها الا عندما يهدأ تنفسها الثقيل وتنبسط اسارير وجهها. وحينئذ ادرك انها نامت. منذ بضعة اسابيع وهي تتقلب في فراش المرض الذي لم يكن له تفسير. وكانت طبيبة القرية الطيبة القلب تترك لها حبوب الدواء في الزجاجات وفي الاكياس الصغيرة- ولكنها تعزف عن تعاطيها- وانا لا الح عليها. انني ارى موتها من خلال عينيها، وقد اخبرت اولادها، واستجابوا وجاءوا جامدي الوجوه. وجلسوا عند فراشها. وعندما فتحت عينيها ورأت حفيدها، اجهشت ببكاء مر يصم الآذان، مصحوب بسعال- وارتجف الطفل الذي اكمل عامه الاول وضاع بكاؤه في بكاء جدته. ولم يكن زوارها حتى الان سوى: الابنة، والابن، والحفيد، وزوجة الابن. واحياناً كانت تدخل جارة طيبة اما بدافع الفضول واما بدافع الشفقة للمساعدة في تنظيف المنزل. اما زوجها بنو الرجل المكابر، المصاب بمرض في عظامه، فقد احتاج في الشهور الاخيرة لعصا من المعدن يتكىء عليها اثناء السير. ورفض ان يعودها وهي مريضة. ولست ادري ما اذا كانت تتوقع مجيئه خلال هذيانها وآلامها!.

وعندما ينصرف الجميع، اترك مقعدي الوثير في غرفتي الثانية واترك كتبي

وجرائدي وصور طفولتي القليلة، وادخل اليها واتأملها. انني لا اكن لك حباً، يوتا زوجتي، ايتها الغريبة الاجنبية التعيسة. انني اشفق عليك كثيراً. واعرف علة مرضك كما اعرف علة موتك. وما لم اكن انا انا، لكنت احاول نقل جثمانك -بعد موتك- الى مدينتك القصية فاروتسلاف. وعندما تفتحين عينيك، تنفصل الغشاوة الضبابية الرطبة احياناً من فوق حدقتي عينيك، وانت من خلال الحمى التي تعتري جسمك ومرضك تعرفين وجهي، وانا واقف لاحرس فراشك- وانت تصرخين في ذهول شديد. واحياناً وانا جالس في المطر، استقبل الغروب الخفيف لشمس الشتاء، في نافذتك، بلون الشفق- اتخيل انني اسمعك وانت تشتميني وتشتمين قريتي. نحن كابوسك المفزع. فنحن نكاد نكون كابوساً مخيفاً كل واحد منا للاخر. وليس لنا ما يعزينا في القليل من تلك الذكريات. وها انت تموتين والشرف الذي ستحظين به في مماتك اعظم منه في حياتك. ان كل اهل قريتي سيأتون لتشييعك الى مثواك الاخير، وسيتقاسمون جميعاً الحزن على موتك قليلاً قليلاً، فيما بينهم جميعاً. وفي صمت سأنعى شقاءك وسيفد مئات الاشخاص على ابواب المقبرة التي اقمتها والتي تكسوها الخضرة والجمال، والمحاطة بأشجار السرو. وسيمرون بالطرق السبع المؤدية الى القرية ويفدون الى المقبرة. وسيقفون بين الحشائش وحدائق الزهور صامتين، وفي سكون يشاهدونك وانت توارين التراب.

ترجمة: سمان إسماعيل

روت ألموغ

بعد عيد الشجرة



• روت الموغ:
ولدت عام ١٩٣٦ في بيتح تكفا لعائلة من اصل الماني. منذ عام ١٩٦٧ عملت في القسم الادبي لصحيفة هآرتس. حازت على جائزتين في ادب الاطفال، وعلى جائزة برنر لعام ١٩٨٩ عن روايتها "جذور في الهواء".
من بين اعمالها:
"بعد عيد الشجرة" (مجموعة قصصية، ١٩٨٠)،
"موت تحت المطر" (رواية، ١٩٨٢)،
"نساء" (مجموعة قصصية، ١٩٨٦)،
"كيف، حبي الاول" (قصة للاطفال، ١٩٩٢).

مرض ابي في مطلع الشتاء، ولازم فراشه اياماً عديدة، كان باب غرفته مغلقاً دائماً وكنا نسير في بيتنا على اطراف اصابع اقدامنا لكيلا نقلق راحته.

وزارنا اشخاص عديدون في دارنا لعيادته، غير ان والدتي منعتهم من الدخول اليه، شارحة لهم ان قلبه المريض في حاجة الى الهدوء والراحة. ذات مرة زارتنا في دارنا امرأة لم نعرفها من قبل وقدمت الى والدتي شالاً من الصوف وقالت:

"أنت لا تعرفينني، جئت ذات مرة الى الطبيب، كنت اعاني من حمى شديدة والتهاب في الحنجرة، فأعطاني دواء وأعطاني هذا الشال ايضاً لكي الفه حول رقبتي، وقال لي عند المرض في الشتاء يجب تدفئة الرقبة. لقد شفيت الان واود ان اعيد الشال اليه. انا مدينة له ببعض المال ولكنني لا املكه الان، وقد قال لي الطبيب ان ادفع

عندما استطيع ذلك".

هكذا كان والدي وكثيراً ما كانت والدتي تغضب وتقول له بغيظ بأنه لا يكتفي فقط بعدم تقاضي رسوم الكشف من الفقراء بل يعطيهم الادوية التي يشتريها بنفسه بكامل ثمنها. ثم تضيف قائلة "وكيف نعيش، فسوف يأتي الينا الفقراء فقط فالناس يقدرون الاشياء التي تشترى بالمال"، وقد دأب والدي على اجابتها بهدوء: "لنتكل على الله فهو نعم المعين"!

لقد اخبرتني والدتي بأنه حتى في خارج البلاد كان والدي ايضاً طبيباً للفقراء وانه هناك ايضاً لم يأخذ رسوم العلاج عندما كان يلاحظ ان الناس لا يستطيعون الدفع.

وروت لي ذات مرة قائلة: "ما زلت اتذكر كيف ان احد الصيادين احضر له ذات مرة ثلاث سمكات بدل النقود. كان ذلك في نفس يوم خطوبتنا. وجاء الوالدان لزيارتنا. وقد اعددت السمك لوجبة الطعام. وقالا انهما لم يذوقا ابداً مثل هذا السمك الشهي. وبمرور الايام، عندما بلغت سن الرشد، سافرت لزيارة تلك البلاد، وفي احدى القرى الصغيرة، في تلك المنطقة التي كان يعمل فيها والدي طبيباً التقيت بأمرأة مسنة، قالت لي: انت ابنته؟ طبعاً، اتذكره. صحيح، لقد مرت اكثر من اربعين سنة، كيف يمضي الزمن سراعاً.... ولكننا نتذكر... نتذكر، كيف يمكن ان ننسى طبيباً مثله، فهو لم يأخذ مالاً من الفقراء ابداً".

في مطلع ذلك الشتاء الذي مرض فيه والدي، انحبست الامطار. في ساعات بعد الظهر، بينما كنت اقوم بإعداد دروسي في المطبخ، كان اخي الاصغر يلعب في فناء الدار. وعند حلول الظلام اعتاد الدخول الى الدار واللعب بسياراته على ارض الدهليز. في مثل تلك الساعة كانت غرفة الانتظار في دارنا خالية من المرضى الذين يعالجهم والدي. وفي هذه الفترة اصبحت والدتي تعالجهم، حيث انها كانت هي الاخرى طبيبة، اما أنا فقد اعتدت الجلوس هناك، في اريكة والدتي الكبيرة للمطالعة. وكان والدي ينادينا في بعض الاحيان بعد تناول وجبة العشاء. كنا ندخل اليه لبضع دقائق وكان يسألنا عن سير الدراسة ويتصفح كراسة اخي الذي تعلم كتابة الكثير من الكلمات، وعندما كنت

القى عليه تحية "تصبح على خير" كان يربت على رأسي ويقبلني.

بعد مرور شهر ديسمبر بدأ والدي يتماثل الى الشفاء، ولكن في تلك الاونة بالذات تغير الجو وهطلت أمطار غزيرة. كان المطر ينهمر ليل نهار بلا انقطاع وقال ابي ضاحكاً: "ما ان تماثلت للشفاء حتى جاء الطوفان".

وحتى في الرابع عشر من شهر شباط العبري استمر هطول المطر، وقال لي ابي الذي كان دائم القلق على صحتي، بأنني لا استطيع الخروج لغرس الاشجار. لقد اشتقت جداً للاشتراك في رحلة عيد الشجرة، (في الخامس عشر من شهر شباط العبري) لاني احببت مرشدنا الجديد رافي. وقد اكثرت طوال ذلك اليوم من استعطاف والدي الى ان استجاب في آخرالمطاف الى رغبتي.

في صباح يوم عيد الشجرة لم ينقطع المطر وعندما تهيأت للخروج من البيت قال لي ابي: "خذي معك بولوفر وحاولي الا تتبللي".

هطل المطر رذاذاً على الجبال وفي اثناء سيرنا نحو الارض المخصصة لغرس الاشجار، غاصت ارجلنا في الوحل. سار رافي الى جانبي حتى ان يده مست يدي عرضاً، فداخلني شعور لذيذ لبرهة وجيزة.

في المنطقة المخصصة لغرس الاشجار استقبلنا موظف هكيرن هكيمت، واخبرنا بأننا في غرس غابة لذكرى القديسين. وعلى سفح الجبل شاهدت فتيات وفتياناً والفؤوس بأيديهم يغرسون الاشجار في حفر التراب الرخو. وعندما غرست شتلتي الصغيرة واحكمت التراب من حولها، علق تراب اسود بكف يدي.

سألت نفسي- هل ستعيش شتلتي؟ وفجأة انتابني احساس بخوف مبهم وهفا قلبي الى رافي الذي وقف الى جانبي وغرس شجرة. لعله يقول لي شيئاً ليشد ازري ويشجعني، انتصبت واقفة وارسلت بصري نحوه. وعندما التقت ابصارنا لم يبتسم، وعلمت انه لا يستطيع مساعدتي.

وفي المساء عندما دخلت بيتنا، رأيت والدي جالساً في اريكة المدخل، ابتسم لي واردت الاسراع اليه وتقبيله، لكن شيئاً منعني، منذ ايام لم يجلس على الاريكة، اما

الان فقد لاحظت ان وجهه تحسن.

استمر هطول المطر في الايام التالية ايضاً. واكثر والدي من التجول في البيت، متدثراً بمعطفه البيتي الصوفي البني. وكان يدخل احياناً الى المطبخ فينحني لكي ينظر الى دفتري.

وهكذا مضت ستة ايام من الامطار المستمرة. وفي اليوم السابع بعد عيد الشجرة اشرقت الشمس. وجلس والدي معنا الى مائدة الطعام لتناول الغداء. ورتل بركة النعم بصوت مرتفع. وبعد انتهاء الطعام خرج ليجلس في الشرفة. كانت الشمس مشرقة والنسيم العليل حمل معه شذاً لذيذاً من البساتين وكانت امي جالسة قرب ابي تجاذبه اطراف الحديث.

وعلمت من حديثهما ان والدي سيتخلصان عما قريب من هموم المعيشة. فعندما سيتماثل والدي الى الشفاء قريباً سيحصل على وظيفة في احد المستشفيات.

جلست في المطبخ لتحضير دروسي ولكني سرعان ما تعبت وقمت من مكاني. كانت الشمس قد صبغت وجنتي ابي باللون الوردي وكانت عيناه تلمعان وعندما ابتسم الي نسيت جميع مشاكلي.

سألني ابي: "هل انتهيت من دروسك"؟

فأجبته: "عندي موضوع انشاء باللغة الانجليزية". فقال لي "اذن عودي واكملي".

نقلت مجلسي من المطبخ الى غرفة المدخل. كانت النافذة المطلة على الشرفة مفتوحة واستطعت ان اشاهد ابي وامي وان اسمع حديثهما. تحدث والدي قليلاً. اما والدتي فقد لازمت الصمت. وبعد مدة وجدت نفسي غارقة في كتابة الانشاء باللغة الانجليزية، غير اني سمعت ابي فجأة يقول بصوت غريب: "لست على ما يرام".

ارتعدت فرائصي. وفيما كنت احاول النهوض، انفتح الباب ورأيت ابي يدخل وقبضتاه مطبقتان على فمه، منحني الظهر وقد امتقع وجهه. ورأيت امي تسنده وتسير به عبر الدهليز الطويل الى الغرفة بينما كنت لا ازال في مكاني. وفجأة جاءني صوت

امي من اقصى البيت: "اسرعي واستدعي الطبيب".

وقفت هناك للحظة وامام عيني وجه ابي الممتقع وكأن عينيه مغمضتان. ولكني ركضت الى الفناء بسرعة وركبت دراجتي وخرجت لاستدعاء الطبيب. وعندما فتح الطبيب الباب لم استطع الكلام. تمتمت "اسرع، اسرع، ابي...." وهربت من هناك.

وبدلاً من العودة الى البيت، ركبت نحو الغابة الصغيرة فوق الرابية القريبة من بيتنا وهناك جلست على مقعد والفراغ يملأ قلبي، ثم عدت وركبت الدراجة. وعندما مررت من امام بيتنا رأيت الطبيب يسير في الفناء نحو بيتنا واذاك علمت انه لم يمض سوى وقت قصير. خشيت العودة الى البيت وسرت هائمة على وجهي في شوارع المستوطنة ثم عدت اخيراً الى الغابة وجلست هناك على المقعد. ولا اعلم ما هي المدة التي امضيتها هناك، غير انه عند عودتي الى البيت كان باب غرفة والدي مغلقاً ولم يسمع منها اي صوت. ودخلت الى المطبخ وجلست قرب المائدة. وكان في الطبق بعض شرائح الخبز. اخذت قطعة وشرعت في أكلها. وبعد مدة انفتح الباب وخرج الطبيب وسمعت صوت باب البيت يوصد وراءه. مضت مدة ثم سمعت باب البيت مرة اخرى ودخلت الى المطبخ جارتنا صديقة امي وسألت:

"ماذا جرى"؟ لكنني لم اجب.

وآنذاك انفتح باب غرفة والدي ووقفت امي في مدخل المطبخ. نظرت الي ثم قالت:

"مات ابوك" -ثم توجهت الى جارتنا وقالت بلغتهما: "ابنته الجميلة لم يعد لها والد الان" -ثم توجهت الي ثانية: "تعالي نلقي نظرة اخيرة الى الوالد".

كانت عينا والدي مغمضتين، وكان وجهه محتقناً وعليه ابتسامة غيرت ملامحه. ولم ار وجهه ابداً بمثل هذا الجمال والطيبة كما كان في تلك اللحظة.

وعندما خرجت من هناك ذهبت الى الحمام. وعلى مشجب في الحائط كان معطف والدي البني معلقاً. غمرت وجهي في المعطف البيتي وقبلته. ثم امسكت باكمامه الفارغة ومسحت وجهي برفق بصوفه الدافيء الخشن وآليت على نفسي ان لا ابكي.

وفي الغد اجتمع جمع غفير في فناء بيتنا، جاء اقرباء واصدقاء كما جاء اصدقائي وصديقاتي والمعلمون. وعندما جاء الحاخام جيء بأخي الصغير ايضاً وسار معنا وراء النعش الى الكنيس الاول في الطريق. وهناك تلا قداس الترحم، ثم اخذه بعض المعارف الى بيته.

اما امي فلم تبك كما ان عيني لم تذرفا الدموع. ومرة واحدة وقعت عيناي على المرشد، رافي، الذي سار بعيداً عني، وللحظة اجهشت بالبكاء. تذكرت الخوف الذي استولى علي عندما كنا في الجبال نغرس الاشجار وقلت في نفسي مرة اخرى انه لا يستطيع ان ينقذني.

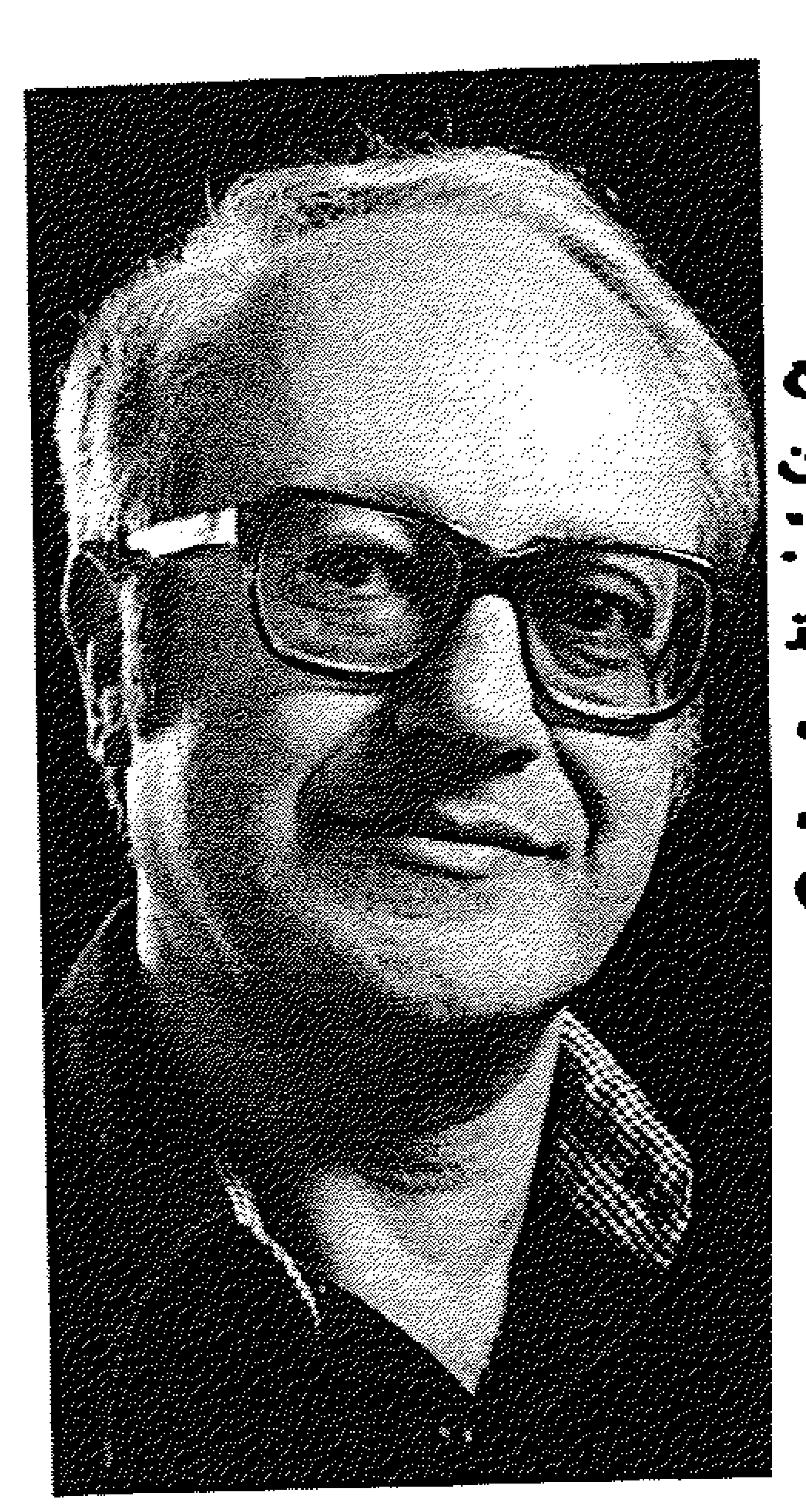
وفي المقبرة شقوا ثيابي وثياب امي. وابّن عدد من الناس الفقيد، وانزل الجثمان في الحفرة واخذ اولئك الواقفون حولي المعاول بأيديهم واهالوا التراب على جثمانه واخذوا يغطونها بالتراب. حاكيت امي وانحنيت الى الارض. وتناولت بقبضة يدي كتلة ترابية صغيرة وكانت الارض رطبة وسوداء ولزجة في كف يدي. كتلة ترابية لارض صلبة، لعل فيها بذرة، في الربيع، ستنمو زهرة على قبر ابي، ولعل الشجرة الصغيرة التي غرستها في منحدر الجبل لذكرى القديسين ستنمو حينها ايضاً. اما انا فهل سيذوب الجليد في قلبي في يوم من الايام؟.

البارحة اشرقت الشمس. وحمل النسيم العليل شذاً لذيذا من البستان. جلس والدي على شرفة بيتنا. وقال عما قريب سيأتي الربيع وفي الصيف سيبدأ العمل في المستشفى. ولكن الان ما زالت الارض موحلة، لان المطر هطل طوال ذلك الشهر، وغمرت المياه الغزيرة الارض وسر بذلك المزارعون.

ترجمة: شموئيل موريه

أمنون شموش

تميــر





* امنون شموش

ولد عام ١٩٢٩ في سوريا. هاجر مع اسرته الى تل ابيب عام ١٩٣٨. كان واحداً من مؤسسي كيبوتس معيان باروخ. عمل مديراً لمدرسة ثانوية لسنوات عديدة من بين اعماله: "أختي عروس" (مجموعة قصصية، ١٩٧٤)، "الكيبوتس هو الكيبوتس" (مجموعة قصصية، ١٩٨٠)، "أرز لبنان" (مجموعة قصصية، ١٩٩٠)
صدر له كتابان مترجمان الى العربية:
"ميشيل عزرا سفرا وابناؤه" (رواية، ١٩٧٨، وبالعربية، ١٩٨٦)، و"جبل المقهورين" ("جبل المارنو": مجموعة قصصية، ١٩٨٩. وبالعربية ١٩٩٢).

الاشكنازي الاول الذي التقيت به كان انساناً حكيماً، دمث الاخلاق ويتسم بالحيوية والوسامة. مع مرور الايام اتضح لي انه اكثر من كونه حكيماً فإنه يحذق التظاهر بالحكمة؛ واكثر من كونه حسن العشرة فإنه يعرف كيف يتشح بحسن العشرة؛ كانت وسامته عوناً له، وقد وافقت حكمته ووقاره توقعاتي. فالتربية التي نشأت عليها في مسقط رأسي اغدقت الخلال والمزايا الحسنة على كل انسان اوروبي. ادهشتني لطافته وجعلتني في حيرة من امري، مثل ذلك مثل امير ينحني ليربط رباط حذائي، كلما ازداد لطافة وقرباً، ازدادت حيرتي. كان الخجل يغمرني كلما التقيت به، او صادفته. وكان الخوف من التحدث معه يعكر علي صفو روحي وقتاً طويلاً؛ كنت اراجع نفسي واتفحص كل كلمة. كنت اخشى اللقاءات معه واتوق اليها. وجدت في تمير ينبوعاً دافقا

من الامور التي لم اعرفها ولم تخطر لي على بال.

اني اغدق عليه الكلمات واحيطه بهالة من المجد عن وعي مني، فهو يستحقها مثلما تستحقه، على الاقل بفضل أفضاله ومعروفه؛ وبالتأكيد بفضل نواياه الحسنة.

كنت في الثامنة من العمر، وربما في التاسعة. وفي مسقط رأسي، في مدينة عربية شهيرة، كان هنالك القليل من الاوروبيين: واذا كانوا كثيرين فأنا لم اشاهدهم. لقد احاطت بهم جميعاً هالة من الاحترام، ولن ابالغ اذا قلت انهم كانوا في نظري اشبه بجنس سامٍ. وفي مدرستنا الدينية كانت هناك خارطة كبيرة معلقة على الحائط. رأيت فيها قطعاً- دون ان اكون بحاجة الى شروحات مفصلة- ان اوروبا تقع في الناحية العليا. ولم اكن على يقين بالنسبة لموقع اليهود في هذا العالم الذي يتكون من الراقين والوضيعين. كنت انسب اليهود ابناء مدينتي الى اوروبا وعالمها فهم يعيشون في كنفها كما يعيش المهاجرون المغتربون في كنف النبلاء؛ مكانتهم دون مكانة ابناء البلاد ولكنهم اكثر من ضيوف في صالة هذه الحضارة؛ فلباسهم افرنجي، وكلامهم افرنجي، وتربيتهم تربية افرنجية.

لم يكن ابناء الطائفة اليهودية العريقة ابناء جلدة واحدة، لكن لم يكن بينهم يهود اشكنازيون. اكثر من مرة سمعت في طفولتي كلمة "اشكنازي". وقد قيلت بنبرة لمحت الى الاحترام وابرزت الحذر. كانت النظرة اليهم متناقضة؛ فقد كان في الاشكنازي شيء من الاوروبي الكامل الذي نظرت اليه باحترام وغيرة. لكن كان فيه كذلك شيء من الغرابة والدونية، من ناحية الديانة اليهودية. فبعد ان جددت بالقوة تقريباً انا وشقيقي لاتمام النصاب في بيت عزاء للصلاة في تل ابيب قوي لدي الاحساس الذي راودني بشكل غامض قبل قدومي الى البلاد. لبضع لحظات ظننت ان صلاتهم ليست عبرية. وعندما تعالت ثانية عبر ضباب الانغام كلمات "آومين" و"أدونيوي" (رب العالمين) بدأت افهمها مندهشاً: اشكنازيون متحضرون- ولا يستطيعون لفظ كلمة واحدة بالعبرية كما يجب.

تمير تكلم العبرية بطلاقة. حرفان فقط الحاء والعين كانا ثقيلين على لسانه. لقد حاول ان يبرزهما عندما يتحدث معي للطافته. لم يكن ثمة امل ان اسمع منه كلمة "ادوينوي" بأي حال. لقد كان نشيطاً في خدمة العمال، وكان ذا طموح كبير وينطلون قصير. اجبرني ان ادعوه تمير. لم اشعر بالراحة في ذلك. في الاشهر الاولى لتعارفنا كنت الف وادور واتحاشى دعوته بأسمه. لقد دعاه الجميع تمير. وحتى زوجته بحضوره وغيابه. تمير دع الولد يخلد الى الراحة. انت بلا شك تعرفين تمير انه يعشق القهوة التركية بجنون. مرت شهور حتى ادركت انه ليس كل اشكنازي يدعى دائماً بأسم عائلته. لقد ظننت طيلة الوقت ان الاسماء شراجا، بيرتس، وزلمان هي اسماء عائلات.

لقد لاءمه اسمه جداً فكان اسماً على مسمى، طويلاً منتصب القامة، رأسه يلامس الغيوم. مع انه في مقتبل الاربعينات من عمره الا ان الشيب اشتعل في صدغيه لكن شعره ما زال كومة كستنائية. كان كثيراً ما يعتني بغرته التي انتصبت كالجبل فوق خليجين عميقين. عيناه الصافيتان، اللتان بدتا زرقاوين على خلفية قميص ازرق وخضراوين عندما يرتدي لباساً اخضر. اضفتا عليه هيئة جامحة وفاتنة. اما كرشه الصغيرة، التي تكورت فوق البنطلون ذي اللون الخاكي دائماً، فقد اقضت مضجعه وضايقت نهمه الذي لا حدود له، غير انها لم تنتقص من امتشاق قامته بأي حال، ولم تقلل من وسامته.

كان تمير مختصاً بالجغرافيا والجيولوجيا. اما في علم الآثار فقد عمل من قبيل الهواية فقط. التعرية هي هواية فحسب، كان يقول مازحاً ويضحك ملء شدقيه. حتى في حينه كان مشهوراً ومحترماً بين زملائه في المهنة، كما كان عضواً فعالاً رفيع المستوى في الهستدروت وفي الحزب. لم ادرك ابداً كيف انسجم عمله ونشاطه النقابي والحزبي. وكلما حاولت فحص ذلك الامر تبين لي انني لست الوحيد الذي لم يفهم ذلك؛ غير انهما قد انسجما ككل شيء آخر لدى تمير. لقد حباه الله بحيوية لا نهاية لها. ولكونه لم يرزق بأبناء يسلبونه وقته، فقد كان لديه دائما متسع من الوقت لجميع الاشياء. انه لأمر غريب، غير اني لم ار في كون الاشكنازي محروماً من الابناء امراً

تراجيدياً، او شيئاً غريباً؛ الامر ليس كذلك فيما يخص السفرادي الشرقي اذا لم يرزق بالابناء او ان رزقه الله بالبنات فقط، والعياذ بالله. وعلى ما يبدو للعيان فان تمير لم ير وضعه غريباً، ولم يشفق ابداً على نفسه او على زوجته روشكا. كان يعامل الاولاد كلهم بلطافة ولامر ما كان يعاملني بضعف هذه اللطافة. بعد مضي سنين كنت ارافقه من ولادة الى ولادة -مرة ولادة كتاب، ومرة ولادة كراس، وادركت انه يرى في كتاباته تخليداً لذكراه. اذا لم يكن اكثر من ذلك. وقد افلح تمير في اشراك زوجته في عملية الابداع المضنية. فهي لم تقم فقط بالطباعة على الآلة الكاتبة وانما ايضاً بالمراجعة والتنقيح واعداد الفهارس والمراجع بشكل يثير الاعجاب. سمعتهما مرة يتحدثان في موضوع كراسة ما تأخرت في المطبعة، سمعت روشكا تقول لتمير: اشعر وكأنني في نهاية الشهر التاسع. فارتبكت انا، اما هما فانفجرا ضاحكين.

في احد اعياد ميلادي، قبل الـ "بار متسفا" (في الثالثة عشرة وهي سن بلوغ الفروض الدينية) بعام او عامين، اهداني تمير اطلسه الجديد. كان اسمه مطبوعاً على الغلاف بحروف كبيرة. وفي الصفحة الاولى كتب لي تقدمة ذات عدد من الكلمات. لم يذكر التأريخ. انتصبت الحروف الضخمة بحزم مثل كاتبها. لقد ملأ نصف الصفحة بكلمات معدودة. وكانت هذه في نظري اجمل واهم الهدايا التي حصلت عليها. كلمات التقدمة التي حفظتها عن ظهر قلب رافقتني في طرق ودروب هذه البلاد، التي اقتادتني اليها الرحلات والحروب. في تلك الليلة استلقيت على سريري، القيت نظرات حالمة على خزانة الكتب التي احاطت بالسرير الذي يمكن طيه من كل اتجاه، وتخيلت كتاباً طبع عليه اسمي يستند الى اطلس تمير. عندما داهمني النوم، حلمت حلماً عن تمير. وهذه ليست هي المرة الاولى ولا الاخيرة.

في تلك الايام التي تعرفت فيها على تمير للمرة الاولى انكشفت لي تل ابيب. لقد كان كلاهما في نظري تجسيداً لارض اسرائيل. لقد سحرتني تل ابيب العبرية. من لم يذق طعم الغربة لا يعرف طعم الجنة الذي في هذه المدينة التي جميع سكانها من اليهود. كل من لغة امه هي العبرية لا يفقه ما معنى الخلاص. شقيقي وشقيقتي

الموجودان في البلاد منذ فترة طويلة، استقبلاني وامي في الميناء. من شرفة بيتهما في الطابق الثالث نظرت مشدوهاً الى رجال الكاكي. جميعهم على عجل يتوقفون بعض الشيء، لشرب شراب غازي في الكشك ثم يمضون في طريقهم مسرعين. لم اشاهد احداً يمشي متمهلاً، يحرك عكازه ويخطو الهوينا، كوجها، مدينتي؛ لم أر احداً منهم مهندماً كما يجب، يعني افرنجي؛ انظر، همس شقيقي في اذني، كلهم يهود، كلهم يتكلمون العبرية. هذه ايام قدوم المخلص المنتظر قالت امي. ليس كلهم، قالت شقيقتي، فالاشكنازيون يتكلمون الايديش.

في اجمل اللحظات في حياتك، دائماً يوجد من يذكرك بأنه ليس كل ما يبدو جميلاً في الظاهر هو جميل في داخله ايضاً. خسارة. قررت ألا اسأل اسئلة، بل سأجد الاجابات لوحدي، مع مرور الزمن. لكن ومنذ تلك اللحظة وجدت كراهية هذه الايديش طريقها الى قلبي، لانها تنتقص من الكمال.

في الشرفة المقابلة كانت تلعب بنت ساحرة الجمال. كانت تلعب وتغني وحدها بالعبرية. شقراء الشعر، صافية العينين، واسعتهما. ترتدي فانيلا وتنورة قصيرة. إنها "اشكنازية". بالطبع. لقد كنت غارقاً تماماً في تأمل البنت الغريبة، الجميلة كالملاك حتى اني لم انتبه للضيف. سمعت بطرف اذني من يناديني بأسمي ولم أرد افلات القضبان. قرصة امي في ذراعي، وهي علامة متفق عليها بيننا، اعادتني الى الواقع، ولفتت نظري الى تمير. وقفت امامه مشدوهاً، مثلما وقفت بعد مرور سنين طويلة امام تمثال داود لميخائيل انجلو، في الاكاديمية في البندقية. كان عملاقاً، جميلاً، في منتهى الكمال. الابتسامة الفاترة التي علت وجهه اخذت تتسع وتنتشر عندما مد لي يداً كبيرة وصافح يدي الصغيرة كما يفعل البالغون. لم يقرصني في خدي ولم يعاملني معاملة الاولاد.

بعد خروجه فقط وضحوا لي أنه "رجل هام" لم تظهر اهميته من خلال لباسه. او من خلال تصرفاته. فزياراته المتكررة كانت زيارات صديق ودود؛ مما زاد سحره بهاء بنظري. انه اشكنازي. قالت اختي. لكنه انسان جيد قال أخي.

بعد مضي اسبوعين، بينما كنت لا ازال اجمع الكلمات العبرية واحدة بواحدة، فاضم كلمات من الراديو ومن اللافتات الى كلمات من نص الصلاة بحماس من له هواية الجمع- دعاني تمير الى نزهة في المدينة. نزهة اولى وليست الاخيرة.

لقد اراني تل ابيب كصاحب مزرعة يعرض املاكه. يدي غائصة داخل كف يده. عيناي تتلفتان باستطلاع وآذاني منصتة لتسمع وتفهم، كنت اخطو بسرعة للحاق به. لقد اتيت انت من مدينة كبيرة وعريقة الى مدينة صغيرة وجديدة، قال لي، اما أنا، فقد اتيت من بلدة صغيرة. هذا ما تفوه به الشخص القادم من اوروبا، فتركني فاغراً فمي. المدينة التي اتيت انت منها اكبر بخمسة او ربما ستة اضعاف- اضاف الجغرافي قائلاً. ولم اعرف ان كان يهزأ بي. ففي نظري كانت مدينتي رمزاً للتأخر، بينما تل ابيب هي الجنة على الارض. فكم بالحري اوروبا. لقد جعلني تمير انظر من زاوية نظر جديدة، لم تعد ابداً نظرة من الاسفل الى الاعلى. لقد انفعلت جداً في ذلك الوقت، حتى اني لم اتمالك نفسي وبحت له بما تبلور في اعماقي في تلك الايام الاولى واقسمت ألا أبوح به لاحد. سيكون المخلص المنتظر سفرادياً شرقياً. حين قلت ذلك طأطأت رأسي. وحتى اليوم اتساءل ماذا كان رد فعله.

لقد تحدث تمير عن تل ابيب وكأنها من صنع يديه. او كأنها صبي قام هو بتربيته. اتضح لي فيما بعد ان هذه هي نظرته لكل ناحية في البلاد. سرنا ذات مرة في شارع اللنبي الصاخب من البيت الازرق باتجاه المركز الزراعي الذي يرتفع كالعملاق بين الاقزام بطوابقه العالية الثلاثة. لماذا لا توجد في تل ابيب ناطحات سحب، سألته. اولاً -اجاب تمير رافعاً ابهام يده اليسرى- الاقليم هنا لا يسمح لنا بذلك. فلو بنيت هنا البنايات الشاهقة فلن نقوى على التنفس في هذه المدينة. لذلك قمنا بسن قانون بلدي، ينص على منع البناء اكثر من اربعة طوابق. واخيراً علينا ان نعتاد على حقيقة كون ارض اسرائيل في المنطقة المدارية الحارة نسبياً وليست في المنطقة المعتدلة.

انحنى تمير ودون ان يتوقف في خطوه رفع جواربه الكاكية حتى ركبتيه. بنطلون الكاكي القصير والفضفاض، صنع آتا، كان مكوياً ونظيفاً. ركبتاه الناصعتا البياض لم

توائما شخصيته القوية ووجهه المسفوع. لكنهما كانتا برهاناً آخر على انه اشكنازي. قلت له ابتدأت بـ "أولاً" وتلك اشارة الى ان هناك "ثانياً" ايضاً. ربت تمير على كتفي بشيء من الصداقة، امسك بكتفي وشدني اليه، وقال: مسكتني، الحجة الاولى كانت عندي بالطبع. اما الحجة الثانية فلست متأكداً منها، لذلك حاولت التهرب. استحوذت على فؤادي صراحته. فقد الفت الكبار الذين يعرفون كل شيء. يقولون ان الارض هنا رملية، قال تمير ولوى شفتيه، بتشكك، وذلك يعيق البناء الى الاعلى.

مقابل المركز الزراعي، داخل الساحة، انتصبت البناية المحترمة للجنة التنفيذية للهستدروت. هناك يعرف تمير الجميع والجميع يعرفونه. عندما دخلنا الساحة اوقفني تمير، امسك بكتفي واوقفني امامه، حدق بعينيه الصافيتين في عيني المتقدتين، وشرح لي كل الايديولوجية دفعة واحدة. هنا يعمل موظفون ومديرون، سفراديون واشكنازيون، قادة المستوطنات وأميون، والجميع يحصلون على راتب- كيف؟ (كييف؟) ليس حسب الوظيفة والمركز، وليس حسب الثقافة، وليس حسب الاهمية، وانما بمقتضى الاحتياجات. كل واحد بموجب احتياجاته- ردد ذلك شاهراً اصبع يمناه بين عيني مسدداً اياها في وجهي كالمسدس. ان اولاد موزع الشاي اليمني اكثر عدداً من اولاد سكرتير الهستدروت- ولذلك فهو يتقاضى معاشاً اكبر. هل تفهم؟ هززت رأسي. لكنني لم افهم. ما معنى ان يكون الاسياد في الاسفل والوضيعون في الاعلى؟ في فترة لاحقة وبعد ان تعلمت معنى كلمة "دافكا" (اي بالذات)، والتي اعجبتني بالذات، ادركت ان مجتمعاً جديداً يبنى هنا لا سلطة للتقاليد عليه- اخذت الامور تنجلي امامي، بل واعجبتني.

في الاروقة الطويلة مررنا على اشخاص كثيرين، بعضهم يلبسون القمصان الروسية والبعض ثياباً زرقاء، وآخرون يلبسون الكاكي، لم يتعب تمير من رد التحيات بابتسامة عريضة. كذلك كان يتبادل كلمة او اثنتين مع كل واحد. يتوقف دون ان يتوقف عن خطوه. مرة واحدة فقط شاهدت الحمرة تعلو وجنتيه، وفي عينيه- نظرة طالب امام معلمه. عندما تركنا هذا الرجل وغاب عنا، انحنى تمير بقامته وهمس في اذني، هذا هو بيرل. لم اعرف من بيرل هذا، لكنني فهمت. بيرل. كان في جرس الاسم

شيء جديد، مليء بالجلال. اشكنازي جداً.

بلهجة مشابهة مليئة بالهيبة والاحترام كان يشير خفية الى الشباب بالنعال المغبرة، والشعر الاشعث، يرفع حاجبيه ويهمس خلسة: هذا رجل كيبوتس. وهذا ايضاً. وهذا ايضاً. لقد الهب الكيبوتس حب الاستطلاع عندي. لكن تمير رفض التحدث معي عن الامور التي تحيطها هالة من القدسية. فاضطررت الى الاكتفاء بوعده اياي بالمجيء في احد الايام لاخذي معه لمشاهدة هذه المعجزة بأم عيني.

غالبية نزهاتنا المشتركة كانت تجري في تل ابيب. وفي احدى تلك النزهات خطونا باتجاه اوبرا- مغربي، حيث حدد تمير موعداً مع شخص ما من كوبات حوليم -صندوق المرضى-، بجانب شباك تذاكر مسرح الـ "أوهل" (بجانب الساعة تحدد مواعيد مع الفتيات فقط هه، هه، هه).

سألته بالطبع ما معنى كوبات حوليم، ولماذا يطلق على المسرح اسم أوهل، وماهي الاوبرا، واذا كان ثمة فرق بين مجرد اوبرا وبين اوبرا- مغربي. الى أن وصلنا الى مكان اللقاء، كان تمير قد استطاع الاجابة على السؤال الاول فقط. لقد سره جداً ان يشرح لي كيفية عمل كوبات حوليم. يدفع كل واحد بحسب مقدرته، راتب عال- رسوم عالية، راتب منخفض رسوم منخفضة، بينما يحصل كل انسان على العلاج بحسب احتياجاته، دون ان يعرف الطبيب ماهي الرسوم التي يدفعها. اثناء حديثه استعان طبعاً بالامثلة، وباشارات اليد. لقد قمت بابلاغ والدتي بذلك في نفس المساء وبحماس منقطع النظير، وشرحت لها بالتفصيل جميع دلالات الموضوع. انقلبت الدنيا رأساً على عقب. لقد كانت شروحاتي مقنعة جداً على ما يبدو. حيث هزت رأسها وقالت مكررة: ايام المخلص المنتظر. أيام المخلص المنتظر.

وفي اليوم التالي عندما اتت العمة اليجرا لاعادة مطحنة القهوة اليدوية التي كانت قد استعارتها منا، الحت علي والدتي ان اشرح لها كيف تعمل كوبات حوليم. وقد حظيت بسبب الخطاب الحماسي بقرصة في خدي، بقبلة رطبة، وبمسحة قاسية بمنديل تم تمريره المرة تلو الاخرى بين خدي اللذين احمرا اكثر من احمر الشفاه وبين

لسان العمة اليجرا التي حاولت محو آثار قبلتها.

بالرغم من التقارب الذي ساد بيني وبين تمير، فلم يصل الامر بنا الى الحب. لقد شطر بيننا حاجز من الغربة، ومحاولاته التغاضي عنها ابرزتها اكثر فأكثر. لقد كنت اقدره جداً. لكن تقديري له كان ايضاً غير مستقر. وقد زاد احترامه في نظري ذلك اليوم الذي خطا فيه في مسيرة اول ايار، يحمل في يده علماً احمر. في الصف الاول. في الحقيقة في الصف الثاني، غير انه بعد مرور اسبوع قلّ احترامه بنظري بشكل كبير.

كنت اصعد درج بيته راكضاً، اقفز اثنتين اثنتين كما يفعل الصبيان، واذ بتمير يلاقيني وهو نازل على الدرج. على خاصرته مريول ملون وفي يده سلة القمامة. فعجزت عن الكلام. انتظرني فوق سآتي حالاً- قال تمير بصوت مرح، ولم تظهر عليه اي علامة من علامات الارتباك. فتحت روشكا الباب وعادت الى الاريكة والى الكتاب. تمير سيعود فوراً، لقد نزل ليرمي القمامة. لقد كان صوتها عادياً لكنه بدا لي احتفاليا: انها تقول لي أنا. اعرف ذلك، أجبتها بصوت ليس صوتي، محاولاً بلع شيء ما غصّ في حلقي. عندما عاد تمير مع السلة، غسل يديه واتجه ليغسل الادوات المنزلية، احسست وكأنني غريق دلقت على رأسه جرة من مياه المجاري. اما هو فيربت على كتفي بيده الرطبة ويقول: تعال معي الى المطبخ واسأل هناك كل الاسئلة التي بحوزتك. ألا تعرف ماهو خط توزيع المياه؟ سأشرح لك. ان ساعدتني على تجفيف الملاعق والاشواك والسكاكين. خذ مريولاً.

عندما سردت ذلك لامي، قالت "يا عيني"- كلمة التعجب والدهشة هذه التي لا ترجمة لها، والتي كانت تقولها امي بنبرة فريدة. عندما فرغت من سرد الحكاية كانت تهز رأسها شمالاً ويميناً، مثلما يفعل ذلك الانسان في واجهة الدكتور شول في شارع اللنبي، والذي تؤلمه رجله دائماً، قالت: "يا عيني"! مرة اخرى ثم صمتت. فقالت شقيقتي: اشكنازي. أما شقيقي فلم يكن بالبيت.

الامر الآخر الذي حط من قيمة تمير هو لفظه، عندما يستخدم الكلمات

العربية. فعلى الرغم من كونه خبيراً جغرافيا ذائع الصيت، ويتعلم العربية في دروس خاصة خلال سنين كثيرة فهو ما زال يلفظ الواو فاء فيقول: فادي، بدفي، فزير وفهبة بدلاً من وادي، بدوي، وزير ووهبة. انه اشكنازي لا صلاح له. لقد اجرى بحثاً عن حياة البدو، ومازال يلحن في لفظ هذه الكلمة. احتراماً له لن اضيف هنا امثلة اخرى، مع اني اتذكرها جميعاً وكأنها كانت تسبب لي الخجل.

لقد كفر تمير عن جهله بأمور المطبخ الشرقي من خلال الحماس الذي اظهره في تذوق كل شيء واستعداده لكيل المديح والفوز بطبق آخر. لم تمض الا أيام قليلة حتى تحول الى خبير بالمأكولات الشرقية، فرحت امي جداً من المديح الصادق والصريح الذي كان يكيله لها، فكانت تفاجئه في كل زيارة بأكلة او طبخة جديدة. لو حاولت ان اصف لكم بعضها فقد يسيل لعابكم سدى، ولعله، لا قدر الله يسبب اخلالاً في التوازن الذي يحافظ عليه متبعو الحمية الغذائية من بينكم. ورغم ذلك فلا يمكنني أن أتجاهل الموضوع كلياً. وفي الحقيقة لولا تحقيقات تمير واستفساراته قبل القضم، عند المضغ وبعد البلع لم اكن لاعرف حتى اليوم ما هي مركبات كل تلك المأكولات، فكم بالحري بالنسبة لكيفية اعدادها. في اليوم الذي ذاق فيه للمرة الاولى ورق الدوالي المحشي باللحم المتبل والارز، ذي الطعم الحامض- الحلو بسبب السفرجل والرمان اللذين يطبخان معه- اصابع ملفوفة تسمى يبرا- في نفس اليوم اقترح على والدتي شراكة في تأليف كتاب عن المأكولات الشرقية. لقد اعجب الاقتراح والدتي جداً، لكنه ظل مجرد اقتراح، حيث تبين عندما حاولا كتابة بعض القوائم الاولى، ان والدتي تطبخ "بالاحاسيس" وحسب الطعم ولا تعرف شيئاً عن كمية الماء وكمية الزيت ومتى تضع كل شيء؛ ناهيك عما يتعلق بالتوابل كماء الزهر وما شابه ذلك من العناصر القليلة الكمية الكثيرة التأثير. تضع من هذا قليلاً -ومن ذا اكثر بقليل، ومن ذاك- حتى تحس بأن هذا قد يكفي. وثمة توابل تضعها ثم تذوق، ثم تضيف- وتذوق حتى تصل الى الطعم المطلوب، وهذا كل ما في الامر.

كنت اجلب معي اصنافاً مختلفة من المخبوزات الى بيت تمير لشرح صدره

ومداعبة كرشه التي اصبحت شرقية بسرعة اكبر من لغته. كان ثمة اتفاق غير مكتوب بيني وبين والدتي. بأن احصل على عشر ما آخذ معي اليه. هكذا حظيت بأن آكل كثيراً من الكعكات المسمسمة، ومن المعمول المحدب الذي امتلأ خليطاً ممزوجاً بالسكر مع الصنوبر واللوز والجوز (على ظهره الذي يشبه السلحفاة رش مسحوق السكر)، وبشكل خاص من السمبوسك- تلك العجائن التي كسا السمسم قبتها الذهبية وامتلأ جوفها بصفار البيض وبجبنة الضأن الصفدية (والتي اصرت روشكا على اطلاق اسم برينزا عليها، بينما تحاول والدتي بأدب كبت ضحكها: يا رب اعطيت تمير صاحب الذوق زوجة لا تعرف التفريق بين الصفدية اليابسة وبين البرينزا الرخوة، اين العدل يا رب)!.

على مر الايام، حدثت بينهما منافسة، عادت علي انا بالفائدة. لا ادري من كان منهما اكثر حماساً- اتمير للتذوق والالتهام ام والدتي لتحضير المفاجآت الجديدة للزيارات؟؟ ما الذي لم تعده أمي! كبة نابلسية، وكبة بيسانية، وكبة نية، كوسا محشي وباذنجان محشي. واصناف اخرى من المحاشي والبرغل والمجدرة واللوبياء والفول والتبولة والسليقة والمأمونية. لن اثقل عليكم بسائر اسماء المأكولات الصعبة القراءة ولكن اكلها سهل وممتع. ولا تعني هذه الاسماء شيئاً للاشكنازيين الصرف من بينكم، بينما سيقول ابناء الشرق: طبخة جيدة على الطاولة افضل من كتابين في فضائل المطبخ.

كان من السهل على تمير تذكر طعم كل تلك المأكولات اكثر من تذكر اسمائها. وهكذا كان يخلط بين المأمونية (جريش، سكر وكمون) وبين المجدرة (ارز مطبوخ بالعدس القاتم). يسمي اللوبياء فولاً صغيراً، وما الى ذلك من اغلاط الشكناز -الامر الذي كان يثير لدينا الضحك. كنا نعود ونحكي جميع اغلاطه حينما كنا نقصع البذور سوية، وكأن اغلاطه كانت جواهر تصدر من افواه الاولاد التي يقلبها الاهل ويحكونها بهناء شديد.

ادهشتنا جميعاً قوة الاستيعاب التي يمتاز بها تمير. كانت والدتي تقول: "ما شاء الله، ما شاء الله" وتضاعف له الوجبة، وشقيقتي تهمس بالايدش في المطبخ

"فريسر" (نهم) حتى لا تفهم والدتي ولا تغضب، وحتى افهم انا- واستشيط غضباً. لدى مشاهدة نهمه وطريقته في الاكل تذكرت امي مثلاً قديماً:" اكل الطعام كساعة الحرب والخصام". تعلم تمير منها هذه المقولة وتصرف كقائد عسكري، واذا كانت الحال كذلك في الايام العادية فكم بالحري في ايام النزهة حيث يحتاج الجسم الى كمية اكثر بكثير.

اتذكر رحلة قمنا بها الى الجليل، الاولى من نوعها. جلسنا لتناول الطعام في ظلال شجرة السنديان الضخمة، بجانب الطريق المؤدية الى قريتي دافنة ودان. إنها (صديق قديم)، قال تمير مشيراً الى شجرة البلوط، من فترة قدومي الى البلاد. جميلة اليس كذلك؟! كنت اول من فرغ من الطعام، نهضت، والتقطت صورة لتلك الشجرة العملاقة والعريقة على خلفية جبل الشيخ.

- صورها، صورها من كل الاتجاهات- الح علي تمير، بينما كان يقضم ويمضغ ويتجشأ تجشؤاً يدل على العافية وهو امر اعتاد عليه وصار جزءاً لا يتجزأ من متعة الاكل عنده في احضان الطبيعة.

اصخت السمع اليه وانتظرت شرحه. كنت اعرف مدى حبه بان ينهي وجبة دسمة في الحقل بخطاب قصير. استهل تمير كلامه قائلاً: طيلة قرون طويلة تنتصب شجرة السنديان هذه هنا. ومنذ آلاف الاعوام يتدفق نهر الدان "الحاصباني" في مجراه، هذه تجلب المتعة في شكلها وظلها، وهذا- في غزارة مياهه. حتى جاء الى هنا "المصلحون". كانت لهم نوايا حسنة بلا شك. فماذا فعلوا؟ حولوا مجرى رافد الدان (الحاصباني) الى جانب هذه شجرة العجوز- داعب تمير بأصابعه تيار المياه الباردة، رفع حاجبيه وهز رأسه- ومن يدري لعل ذلك يضر بها، من يدري ان كانت ستقوى على الصمود امام هذه الظروف المستجدة- اضاف وهو غارق في التفكير.

ـ الماء لا يضر بالشجر- قلت له باستغراب- بل على العكس.

ـ حتى الاشياء الحسنة يجب توزيعها بقدر معين وبالتدريج ـ اجابني موبخاً، واستلقى بجانب الوادي الصافي- مياه كثيرة وباردة جداً وقريبة جداً من الجذور.... لم تتعود هذه الجذور على ذلك!.

تقدمت واسندت كتفي الى جذع الشجرة، كمن يحاول فحص مدى صمودها وتحملها. ذكرني ملمس الشجرة بخشونة وتجعد جلد جدي الكهل. لقد تراءت لي الشجرة قوية جداً، لا يمكن قهرها، بل واستطيع القول: خالدة وازلية. احسست بتعاطف غريب مع هذه الشجرة العريقة، التي تتدفق المياه الكثيرة والصافية تحت جذورها، وتشكل خطراً على وجودها، مياه تعج بالحياة جهدت الايدي المخلصة لتحويلها اليها.

قبل بضعة اسابيع مررت في طريقي بجانب تلك السنديانة، فرأيتها ميتة. كانت هيئتها الوقورة ملقاة بجانب الشارع والوادي، كانت عظيمة في سقوطها.

وفي نفس الليلة والليلة التي تلتها راودتني فكرة الكتابة الى تمير، واخباره بموت شجرة السنديان. اكثر من مرة حاولت تناول القلم بيدي لكنني لم اجد الشجاعة في فؤادي. كيف يمكن اخبار عجوز بموت عجوز آخر، عرفه وعشقه؟ الصمت الذي نذرته على نفسي ضايقني واقض مضجعي، وهكذا كنت يقظاً ومتنبهاً حين جاء الحارس في آخر الليل وطلبني للهاتف.

في سيارة الجيب التي نهبت الارض نهباً متوجهة الى تل ابيب، هذه المدينة التي كبرت وطفرت، خطرت على بالي ذكرى تلك الرحلة الاولى الى الجليل. لا ادري ان كانت زعزعة المشاعر او زعزعة الجسد او كلاهما معاً هما اللذان ذكراني بأمر واحد كان قد غاب عن ذهني ونسيته. كنا قد وصلنا في تلك الرحلة الى جانب جبل الشيخ. وقفنا هناك مشدوهين، رافعين رأسينا تجاهه بشيء من تبجيل القائد. لم تبد للعيان الثلوج التي على قمته.

-اننا قريبون جداً منه، لذلك لا نستطيع رؤية قمته- قلت. ابتسم تمير لي وكأن لسان حاله يقول: "احسنت"، واضاف بصوت معتدل: اذا رغبت في رؤية جبل بكامل جماله وجلاله وضخامته -عليك الابتعاد عنه. ابتعد حتى يستطيع بؤبؤ عينك الانسانية الاحاطة به كاملاً.

سردت حكاية تمير في تلك الايام الاولى. كنت صغيراً في تلك السنوات البعيدة، صغير الجسم وصغير العينين، وربما لهذا السبب بدا تمير فارع الطول بنظري.

ترجمة: سلمان مصالحة

يعقوب شبتاي

شيء يذكر



* يعقوب شبتاي:
ولد عام ١٩٣٤ في تل ابيب أقام في كل من تل ابيب وكيبوتس مرحافيا، كتب لروايات والمسرحيات والقصص القصيرة اضافة الى القصائد الغنائية حاز على العديد من الجوائز الادبية على اعماله المختلفة اشهرها جائزة عجنون، توفي عام ١٩٨١ نتيجة لازمة قلبية حادة من بين اعماله: "ذكرى الماضي" (رواية، ١٩٧٧)، "نهاية الامر" (رواية، ١٩٨٤)، "العم بيرتس يطير" (مجموعة قصصية، ١٩٧٢).

كانت الساعة تقترب من الثامنة وقد تبقى في الدكان اثنان من الزبائن، واحس عكيفا بالتعب الشديد يغمر انحاء جسمه فأراد الانتهاء من امرهما والاقفال. ذهب ليقتطع منتي غرام من شرائح الجبن الاصفر للسيدة (كامنكا) التي كانت واقفة تتبادل الحديث مع السيد (غفريئيل سليب). كانا يتحاوران حول اصغر ابناء عائلة (بروير) الذي كان قد قتل في غور الاردن، وكانت السيدة كامنكا تكرر قولها كم كان (مئير بروير) رائعاً، اذ كان موهوباً وحسن الطلعة في آن واحد، وقالت ان هذه الحرب فظيعة وافظع ما فيها انه يستحيل استشراف نهايتها، فوافقها غفريئيل سليب تمام الموافقة، لكنه اضاف انه لا مفر امامنا من مواصلة القتال عملاً بقاعدة "من جاء يقتلك فبادر الى قتله". قالها وهو يحدق في عكيفا الواقف عند الميزان يزن الجبنة، وكأنه ينتظر تأييده عبر عدسات نظاراته السميكة. وهز عكيفا رأسه قائلاً: "موت

منير هذا- انه فعلاً مروع"، ثم وضع الجبنة المغلفة بورق اللف على الطاولة. بلغ وزن الجبنة مئتين وعشرين غراماً وكان يتساءل عما اذا كان سيضيف العشرين غراماً الزائدة الى حساب السيدة كامنكا، فقرر الا يفعل ووضع عند الجبنة قارورة من المايونيز وباكيتاً من الزبدة وقارورة من اللبن الزبادي واخرى من المربى ورغيفاً من "خبز الكمون" ثم مضى ليعطيها من الزيتون الاسود، فكر وهو يمسك بكيس من البلاستيك، فيما اذا لم يكن قد اخطأ عندما تنازل لها عن العشرين غراما الزائدة. وجاء غفريئيل سليب بذكر (حانان افني) و(باروخ فريدمان) اللذين قتلا ابان حرب الاستقلال سنة ٤٨، الا ان السيدة كامنكا عادت للحديث عن منير بروير والمأساة التي حلت بوالديه. وانحنى عكيفا فوق البرميل الذي كانت تفوح منه رائحة الزيتون الطيبة الحارة وهو يستمع الى ما يقال ويستعيد لبرهة حروف اسم (منير بروير) التي كانت تتوسط النعي الصادر عن سكان العمارة، فغزاه لبرهة شعور بالانفراج والرضا لانه لم يغب عن جنازته. ولكن باستثناء هذا الشعور العابر لم تعتره مسحة من حزن او الم، بل كان شيء اخر يقلق راحته لم يعرف كنهه. ووضع الزيتون على الميزان، فقالت السيدة كامنكا مخاطبة اياه، فيمن خاطبتهم، انها ومنذ اربعة ايام لا تستطيع صرف افكارها عن موت منير بروير الذي زاده فظاعة كونه حدث بطريق الخطأ وبغير مبرر. كان عكيفا يتابع ابرة الميزان وهو يشعر بالغضب من نفسه لانه لم يضف العشرين غراماً الى حسابها، فهو ليس ملزماً باهدائها شريحة من الجبن. وعلق غفريئيل سليب على كلامها بقوله ان كل من يقتل في الحرب يقتل لغاية وانه من المستحيل في الحرب تلافي الاخطاء والاغلاط. وتابع قائلاً: زد على ذلك انه من المعروف ان قتلى حوادث السير في البلاد يتجاوز عددهم عدد قتلى الحروب مجتمعة، "وانه عند الحطب تتطاير الشظايا"- قالها وهو ينظر راضياً عن ذاته الى عكيفا والسيدة كامنكا التي قالت وهي تتحسس الرغيف وتفركه بأصابعها، انها ايضا تعرف ذلك، لكن ليس في الامر ما يواسي القلب، ثم وجهت حديثها الى عكيفا معلنة انها لن تأخذ الرغيف لانه بائت وردي. وقد اثارت نبرة كلامها وطريقة دفعها رغيف الخبز عنها شيئاً من الغيظ عند عكيفا غير انه ضبط

نفسه واخبرها بأن هذا الخبز هو الموجود ولا يوجد غيره، فعاندته السيدة كامنكا وسألته لماذا يا ترى يوجد في البقالة الكائنة بشارع (سيركن) خبز آخر احسن بكثير. واراد ان يجيبها بأن تذهب الى الجحيم وتشتري من تلك البقالة وتتركه وشأنه، ولكنه لم يقل شيئا، بل وضع الحاجيات في سلتها وجمع المبالغ وسجل المجموع في دفتره. وبعد ان انصرفت، قال غفريثيل سليب: "ارض تأكل سكانها"، فهز عكيفا رأسه، وان لم يكن قد ادرك مقصده. واخذ الورقة من يدي غفريثيل سليب واعطاه الحاجيات الواردة فيها باستثناء سمك (اللاكردا) الذي كان قد نفذ. وبينما هو كذلك، عاود محاولة اكتناه ما كان يقلق راحته ويضايقه الى هذا الحد، ولكن عبثاً. اما غفريثيل سليب فلم ينقطع حديثه عن حوادث السير، حيث روى له قصة الحادث الذي تعرض له ابن شقيقه. وكان عكيفا ينظر اليه ويهز رأسه بحركات صغيرة متمنياً ان يأخذ الفراطة والحاجيات ويمضي الى حال سبيله. وبعد انصرافه بقي المحل خالياً، ووقف عكيفا برهة بلا عمل ماسحاً وجهه بيده، ثم امسك بالنقانق ليعلقها بالخطاف. كلا، لم يتمكن قط من استحضار ما كان يسعى لاستحضاره، ولكن عادت واعترته مسحة من رضا لانه مشى في جنازة مئير بروير، فجأة شك في انه اخطأ في حساب غفريثيل سليب، فعلق النقانق وراجع الحساب فأيقن انه فعلاً قد اخطأ فسارع لاخراج ليرة وخمس وسبعين اغورة من درج الصندوق وسار مهرولاً وراء غفريثيل سليب واعاد له النقود معتذراً، ثم رجع الى الدكان واسند ظهره الى النضد حتى يلتقط انفاسه. ونظر حواليه ورأى البلاط البالي المتصدع ورأى القذارة والصدع المتكون في الحائط ابتداء من زاوية السقف حتى النافذة الصغيرة، فخطر بباله مرة اخرى انه يجدر ان يأتي بالجبس او بنوع من انواع الاسمنت البلاستيكي لرأبه. كان يكره هذا الدكان الذي يسوده الظلام طيلة ساعات النهار وتضيئه في المساء لمبتان مغبرتان تشيعان نوراً اصفر بين القناني والعلب والصناديق والسحاحير والرفوف والاكياس التي يعمها دائما نوع من الفوضى والتي كان دائما يشعر بأنه حبيسها. كان في سنوات ماضية يفكر في بيع الدكان واستثمار العائد في عمل اخر اكثر جمالاً مثل محل ازياء او احذية، ثم قرر بعد ذلك ان يغير البلاط على الاقل والنضد

والرفوف، وان يبيض الحيطان، ولكنه لم يفعل شيئاً حتى الان، بل ايقن بأنه لن يفعل وان الدكان سيظل على حاله. كان يقول في نفسه ان الامر سيكلفه الكثير من العناء والنفقات التي لا طائل وراءها. وان العمر ماض لا محالة والانسان آيل للزوال. وانتصب وخرج الى الشرفة وراح يعيد سحاحير الخضرة واكياس البطاطا الى داخل الدكان. كان الاطباء قد نهوه بعد النوبة القلبية عن الافراط في الاجهاد، ولكنه تغاضى عن ذلك، الا عندما كان يشعر احياناً بالانقباض او بضيق التنفس، حيث كان يتوقف برهة، وكان يحس بنفس ما احس بعد النوبة مباشرة: ان الموت قريب يعشعش بداخله وقد يباغته في اية لحظة. والى حد ما لم يكن مفروضاً ان يختلف شعوره هذا عن شعور اي انسان آخر. فكر في ذلك وهو يستند الى عارضة الباب ليقوم ظهره قليلاً، قال في نفسه انه لا بد ان يكون منير بروير ايضاً قد شعر بقرب الممات ومع ذلك لم يكن يعلم قبل موته بدقيقة انه سيموت بعد دقيقة. ونظر الى الشارع الغارق في الظلام فتصور منير بروير امامه للحظة وحاول ان يصور لنفسه كيف قتل بطريق الخطأ، فتراءى له سائراً على منحدر تل تغطيه الاشواك والاعشاب اليابسة، ثم رآه ممدداً على الارض بلا حياة فاحم الوجه. "هكذا الحياة" -قالها لنفسه بلا مبالاة وشعر بتعب شديد في ظهره وساقيه، فترك المكان الذي كان واقفاً فيه وعاد الى حمل السحاحير، واستعادت ذاكرته الجملة التي قالها غفريئيل سليب: "أرض تأكل سكانها"، فظلت تدور في رأسه ولكن على شكل مجموعة من كلمات مجردة من اي معنى تفككت الى مجرد اصوات. وبعد ان ادخل كل شيء الى الدكان، انزل الاباجور واخرج من جارور الخزينة النقود والدفتر والايصالات وهم بالانصراف. واطفأ الضوء ووضع يده على القفل الا انه توقف لحظة وبقي واقفاً في الظلام محاولاً استرجاع ذلك الامر الذي عرف انه يجب عليه ان تذكره والذي كان عجزه عن استرجاعه يحوم كسحابة فوق رأسه.

كانت زوجته (تسيبورا) التي سبقته الى انهاء العمل في البقالة بنحو ساعة، واقفة في المطبخ تحضر طعام العشاء لهما ولابنهما الاصغر الذي جاء من الكيبوتس لقضاء يومين معهما. اما ابنهما الاكبر فكان يدرس في معهد الهندسة التطبيقية بحيفا

ويكاد لا يعود الى البيت. ووضع عكيفا النقود والدفتر والايصالات على البوفيه الذي في المدخل ودخل غرفة الحمام ليستحم. كان الوجه المنعكس من المرآة رمادي اللون منهكاً وغير حليق. وكانت عيناه ملتهبتين. ومر بيده على خده وذقنه فقرر ارجاء الحلاقة لصباح الغد. "السيدة كامنكا"، يا لها من وغدة!"- قالها في نفسه وهو يغير ملابسه، ثم دخل المطبخ وجلس الى المائدة. كان حضور ابنه يضايقه، اذ شعر بوجوب محاورته، ولكنه احس بتعب شديد، ثم انه لم يعثر على مسألة او امر يفاتحه بهما. واخيراً سأله ان كان ينوي البقاء في البيت ليوم اخر وان كان يحتاج لبعض النقود. واجاب ابنه بالنفي فبقي يأكل بصمت وهو يرتب في ذهنه قائمة الحاجيات التي يتوجب عليه طلبها للدكان محاولاً في الوقت نفسه استحضار الامر الذي كان يضايقه، كان يعي بأن الامر مهم وعاجل ويمسه هو. والقى نظرة على تسيبورا وسألها ما اذا كان ثمة حاجة لطلب الجريش فردت بالنفي، الا انه قرر مراجعة الامر بنفسه فور انتهاء العشاء، فأرتسم امامه برهة الدكان والموقع الكائن فيه كيس الجريش.

وقدمت تسيبورا الشاي وسألت ابنها ان كان قد زار والدي مئير بروير. واجاب ابنها بأنه قد يقوم بذلك قبل ظهر الغد، قبل ان يسافر الى الكيبوتس. والحت عليه تسيبورا قائلة:" اجل، اجل. افعل ذلك! ثم وضعت شريحة من الليمون في كأس الشاي الذي حضرته لعكيفا. وقد عكر هذا الكلام صفوه إذ خاله موجهاً اليه، لانه منذ ثلاثة ايام وهو ينوي الصعود الى شقة اسرة بروير ولكنه يؤجل ذلك لنزاع وقع بينه وبين افرايم بروير والد مئير بروير حول تنظيف مدخل العمارة وبيت الدرج. كان الامر تافهاً وسخيفاً ولكنه اثار فيه غضباً عارماً، حتى انه كان راغباً في قرارة نفسه في ضرب افرايم بروير ضرباً مبرحاً، الا انه كظم غيظه بل لم ينبس ببنت شفة رداً على اتهاماته. ارتشف الشاي وهدأ ضميره بأن ذكّر نفسه بحضوره الجنازة بل وبمساهمته في تمويل النعي الذي توسطه اسم مئير بروير الذي كان قبل المصاب بأسبوع او عشرة ايام دخل الدكان لشراء السجائر. كان في اجازة واصطحب فتاته التي بقيت واقفة تنتظره، عند المدخل يبدو عليها بعض الحرج. طلب سجائر "تايم" وعند خروجه قال لها: " هيا يا

روحاما، لنمض" وانصرفا. لم يشعر بشيء نحو مئير بروير لا بالمحبة ولا بالشفقة ولا بالشوق، ولكنه بنفس القدر لم يكن يشعر بشيء نحو ابنه الصغير الذي نهض واستأذن. فقط ابنه البكر اثار فيه حرجاً شديداً واضطراباً وجعله يشعر بالبؤس بتحفظه الظاهر منه. لم يكن يفهم سبب معاملته له بمثل هذا النفور بل بمثل هذا الاستخفاف، الم يعلق عليه الامال اكثر مما كان يعلق على شقيقه الاصغر؟ لم يبخل عليه بشيء يوماً من مأكل وملبس ومال، وكان في صغره يصطحبه في نزهات قصيرة بل اصطحبه في بعض ايام السبت الى شاطىء البحر رغم انه كان يكره البحر كرهاً شديداً.

ارتشف الشاي ونظر الى الكرسي الخالي الذي كان الشاب جالساً فيه منذ لحظة، وقال لنفسه: "أرض تأكل سكانها"، ولكنه لم يقصد شيئاً ولا حتى هذه الكلمات، فقد كان تفكيره غارقاً في امر آخر.

دفع عنه كأس الشاي وراح يصك اسنانه ثم قام وعاد الى الدكان ليتفقد حالة الجريش، وقد لاحظ، اثناء ذلك، ان الدقيق على وشك النفاذ، فعتب على تسيبورا كونها لم تخبره بالامر. ووقف يستعرض الدكان لمعرفة ان كانت ثمة سلعة اخرى قد نفذت وينبغي طلبها، فلاحظ الرفوف التي تقشر عنها الدهان والاباجورات القديمة والبلاط واكوام القناني والاكياس الخاوية والحيطان المتسخة وخيوط العنكبوت وبقع الغبار المتكونة على النوافذ والصدع والخطاف الصدىء المعلق عليه قطف الموز. "انه يتفتت"- قالها في نفسه بنبرة لم تخل من تشفٍ، ثم عاد ودخل البيت وجلس الى المائدة لاجمال حسابات الخزينة ووضع قائمة الطلبيات ليوم الغد. وقرب اليه الدفتر والايصالات وامسك بالنقود وعندها تذكر ان عيد ميلاد تسيبورا مقبل بعد خمسة ايام. كان هذا هو الأمر الذي ظل يايقه ولم يتمكن من استحضاره، والآن بعد أن استحضره، انتابه شعور بالراحة بل بالفرح. ونظر الى تسيبورا وهي تخرج من المطبخ قاصدة الغرفة، ثم احصى النقود فسجل المجموع وعاود الكرة، ثم فتح الدفتر وراح ينقل اليه الارقام التي استقاها من الايصالات وهو يفكر فيما سيشتريه لها. وفكر اول الامر في فستان او بذلة او معطف من فرو، اذ كانت ترتدي فيما مضى ويعيد لقائهما الاول معطفاً من فرو اسود كان

يناسبها بشكل رائع، غير انه تساءل عما اذا كان سيناسبها مثل هذا المعطف اليوم ايضاً، فلو تأكد من انها ستفرح به وترتديه لاشتراه لها رغم ارتفاع ثمنه. وتوقف عن الكتابة واستسلم لهذه الافكار والاعتبارات وهو يشعر كيف انه يغرق في الكآبة والضجر لحظة تلو لحظة. وكلما استغرق في التفكير كلما ادرك انه لا يدري ما يشتري لها لانه باستثناء السنتين او الثلاث سنوات الاولى من زواجهما ما اشترى لها هدية قط ولا ابدى ايما اهتمام بذوقها ولا بما ينقصها من اشياء. كان سيسرها تلقيها. ولو تعلق الامر بارادته لكان يمر على هذه المناسبة مرّ الكرام هذه المرة ايضاً، ولكنه كان عيد ميلادها الخمسين فأحس بأن من واجبه ان يهديها شيئا. وترك الفروة وفكر في محفظة جميلة او قلادة، ولكن ليس كتلك التي كانت ترتديها روحاما، فتاة مئير بروير، اجل. كان في روحاما مسحة من جمال، ولكن القلادة التي ارتدتها كانت من تلك التي تناسب الفتيات، اما هو فاراد شيئاً أخر اغلى ثمناً، ربما قلادة من اللؤلؤ. واستحسن فكرة قلادة اللؤلؤ فحاول تخمين ما قد تكلفه من ثمن. وتذكر اثناء ذلك منديلاً كان قد اشتراه ذات مرة لسارة كراوزي. فاجأته هذه الذكرى بعض الشيء كما كانت تفاجئه دوما، ذلك ان سنين كثيرة قد مرت مذاك ولان سارة كروازي كانت قد غربت عن باله في الواقع واقتلعت من حياته. وابتسم في نفسه بفعل المفاجأة وبفعل شعور ساخر كان ينتابه كلما تذكرها، اذ كلفه بعض الجهد ايجاد صلة بينه وبين تلك المرأة المسماة بسارة كراوزي، وبينه وبين الرجل الذي اشترى لها المنديل. تذكر انه كان منديلاً من حرير اخضر وانه اشتراه لها بمناسبة عيد ميلادها الذي يصادف عيد العنصرة، الا انه لم يقدم لها المنديل قط اذ كان يخشى البوح بحبه كما خشي الالتزام به، علاوة على انه كان ينتظر ان تسبقه سارة الى عمل من هذا القبيل، لقد ظن انه لو قدم لها المنديل ثم عاد وزارها، لكان كل شيء يتخذ شكلاً اخر. واثار فيه هذا الادراك بعض الضيق فسرعان ما تنكر له، وسخر في نفسه قائلاً انه في الحقيقة ما اراد يوما الزواج بها وانما اراد مضاجعتها، وقد ضاجعها فعلاً في القدس. واراد الاستمرار في التفكير في الامر لولا أن تسيبورا نادت عليه من الغرفة المجاورة طالبة مساعدته لها في نقل المائدة من

مكانها، فاجابها "بنعم" ونهض ودخل الغرفة. وكانت تسيبورا قد ارتدت قميص نومها المتهدل، فحاول ان يشيح بعينيه عنها كي لا يرى ذراعيها ورقبتها ورجليها الثخينتين. ونقلا المائدة وذكرته بوجوب طلب الحلاوة الطحينية والسمك المكبوس، ثم دخلت واضطجعت. وهز رأسه وخرج وجلس الى المائدة وامسك بالقلم كي يستأنف مراجعة الحسابات، ولكنه تريث برهة ليعود ويفكر في سارة كراوزي، ولكنه مهما حاول لم يستطع تخيل ملامحها الا بغموض شديد، مع انه عرف انها كانت جميلة ذات عينين كبيرتين خضراوين وشعر اسمر. نبه نفسه الى ذلك وهو يشعر بالفخر لانه ضاجع مثل هذه الحسناء. واحتسب كم خلا من السنين مذاك، فتوصل الى ان ثلاثين سنة قد مرت، اذ حدث الامر في الاسبوع ذاته الذي غزا فيه هتلر الاراضي البولندية. وحدق في قائمة الارقام التي امامه وتساءل لماذا لم يعاود مضاجعتها حتى لو لم يكن راغباً في زواجها. كان سؤالا لا طائل وراءه وعكر صفوه، اذ كان يصاحبه دوماً شعور بالقصور، بل بمرارة تفويت فرصة لا تعوض. واراد صرف تفكيره عن الامر ولكنه اغمض عينيه عوض ذلك ممعنا في استحضار ما حدث بدقة،- كيف انهما التقيا في الشارع وكيف دعته لمرافقتها الى غرفتها وكيف شربا الشاي من قارورتي مربى، وكيف جلست بجواره وامسكت بأصابعه عابثة، وقد تسللت اشعة الشمس من خلال خصاص الاباجور راسمة خطوطاً من ضوء وظل على وجهها وصدرها وذراعيها. ومرت بيده على فخديها ثم استلقت على السرير وسحبته فالتوى واندس فيها مغمض العينين. ولم يستمد من تلك الصور البعيدة والغامضة الامتعة يسيرة. ولم يتراجع، ولكن كلما حاول التشبث بالامر وجعله يدنو منه، كلما تبددت متعته القليلة، حتى انتهى به الامر الى شعور بالغضب والخذلان، اذ كان في الموقف شيء من الهمود والازعاج. ومر بيده على وجهه وبدأ يجمع الارقام هامساً بشفتيه، وفيما هو كذلك تذكر السيدة فروبند التي اشترت بالدين عصر ذلك اليوم وظن ان تسيبورا نسيت تسجيل المبلغ في الدفتر، وانتهى من جمع الارقام فنهض ودخل الغرفة ليسألها، الا انها كانت نائمة وكان المصباح الليلي يلقي ضوءاً اصفر على وجهها الثقيل. ووقف ونظر اليها برهة وفكر في انه لو عاود زيارة سارة كراوزي لتزوجا لاشك، ولكنه لم

يفعل، فقد انتقل الى تل ابيب وظل يرجيء استئناف العلاقة حتى فوجيء يوما بعد اربع سنوات حين بلغه ان سارة كراوزي ماتت منذ ثلاثة اشهر بمرض اللوكيميا. وبعد موتها زادت رغبته في معاشرتها اشتعالاً، حتى انه سامحها في نفسه في كونها طيلة تلك السنوات الاربع لم تحاول لقاءه ولو مرة، غير ان هذه الرغبة خبت بعد فترة وجيزة. واطفأ المصباح الليلي ودخل المطبخ وصب نصف كأس من عصير الغريبفروت وشرب وقال في نفسه انه في حقيقة الامر قد حالفه الحظ لانه لم يتزوج سارة كراوزي وان تسيبورا كانت هي الاخرى جميلة فيما مضى بل والاهم من ذلك انها كانت مفعمة بالحياة. وفكر في انه لو صادف وجود ابنه البكر، لامكنه استشارته في امر الهدية، الا انه يكاد لا يرتاد البيت. وغسل الكأس واعاده الى مكانه ثم عاد وجلس الى المائدة وامسك بورقة واخذ يسجل عليها: "كيس دقيق"، "حلاوة"، "سمك مكبوس"، "سمك لاكردا" وخطر بباله وهو يفعل ذلك انه كان يمكنه استشارة ابنه الاصغر كذلك، غير انه لا يحتمل التقاؤهما الا بعد عيد ميلادها، الا اذا عرج ابنه على والدي منير بروير، اما ان يبادر الى سؤاله عن عيد ميلادها فأمر مستحيل لانه يجهل حتى تاريخ حلوله، كانت كلمة (لاكردا) سابحة امام عينيه فحدق بها طويلا واكتشف فجأة انه لا يحب طريقة كتابته لها، فشطبها واعاد كتابتها وهو يفكر في انه وان كان قد اختلف مع افرايم بروير وان كان الاخير قد جرح مشاعره بغير وجه حق، الا ان من واجبه زيارتهم للتعزية. وقرر ان يقوم بذلك عصر الغد، وعلى الاثر تخيل نفسه يصعد الدرج ويدق الجرس ويدخل غرفة الجلوس ليجالس افرايم بروير وغريتي بروير ونعومي شقيقة منير بروير، التي وصلت خصيصاً من لندن. وقد تكون هناك ايضاً روحاما، فتاة منير بروير الذي كان راقداً مسجى بالعلم القومي عند الحفرة المفتوحة. وحدق فيها باهتمام بالغ، ثم استعرض الجمع الحاشد المتحلق حول القبر، فاذا بروحاما واقفة على الطرف الاخر للقبر منطوية على نفسها وعيناها البنيتان مفتوحتان على مداهما. وكان في وقوفها شيء جذاب بل ومؤثر جعله يسبل النظر، وتوقفت عيناه لحظة عند رجليها السمراوين وقد اختفتا تحت حاشية تنورتها التي حركتها الريح قليلاً فلفت فخذيها. وبلغه من الجهة الاخرى صوت

اهالة التراب فأحس بصدره ينقبض بعض الشيء وبرجليه يجتاحهما نوع من رجفة ناشئة عن ضعف، وسمع اثناء ذلك الحزان العسكري يرتل صلاة الغائب: "يا رب السماوات، اسكنه للابد تحت جناحك...."

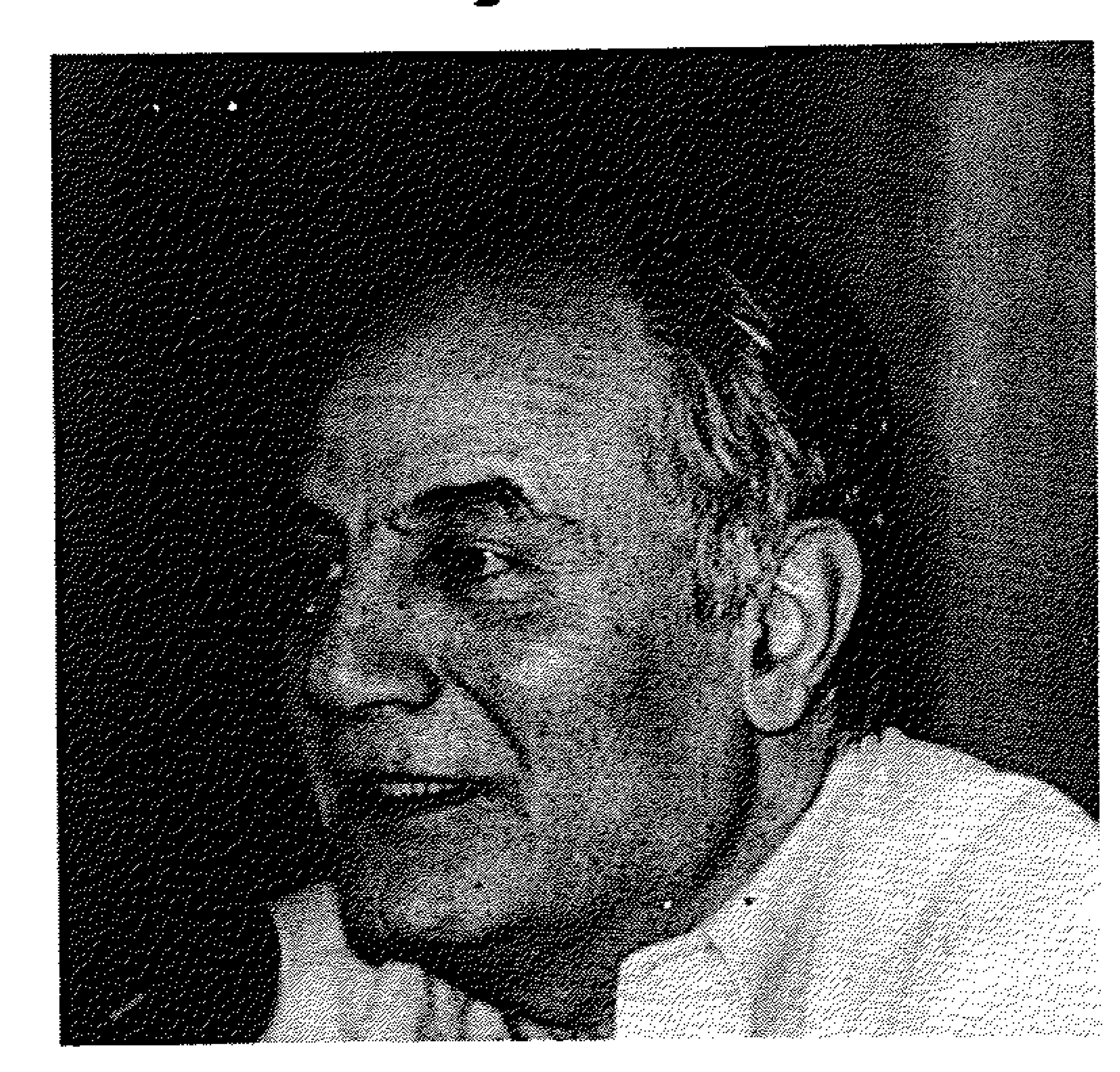
ثم سمع طلقات التحية الثلاث فأغمض عينيه وتراءت له سماء صيفية فارغة يملؤها نور الشمس، وعندما اعاد فتحهما كانت جموع الناس قد بدأت تتحرك نحو باب الخروج. ونظر حوله باحثا عن روحاما، ولكنه لم يعثر عليها فشق طريقه بسرعة بين الناس ليجدها ويمشي بجانبها، الا انها غابت عن الانظار وذهبت جهوده سدى. ولكنه بعد ان وصل الى باب المقبرة ادار رأسه مرة اخرى فلاحظها فجأة وهي تسير من وراء بعيداً عنهم. وهم بالتوقف والانتظار او حتى بالعودة على اعقابه، الا انه اكتفى بشيء من التباطؤ، ثم دخل الباص واخذ مكانه يلفه شعور باليأس والخيبة اللذين سرعان ما تبددا عند العودة الى المدينة والافتراق.

ترجمة: يتسحاق شنيبويم

غريب بين اخوانه

هذه القصة مهداه للفنانة الكبيرة سامية جمال

المؤلف



• ايلي عمير
ولد في بغداد عام ١٩٣٧. هاجر الى البلاد وهو في الثانية عشرة من عمره. عمل مستشاراً للشؤون العربية في ديوان رئيس الوزراء. ثم عمل فترة طويلة في الوكالة اليهودية في استيعاب القادمين الجدد.
من بين اعماله:
"المحروقة (١٩٨٤)،
"وداعاً بغداد" (١٩٩٢).

كان محمد عبد المطلب يرتدي جلابية بيضاء وعلى رأسه طاقية وفي يده عصا الرعاة، وكان يتوسط المنصة ونظراته منطلقة بعيداً بعيداً وصوته العميق الآتي من وادي النيل يسعى للاهتداء الى اشواق اهل دجلة وهو يغني" يا حبيبة القلب، ارجعي." وعندما غنى: "يا ليلي يا عيني". باسلوبه الشعبي المزخرف الذي لا يضاهى، اتجهت عيناه المضببتان بغشاء دقيق من بخار الخمرة الى ابواب الصالة تتخيلان بنت الصحراء الحسناء وهي تندفع على ظهر جمل مزين الى ذراعي حبيبها. وكان عازف الكمان يهز اوتاره فيكهرب الافئدة بانغامه الرقيقة. واصابت خياشيمهم روائح عالم بعيد مسحور. وكان وجه عبد المطلب متألقاً يتصبب بالعرق المنحدر من عنقه الى جلابيته. وبعد هزة

اخيرة لعصا الرعاة ترك المسرح، فساد الصمت هنيهة ثم تأوهت الصالة كالمنتشية. كان سليم افندي يتطلع منذ فترة طويلة الى اول حفلة للمطرب المصري الضيف ويحلم بها ويتخيلها، حتى جاء الواقع متجاوزاً للخيال. جلس كالمسحور، يجرع بين الحين والآخر كأساً من (العرق) ويصيح "تبارك الله" بلهجة مصرية مميزة. كان صديقه طارق هو الآخر يكتنفه نوع من الغشيان وكانا يتعانقان ويتماوجان فوق مقعديهما. وتمتم سليم افندي "يا حبيبة القلب، ارجعي". وهو يشعر كالغائص في اعماق هذه الموسيقى الى حد نسيان الذات، اذ لم يكن موقفه منها موقف الفاحص المطل عليها من الخارج كعادته منذ بدأ يستمع الى موسيقى الغرب، انه واحد منهم، فهو يهودي "ابن عرب". اليس لليهود والعرب اله واحد؟! كما ان محمداً وموسى اخوان فهذا الابن البكر وذاك الابن الاصغر وما عدا ذلك يعتبر هراء، لم يعد يضايقه الشعور بأنه في نظرهم دخيل، وارتأى ان يعود ويشرح لصديقه المسلم طارق كلمات تلك الخمرية العبرية الاندلسية:

واصبحنا بنبيذ السمر ثملين، وعن السير عاجزين

ونفذت روائح طيبة الى السرير، يفوح منها القرنفل والياسمين

والشمس تطرز وجهه بشعاعها، تغطيه بثوب من الرياحين

يا للروعة المكتنزة في هذه الابيات البسيطة، يالها من قوة مؤلفة للقلوب، وما اشده توفقا الى تعريبها، وكأن الاصل والترجمة انحدرا من ام واحدة، تبارك الله! قالها بأعجاب ذاتي، وعاود طارق السؤال:

"لمن هي؟" اذ انه لسبب من الاسباب يستصعب حفظ اسم المؤلف.

"لموسى بن عزرا. متى نقرأ سوية في ديوانه، يا طارق؟- قالها وهو يربت على كتف صديقه. واجاب طارق: "سيأتي وقته، سيأتي وقته".

طالت الاستراحة ولم يكن يعلم متى ستظهر تلك التي تعصف بنهاره وليله، ولم ينقطع لسانه عن تبليل شفتيه الناشفتين من فرط الحر والدخان المخيمين على الصالة. وطلب من النادل بعض الزيتون الاسود ولكنه لم يمسه، بل ظل يكسر مكعبات الثلج بأسنان جامدة وكأنه يسعى لاخماد النار الملتهبة في دمه. وفجأة صفا نظره، اذ ظهرت

بهية على المنصة بقدميها الرافستين وثدييها المنطلقين وكادت تمحو اي اثر لغناء عبد المطلب الشعبي، اذ اججت النار في الرماد وايقظت الشهوات وفكت أسر النمور الجائعة. وتهاوت على المنصة باقات الزهور فسقطت امام قدميها، وكانت عينا سليم افندي ترتشفانها ارتشاف ماء العين البارد وتنغرز في رجليها وفخديها المكتنزين الاملسين ووسطها الذي كانت حركاته ترسم اشكالاً من الدعوة والتمنع في آن. وكانت فتائل بنفسجية غضة كالفجر تحيط بذاك الخصر المتين، تخفي القليل وتكشف الكثير. انه ليهب حياته ثمناً لان يكون فتيلة من تلك الفتائل او ارضاً تحت قدميها المتراقصتين ولان يلحس العرق من جسدها ولان يتعمد في هذا المنبع المسلم. انه سبيله الوحيد الى تحطيم الاغلال التي تحول بينه وبين ان يكون منهم. وانتصب الشيخ جاسم الجبار الطويل الممتلىء انتصابة كاملة ونزع عقاله المذهب كعادته كل ليلة ولفه كالتاج بلفة من الدنانير، ثم رماه عند رجليها الراقصتين، وعندها استل خنجره وبضربة واحدة اسقط ارضاً محتويات مائدته جميعاً واعتلى المائدة ووقف فوقها والصق الخنجر بجبينه وراح يهتف برتابة: فدوة عليك، يا بهية". ووقف كل من بالصالة كالمهووسين وظلوا يرددون هتافه بهيجان لدقائق طوال. ومن خلال بخار (العرق) المتصاعد في رأسه لاحظ سليم افندي خنجر الشيخ. لقد كان الله في عونه، اذ لو انه صعد المنصة ومس بهية، لقطعه خنجر الشيخ اربا. وعاد فقال لنفسه في تلك الليلة ايضاً: "ان حلاوتها ليست لي". ووضع رأسه على كتف طارق بدافع احساسه نحوه باخوة السكارى، وبقي الاخير جالساً مغمض العينين. وقال بلهجة اهل بغداد المسلمين: "ندع بهية لرحلة على دجلة، يا طارق".

"نحن؟!"- قالها المسلم منتفضاً كمن يحاول رفع وطأة البخار عن جفنيه.

فأجاب سليم افندي بلا تردد: "اجل، نحن"، فسارا الى الكواليس متعانقين متمايلين ولقيا فيها جلبة وزحاماً، وقد حل العازفون ربطات اعناقهم ونزعوا سترهم ووضعوا آلاتهم الموسيقية وكانوا يتمطون باجسامهم بينما الندل يتراكضون بينهم بالستر البيضاء يحملون الصواني الطافحة بالاطعمة. وبحث سليم افندي عن بهية، الا انه لم يلقها فانهارت معنوياته. وكانت مجموعة الشيوخ، يتقدمها الشيخ الراقص، تحيط بعبد

المطلب الذي كان جالساً يحتسي الشاي، وقد فتح قميصه ونزع جلابيته الثقيلة وطاقيته المصنوعة من لبد، وكان يردد بين الحين والاخر: "اهلاً، يا اخوان". وكان سليم افندي يتمايل حائراً ضمن مجموعة الشيوخ وينظر الى طارق، واخيراً قدم للمطرب باقة الزهور المعدة اصلاً لبهية، وقال: "باقه من الشكر والعرفان مقدمة من الاخوان العراقيين للاخ المصري العزيز". والقى الشيخ الراقص نظرة خاطفة مستهترة على الشاب الاسمر. اذ لم يسبق له ان شاهد رجلاً يقدم الزهور لرجل آخر. ورفع عبد المطلب عينيه وقال بصوت دافىء مطمئن: "شكراً، شكراً، اهلاً وسهلاً".

وقال سليم افندي: "جئنا ندعوك لرحلة على دجلة".

وهتف الشيخ بغضب: "ولك روح!" فخلصهما عبد المطلب من المأزق عندما قال: "لقد دعاني الشيخ جاسم، فاسمحا لي بأستئذانه في ضيافتكما"، فرد الشيخ ونظرته تجلد سليم افندي: "الامر امرك، فأنت الضيف".

وهمس حارس الشيخ شيئاً في اذنه، فمضى الشيخ قائلاً كالمنتصر: "وستنضم الينا بهية"، وقال عبد المطلب متنهداً: "يا سلام!".

ونط قلب سليم، وقبل ان تخرج الجماعة متثاقلة تسلل الى دورة المياه التي كانت تنبعث منها رائحة كريهة لبول السكارى الذي لم يهتد الى المرحاض، حيث اصلح ترتيب ربطته ومفرق شعره، والقى نظرة فاحصة على انفه وعاد يؤكد لنفسه بأن هذا الانف في غير محله وان هذه الندبة الخبيثة المسماة بأخت بغداد في حاجة للاصلاح هي الاخرى. ثم، كالمستسلم للقدر، القى نظرة اخيرة في المرآة، وابتسم لها ابتسامة (كلارك غيبل) ومشط شاربه (الكلارك غيبل) وخرج. وكان حشد كبير لايزال في الانتظار عند الباب ليلقي نظرة اخرى على بهية، واذا بها تخرج مستقيمة منتصبة بوجه صاف خال من اي اثر للجهد، تهز ردفيها وفستان ابيض يداعب مفاتن جسمها. وانحنى لها الجميع نصف انحناءة وسمحوا لها بالعبور. يا لها من هيبة تحيط بها! لم يتجرأ معجبوها على دس الدنانير في صدريتها ولا على الجهر بالشهوة الملتهبة فيهم حيالها. وعند مرورها بسليم افندي اجتاحت جسده رعشة، اذ لم يكن قد اقترب منها قط الى

هذا الحد. واتجه بوجهه يميناً محاولاً اكسابه تلك الابتسامة التي طالما مرنه عليها امام المرآة، تلك الابتسامة التي تؤثر على النساء، لكن كأن نوعاً من تشنج لعين عمد الى اغضابه فجمد. وصافحت بهية عبد المطلب بحرارة قائلة:

"الهمتني، يا عندليب الصحراء!"

فأجابها: "لقد خلبت عقولنا، يا اميرة الرقص!"، ثم إختفيا في عربة الشيوخ الكبيرة. وابتلع سليم افندي ريقه وتسلق العربة الاخرى مع طارق والعازفين، وانتشل من جيب سترته الداخلي قنينة عرق مفضضة وقدمها الى طارق، فمصها طارق بصوت عال ومسح براحته فتحة القنينة ثم اعادها لصديقه. وارتشف منها سليم رشفتين كبيرتين حرقتا حنجرته، وقال في نفسه: انتعش، ايها الثائر، انتعش! ليسوا سوى شيوخ جهلة. وازاح سقف العربة الجلدي فداعب وجهه هواء الليل البارد وتخيل بهية جالسة في العربة الثانية السائرة امامه، لا بد أنها محشورة بين شيخين ، ويبدو عليها بلا شك انها تتمنى الخلاص من كماشة فخديهما ورائحة التبغ المنبعثة من فميهما والخنجر المنغرز في زنار جلابية كل منهما. انها تعرفهم وتخاف مما قد يقدمون عليه على حين غرة، يعلم سليم افندي علم اليقين انها تمقت جاسم، الشيخ الراقص، الجالس بالتأكيد الى يمينها يزاحمها. انها تبغض هوسه والثأر المسموم الذي يدب بداخله وذلك التهور الارعن الذي مزق به قلب انسان قبل نحو سنة، اثناء حفلة لها في (ملهى الجواهري) لقد شلها آنذاك منظر الدم كنظرة ثعبان، فتوقفت عن الرقص، غير انه طالبها باستئناف رقصتها قبل ان ترفع الجثة. ولم يتجرأ رجال الشرطة على التدخل لاعتقاله، لعلمهم بعلاقته الوثيقة بوزير الداخلية، فاضطرت الى معاودة الرقص. لقد فرضت عليها واجباتها المهنية مثل استضافة عبد المطلب هذه المرة الاستسلام لشقاوات الشيوخ بين الحين والاخر، ولكنها رفضت مرافقتهم الى مضاربهم او قضاء ليلة مع اي منهم، كما رفضت حتى الان بعناد الحاح الشيخ جاسم الكامن لها بعد كل حفلة، والذي يطيب له ان يسميها (بالراقصة العذراء) اذ لا احد يعلم شيئاً عن حياتها الخاصة، غير انه يسعى كل ليلة الى محو اهانته. فهي تذكر ابنته سهام التي وقعت حتى اذنيها في غرام المغني

اللبناني (بشير سمعان)، وحين احيا هذا الاخير احدى حفلاته الغنائية في بغداد، تمكنت من التسلل الى غرفته في الفندق، حيث استسلم لاغراءاتها ذاك المطرب المسيحي الشقي الذي نشأ في اجواء بلاد الارز المشبعة بالحرية، وقد شهدت اثار الدم التي عثر عليها على شرشف سريرهما بأنها دخلت عذراء وخرجت امرأة، وما كان من اخيها الا ان قتلها على عتبة غرفة المغني، وبينما كانت لا زالت ملقاة هناك دخل الغرفة رجال من ابناء العشيرة وعروه، ثم اغتصبوه الواحد تلو الاخر، ثم عادوا جميعهم، وكان عددهم اربعين رجلاً، ودسوا فيه اعضاءهم، وعندها جرحوا عضوه هو وحبسوه في غرفته ومنعوا اي شخص من دخلوها. وقد فر المغني من معذبيه محطم الجسد والروح بائساً مذعوراً، وعاد الى بلاده، ولم يسمع له صوت مذاك، اذ رفض معاودة حفلاته. واحتجت الحكومة اللبنانية لدى الحكومة العراقية وحظرت دخول الرعايا العراقيين الى اراضيها لمدة شهر كامل. ومع ان سنوات ثلاثاً مضت منذ تلك الواقعة، الا ان سليم افندي لاشك عنده في ان احشاء بهية لم تزل تتقلب بمجرد رؤيتها للشيخ العنيف. ولما ترجلوا من العربة اخيراً، وصعدوا على المركب الابيض، شاهدها سليم افندي وهي تملس على شعرها بيدها وتبتسم للمطرب المصري كأنما وجوده يعزيها ويمحو عن وجهها ما يدور في قلبها، او هكذا تخيل سليم افندي. وامر الشيخ جاسم بالرسو عند احدى الجزر وشوى لهم احد الصيادين على نار كبيرة (السمك المسكوف) الذي كان يتصاعد منه البخار الساخن اللزج ورائحة (الكاري) النافذة، ودعا الشيخ الحضور لتناول السمك من الصينية الكبيرة التي وضع عليها، اما هو فسلخ بيمناه شريحة من البطن الدسم الطري وازدردها متلمظاً بقوة وقطرات الدسم تنحدر من فمه وتختفي في لحيته التي كان يربيها بعناية فائقة. وبدا لسليم افندي ان شفتي بهية تعبران عن تقززها من الشيخ وانها شبه مختلية بعبد المطلب تجاذبه اطراف الحديث، وظل سليم يسلط نظره عليها لا يشيح به للحظة، فبلغت مسامعه بعض مقاطع من حديثها، وبسماعه اسم سامية جمال فزع، اذ اكمل خياله المقاطع الناقصة من كلامها، فتراءى له انها تبلغ المطرب المصري بحلمها في السفر الى مصر لتتتلمذ على يد سامية التي كانت تعتبر ملكة الرقص الشرقي بلا

منازع، لربما تم اكتشافها هناك لتتخلص من الملاهي والشيوخ. ولعل عبد المطلب نفسه يصطحبها الى القاهرة لترقص في قصر الملك فاروق، بل لعلها تحظى ببطولة احد الافلام المصرية، واستعاض سليم افندي عما يعتمل فيه من رغبة نحوها بذيل السمكة فأقبل عليه لاحسا جلده الدسم ماصاً عظامه متمنياً وهو كذلك بفارغ الصبر ان تنهض من مكانها لترقص فيتيسر له مشاهدة مفاتنها المتراقصة في ضوء الجمر، او قل لتتوقف عن ذلك الحديث الودي الدائر بينها وبين المطرب. وارتعش شاربه، وصب بعض قطرات من (العرق) على يديه ليزيل رائحة السمك التي لزمت جلده، ثم استنشق ملء رئتيه من الهواء الرطب، والتفت واقترب واندس في حديثهما، ساعياً لاثبات المامه بالحياة الفنية في مصر، وما يروج من اقاويل حول حياة فنانيها، وكل ذلك بلهجة مصرية طلقة. غير ان الشيخ جاسم الذي لم يستحسن ذلك الحديث حث عندليب الصحراء على العودة الى غنائه، مما اثار استياء المطرب وبهية، اللذين راق لهما الجلوس والغوص في حديث طيب. وسار المركب ببطء في مياه دجلة في ضوء البدر. واعطى عبد المطلب اشارة البدء للعازفين وبدأ في الغناء.

"بتسأليني بحبك ليه، سؤال غريب ما جاوبش عليه"- هكذا غنى بصوته الذي تهتز له القلوب والذي لا مثيل له بين المغنين الشعبيين في الشرق الاوسط بأسره. وبدا لسليم افندي ان بهية وحدها هي التي يوجه اليها عبد المطلب هذه الاغنية. وبدت كؤوس (العرق) الصافي للشيوخ المسكين بها كماء النهر البارد المسكنة لرياح الصحراء. وكان الشيخ الراقص يتأوه من فرط متعته وقرص خد بهية فتكورت على مقعدها. وادراكا من المطرب لما قد يتبع، دعاها للرقص على ايقاع غنائه، فوثبت من مقعدها وشدت على خاصرتها الكوفية التي كان الشيخ قد لفها حول رقبتها، وراحت تحرك عنقها ببطء شديد وكأنه يعيش حياة مستقلة على كتفيها، وهزت نهديها بدلال ممزوج بالتحدي، وحامت اصابعها رويداً رويداً في الهواء الضارب الى الزرقة، امام وجه الشيخ، فاخذ يتحرك نحوها وفي عينيه شوق كشوق الرضيع الى حلمة امه، الا انها سرعان ما ارتدت وتجنبت ذراعيه الممدودتين نحوها، مبقية على النار التي تفني جسمه منذ

سنين، وبقيت تهز ردفيها تحت بصره. يا لها من عذراء! انهن يستسلمن له جميعاً، اما هي فبعد سنتين كاملتين من المغازلة العنيدة، يبقى موقفها هو هو، اذ تستفزه ليلة بعد ليلة من على المنصة، ثم تتهرب. وبرؤيته عيني الشيخ قال سليم افندي لنفسه: انه قاتلها لا محالة!.

ونفخ عازف الناي في نايه الخشبي فانصبت انغامه الخشنة في ماء دجلة. وتبدل الايقاع مرة واحدة، فأصبح عبد المطلب يغازل بصوته: "واخضع انا لعرش جمالك، واسبح يا روحي بأحلامك". وعاود سليم افندي شعوره بأنه يغني لها وحدها، وبدا له ان الشيخ قد لاحظ ذلك هو الاخر، وقال في نفسه ان الشيخ سيقتلهما سوياً وبعينيين مضببتين تمتم سليم افندي كلمات الاغنية وكانت رقبته تتمايل على ايقاع اللحن. الهي! لكم يتوق الى استنشاق رائحتها والاندساس في جوفها والغرق فيها غرق الرجال والانطلاق من رحمها كالمولود. وراح يضرب كفا بكف واندمجت ضربات اصابعه بهزات جسمها، وغمزه عازف الناي الاسمر غمزة تشجيع، وسرى في جسمه اعياء شديد، ثم خيم عليه سكون وراحة.

"جنة!"- قالها سليم افندي داعياً آله دجلة ان يديم الليل الى ما لا نهاية. انه هو سليم افندي الذي استخف به (العماري الكبير) وظلمه، يجمعه مركب بالشيوخ والمطرب المصري الشهير وبهية، انه واحد منهم بكل معنى الكلمة. لطالما تراءى له ذلك في احلامه، وها هو جالس بين ظهرانيهم يغرق في مياه النهر كل فكرة تجول في خاطره عما يفصل بينهم مثل المجزرة التي ارتكبها عرب بغداد ضد سكانها اليهود في العام ١٩٤١ والمعروفة (بالفرهود) وما اصاب منها يهود حارته، ومذبحة اليهود في اوروبا التي لم يزرها قط، وتلك الدولة التي تمزق اكبادهم، ها هو بين ظهرانيهم وغناؤه غناؤهم وايقاعات هزاتها تنفجر في دمه. ان اولاد موسى ومحمد قادرون لا محالة على بناء عالم جديد، والدليل على ذلك هذه الليلة، لولا اولاد الشراميط في القدس الذين راق لهم تأسيس دولة ليفسدوا علينا هنا كل شيء، ها هو اخيراً بجوار بهية، ولعلها ستكون له ذات يوم، ولو لليلة واحدة. يبدو كل شيء هذه الليلة، لربما بفضل (العرق)،

في غاية البساطة، فبمجرد حدوث تلاحم بينه، وهو من سلالة اسحاق، وبينها وهي من بنات اسماعيل يتصالح ابناء هاجر وسارة. ونظر الى بهية بعينين ملؤهما الشوق. وبينما كان المطرب ينفس عما يجيش به قلبه "ياليلي، يا عيني" تمتمت شفتا سليم افندي، ولسبب من الاسباب، آية من آيات سفر المزامير: آه يارب، خلص، آه يارب انقذ- وفجأة تأرجح المركب، فقال في نفسه: ماهي الا دوامة صغيرة لدجلة، سنفلت منها في الحال، الا ان المركب الصغير بقي يتأرجح، فسقطت بعض الكؤوس والقناني على قعره محدثة صوتاً اصم. وتوقفت بهية عن الرقص وباعدت رجليها لتحافظ على توازنها. اما اصوات الناي فبدت هي الاخرى كالمتصدعة وشوهت النغمة المحبوبة. وكف المطرب عن الغناء، قائلاً:

"معليش، يا اخوان، النيل ايضاً فيه دوامات".

"معلوم!"- قالها سليم افندي وهو ينحني لازالة قطع الزجاج كي لا تجرح قدمي بهية.

وسأل عبد المطلب: "ما اسم الاخ؟" فأجاب طارق عن سليم: "رحاميم".

"يهودي؟ على مركبي؟"- قالها الشيخ الراقص وهو يشب مستلاً خنجره: "كلب ابن كلب!"

وقفز عبد المطلب وبهية فوقفا حائلين بينه وبين الشيخ. وبقي سليم على الارضية منحنياً مكورا، لا يسعه حتى القاء نفسه في النهر في الظلام.

وصاح فيهما الشيخ جاسم:" ابتعدا لامزقه كما تمزق السمكة".

وتراءى الموت لسليم افندي على هيئة رجل بجلابية وفي يده خنجر يفصله عنه شخصان يستطيع ان يبقرهما هما ايضاً لو اراد. ووضعت بهية يدها على ذراع الشيخ وقالت له متدللة:" حرام، يا شيخ، ان نهدر هذه الليلة الرائعة من اجل يهودي حقير، لننزله على الشاطيء ونمض".

ترجمة: يتسحاق شنيبويم

الكتب الصادرة عن دار الجليل

الرقم المتسلسل	اسم الكتاب	المؤلف	المترجم
١-	عمود النار ، الأسطورة التي قامت عليهاالسرائيل		غازي السعدي
٢-	الأستيطان ، التطبيق العملي للصهيونية طبعة جديدة (مزيدة ومنقحة)	عبد الرحمن ابو عرفة	
٣-	حرب الجليل ، الحرب الفلسطينية ـ الأسرائيلية تموز ١٩٨١	بدر عبد الحق وغازي السعدي	
٤-	الكتاب السنوي ١٩٨١ ، توثيق لأبرز المعلومات والأحداث في فلسطين المحتلة .	هيئة الرصد والتحرير غازي السعدي ، نواف الزرو ، غسان كمال	
٥-	الكتاب السنوي ١٩٨٢ ، توثيق لأبرز المعلومات والأحداث في فلسطين المحتلة	هيئة الرصد والتحرير غازي السعدي ، نواف الزرو ، غسان كمال	
٦-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (١) شهادات ميدانية لضباط وجنود العدو	بدر عبد الحق وغازي السعدي	
٧-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٢)	مايكل جانسن	محمود برهوم
٨-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٣) وثيقة جرم وادانة	غازي السعدي	
٩-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٤) اهداف لم تتحقق	غازي السعدي	
١٠-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٥) معتقل انصار ـ وصراع الارادات	سليم الجنيدي	
١١-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٦) الحرب المضللة	زئيف شيف و ايهود يعاري	غازي السعدي
١٢-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٧) فظائع الحرب اللبنانية		زكي درويش
١٣-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٨) هزيمة المتصرين وانتصار القضية	اللجنة ضد الحرب في لبنان	
١٤-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٩) الأسرى اليهود وصفقات المبادلة	غازي السعدي	
١٥-	رسائل من قلب الحصار من ابو عمار الى الجميع		
١٦-	يوميات من سجون الاحتلال ـ زنزانة رقم (٧)	فاضل يونس	

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
١٧-	المثلث الايراني : العلاقات السرية الاسرائيلية - الأمريكية الايرانية في عهد الشاه	الصحفي شموئيل سيجف	غازي السعدي
١٨-	هل يوجد حل للقضية الفلسطينية ؟ مواقف اسرائيلية	الوف هرابين	غازي السعدي
١٩-	عملية الدبويا كما يرويها منفذوها	المحامي درويش ناصر	
٢٠-	مراكز القوى في اسرائيل ١٩٦٣- ١٩٨٣ ونموذج صنع القرار السياسي في اسرائيل	دكتور نظام بركات	
٢١-	مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧- ١٩٨٥	منير الهور وطارق الموسى	
٢٢-	غوش ايمونيم - الوجه الحقيقي للصهيونية	داني روبنشتاين	غازي السعدي
٢٣-	عش العصفور - قصة للأطفال	منير الهور	
٢٤-	رؤى مستقبلية عربية في الثمانينات	د . احمد صدقي الدجاني	
٢٥-	أيام دامية في المسجد الأقصى المبارك	الدكتور احمد العلمي	
٢٦-	حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير	يوسف قراعين	
٢٧-	الأحد الأسود: تصور امريكي صهيوني للعمل الفدائي الفلسطيني	حسن اسماعيل مشعل	
٢٨-	خارطة فلسطين - وهي خارطة تمثل سهول وهضاب وجبال ووديان ومدن وقرى فلسطين (ملونة)		
٢٩-	بروتوكولات حكماء صهيون - المجلد الاول	عجاج نويهض	
٣٠-	بروتوكولات حكماء صهيون - المجلد الثاني	عجاج نويهض	
٣١-	الاردن وفلسطين - وجهة نظر عربية	د . سعيد التل	
٣٢-	الاقتصاد الاسرائيلي بين دوافع الحرب والسلام	د . فؤاد حمدي بسيسو	
٣٣-	الاستعمار وفلسطين	رفيق شاكر النتشة	
٣٤-	الحرب من اجل السلام	عيزر وايزمن	غازي السعدي
٣٥-	الموساد ، جهاز المخابرات الاسرائيلي السري	دنيس اينبرغ ، ايلي لانداو اوري دان	
٣٦-	التوازن العسكري في الشرق الاوسط	مركز الدراسات الاستراتيجية بجامعة تل ابيب	نبيه الجزائري
٣٧-	بطاقات فنية (لوحات فنية تعبر عن الانتماء الفلسطيني)	د . كامل قعبر	
٣٨-	بطاقات فنية (مجموعة) بطاقات على شكل دفتر الشيكات	د . كامل قعبر	
٣٩-	الكتاب الأسود عن يوم الأرض ٣٠ آذار ١٩٧٦		
٤٠-	في سربية الصحراء	سميح القاسم	

٤١-	الخيار النووي الاسرائيلي	شاي فيلدمان	غازي السعدي
٤٢-	انتهاك حقوق الانسان في الأراضي المحتلة شهادات مشفوعة بالقسم		سليم ابو غوش
٤٣-	نقاط فوق الحروف مناقشة لردود الفعل تجاه مبادرتي الأمير فهد خالد الحسن وبريجنيف		
٤٤-	قراءة سياسية في مبادرة ريغان	خالد الحسن	
٤٥-	فلسطينيات	خالد الحسن	
٤٦-	الاتفاق الأردني الفلسطيني للتحرك المشترك	خالد الحسن	
٤٧-	من ملفات الارهاب الصهيوني في فلسطين (١) جرائم الأرغون وليحي ١٩٣٧- ١٩٤٨	يعقوب الياب	غازي السعدي
٤٨-	من ملفات الارهاب الصهيوني في فلسطين (٢) مجازر وممارسات ١٩٣٦- ١٩٨٣		غازي السعدي
٤٩-	من ملفات الارهاب الصهيوني في فلسطين (٣) دور الهاغاناه في انشاء اسرائيل	د. حمدان بدر	
٥٠-	ملصق يوم الأرض	سليمان منصور	
٥١-	ملصق جمل المحامل	سليمان منصور	
٥٢-	ملصق قبة الصخرة - صورة تبرز معالمنا التاريخية والدينية في القدس		
٥٣-	فلسطين تاريخا ونضالا	نجيب الأحمد	
٥٤-	فلسطينيات في سجن النساء الاسرائيلي نفي ترتسا	طيور المحامي وليد الفاهوم	
٥٥-	المؤسسة العسكرية الصهيونية في دائرة الضوء اسرائيل عسكر وسلاح (١)	بشير البرغوثي	
٥٦-	اتفاقيات السلم المصرية - الاسرائيلية في نظر القانون الدولي	محمد الرفاعي	
٥٧-	الجذور - وثيقة الأوقاف الاسلامية	فتحي فوراني	
٥٨-	فلسطين .. الأرض والوطن (١) قرية الدوايمة	موسى عبدالسلام هديب	
٥٩-	خط الدفاع في الضفة الغربية وجهة نظر إسرائيلية	أريه شليف	غازي السعدي
٦٠-	تشريقة بني مازن	د. عبداللطيف عقل	
٦١-	القمع والتنكيل في سجن الفارعة	لجنة الحقوقيين الدوليين القانون من أجل الانسان	
٦٢-	صورة العربي في الأدب اليهودي (١)	الدكتورة ريزا دومب	عاطف عطاري
٦٣-	الشخصية العربية (٢) في الأدب العبري الحديث ١٩٤٨- ١٩٨٥	غانم مزعل	

٦٤-	فلسطين أرض وتاريخ	د . محمد النحال	
٦٥-	القدس ماضيها ، حاضرها ، مستقبلها	فايز فهد جابر	
٦٦-	القضية الفلسطينية في القانون الدولي .. والوضع الراهن	د . جابر الراوي	
٦٧-	شوكة في عيونكم	مئير كهانا	غازي السعدي
٦٨-	حرب الاستنزاف	د . محمد حمزة	
٦٩-	القرار ـ ألفان وإثنا عشر يوما في سجون الاحتلال	رشاد أحمد الصغير	
٧٠-	المطامع الاسرائيلية في مياه فلسطين والدول العربية المجاورة	بشير شريف البرغوثي	
٧١-	أزمة الاستخبارات الاسرائيلية	تسفي لنير	قسم الدراسات
٧٢-	اسرائيل عام ٢٠٠٠ (تصورات اسرائيلية)		
٧٣-	دعوى نزع الملكية الاستيطان اليهودي . والعرب في الفترة ١٨٧٨- ١٩٤٨	أريه . ل . افنيري	بشير البرغوثي
٧٤-	ندوة مشاكل التعليم الجامعي في الوطن المحتل والروح الجماعية		
٧٥-	سميح القاسم ـ قصائد ـ شخص غير مرغوب فيه		
٧٦-	القضية الفلسطينية	الأكرم زعيتر	
٧٧-	فلسطين الأم وابنها البار ـ عبدالقادر الحسيني	عيسى خليل محسن	
٧٨-	عرب التركمان ـ أبناء مرج ابن عامر	علياء الخطيب	
٧٩-	المرأة الفلسطينية والاحتلال الاسرائيلي	ميسون العطاونة الوحيدي	
٨٠-	نادية برادلي ـ الفدائية المغربية الشقراء		غسان كمال
٨١-	الاعلام الاسرائيلي	غازي السعدي ومنير الهور	
٨٢-	تقرير الأرض المحتلة المقدم الى الدورة (١٨) للمجلس الوطني الفلسطيني	قسم الدراسات والأبحاث	
٨٣-	الوجه الحقيقي للموساد	د . وجيه الحاج سالم وانور خلف	
٨٤-	العمق الاستراتيجي في الحروب الحديثة		بدر عقيلي
٨٥-	شخصيات صهيونية (١)	مذكرات الجنرال رفائيل ايتان	غازي السعدي
٨٦-	شخصيات صهيونية (٢) وتهجير يهود العراق	شلومو هيلل	غازي السعدي
٨٧-	شخصيات صهيونية (٣) ثيودور هيرتسل عراب الحركة الصهيونية	قسم الدراسات	
٨٨-	شخصيات صهيونية (٤) شـارون بلدوزر الارهاب الصهيوني		غازي السعدي
٨٩-	شخصيات صهيونية (٥) آباء الحركة الصهيونية		عبدالكريم النقيب
٩٠-	شخصيات صهيونية (٦) موشيه ديان .. أنا وكامب ديفيد		غازي السعدي

الرقم	العنوان	المؤلف	
٩١-	شخصيات صهيونية (٧) بن غوريون والعرب		غازي السعدي
٩٢-	شخصيات صهيونية (٨) رسائل بن غوريون		الأميرة دينا عبدالحميد
٩٣-	شخصيات صهيونية (٩) حياتي .. غولدا مائير		دار الجليل
٩٤-	شخصيات صهيونية (١٠) حركة التصحيح الصهيونية من عهد جابوتنسكي الى عهد شامير	ليني برينر	دارِ الجليل
٩٥-	شخصيات صهيونية ١١/١ مذكرات اسحق رابين - القسم الأول		دار الجليل
٩٦-	شخصيات صهيونية ١١/٢ مذكرات اسحق رابين - القسم الثاني		دار الجليل
٩٧-	شخصيات صهيونية ١٢ مذكرات ناحوم غولدمان		دار الجليل
٩٨-	ششخصيات صهيونية ١٣ مذكرات اسحق شامير		دار الجليل
٩٩-	من رواد النضال الفلسطيني ١٩٢٩- ١٩٤٨ الكتاب الأول	زياد عودة	
١٠٠-	من رواد النضال الفلسطيني ١٩٢٩- ١٩٤٨ الكتاب الثاني	زياد عودة	
١٠١-	الحركة العمالية العربية في فلسطين	سليم الجنيدي	
١٠٢-	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (١) سلاح الجو الاسرائيلي	زئيف شيف	دار الجليل
١٠٣-	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٢) سلاح الاستخبارات الاسرائيلي	عوديد غرانوت	دار الجليل
١٠٤-	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٣) سلاح الهندسة	عمي شامير	دار الجليل
١٠٥-	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٤) سلاح المشاة	نتان روعي	دار الجليل
١٠٦-	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٥) سلاح المظليين	ايلان كفير	دار الجليل
١٠٧-	دراسات في تعليم الكبار	د . عدنان أبو عمشة	
١٠٨-	وجه قبيح في المرآة	بروفيسور ادير كوهن	غازي السعدي
١٠٩-	تاريخ ما أهمله التاريخ	عبدالهادي جرار	
١١٠-	الاعلام الفلسطيني	د . حسين أبو شنب	

١١١- النزاع العربي - الاسرائيلي بين فكي كماشة الدول العظمى	موشه زاك	دار الجليل
١١٢- تحت السياط	فاضل يونس	
١١٣- الغضب	اكرم النجار	
١١٤- جلسات في رغدان	د . يوسف هيكل	
١١٥- متجل في النجمة السداسية (التجسس السوفياتي في اسرائيل)	ايسر هرئيل	بدر عقيلي
١١٦- اشكالية الديمقراطية والبديل الاسلامي في الوطن العربي	خالد الحسن	
١١٧- تعليم الفلسطينيين ماضيا وحاضرا ومستقبلا	د . عبدالقادر يوسف	
١١٨- صرخة في وجه العالم (البوم الانتفاضة)	دار الجليل	
١١٩- الاستخبارات والأمن القومي	المقدم احتياط تسفي عوفر والرائد آفي كوبر	دار الجليل
١٢٠- الاحزاب والحكم في اسرائيل	غازي السعدي	
١٢١- ربيع الحياة	د . يوسف هيكل	
١٢٢- قبس من تراث المدينة والقرية الفلسطينية	صباح السيد عزازي	
١٢٣- اشتعالات حمدان - مجموعة قصصية	اكرم النجار	
١٢٤- الحافلة رقم ٣٠٠ و(فضيحة الشين بيت)		احمد بركات
١٢٥- آه يابلدي - رواية	اكرم النجار	
١٢٦- معجم المصطلحات الصهيونية	افرايم ومناحم تلمي	احمد بركات العجرمي
١٢٧- من القمع الى السلطة الثورية	قدري أبو بكر	
١٢٨- أيام الصبا صورة من الحياة وصفحات من التاريخ	د . يوسف هيكل	
١٢٩- معجم الأمثال الشعبية الفلسطينية	فؤاد ابراهيم عباس وعمر شاهين	
١٣٠- صناعة قرارات الأمن الوطني في اسرائيل		بدر عقيلي
١٣١- قمع شعب شهادات ميدانية مشفوعة بالقسم		بشير شريف البرغوثي
١٣٢- جليلة .. وهج في جذور الانتفاضة - رواية	اكرم النجار	
١٣٣- اسلحة وإرهاب وجهات نظر اسرائيلية في ثلاثة ابحاث		دار الجليل
١٣٤- حدود (أرض اسرائيل)	موشيه رافر	بدر عقيلي
١٣٥- هذه قضيتك ياولدي	سليم عبدالعال القزق	
١٣٦- حرب سيناء ١٩٥٦ - تصورات اسرائيلية		بدر عقيلي
١٣٧- المثلث الايراني - الكتاب الثاني - دراما العلاقات الايرانية - الاسرائيلية - الامريكية	شموئيل سيجف	دار الجليل
١٣٨- الفاشية الاسرائيلية	المحامي درويش ناصر	

١٣٩- النظرية العسكرية الاسرائيلية - دفاع وهجوم	اريئيل لفيتا	دار الجليل
١٤٠- الأمن القومي العربي ونظرية تطبيقه في مواجهة الامن الاسرائيلي	العميد محمد يوسف العملة	
١٤١- سياسة اسرائيل الأمنية	المحرر زئيف كلاين	بدر عقيلي
١٤٢- دقيقتان فوق تل ابيب	محمد أزوقة	
١٤٣- الهجرة اليهودية حقائق وارقام	د . عمران ابو صبيح	
١٤٤- انتفاضة	زئيف شيف وايهود يعاري	دار الجليل
١٤٥- جواسيس المخابرات الاسرائيلية تاريخ .. وجغرافيا	يوسي ميلمان ودان رافيف	دار الجليل
١٤٦- ' دولة ' اسرائيل - زائلة	يعقوب شريت	دار الجليل
١٤٧- الجماعة الأوروبية والقضية الفلسطينية	محمد خالد الأزعر	
١٤٨- بقايا من خبز وكتاب	اكرم النجار	
١٤٩- اسرائيل في حرب الخليج	غازي السعدي	
١٥٠- المثلث المحتوم الولايات المتحدة - اسرائيل والفلسطينيون	احمد عزالدين بركات	
١٥١- الاستيطان الاسرائيلي جغرافيا وسياسيا	بروفيسور أليشع إيفرات	دار الجليل
١٥٢- حرب السكاكين في نظر الاسرائيليين	زياد ابو صالح ورشاد المدني	
١٥٣- انتفاضة العصافير	نجوى قعوار فرح	
١٥٤- موسوعة عشائر وعائلات فلسطين (١) القدس مدنها وقراها	فائز أبو فردة	
١٥٥- انهيار نظرية الأمن الاسرائيلية	عمنوئيل فالد	احمد بركات العجرمي
١٥٦- الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٦) سلاح الدروع	حشافيا أريبه	دار الجليل
١٥٧- بولارد قصة جاسوس	برنارد ر. هندرسون	دار الجليل
١٥٨- أبو عجاج العينبوسي الدكتور الثائر	عيسى خليل محسن	
١٥٩- قناع القناع	محمد نورالدين شحادة	
١٦٠- الأسلحة الكيماوية والبيولوجية - وتأثيراتها البيئية -	د . عادل احمد جرار	
١٦١- دولة مجدو	عبدالله عواد	
١٦٢- الشّبح	عبدالله عواد	
١٦٣- طرد الفلسطينيين وولادة مشكلة اللاجئين - وثيقة اسرائيلية -	بني موريس	دار الجليل
١٦٤- الاستشراق وابحاث الصراع لدى اسرائيل	ابراهيم عبدالكريم	
١٦٥- دليل المستوطنات الاسرائيلية في الاراضي العربية المحتلة (١٩٦٧- ١٩٩١)	د . عمران ابو صبيح	

١٦٦- حرب في الخليج (ابعاد على اسرائيل)	تقرير طاقم مركز الأبحاث الاستراتيجية الاسرائيلي : يافه	بدر عقيلي
١٦٧- فلسطين في سيرة البطل عبدالحليم الجيلاني	د. حسن صالح عثمان	
١٦٨- ثلاثون قضية استخبارية وأمنية في اسرائيل	يوسف أرجمان	دار الجليل
١٦٩- الادب العربي في جزر البليار	د . عبدالرزاق حسين	
١٧٠- الشرق الاوسط الجديد	شمعون بيرس	دار الجليل
١٧١- الاعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود	غازي السعدي	
١٧٢- اسلحة الدمار الشامل	وليام بوروس وروبرت ويندرم	دار الجليل
١٧٣- المفصل في تعلم اللغة العبرية بمعلم وبدون معلم	بدر عقيلي	
١٧٤- القاموس العلمي / عبري - عربي	امين ابو عيسى	دار الجليل
١٧٥- مكان تحت الشمس	بنيامين نتنياهو	محمد عودة الدويري
١٧٦ـ احاديث في العلم والقيم	يشعياهو ليفوفيتش	سلمان الناطور
١٧٧ـ فلسطين بلا هوية	صلاح خلف	دار الجليل
١٧٨ـ الحوار الفلسطيني ـ الامريكي	د. محمد ربيع	دار الجليل
١٧٩ـ دوائر القمر	عبد الرزاق حسين	دار الجليل
١٨٠ـ قرية جمزو	يوسف النجار	دار الجليل
١٨١ـ الانقلاب السياسي في اسرائيل الاسرار والخفايا	اورلي ازولاي	بدر عقيلي
١٨٢ ـ مشكلة الاراضي في النزاع القومي بين اليهود والعرب منذ وعد بلفور	جاك كنو	محمد عودة الدويري
١٨٣ ـ الموساد في العراق انهيار الامال الاسرائيلية والكردية	شلومو نكديمون	بدر عقيلي
١٨٤ ـ دولة فلسطين الوصع القانوني	سالم أحمد قواطين	
١٨٥ ـ اسحق رابين اغتيال سياسي	د. أمنون كابليون	بدر عقيلي
١٨٦ ـ نايف حواتمة يتحدث	عماد نداف	
١٨٧ ـ سورية واسرائيل من الحرب الى صناعة السلام	البروفيسور موشيه ماعوز	لينا وهيب

١٨٨ ـ اتفاقيات أوسلو الاتفاقيات الاسرائيلية الفلسطينية حول الضفة الغربية وقطاع غزة		دار الجليل
١٨٩ — الحرب الاقتصادية **(١٠٠) سنة من المواجهة الاقتصادية** **بين اليهود والعرب**	**يوفال اليتسور**	**محمد الدويري** **بدر عقيلي**
١٩٠ ـ انثولوجيا الوجه الآخر قصص عبرية مختارة		دار الجليل

طبع في شركة الشرق الأوسط للطباعة ـ هاتف ٨٩٤٩٤١ ـ ص.ب ١٥٢٨٦

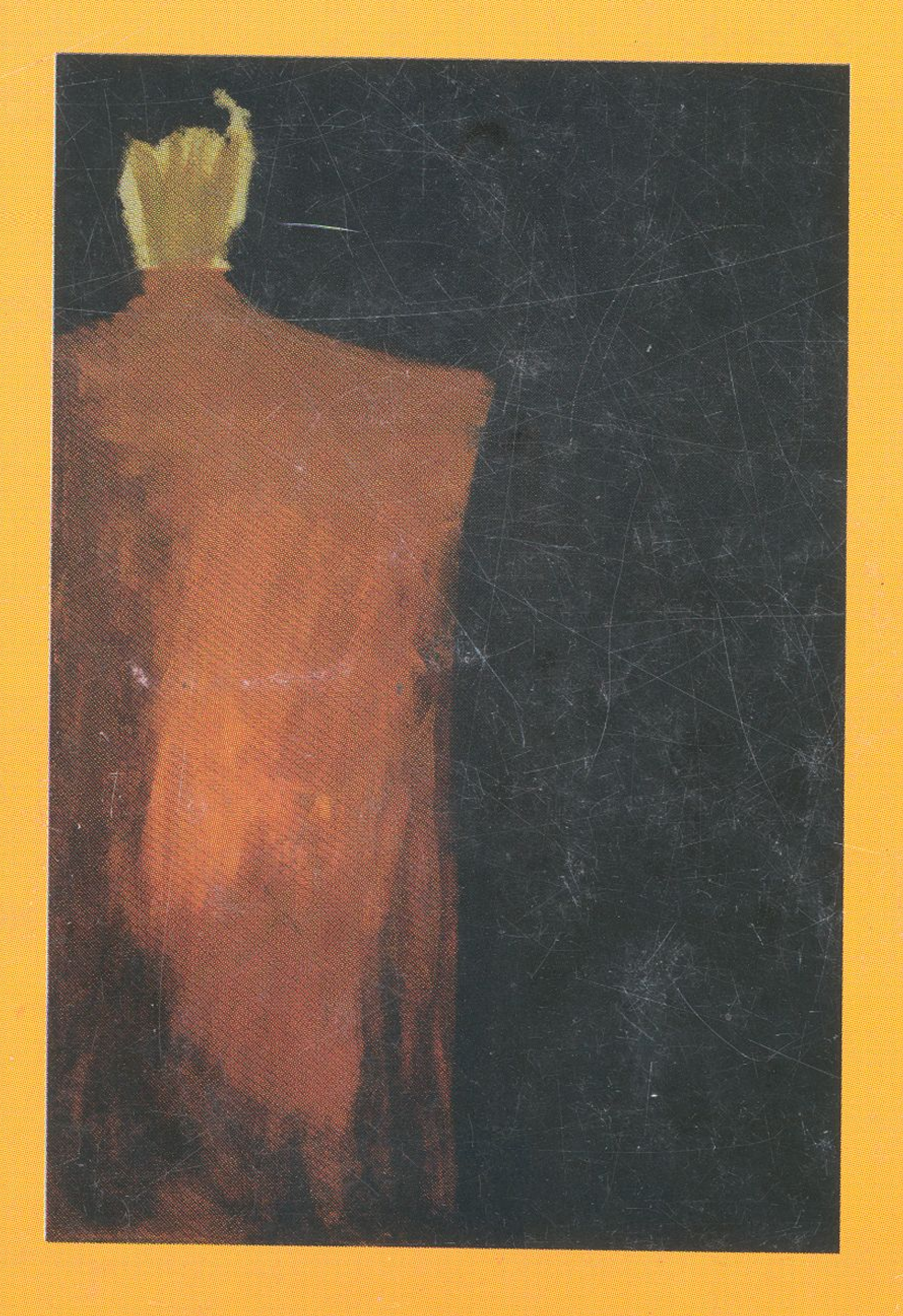


هذه المجموعة

على مدى الخمسين عاما الأخيرة تعاقبت ثلاثة أجيال من كتاب القصة العبرية، فأبناء الجيل الاول، الذين بدأوا ينشرون أعمالهم في الأربعينات وبداية الخمسينات، وكانوا ينتمون الى التيار الواقعي، اخذوا يتأثرون بالتيارات الحديثة منذ الستينات، أما أبناء الجيل الثاني، الذين ظهروا في نهاية الخمسينات وفي الستينات والسبعينات، فقد أحدثوا تغييراً جذرياً في الأدب القصصي الإسرائيلي من خلال ابتعادهم عن الأسلوب الواقعي، واستخدامهم الأنماط الكتابية السريالية والانطباعية والتعبيرية، إضافة الى الكتابة على نهج " تيار الوعي "، كذلك من خلال انشغالهم في الجوانب الخفية للمجتمع الإسرائيلي ومصير الفرد في هذا المجتمع، أبناء الجيل الثالث، الذين ظهروا منذ أواسط الثمانينات، وبضمنهم العديد من الأديبات، يميلون الى الكتابة بأساليب ما بعد الحداثة، وينهلون من منابع ثقافية متنوعة، بعضها رفيع المستوى وبعضها شعبي.

إن الأجواء الثقافية الإسرائيلية التي تبدلت وتغيرت على مدى خمسين عاما، انعكست هي الأخرى في الأدب الإسرائيلي : ففي البداية كان هذا الأدب موحدا ومتناسقا من حيث الأسلوب والموضوع، لكنه فيما بعد أخذ في التنوع والتجدد بحيث تداخلت فيه تيارات فكرية وأسلوبية مختلفة، وأصبحت التعددية الثقافية العلامة المميزة لهذا الأدب.

أخيرا، فان القصص الواردة في هذه المجموعة هي لخيرة الأدباء الاسرائيليين المعاصرين، وبوسع القارئ العربي الاطلاع من خلالها على مميزات واتجاهات الأدب القصصي الإسرائيلي.



لوحة الغلاف الامامي : والد الفنان، ١٩٦٠، ميخائيل غروس، من مجموعة متحف الفن، حيفا ؛
لوحة الغلاف الخلفي : شخصية (والد الفنان)، ١٩٦٣، ميخائيل غروس، من مجموعة متحف اسرائيل، القدس؛
تصميم الغلاف روزماري ريفلين



اصدار
دار الجليل للنشر
والدراسات والأبحاث الفلسطينية

عمان . ص.ب . ٨٩٧٢
تلفون ٥١٥٧٦٢٧_٥١٥٥٦٢٧
فاكسيميلي ٥١٥٣٦٦٨